معالم التكامل
في التربيـة

(مـجموعة كـتب)

(الـجزء الأول)

معالم التكامل

في التربيــة

.....(مـجموعة كـتب).....

(الـجزء الأول)

تأليف

الشيخ حيدر اليعقوبي

مقدمة الـمـجموعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد المصطفى وعلى آله الطيبين الأطهار ..

هذه بعض الكتب التي صنفتها بفضل الله تعالى في فترات مـختلفة من أيام حياتي ، وقد أحببت أن أجمعها في هذه الـمجموعة للحفظ وزيادة الفائدة بإذنه عزوجل ..

وقد أسميتها (معالم التكامل في التربية) ، لأن جملة منها كان في الأصل أفكاراً وخطوطاً عامة كتبتها بهذا العنوان ضمن (موسوعة معالم التكامل) التي صدر منها قبل سنوات عدة (معالم التكامل في المعرفة) و (معالم التكامل في العقيدة) ، وهي موسوعة علمية ، فلسفية ، تاريخية ، تحليلية ، تستعرض ببساطة مراحل التكامل والنضج الإنساني في جوانب الإدراك والعقيدة والتربية ، فهي ترتقي بالفرد شيئاً فشيئاً وبإسلوب متسلسل ، وكما يقول الإمام الصادق(ع): (وهل عُرف الآخر إلا بالأول؟).

ومـحل الشاهد أن تلك الأفكار والـمبادئ العامة تطورت فيما بعد وتشعبت فصارت كتباً أو بـحوثاً مستقلة ، وهاهي الآن تعود لأصلها ..

(كشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء) إبراهيم- ٢٤

نسأل الله القبول والرضا ، والحمد لله أولاً وآخراً

النجف الأشرف - حيدر اليعقوبي

الكتاب الأول

نصائح عامة للداعي والمدعو

حقيقة الداعي والـمدعو

إن نجاح الداعي في دعوته يتوقف على جملة من المواصفات والخصائص التي ينبغي أن تكون متوفرة لديه، وهذا طبعاً بالإضافة إلى التسديد الإلهي فإنه العنصر الأساسي لنجاح جميع الأفعال والتحركات الخاصة والعامة.

ولا يخفى أن نجاح الدعوة يعني ازدياد عدد المهتدين، وهو ما يعبر عنه بالجهة الكمية ، وكذلك يعني ازدياد الآثار الايجابية لدى الفرد أو المجتمع وهو ما يعبر عنه بالجهة الكيفية.

وفي هذا المقام ينبغي الحديث عن معنى الداعي والمدعو، فإن الداعي يمكن أن يكون فرداً واحداً ، ويكون المدعو أمة أو عدة أمم ، وهذا هو شأن الأنبياء والرسل في أوائل دعوتهم .

وقد يكون المدعو شخصاً واحداً ،أو عدة أشخاص، ويكون الداعي أيضاً شخصاً واحداً.

وأحياناً يكون الداعي أمة كاملة أو فئة أو جماعة من تلك الأمة، تأخذ على عاتقها مسؤولية الدعوة للأفراد أو الجماعات أو الأمم الأخرى، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وهذا الخطاب الإلهي شامل لجميع الأجيال على حد سواء، والواجب علينا جميعاً أن نلتزم به ونطبقه، كما طبقه سلمان وأبو ذر وعمار ونحوهم من أجلاء الصحابة في عهد الرسول (ص)، وهذا بالتأكيد من حسن توفيقهم لأنهم

سجلوا مواقفهم كدعاة مخلصين، وثبتوا على هذا الطريق المقدس حتى ذاقوا ثمار تعبهم وعنائهم ، حينما انتصر الإسلام، وتحققت لهم درجات العلى في مقعد صدق عند رب العالمين.

وهؤلاء هم الذين مدحهم الله تعالى بقوله:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

هكذا يجب أن نكون، لكي نحظى بهذا الشرف العظيم، فإن القرآن يجري في الآخرين كما يجري في الأولين، والمدح الإلهي إنما ينال العناوين العامة التي يمكن أن تنطبق على مصاديقها في كل زمان ومكان.

ثم إن الداعي قد يكون قضية معينة، أو حادثة معينة، أو حدث كوني كعاصفة أو زلزال أو نحو ذلك، مما قد يكون له تأثير هداية وصلاح للنفس الإنسانية، وهو أحد معاني قوله تعالى.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣)

وقد ورد في الحكمة:

ولله في كل تحريكة   وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

وهكذا فنحن سنتعرض في هذا الكتاب الى الصفات العامة التي يتوجب تحققها في الداعي والمدعو، وسنتطرق بالمناسبة الى بعض الأمور التي قد تفشل الدعوة بوجودها، إما بسبب نقص المقتضي أو فقدان الشرط أو وجود المانع.

وسنجعل الكلام هنا عن محورين أساسيين، أحدهما عن صفات الداعي،

والآخر عن صفات المدعو.

المحور الأول: خصائص الداعي

وهي الخصائص التي ينبغي أن تتحقق في الداعي بنحو المقتضي لنجاح الدعوة ، وتأثر المدعو بها، سواء كانت هذه الخصائص من باب المواصفات أو الشروط أو الأساليب.

وأهم هذه الخصائص ما يلي:

١- الإخلاص في الدعوة لله تعالى: بمعنى أن يكون عمله وجهده بقصد التقرب إلى الله تعالى وبدون أي هدف دنيوي آخر، سواء كان مادياً أو معنوياً.

﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر : ١٤)

وفي الحديث عن المعصومين: (اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فإن ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله).

إن نظرة تحليلية للدعاة الذين نشاهدهم تجعلنا نقسمهم إجمالاً إلى طائفتين أساسيّتين اعتماداً على نوع الهدف أو النية من وراء أعمالهم.

الأولى: وهي الطائفة التي تدعو إلى الصلاح والإصلاح لغايات دنيوية، قد تكون ذاتية أو شخصية، وقد تكون عامة أو اجتماعية، وقد تكون مشتركة.

ومن مصاديق هؤلاء من ينصح الناس رياء أو سمعة أو ينصحهم لأجل الحصول على مناصب مادية أو معنوية أو نحو ذلك من المصالح الذاتية.

وهناك من ينصح الآخرين لأجل حماية المجتمع والأفراد من المشاكل والأمراض الاجتماعية والفردية، وهذا عمل جليل بطبيعة الحال، ولكنه ناقص إذا لم يلاحظ فيه رب العالمين، وقد ورد في بعض الأخبار ما مضمونه إن بعض الناس

تعمل الخيرات، فتأتي يوم القيامة لتطالب الله تعالى بأجرها، فيقال لها إن تلك الأعمال لم تكن لله عز وجل، وإنما عملت لغيره فليطالبوهم بأجرها.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن الداعي إذا كان من هذه الطائفة فإن كلامه قد لا يكون مؤثراً، أو لعله يؤثر بمقدار يسير، كما أن الوارد في الأخبار أن من أشد الناس حسرة يوم القيامة من دعى الناس إلى صلاح، فعلموا بقوله فنجوا، ولم يعمل هو فخسر وحبط عمله.

الثانية: وهي الطائفة التي تدعو إلى الصلاح والإصلاح لغايات أخروية، ونريد بها ما يتعلق بتحصيل رضا الله تعالى وقربه وجنته. ومن مصاديق هذه الطائفة كل فرد أو جماعة يدعون في سبيل الله تعالى، ومن أجل نصرة دينه، وإعلاء كلمته، ونشر شريعته وتعاليمه، ومن أجل تحصيل رضاه وقربه في الدنيا والآخرة وما بينهما. فهذا هو المطلوب وهؤلاء هم الدعاة الحقيقيون الذين يحبهم الله تعالى ويفاخر بهم الملائكة، ويغيظ بهم الشياطين والأعداء.

وهذا هو معنى الإخلاص الحقيقي، حينما يكون دين الله تعالى هو المهم، وحينما تكون مصلحة المؤمنين بما هم مؤمنون هي الأهم، وحينما يكون العمل والتعب لله تعالى وحده:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف : ١١٠).

وهذا هو منهج الأنبياء (ع) والأوصياء (ع)، وهذا هو منهج الأحرار الواعين، الذين يفهمون الأمور على حقائقها، ويحرصون أن تكون أعمالهم وجهودهم محفوظة في أرفع السجلات، وأعظم الدرجات، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ولا يخفى أن هذا المنهج في الدعوة، يوفر للدعاة أنفسهم وللمدعوين قاعدة إيمانية سليمة، لأن الداعي إذا كان مخلصاً فإن أبواب الهداية ستنفتح أمامه، وستمطر عليه سحائب النور بأشعة العلوم والمعرفة، لتترشح من خلاله في قلوب مقبلة، وأفئدة مستعدة.

وأخيرا لنستمع إلى ما ورد عن الامام الصادق (ع): (من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب، ومن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خير الدنيا والآخرة.

بقي أن نشير إلى أن بعض الدعاة قد يخلطون بين الغايات الدنيوية والأخروية، ولا يخفى أن غلبة إحداها على الأخرى، تميزها بعنوانها الخاص، وأما إذا كان الفرد يلاحظ الغايات الدنيوية والأخروية معا وبمستوى واحد أو متقارب، فهو بالتأكيد مأجور، ولكن ذلك قد يضر بإخلاصه.

٢- الاخلاص في دعوة الداعي مع نفسه: وذلك بأن يحاول الداعي أن يعلّم المدعو ما يعمله هو ويطبقه، ما دام يعلم أنه هو الشيء الصحيح. وقد ورد في الحكمة إن ما خرج من القلب يدخل إلى القلوب، وما خرج من اللسان لا يتعدى الآذان. ولهذا فإن من أسرار نجاح واستمرار أي دعوة، هو أن يكون الداعي مقتنعاً بما يقوله ويفعله، لأن دعوته بما فيها من أساليب وأمثلة وأدلة، إنما تعتمد على مدى تصديقه هو واقتناعه هو بدعوته وبنفسه ،وقد قالوا أن فاقد الشيء لايعطيه.

وقد ورد عن النبي (ص): (إن أشد أهل النار ندامة وحسرة، رجل دعى عبداً إلى الله فاستجاب له، وقبل منه، فأطاع الله فأدخله الجنة، وأدخل الداعي النار بترك عمله واتباعه الهوى وطول الأمل).

وورد عن الإمام علي (ع): (أيها الناس إني (والله) ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها).

هكذا يكون الإخلاص مع النفس، وهكذا يكون الصدق، وبدون ذلك فإن الداعي سيواجه الحسرة والندامة، وسيعاني من داء النفاق الذي يمقته الله تعالى ولا يرضى به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف :٢-٣).

ولقد عاتب الله تعالى قوماً من هذا القبيل فقال عز وجل:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤).

وهنا توجد ملاحظة ينبغي الإشارة إليها، وهي أن بعض الناس يحبون الخير ويحاولون أن يفعلوه، ولكن همتهم قد تخونهم أحياناً، وقد يمنعهم الشيطان أو النفس الأمارة من الالتزام ببعض الأعمال الخيرة كصلاة الليل أو مساعدة الآخرين ونحو ذلك، وقد يكون لهؤلاء تأثير على بعض المدعوين، فالمفروض بهم أن يدعوهم إلى هذه الخيرات والأفعال الحسنة، حتى وإن لم يكونوا يفعلونها هم، فإن تحصيل أجر الهداية والدعوة ، هو أمر مهم وضروري، وأما التطبيق والعمل فهو وإن كان جديراً باهتمام الداعي، إلا أن عدم تطبيقه لا يعني تركه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لكل خطوة ثوابها، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

نعم، يجب على مثل هؤلاء الأفراد أن لا يوهموا الناس بأنهم يطبقون إذا لم يكونوا يطبقون فعلاً، وهذا المقدار كافٍ على أية حال، وان كان المطلوب أكثر من ذلك.

هذا بالنسبة للداعي نفسه، وأما المدعو فالمفروض به إذا كان حكيماً وطالباً لصلاح نفسه، أن يأخذ القول الحسن والموعظة الجميلة ويطبقها ويلتزم بها، سواء كان الداعي يطبق ما يقول أو لا يطبقه، فإن الهداية قد تحصل من أسباب غير مستحقة، حيث ورد أن الله تعالى ينصر هذا الدين برجال لا خلاق لهم، والهداية على أية حال نور إلهي ينبغي على العاقل أن يتلقاه من أي طريق كان.. وقد ورد أنه (لا تنظر إلى من قال ، ولكن انظر إلى ما قال).

وإذا كان المتكلم لا يطبق لسوء توفيقه ولكونه مقصراً، فلماذا يقتدي به المستمع ولا يتقبل نصيحته، التي هي هدية من الله تعالى قبل أن تكون من أي شخص آخر، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥).

٣- ربط موضوع الدعوة بالإيمان بالله تعالى: فإنه شرط أساسي ومهم ينبغي مراعاته في جميع أو أغلب تفاصيل الدعوة.

وقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع): (مِن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله).

فالإيمان بالله تعالى وبحقائق الإسلام هو أساس كل خير، وإن الدعوة إلى ذلك يجب أن تكون قبل كل شيء، لأنه يمثل الدافع الحقيقي لإصلاح النفس ومحيطها، وهو الموجّه الصحيح إلى الله رب العالمين.

وقد اتخذ القرآن الكريم هذا المنهج في جميع آياته، مهما كان موضوعها،حيث ربط كل شيء وكل دعوة بالله الخالق تعالى.

ولا يخفى أن العقيدة الثابتة هي أعظم قوة يتحصّن بها الإنسان أمام

تحديات الحياة ومصاعبها مهما كانت، وإنما انتصر المسلمون في تلك الأيام لأجل عقيدتهم الراسخة، وإيمانهم العميق بالله تعالى، فمتى ما حصل ذلك من جديد حصل النصر والكرامة بالتأكيد، حيث يقول الله تعالى:

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (إبراهيم: ٢٧).

ثم إنه ينبغي الالتفات هنا إلى أن الداعي الناجح يحاول دائماً ربط دعوته بالله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة، فإذا أراد هداية شخص معين فإنه يذكره بأن الله تعالى الذي خلقه وأنعم عليه بالبصر والسمع، وتفضل عليه بحركة يديه ورجليه، وألبسه العافية من عدة أمراض أومشاكل يمر بها غيره، فهو جدير بالطاعة وعرفان الجميل، خصوصاً وأن الطاعات تصب في مصلحة الفرد والإنسانية، كما أن المعاصي تفسد الفرد والإنسانية.

يقول له مثلاً إن الله تعالى هو الذي رزقه القوة على طلب الرزق، وأعطاه العقل ليفكر في كيفية الكسب والعمل، ولو شاء لمنع عنه ذلك، أو سلط عليه من يفسد عليه عمله ويسلبه رزقه.

وهكذا ينتقل الداعي في هذه الميادين وهي واسعة ولا حصر لها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤)

كما أن المدعو سيلتفت شيئا فشيئاً، وسيتأثر في إحدى المرات فينجو بنفسه ويكون للداعي ثواب حياته ونجاته، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢).

٤- الالتزام بالآداب والأخلاق: فإن الداعي إذا كان صاحب أخلاق وأدب فسيكون تأثيره أعظم وأوسع، وهذه ميزة الأنبياء، حيث كانوا مشهورين بحسن أخلاقهم، حتى أن أهل مكة كانوا يلقبون النبي محمد (ص) بالصادق الأمين، وان سمو أخلاقه صلى الله عليه وآله كان سبباً لهداية الكثير من الناس، لأن الفطرة السليمة تنجذب نحو الفضيلة وتميل إلى صاحب الأخلاق النبيلة.

٥- الفراسة والفطنة: فإن الداعي إذا كان يتمتع بالفطنة الكافية، والذكاء اللازم، فسوف يلاحظ حالة المدعو، ليجعل كلامه مناسباً لحال المستمع، ليكون التأثير أسرع وأفضل، وقد ورد عن النبي (ص): (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)، وهذا له عدة مصاديق أهمها:

أ – ملاحظة مستوى المدعو، ومدى تقبله لموضوع الدعوة، لأنه قد ورد في الحديث عن المعصومين (ع) إن لكلٍ مخلوق حدٌ معين، لا يقوى على تحمل ما هو أكثر منه وأعظم، وورد أيضاً أن من كسر مؤمناً فعليه جبره، وكذلك ما مضمونه أن من التقية (التي هي تسع أعشار الدين)، عدم تحميل الناس فوق ما يقدرون عليه.(انظر عدة احاديث في الشافي، ج٥/ ص ٦٠ – ٦٣ – ١١٥ – ١٦٤).

وإنما تتم ملاحظة مستوى المدعو من خلال ملاحظة عمره أولاً، وقابلياته الذهنية (أي مدى استيعابه) ثانياً. وكذلك قابلياته العملية أو التطبيقية من خلال إمكانياته الصحية والنفسية والاجتماعية ونحو ذلك ثالثاً.

وهاهنا قصة مشهورة وطريفة عن رجل أراد أن يعلّم جاره الصلاة ، فكان يمرّ عليه في صلاة الظهر ليأخذه إلى الجامع، وعندما تنتهي الصلاة، يريد الجار أن يرجع إلى بيته فيمسكه صاحبه ويلح عليه بأن يبقى في الجامع لأداء التعقيبات والمستحبات حتى صلاة العصر، ثم يلح عليه أن يبقى حتى صلاة المغرب،

وهكذا، حتى ملّ الجار وضجر، وترك مصاحبة ذلك الداعي. فنلاحظ هنا أن هذا الداعي إستعجل كثيراً، ولم يلاحظ حالة المدعو ومقدار تحمله، فكانت النتيجة عكسية.

إن ملاحظة حالة المدعو تنفع كثيراً في تحصيل النتيجة المطلوبة ، لأن الداعي سيستخدم العلاج المناسب والطريقة المناسبة من حيث الاستدلال والشرح والتوجيه، وبذلك لا يكون هناك كلام زائد عن الحاجة، وسيصبح الحديث معه منهجياً ومرتباً.

ب- اختيار الوقت المناسب، والظرف المناسب، والأسلوب المناسب، للنصيحة والإرشاد. فإن القلوب أوعية، إذا انفتحت دخل إليها النور والضياء ، وإذا لم تنفتح لم يدخلها النور وإن شعّ عليها.

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)

وهذا الاختيار متروك لتقدير الداعي وفراسته وفطنته. وكلما كان التقدير صحيحاً كانت النتيجة إيجابية.

وعلى العموم فإن حالات الانبساط الروحي، والاستقرار النفسي، وعدم كون الشخص في حالة هياج عصبي أو عاطفي، وكون الشخص في حالة من البساطة وصفاء القلب، ونحو ذلك، كلها أمور مشجّعة على الدخول معه في عملية الهداية والدعوة إلى الصلاح.

ولايخفى أن الفراسة تعتبر من الظواهر العقلية العالية، وهي ذات نتائج مفيدة جداً لصاحبها ولغيره، وقد ورد في الحديث أن (المؤمن كيّس فطن)، فإذا ارتفع الإيمان ارتفعت درجة الفراسة والفطنة بإذنه تعالى.

بقي أن نشير إلى ملاحظتين ينبغي أن يلتفت اليهما الداعي في المقام:

الأولى: وجوب الحذر من التأثيرات الظاهرية شكلاً أو حركة، وهي التي تظهر على المقابل، بحيث قد تؤثر سلباً في فراسة الداعي، فينخدع بها، تماماً كما يحصل مع بعض المرائين الذين يخدعون الناس.

الثانية: يجب أن تكون عملية الملاحظة هذه بلحاظ الواقع، أو المحيط العام، أي أنها تكون عملية موضوعية وشاملة لجميع المتعلقات، ولا يجوز حصرها فقط بين الداعي والمقابل. فالحكم على صديق مثلاً بمجرد تصرفاته معك، هو حكم غير دقيق إذا أُريد به تقييم هذا الشخص موضوعياً، بل ينبغي ملاحظة حاله مع الآخرين ولو باستقراء ناقص.

٦- استخدام الأمثلة المناسبة: وهذا أمر مهم جداً في عملية الدعوة، فإن النفوس تأنس بطبعها إلى الأمثلة القريبة منها، فاستخدام هذه الأمثلة خصوصاً الحياتية منها، يعتبر سبباً قوياً لجذب المدعو والتأثير عليه. وكلما كانت الأمثلة أوضح وأبسط وأكثر تشابهاً وانسجاماً مع موضوع الدعوة الأساسي، كلما كانت الاستجابة أقوى وأسرع.

والقرآن الكريم استخدم هذا الأسلوب كثيراً في مجادلاته مع الكفار والمشركين، كما في قوله تعالى في سورة الواقعة:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ﴾

٧- عدم الإلحاح على المدعو في وقت عناده: لأن المعاند غالباً ما يكون مسلوب الإرادة والوعي، إذ إنه واقع تحت تأثير المكابرة والعناد، ومثل هذا الشخص أقرب ما يكون إلى العمى، وأبعد ما يكون عن الضياء:

﴿قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت: ٥)

وهنا يقول الله تعالى للداعي:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ (الذاريات : ٥٤)

نعم هذا الإعراض يكون وقتياً لا دائمياً، بمعنى أن الداعي يرجع إليهم في وقت آخر ما دام يتوقع منهم التأثر

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (الصافات: ١٧٤).

ثم إن المعاند، وإن كان أصم وأعمى، إلا أن التجربة أثبتت أن كلمة سريعة لكنها مؤثرة أو قوية، قد تهزه وتوقظه من غفلته، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ، وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (النساء: ٦٣)

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا، فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ (الإسراء : ٢٨)

٨- التدرج مع المدعو في المحاججة، خصوصاً إذا كانت أفكارهما متباعدة أو متباينة، وهذا شرط منطقي وضروري ، وقد اتبعه القرآن الكريم في عدة موارد وأوضحها قضية تحريم الخمر، فذكر أولاً أن في الخمر إثم ومنافع تجارية للناس، ثم ذكر ثانياً أن شارب الخمر لا يجوز له أن يصلي وهو ثمل (سكران)، وأخيراً صرَّح بأن الخمر من عمل الشيطان وأن الاجتناب عنها واجب. وبذلك تهيّأت

الأذهان لقبول هذه الفكرة الجديدة، رغم أنهم كانوا يعشقون الخمر إلى حد كبير.

فالداعي إذا كان يريد أن يتكلم عن موضوع معين مع شخص يعتقد بنقيضه، فالمفروض به أولاً أن يحاول تقريبه إليه، بذكر العناصر المشتركة أو المتفق عليها بينهما، لينطلق بعد ذلك إلى تفنيد مايعتقده المدعو، وتأكيد ما يريد أن يدعوه إليه.

٩- تلقين المدعو على مهل وتأنٍ، وعدم إعطائه ما لا يتحمله أو لا يفهمه، وقد ذكرنا قبل قليل ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلّمهم على قدر عقولهم).

وفي الحديث عن الباقر (عليه السلام): (إذا أراد الله بقومٍ خيراً، أسمعهم. ولو أسمع من لم يسمع لولّى معرضاً كأن لم يسمع. (ثم أمسك هنيئة ثم قال:): ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا).

وفي حديث آخر عن المعصومين (عليهم السلام): (لا تحدثوا الجهّال بالحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم).

ومحل الشاهد من هذه الأحاديث أن في التأنّي السلامة، وفي العجلة الندامة، وأن أسلوب الدعوة منوط بحال المستمع وقابلياته.

١٠- الاستفادة من الجانب الروحي عند المدعو، فإن للروح كوامن وإحساسات لا يمكن تجاهلها، ولا تجاهل آثارها، فينبغي سلوك الجوانب الروحية عند الإنسان، بالإضافة إلى سلوك الجوانب العقلية.

ومن المفيد أحياناً الاهتمام بالجوانب النفسية أو العاطفية عند المدعو، وذلك تمهيداً لاستخدام الأساليب العقلية والروحية في عملية الدعوة والنصيحة.

فهناك الكثير من الناس ممن يهتدي أو يعود إلى الصلاح، بسبب مواقف

عاطفية أو نفسية تمر به، وهذه نعمة إلهية عظيمة، لأن أسباب الهداية لا حصر لها، والطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق.

١١- أن يكون الداعي بمستوى موضوع الدعوة، وما يتعلق به. وليحذر أن يكون من أصحاب الجهل المركب، لأنه قد يسيء إلى الدعوة نفسها، بالإضافة إلى إساءته في تلقين المدعو.

وعلى أية حال، فإن الفرد لا يعلم غالباً أن جهله مركب، وإنما يعلم ذلك غيره. فالمفروض بالداعي أن يلاحظ معلوماته هل أخذها من مصادر نقيّة ومخلصة؟ ، فإن كان الأمر كذلك فليتوكل على الله تعالى، بعد استشارة مَن يوثق به، فإن من شاور الناس ملك عقولهم، أو شاركهم في عقولهم.

١٢- الصدق، فلايجوز الاعتماد على الكذب أو المراوغة مع المدعو، لأن الحق لا يُعلّم بالباطل، ولا يطاع الله من حيث يعصى، وحبل الكذب قصير.

ثم إن منهج الإسلام وعقائده الإلهية أوضح وأسمى، وأشرف وأقوى من أن يحتاج الداعي فيها إلى دعاية كاذبة أو تبشير مخادع.

﴿بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات : ٣٧)

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾ (مريم : ٥٠)

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ (النساء : ٨٧)

١٣- الصبر وهدوء الأعصاب، فإنهما سلاح الداعي في هذا الطريق المقدس الذي سلكه الأنبياء والمرسلون، والأوصياء والأولياء.

ثم إن الداعي الذي يلتزم بالصبر والهدوء سيوفّر فرصة أكبر للمدعو حتى يُصلح نفسه ويعيد حساباته، وكذلك يوفّر فرصة أكبر لنفسه (أي الداعي) حتى ينال مزيداً من الأجر والكرامة عند الله تعالى.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) ﴿الكهف: ٢٨﴾

فالداعي إذا استجاب لاستفزازات المدعو، ولم يصبر، فكأنه خسر في مواجهة الشيطان، واستجاب لغوايته، وإذا تراخى عن المضي في طريق الدعوة والإصلاح، فكأنه ركن إلى زينة الحياة الدنيا وهي الراحة والخمول.

١٤- أن يكون الداعي موضوعياً، ومنطقياً، وواقعياً، وإنما يكون ذلك إذا اتبع ما ذكرناه في كتابنا الأول (معالم التكامل في المعرفة العامة)، خصوصاً مبحث (الطرق الكاشفة عن المعرفة)، ومبحث (جهاز المعرفة عند الإنسان)،فإن كلامه عندئذ سيكون نموذجياً ومرتباً، وإذا حصل هذا فإنه بالتأكيد سيكون مؤثراً وفعالاً..

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٧- ١٨)

١٥- الإحاطة والشمولية، بمعنى أن ينظر إلى الأمور بمنظار واسع وشامل، وهذا يتطلب منه أن يرتقي سلّم المعرفة، ويرتفع فوق سطح الوعي، لتكون نظرته محيطة بخلفيات الأمور فضلاً عن ظواهرها.

وهذه الخاصية تنفع الكتّاب والمؤلفين، فالكاتب الناجح والمؤثر هو الذي يراعي جميع أو أغلب مستويات القرّاء، وذلك بأن يأخذ المستويات الذهنية والعملية للقراء أو المدعوين، وعلى هذا الأساس يبدأ بكتابة أفكاره وملاحظاته. وهذه مسألة مهمة، وهي تخضع لمدى تقدير المؤلف وسعة خبرته.

وفي أثناء الكتابة يحاول أن يجمع (بنحو الجمع المجازي أو التصوري) جميع

تلك المستويات أمامه، ثم يكتب لها بتذوّق وجداني، وحساسية شاملة، وبلغة يتفاعل معها الجميع ويفهمونها جيداً، على أن يكون صادقاً واقعياً في كتابته وبيانه.

١٦- استعمال الرموز والمعاني المتضمنة أو الخفية، وهذا أمر ضروري أحياناً لأجل الحفاظ على كل من الداعي والمدعو والدعوة، وهو ما يعبّر عنه بالتقية بمفهومها العام.

ومن أمثلة ذلك: أن الداعي إذا أراد أن يدعو أحداً إلى إتباع سنة أهل البيت (عليهم السلام)، وكان ذلك المدعو مسيحياً مثلاً، فإن الداعي يتكلم بلغة تتضمن معانٍ ظاهرة، وهي التي تُفهم فوراً، وتتضمن أيضاً معانٍ خفية أو باطنة، وهي التي تُفهم عند التأمل والالتفات والانتباه.

وهذه المسالة نسبية بحسب المستويات والظروف. فقد يكون المدعو في الوقت الحالي بحاجة إلى إخفاء بعض القضايا عنه، لكنه بعد فترة من التعليم والتأهيل سوف يحتاج بالتأكيد إلى إظهار تلك القضايا أمامه، أو أنه سيفهمها لوحده عندما يتكامل ويتطور مستواه.

وأذكرُ هنا قصة حدثت لي مع بعض العلماء العارفين، حيث كنت أسأله عن أشياء كثيرة، وكان يقول لي دائماً: (انتظر ولا تستعجل)، ثم يستشهد بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم : ٢٤-٢٥).

ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى:

﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٦-١٨)

ثـم إن القـرآن الكـريم نمـوذج حيّ وعظـيم لقضـية الخطـاب المتضـمَّن، فـإن للقرآن ظاهر وباطن، وإن ألفاظ القرآن لها عدة مستويات مترتبة طولياً، بحيث أن كل مستوى من المستويات البشرية، يفهم فهماً معيّناً يتناسب مع منزلته ومؤهلاته. والمهم في الأمر أن جميع هذه المستويات المفهومة صحيحة وحقيقية.

فإذا نرجع الى قضية تحريم الخمر التي قالوا أن القرآن تـدرج فيهـا مراعـاة لمستوى عامة الناس آنذاك، فإنه في الواقع حرمها من أول الأمر، لأنـه وصـفها أولاً بأن فيها إثم، وهذا يعني أن الملتفت الفطن سيلاحظ أنه توجد آية مكيـة أسـبق مـن هذه الآية ورد فيها:

﴿قُـلْ إِنَّمَـا حَـرَّمَ رَبِّـيَ الْفَـوَاحِشَ مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَمَـا بَطَـنَ وَالإِثْـمَ﴾ (الأعراف:٣٣)

أي أن كل شيء فيه إثم هو حرام، وبما أن الخمر فيهـا إثـم، إذن هـي حـرام، وهذا قياس منطقي.

ومما يحسـن الإشـارة إليـه هنـا اسـتطراداً مـا ورد في بعـض الروايـات مـن أن السائل كان يطلب حاجة من الإمـام (عليه السلام) كالمال ونحوه، فيتمـتم الإمـام (عليـه السـلام) بكلمـات خاصـة لا يفهمهـا الـراوي أو السـائل، فتقضـى حاجـة السائل، فهذه التمتمـة مـا هـي إلا أسـرار وكلمـات مـؤثرة تكوينـاً، يصـوغها الإمـام (عليه السلام) بطريقة رمزية مبهمة، لكي لا تصـل إلى مـن لا يسـتحقها، أو مـن لا يعرف ضروريات استخدامها.

وكذلك ورد في بعض الأخبار أن بعض المعصومين (عليهم السلام) حينمـا كانوا يدخلون على حكام الجور، فإنهم يحركـون شـفاههم بأدعيـة خاصـة فينجيهم الله تعالى.

فمحل الشاهد من ذكر هذه الأمور هو التنبيه على أن السرية والكتمان مطلوبان أحياناً، وهذا هو المراد بقول المعصومين (عليهم السلام): (إنكم على دينٍ من كتمه أعزه الله، ومن أذاعه أذلّه الله)، فإن المراد هو كتمانه عن غير أهله، وعدم إذاعته أمام من لا يستحق أو لا يفهم)، وإلا فإن الدعوة إليه واجبة بطبيعة الحال، وهي مسؤوليتنا ومسؤولية كل إنسان ملتزم بعلاقته مع خالقه عز وجل.

أقول: هذه هي أهم الخصائص التي ينبغي تحققها من جهة الداعي، وبالتأكيد توجد خصائص أخرى غيرها، وقد تكون راجعة إليها أو مختلفة عنها، إلا أن ما ذكرناه يعتبر خطوة مهمة في طريق التكامل التربوي.

وهنا نقطة أخرى مهمة، وهي تتعلق بالداعي أيضاً، فإنه قد يحتاج إلى أعوان أو مؤيدين، إذا كانت دعوته عامة وواسعة، فإن المفروض به أن يهتم بطبقات المجتمع البسيطة المخلصة والواعية، من الذين لا يفكرون بمصالح شخصية، ولا ينتظرون فوائد مادية أو مناصب دنيوية، بل يعملون ويقدمون قربة إلى الله تعالى.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُوراً﴾ (الإنسان :٩)

وهذا هو الذي فعله النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وسائر المعصومين (عليهم السلام)، فإنهم اعتمدوا على هذه الطاقات الخالصة أمثال عمار والمقداد، ومالك الأشتر وميثم التمار وحبيب بن مظاهر الأسدي، ونحوهم من أهل الآخرة.

ويحضرني أنه ورد عن الإمام علي (عليه السلام) أنه كتب هذا المضمون إلى أحد ولاته.

كلام عن الهداية

لا يخفى أن تحقق الهداية هو أولاً وآخراً بيد الله تعالى، فإنه المالك لمفاتيح القلوب، وهو الهادي لأسباب انفتاحها، (راجع عدة أحاديث عن هذا المضمون في الشافي: ٥/ص ٢٨٣-٢٨٦)

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ (الأعراف: ٤٣)

وإنما نعمل نحن العباد بتكاليفنا ومسؤولياتنا التي أمرنا الله تعالى بها. فالداعي مأمور بدعوة الناس وهدايتهم، وسعيه في ذلك مأجور، وهو بعين الله تعالى، حيث يقول الإمام الحسين (عليه السلام): (هوَّن ما نزل بي أنه بعين الله).

وكذلك الحال من جهة المدعو فإنه مأمور بإزالة الحجب والموانع عن قلبه وعقله وسائر أحاسيسه، وهو مكلف بفتح وعيه وبصيرته أمام أنوار الهداية الربانية، فعليه النية والعزم والخطوة الأولى ، والباقي على الله تعالى.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

وقد روي أن النبي موسى (عليه السلام) خاطب الله تعالى: (يا ربّ أين أنت فأقصدك؟) فأجابه الخالق عز وجل: (أذا قصدتني فقد وصلتَ).

وعلى أية حال فنحن سنذكر بإذنه تعالى أهم خصائص المدعو التي ينبغي تحققها ،كمقدمة لتأثره وهدايته واستجابته للدعوة والنصيحة.

إلا أننا نريد الآن أن نقول للداعي بأن المفروض به أن لا يحزن إذا لم يستطع هداية من يحبه، وليتذكر خطاب الله تعالى لسيد الدعاة والمرسلين نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم):

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

فهذا الخطاب القرآني نستفيد منه مجموعة من المعاني والأفكار، أهمها ما يلي:

أ- إن الهداية كما قلنا منوطة بمشيئة الله تعالى، وأنه يعطيها للفرد بمقدار طلبه، واستعداده وظروفه، وذلك لما يترتب على الهداية من نتائج وآثار:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الحجرات: ١٧)

وفي الحقيقة فإن الهداية منة عظيمة، ونعمة كبيرة لا يعادلها شيء، وهذه الحقيقة لا يعرفها إلا من تذوق حلاوة الإيمان الصادق، وتفهم معانيه السامية، واستوعب روح الرسالة الإلهية فكراً وتطبيقاً.

والداعي كما قلنا ليس إلا واسطة تنبه المدعو وتوجهه إلى الفضيلة، وتحذره من الوقوع في الرذيلة، وللداعي على عمل هذا ما لا يخطر على البال من الأجر والآثار، سواء في الدنيا أو الآخرة. يكفيك قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لوصيه الإمام علي (عليه السلام): (لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت). وهذا الحديث الجليل يوضّح حقيقة الهداية الإلهية، ودور الداعي في ذلك.

وقد ورد في الحديث عن الباقر (عليه السلام) في قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾؟ قال (ع): من حرق أو غرق. فقيل له: فمن أخرجها من ضلال إلى هدى؟ قال (ع): ذاك تأويلها الأعظم.

ب- على الداعي أن يتوكل على الله تعالى، ويعتمد عليه، إذا أراد أن يبدأ بعملية الهداية، ويتحمل أعباء الإصلاح، ومسؤوليات الدعوة، لأن القوة الحقيقية

لا تأتي إلا من عند الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهو تعالى أعلم بما يناسب المصالح العامة والخاصة.

ولا يجوز لأي أحد مهما أوتي من قابليات أو إمكانات أن يعتمد على قوته الخاصة، ويعجب بنفسه، ويثق بقدراته ، حتى لا يكون ممن خاطبهم الله تعالى بقوله:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾ (التوبة: ٢٥)

فإن الإنسان مهما كانت إمكانياته، لا يقدر على شيء إلا بإذن الله تعالى وتسديده وعونه، فليطلب ذلك منه وليتوكل عليه دائماً.

جـ- على الداعي أن لا يحزن ولا يتألم حينما يفشل أحياناً في تحقيق أهدافه وغاياته من الدعوة، وهي الصلاح والإصلاح، فإن طريق الدعوة هو أشبه بطريق الجهاد، لا يخلو من إحدى الحسنيين، لأنه إما أن ينتصر في دعوته فتتحقق حسنى الهداية وثبوت الأجر، وإما أن يخفق في دعوته فتتحقق حسنى المحاولة و ثبوت الأجر.

على المرء أن يسعى بمقدار جهده   وليس عليه أن يكون موفقا

ولو تطلعنا القرآن لوجدنا فيه أن الله تعالى طالما يخاطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن لا يحزن ولا يكن في ضيق من هجر الكافرين وعنادهم وإصرارهم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر: ٨)

﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ (النحل: ١٢٧)

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ (الكهف:٦)

والمراد بالحزن المنهي عنه هو ما يؤدي إلى الفتور أو الإحساس بالتقصير أو الإلحاح على من لا يستحق، أو نحو ذلك، وإلا فكل مؤمن قد يشعر أحياناً بالأسى والحزن وهو يشاهد أحوال الضالين والمنحرفين.

د- إن الله تعالى يهدي من يشاء، بأن يوفّر له سبل الهداية، وهو بالتأكيد عادل وحكيم، فهو تعالى يهدي كل من يستحق الهداية ويريدها فعلاً ، ويسعى لها سعيها المناسب، وقد ورد في الحديث (إن الله عز وجل إذا أراد بعبدٍ خيراً طيّب روحه، فلا يسمع بمعروف إلا عرفه، ولا بمنكر إلا أنكره، ثم يقذف في قلبه كلمة يجمع بها أمره).

وهذا هو معنى قوله تعالى:

﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

وفي الحقيقة فإن الله لا يضلّ أحداً، وإنما غاية الأمر أن يسحب عنه الهداية، ويقطع عنه الأنوار المشرقة، إذا كان الفرد غير مستحق لذلك ، أو كان لايريد الهداية لنفسه أصلاً، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف:٥)

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالمِينَ﴾ (الأنعام:١٤٤)

﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ (الأعراف: ٣٠)

أي أنهم استحقوا الضلالة، بسحب الهداية عنهم نتيجة ظلمهم وانحرافهم وعدم احترامهم للنعم الإلهية، وإلا فالهداية موجودة أصلاً لكل الخلق على حد سواء..

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠)

هـ- توجد حقيقة مهمة مفادها أن الداعي المخلص يحمل في قلبه حباً كبيراً لجميع المدعوين، لأن هدف الداعي هو إصلاح غيره، وفتح عينيه على ما فتح هو عينيه عليه، من باب (أحبب لأخيك ما تحب لنفسك).

وكذلك هو يحب أن يرى الخير والصلاح في كل مكان، وهو معنى قوله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ .

المحور الثاني: خصائص المدعو

قلنا أنه توجد خصائص ينبغي تحققها في جانب الداعي ،إذا أراد لدعوته أن تنجح وتؤدي غاياتها، وقلنا أيضاً أن جانب المدعو كذلك يحتاج إلى جملة من الخصائص، حتى يكون مستعداً لقبول الهداية وتلقي أنوار المعرفة.

وقد ورد في الرسائل الفقهية للعلماء، إن احتمال تأثر المأمور أو المدعو هو شرط في تنجّز مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث أنه إذا كان الداعي يعلم أو يطمئن بأن الشخص الفلاني لا يكترث بالنصيحة بل لعله يستهزئ بها، فلا يجب على الداعي عندئذٍ أن يدعوه أو ينصحه، اللهم إلا إذا أراد أن يتطوع قربة إلى الله تعالى، ولهذا ورد في واقعة الطف أن الإمام الحسين (عليه السلام) خاطب أحد أنصاره الذين كانوا يتكلمون مع جيش يزيد الملعون، ويدعونهم إلى احترام الحسين (عليه السلام) وعدم محاربته، فقال له الإمام (عليه السلام) ما مضمونه أن الحديث مع هؤلاء قد صار لا ينفع.

ثم إن خصائص المدعو هي من قبيل (عدم المانع) الذي لا بد منه لكي يتحقق تأثير (المقتضي)، حيث قالوا إن تأثير السبب أو المقتضي في الأشياء، لا يتحقق ولا يحصل إلا بعد حصول الشرط وعدم المانع ؛ فإن الشمس لا تنير المكان، إلا بعد حصول الشرط وهو أن تدور الأرض ليقابل ذلك المكان قرص الشمس؛ وعدم وجود المانع كالسحاب ونحوه من الحواجب والموانع.

وأهم خصائص المدعو ما يلي:

١- عدم التكبر، وعدم الاغترار بالنفس:

حيث يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف : ٤٠).

وقال عزوجل في وصف بعض المكابرين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة : ٢٠٦)

فالإنسان إذا دخله الكبر والعزة بالنفس، وأعجب بنفسه، ولم يثق إلا بأفكاره الشخصية، بحيث لا يتنازل عنها لأي سبب كان، بل يعتبر ذلك تنازلاً عن غروره وإزعاجاً لكبريائه، فهو بالتأكيد سيكون محروماً من التكامل، بعيداً عن التقدم، وهذا يعني أنه سيراوح في مكانه أو يتسافل شيئاً فشيئاً، ولذلك يقول الله تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ (الأعراف: ١٤٦)

وقد ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر) . هذا طبعاً إذا لم يطهر نفسه ولم يصلحها من هذا الداء .

وإلا فالمتكبر يغفل عن حقائق كثيرة، ويجهل بأمور عديدة يفترض به أن يكون ملتفتاً لها وعالماً بها، وقد قيل إن المتكبر كالصاعد على جبل يرى الناس

صغاراً، ويرونه صغيراً.

ومحل الشاهد هنا أن الحديث مع المتكبر سيكون صعباً لأن قلبه محجوب، ونفسه معيوبة، وعقله مغلوب، وهواه وكبرياؤه غالب، ومثل هكذا شخص هالك لا محالة، حيث يقول الصادق (عليه السلام): (من دخله العجب هلك).

إلا أن المتكبر يبقى مسكيناً واقعاً، فالمفروض بالداعي أن يحاول معه أولاً بتصفية نفسه ومعالجته من هذا الداء، فإذا وجد فيه قبولاً واستعداداً للتربية والتوعية، استمر معه في سائر الجهات الإصلاحية.

ثم إن الوارد في الحديث عن الصادق (عليه السلام): (ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه).

ويقول الشاعر:

مُلأى السنابل تنحني بتواضعٍ   والفارغات رؤوسهن شوامخُ

وهذا يعني أن المتكبر مريض ويحتاج إلى معالجة، وقد قيل أن التكبر على المتكبر طريق لإصلاحه؛ إذ لعله يشعر بقبح التكبر الصادر من الآخرين نحوه؛ فليلتفت لنفسه ويصلحها من هذه الناحية.

٢- التخلي عن العناد:

قال الله تعالى في وصف المعاندين: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام: ١١٠-١١١).

إن التخلي عن العناد هو صفة أساسية لا بد من توفّرها في شخصية المدعو،

لأن المعاند لا يرتجى منه صلاح، ولا توجد فائدة من الحديث معه، لذلك فإن عاقبته ستكون سيئة، لأنه سيولج نفسه في متاهات الضلالة، وسيرقد على أعتاب الجهالة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (ق : ٢٤).

وهكذا فإن هاتين الصفتين (الأولى والثانية) من صفات المدعو، هي شروط مهمة جداً يجب تواجدها في شخصية المدعو، لأن في كل واحدة منها فائدة عظيمة، فهي تجعل الشخص يقبل الاستماع إلى النصيحة أو يأخذها ، حتى ولو تواضع – في ذلك- لمن يسديها إليه، دون أن يتجبر عليه، أو يعجب بنفسه، أو يعتبر قبول الدعوة إهانة لمقامه وكبريائه وشخصيته.

فالبشر يأنسون لبعضهم بالطبيعة والفطرة، وكل منهم يحتاج إلى غيره سواء شعر بذلك أم لم يشعر، فلا داعي للاغترار بالنفس وإعطائها فوق ما تستحق، وفي هذا يقول المتنبي:

الناس للناس من بدوٍ ومن حضَرٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

ويقول المعرّي:

خفّف الوطء، ما أظنُّ أديمَ الـ أرضِ إلا من هذه الأجسادِ

وقد ورد في الحكمة ما مضمونه أن الحكمة تؤخذ ولو من أفواه المجانين، لأن العاقل من اتّعظ بغيره، ومن كان يستمع الكلام فيتّبع أحسنه، وإن أكرم الناس في الواقع هو أكرمهم عند الله تعالى، وقد ورد في الآية الشريفة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

٣- الحذر من دوّامة الجهل المركب، وهذه دوامة خطيرة للغاية لأن الفرد يكون فيها محبوساً عن الأنوار الخارجية بحجاب غليظ لا يرى من خلاله إلا انعكاساته الداخلية ،التي لا شك أنها ناقصة، شأنها في ذلك شأن كل قابليات الإنسان الذي لايستضيء بنور خالقه وربه عزوجل.

وقد حذّر الله تعالى من هذه الدوامة بقوله عز من قائل:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف:١٠٣- ١٠٤)

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٣٧)

وفي الحقيقة فإن معالجة الجهل المركب في غاية الصعوبة، ما لم تكن هناك نوافذ مفتوحة داخل شخصية الجاهل المركب، فينبغي للجهة المعالجة ان تستدرج هذا الفرد لتعرف النوافذ التي يمكنها الولوج من خلالها، لاستثارة الحس الأصلي، بصدمة مناسبة تؤدي إلى كسر جزء من ذلك الجدار الغليظ الذي يحيط بالجاهل المركب.

وفي الحقيقة فإن العجب والعاطفة العمياء يعتبران من أهم أسباب الجهل المركب، فإذا تخلّص الفرد منهما فإنه سيأمن بإذن الله تعالى من خطر هذا المرض.

٤- التحلي بالموضوعية وعدم التعصب لأي عاطفة مجردة أو رأي مسبق (قبلي) لادليل عليه، وهذا يعتبر مقدمة لضبط المدارك الموجودة عند الإنسان، وبدونه يكون الفرد عرضة للانحرافات الفكرية.

٥- عدم الهروب من مواجهة الداعي، وينطوي تحت هذا المعنى عدة حالات ..

منها أن لا يتشاغل المدعو أو يصمّ أذنيه عن استماع النصيحة، كما كان يفعل المشركون في مكة عندما يسمعون كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث يصفّقون أو يضعون أيديهم على آذانهم.

ومنها أن لا يعطي الشخص مبررات وأعذار لمجرد التخلص من حديث الداعي. بل قد يصل الأمر بالبعض إلى الاستهزاء بالداعي وبنصائحه.

فكل هذا لا يزيد المرء إلا ذنباً وصغاراً، لأنه رفض استماع الحجة، فهو مقصّر عنها وليس بقاصر، وفرق كبير جداً وواضح بين التقصير والقصور، إذ أن الأول يستحق الحساب والعقاب، في حين أن الثاني قد لا يتبعه حساب ولا عقاب لأنه معذور عقلائياً، وهذا معلوم لنا على أية حال، وهو معمول به في جميع الأنظمة الوضعية السائدة في مجتمعات البشر بصورة جليّة.

٦- عدم النظر إلى (الداعي) على أنه بالضرورة يمثّل غاية (الدعوة)، وهذا يحتاج إلى بيان خلاصته أننا وإن قلنا أن من شروط الداعي النموذجي هو أن يكون مخلصاً مع نفسه، وصادقاً في أقواله وأفعاله، إلا أن فقدان هذا الشرط في أحد الدعاة لا يلغي مسؤولية المدعو، فإن المدعو يجب عليه أن لا ينظر إلى شخصية الداعي وكأنها هي نفسها حقيقة (الدعوة)، بل عليه أن يفرّق بين شخصية (الداعي)، وحقيقة (الدعوة)، من باب التفريق بين الوسيلة والغاية، أو الآلة والهدف، أو المرآة والصورة، أو المصباح الكاشف والحقيقة المنكشفة. ولذلك ورد: (لا تنظر إلى من قال، ولكن انظر إلى ما قال).

فالداعي هو سبب ناقل لمضمون الدعوة، وعندئذٍ ينبغي أن لا ننظر إلى الدعوة محدودة بحدود الداعي، وإنما نحاول كمدعوين أن نفحص عن المصادر الأصلية لهذه الدعوة على حسب ما ذكرناه في كتابنا (معالم التكامل في المعرفة) من طرق اكتساب المعرفة، وأدوات تحصيلها، ومبادئ المعرفة.

فكل واحد منا يدرك بوضوح أن الداعي كشخص معين يمكن أن يكون مخلصاً أو مرائياً أو منافقاً أو قاصراً عن أداء مسؤولياته كداعٍ.

ولهذا فإن مسؤولية المدعو باعتباره مكلفاً ومسؤولاً أيضاً لا تنحصر في الاعتماد على مظهر الداعي وجوهره، لأن هذا الأخير مجرد واسطة للإرشاد قد تكون نموذجية، وقد لا تكون نموذجية، أو لنقل بتعبير آخر إنها قد تكون مطبقة وعاملة بما تقول، وقد تكون خلاف ذلك.

فمسؤولية المدعو كبيرة باعتباره هو الطرف المستفيد الباحث عن الحقيقة والكمال والخلاص، والمفروض عليه أن يركّز في عدة اتجاهات:

منها فحص الدعوة بعقله وسائر مداركه.

ومنها: مراجعة المصادر الأساسية للتحقق من واقع الحال. ومنها: عرض قضيته على جماعة أخيار يثق بهم وبمستواهم العقلي والنفسي، ومنها: غير ذلك مما يفترض التركيز عليه.

وعلى هذا الأساس فإن المدعو ليس معذوراً أمام الله تعالى إذا احتجّ بأنه شاهد فلان من الناس ممن يحسب على الدعاة أو القادة أو المثاليين يخالف الدعوة أو يعمل بما لا ينسجم مع قواعدها ومبادئها. لأن مقتضى العدالة هو أن المدعو مطالب بالرجوع إلى أصل الدعوة نفسها، وإلى مصدرها الأساسي وقد ورد عن الإمام علي (عليه السلام): (إن دين الله لا يُعرف بالرجال، بل بآية الحق، فاعرف

الحق تعرف أهله).

ولا بد للمدعو أن يضع في حساباته عدة أمور:

أولها- إن الداعي هو إنسان عادي مهما كان، وهذا طبعاً باستثناء الأنبياء والرسل والأئمة (عليهم السلام) فإن هؤلاء معصومون عن الخطأ، وهؤلاء يمثلون المصادر الأصلية والأساسية للدعوة الإصلاحية.

ثانيها- إن هذا الإنسان العادي قد يكون منافقاً أو مرائياً في نفسه ، وإذا كان هناك ضرر من هذه المسألة فلا يقع إلا على هذا المنافق الخاسر، حتى أنه ورد في بعض الروايات أن أشد الناس حسرة يوم القيامة من دعى غيره إلى عمل صالح فعمل به وارتقى ودخل الجنة، في حين يدخل الداعي إلى النار لأنه لم يعمل بما قال.

ثالثها- إن هذا الإنسان العادي قد تكون هناك ظروف معينة ألجأته إلى ترك العمل بمضمون الدعوة.

رابعها- إن الذي يحاسب الناس على أعمالهم وتروكهم إنما هو الخالق عز وجلّ، وليس غيره

﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ (النور:٢١)

لذلك فإن هدف الإنسان في هذه الحياة يجب أن يكون طاعة الله وحده، وعدم التفريط في حقوقه الواجبة عليه، وإن من أهم هذه الحقوق هي مراعاة الحذر، ومعرفة ما ينفعنا واقعاً، وما يضرنا واقعاً، فإن طلب العلم في مثل هذه الأمور انما هو من الحقوق المبدأية.

وقد ورد في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين(ع): (وأما حق نفسك عليك فأن تستوفيها في طاعة الله)،ثم يبين (ع) حقوق كل واحد من الجوارح

،فراجع وافهم واعمل بحول الله وقوته.

وهناك أمور أخرى يتوجب على المدعو مراعاتها وحسابها، إذا كان يشعر بالإخلاص تجاه خالقه عز وجلّ، وتجاه نفسه هو، وكذلك تجاه الآخرين.

إن كثيراً من الناس ممن نراهم اليوم يعملون المعاصي والمنكرات، إذا قلنا لهم: لماذا لا تكفّون عن هذه السيئات؟ يجيبون: ولماذا نكفّ، ونحن نرى الكثير ممن يصوم ويصلي وهو يعمل المعاصي أو يظلم الناس أو ما أشبه ذلك؟.

أو قد يجيبون: ولماذا نكفّ، ونحن نرى الكثير ممن يُحسب على الأخيار أو القادة وهو يعمل كذا معصية سرّاً، ويظلم كذا شخص علانية أو سرّاً؟..

إن مثل هذه الأجوبة غير واردة وغير نافعة، وأصحابها انما يظلمون أنفسهم ويمنعونها خلاصها، ولو تأملوا قليلاً لعلموا أن جميع هؤلاء سوف يحاسبون على أعمالهم، كل حسب مستواه ، وحسب عمله، وحسب نيّته،وما الله بغافل عما يعملون..

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨)

وإذا كان العنوان الفلاني أو الشخص الكذائي يخالف دعوته، أو يتعارض عمله مع فعله، فلماذا أكون مثله، ولماذا أجعله يحطمني كما حطم نفسه.

وما لي بأفعاله ،إذا كانت أقواله عقلائية ونافعة، سواء صدرت منه مصادفة (بإرادة الله تعالى ومن حيث لا يشعر)، أم صدرت منه عن عمد ورياءً. فالمهم أنها صدرت أمامي وصارت حجة علي مادامت تلك الأقوال صحيحة في نفسها.

إنه من الواجب علينا كعقلاء وكمؤمنين أن لا نستخفّ بالكلام العظيم مهما كان ناقله، فإنما هو رزق من الله تعالى ساقه إلينا بسبب من الأسباب، وقد ورد أن

الله تعالى ينصر هذا الدين برجال لا خلاق لهم في الآخرة، وإن الحكمة ضالة المؤمن أي هدفه وغايته التي ينبغي البحث عنها.

والإنسان الذكي الذي يخلص مع نفسه، ولا يريد لها الهلاك، مسؤول عن ملاحقة الأفضل والأحقّ مهما كان، وأينما كان، ويجب عيه أن لا يهتم لأي سلبيات قد تصادفه في الطريق.

وإذا كان هناك منافقون كثيرون، أو متناقضون كثيرون، أو شبههم، فكل هؤلاء مجرد أشخاص عاديين سيقفون للحساب كما نقف نحن، وكما يقف كل شخص آخر سواء كان داعياً أو مدعواً.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (الصافات : ٢٤)

فحري بالمرء بعد ما قلناه أن لا يجعل الآخرين شمّاعة يعلق عليها أعذاره وهفواته، لأن كل امرئٍ بما كسب رهين، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون، كما نطق بذلك القرآن الكريم .

وقد ورد في المناجاة الشريفة: (بنفسي استخففتُ عند معصيتي لا بنفسك، وبجهلي اغتررت لا بحلمك، وحقي أضعت لا عظيم حقّك، ونفسي ظلمتُ، ولرحمتك الآن رجوتُ).

وأجدني الآن مضطراً للحديث عن موضوع الامتحان الإلهي للعباد، وعن شمول النوع الإنساني بالتكليف المولوي والإرشادي، لأنه - أي الإنسان- مجهّز ومحصّن بكافة الأسباب والوسائل التي يتطلبها التكليف والتكامل، ولأنه معَدّ ومخلوق لغاية شريفة تسمو عن اللهو والعبث.

الامتحان الإلهي أمر لا بد منه

من المواضيع المهمة التي تعرّض لها القرآن الكريم هو موضوع (خلق الإنسان) والهدف منه، ونحن سنتناول هذا الموضوع ضمن عدة محاور:-

أولها- الهدف من خلق الإنسان:

فإن الآيات القرآنية أكّدت على أن الله تعالى لا يصدر منه عبث أو لهو، لأن الحكيم لا يصدر منه إلا الحكمة والصلاح، وكل فعل يفعله الله سبحانه فهو لأجل غاية سامية وهدف رفيع، حيث يقول عز وجلّ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١٦-١٨)

وهكذا فإن الله تعالى خلق الإنسان لغاية مهمة، وهي التي ذكرها بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)

وحيث أن الله غني عن العالمين، وحيث أن العبادة هي مصدر سعادة الإنسان إذا أدرك معاني العبادة وآثارها، لقوله عز وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ؟، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الصف: ١٠-١١).

وقوله عز وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد:٢٨).

وقوله عز وجل: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد : ٢١).

فيتحصّل مما سبق أن خلق الإنسان فيه مصلحة أكيدة له، سواء في الدنيا و الآخرة و ما بينهما:

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١١٩)

أي أن الله تعالى خلق الخلق لكي يرحمهم، إلا أن هذه الرحمة لا يدركها ولا يتذوّقها إلا الملتفت الواعي الذي يعرف جيداً قيمة نفسه وأهمية تنظيفها وتصفيتها من الأوساخ والحجب العالقة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)

ثانيها- تخيير الإنسان في عالم الذر:

قلنا إن خلق الإنسان إنما هو من باب الرحمة الإلهية الشاملة لجميع المخلوقات، ومن الطبيعي أن يكون الإنسان قائداً وموجّهاً على هذه الأرض، باعتباره أشرف المخلوقات شأناً وأعلاهم مرتبة، مع الالتفات إلى أن ذلك التقييم موقوف على مدى إلتزامه بإنسانيته ومسؤولياته المنوطة به، وهذا هو معنى الاستخلاف:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)

فالاستخلاف هنا بمعنى استخدام المواد والأشياء المتاحة في سبيل تحقيق الهدف المنشود، وهو عبادة الله رب العالمين الشاملة بمعناها لجميع الكمالات

المادية والمعنوية.

فإن الله تعالى هيأ للإنسان مقومات الحياة والقيمومة على هذه الأرض، ليكون خليفته الذي ينوب عنه في تنظيم الحياة على هذه الأرض بما عليها من كائنات ومخلوقات.

وينبغي الالتفات هنا إلى أن المقصود من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هو أن مركز الخلافة الإنسانية هو على الأرض، لا أن هذه الخلافة محصورة بدائرة الكرة الأرضية، بدليل أن الوارد في بعض الروايات عن الإمام (عليه السلام) ما مضمونه أنه حجة الله على جميع العوالم.

ولعل بعض النظريات العلمية الحديثة تؤكد مركزية الأرض حضارياً.

يقول الله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿الحديد: ٧)

وهكذا فإن الإنسان قبل بهذه المسؤولية، بل الظاهر أنه ألحّ عليها لما رآه من عظمة النعيم الذي ينتظره، حيث يقول الله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب : ٧٢)

فعرض الأمانة ومسؤولية الخلافة كان متوجهاً نحو جميع الأجناس الموجودة، وكانت هناك فرصة للتفكير والتأمل، فأبت جميعها أن تتحمل هذه المسؤولية خوفاً من عدم القدرة على تبعاتها والتزاماتها، ولا يخفى أن هذا الإباء أو الرفض كان من باب الاختيار المشروع لا من باب العصيان والرفض.

ويمكن -كأطروحة - أن يكون المراد بالسماوات والأرض والجبال، سكانها مما عدا الإنسان، فيكون المعنى أن سائر المخلوقات لم تتحمل هذه الأمانة الثقيلة

والواسعة ؛ في حين قبلها النوع الإنساني وتحملها مختاراً.

فالوحيد الذي وافق على تحمّل هذه الأمانة، هو النوع البشري، حينما خيّرهم الله تعالى في عالم الذر بين أن يخرجوا إلى الدنيا ليؤدّوا الأمانة وينالوا شرفها وثوابها وبين أن لا يخرجوا إليها ولا ينالوا هذه الفرصة الثمينة.

ويبدو أن جميع من خيّرهم الله تعالى آنذاك قد اختاروا الخروج إلى الدنيا، لأنهم لاحظوا قصر مدة الامتحان في مقابل النعيم الخالد الذي سيحظون به فيما لو أطاعوا والتزموا.

وبما أن الله تعالى يعلم أن الأكثرية سوف تنسى هذا الميثاق، وتترك الطاعة والالتزام، فقد عبّر عن هذا الأكثر بأنه ظلوم وجهول، على اعتبار أنه سيظلم نفسه إذا خرج إلى الدنيا بدون التزام وطاعة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على جهل الإنسان النابع من سوء نفسه، وفساد سريرته وغلبة شهواته.

وهنا قد يسأل البعض عن السبب في عدم تذكرنا لما حصل في عالم الذر؛ وجوابه أن هذا أمر طبيعي لدى الإنسان عموماً ؛ فنحن لا نتذكر عندما كنا في بطون أمهاتنا، ولا نتذكر كيف تعلّمنا الكلام أو المشي أو نحو ذلك ؛ بل ولا نتذكر أموراً كثيرة مرّت علينا ونحن في عمر النضوج والوعي.

وهنا يجدر الحديث عن أدلة عالم الذر، مع الإلتفات الى أنه ليس من ضروريات الدين والمذهب ، وإن تسالموا عليه في الجملة. وهناك مباحث لطيفة عن عالم الذر في (تفسير الميزان: ٣٢٣/٨ و ١٠٤/١٠، بحوث روائية؛ و أيضاً راجع ٩١/١-٩٢ وكذلك ٣٠٦/٨- ٣٣١ وكذلك ٢٧٧/١٦-٢٧٨).

والذر مأخوذ إما من الذَر بمعنى التفريق؛ أو من الذرأ بمعنى الخلق، أو الذر بمعنى الذرات الصغيرة ، أو لعله مأخوذ من الذرية (ذرية آدم (ع))، وكل واحد

من هذه المعاني محتمل بلحاظ الروايات الواردة في باب الذر.

حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَو تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٣)

فهذا هو الإشهاد أو الميثاق الذي يتحدث عنه القرآن دائماً، ذلك الميثاق الذي انعقد بين الخالق تعالى وبين الناس في عالم الذر. حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الحديد: ٨).

أي أن دور الرسل والأنبياء (عليهم السلام) وكذلك الدعاة من أتباعهم إنما هو دور تذكيري في أصله، وإن كانت فيه جوانب تأسيسية، ومن هنا نلاحظ كثرة الألفاظ القرآنية الدالة على التذكير مثل (تَذْكرون) و (تَذَّكّرون) ونحو ذلك.

وعلى أية حال فقد ورد في الروايات أن الله تعالى امتحن خلقه في أول خلقهم عندما كانوا كالذرّ، فأمرهم بأن يدخلوا النار من باب الامتحان الأولي، فأطاعه البعض فصارت النار برداً وسلاماً عليهم، وهؤلاء هم أصحاب اليمين. بينما خاف البعض ولم يدخلوا النار وهؤلاء هم أصحاب الشمال.(انظر الشافي في شرح أصول الكافي: ٥/١١- ٢٠).

وفي رواية أخرى إن الله تعالى أقالهم بعد أن ندموا، وأمرهم ثانية فامتنعوا أيضاً.

ولعل درجة السبق بين العباد إنما كانت بالتسابق على الطاعة والولاء

يومئذٍ، ومن هنا حصل الاصطفاء والاجتباء ، وقد ورد في رواية أن أول من أطاع ودخل هو النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم اتبعه أولوا العزم وأوصياؤهم وأتباعهم.

وفي بعض الأحاديث إن الإقرار تعلق بالربوبية والتوحيد والنبوة والولاية وقيام المهدي (عليه السلام).

وفي رواية معتبرة سنداً عن زرارة عن الإمام الباقر (عليه السلام): قال: سألته عن قول الله عز وجلّ ﴿حُنَفَاء للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾؟ قال: الحنيفية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لخلق الله. قال: فطرهم على المعرفة به. قال زرارة: وسألته عن قول الله عز وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ الآية؟ قال: أخرج من ظهر آدم ذرّيته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرَّفهم وأراهم نفسه ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه. وقال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كل مولود يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأن الله عز وجل خالقه.

أقول : أراهم نفسه، أي جعلهم يؤمنون به إيماناً ثابتاً ؛ وهو ما يعبَّر عنه بالرؤية القلبية (المعنوية) أي الاعتقاد بالله تعالى من خلال آثاره وفيوضاته الروحانية.

كذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ فيه إشارة الى عالم الذر .

وقد ورد في الحديث (أن المؤمن يتجه قلبه للخير حتى وإن لم يعرفه، ويترك المنكر ولو لم يعرفه) .

وكذلك ورد عن الصادق (عليه السلام): (إن الله عز وجلّ خلق قوماً

للحق فاذا مرّ بهم الباب من الحق قبلته قلوبهم، وإن كانوا لا يعرفونه، وإذا مرّ بهم الباب من الباطل أنكرته قلوبهم، وإن كانوا لا يعرفونه).

وهذه الحالة مشابهة لما يحصل لنا أحياناً حينما نميل لشخص معيّن، مع العلم أننا نقابله لأول مرة.

ثالثها- ينبغي الإشارة أيضاً إلى معنى (الأمانة) التي عرضها الخالق تعالى على مخلوقاته، ولم يحملها إلا الإنسان.

فهذه الأمانة يراد منها عدة واجبات مترتبة على عدة امتيازات وخصائص، وتترتب عليها عدة فوائد ونتائج.

فمن واجبات هذه الأمانة:-

١- التكليف، أي أن يكون الإنسان موضوعاً مميزاً لخطاب الخلق وأحكامه، أي أنه محاسّب على مدى التزامه بما يأمره به (أو ينهاه عنه) الشارع المقدس.

٢- المسؤولية، فهو مطالب بالحذر والوعي، بمعنى إدراك ما ينفعه حقاً وما لا ينفعه حقاً، وكذلك تحصيل العلم بما له وما عليه. وإدراك أن أي خطأ أو تقصير يمكن أن يحصل خارجاً فهو في الواقع ناشئ إما من شخصه، أو من أسباب خارجية أخرى كان من الممكن أن يتلافاها ويتحصّن منها، حيث يقول الله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩).

وهذه حقيقة عميقة تنفتح منها أبواب واسعة على مختلف المستويات، نسأل الله أن يوفقنا ويسددنا لتحصيل مراتب الفهم والكمال.

ثم إن واجبات الأمانة تبتني بالتأكيد على مقدمات تأهيلية يحتاج إليها هذا

الفرد المستخلَف من أجل تسهيل مهمّته، وأهم هذه المقدمات أو الامتيازات أمران أساسيان:-

أ- التسهيلات العقلية والبايولوجية، حيث يتميّز الإنسان بجهاز متكامل عضوياً وسايكولوجياً، وهذا التكامل غير موجود عند سائر الخلائق. فإذا التفتنا إلى أن هذه التسهيلات يحتاج إليها الفرد الإنساني فعلاً في بقائه وفعاليته كفرد مستخلف، فعندئذٍ ندرك أننا كبشر أمام مسؤوليات عظيمة ينبغي أن نتحمّلها ونلتزم بآثارها ونتائجها، وإلا فإن أي تنصّل أو ابتعاد عن المسؤوليات المناسبة، سيعني بالتأكيد خيانة لله تعالى ولأمانته المقدسة. وقد ورد في الحديث: (ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها) ومعلوم أن هذا (أمر) واضح بوجوب حفظ الأمانة من باب (إنا لله وإنا إليه راجعون).

ب - القيمومة، على اعتبار أن عنوان الخلافة ورعاية الأمانة، تستوجب قيمومة فعلية على موارد الخلافة وموضوعاتها الخارجية.

وفي الحقيقة فإن الإنسان له ولاية على هذه الأرض، إلا أن مقدار ولايته يتفاوت بحسب تفاوت القابليات والمؤهلات، وعلى حسب تحقق الموازنة العامة في المصالح الخارجية (خاصة أو عامة).

فالإنسان من حقه أن يسخّر ما في الأرض، باعتباره خليفة الخالق عز وجلّ في أرضه، وهذا التسخير له عدة مستويات، فمنها تسخير الإنسان للجمادات كالأرض يحييها، أو الخشب يبني به، أو نحو ذلك. ومنها تسخير العجماوات وهي الحيوانات لأجل الانتفاع بها. ومنها تسخير الإنسان لنوعه، بنحو الولاية التشريعية. ومنها تسخير الإنسان لنوعه أو لغيره بنحو الولاية التكوينية الثابتة للمعصومين (عليهم السلام) وهي ولاية شرعية صالحة بالتأكيد لأنها مترشّحة من

فيض الرحمة الإلهية. وتلحق بهذه الولاية ولاية الأولياء الصالحين.

وهناك ظواهر أخرى فوق الطبيعة كما يسمونها، كالباراسايكولوجيا، وقد تحدّثنا عنها في معالم التكامل في المعرفة والعقيدة، ووضّحنا إجمالاً كيفية حصول التأثير أو التأثّر فيهما.

وعلى أية حال فإن التأثير والتسخير لا يجري إلا بإرادة الله تعالى وإذنه وعدم ممانعته، وهذه حقيقة مهمة لها عدة دلالات وإشارات.

رابعها- ضرورة حصول الامتحان الإلهي.

حيث يقول الله عز وجل: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٢-٣).

فالامتحان مبدأ عام، سواء كان امتحاناً للصبر، أو للإيمان ، أو لرفع المقامات، وسواء كان امتحاناً بالسراء أو بالضراء، فكله فتنة وغربلة، كما ورد في الحديث عن المعصومين (عليهم السلام): (لتُغَربَلُنَّ، ثم لتُغَربَلُنَّ، ثم لتُغَربَلُنَّ).

وينبغي الالتفات هنا إلى أن الامتحان كما توجد فيه جوانب تعب ومشقّة، فإن فيه أيضاً جوانب مصلحة ومنفعة للفرد، باعتبار أن كل ما يصدر من الله تعالى فهو حسن وجميل، و(عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)، وفي الحديث عنهم(عليهم السلام) ما مضمونه: إن الله تعالى يقلب العبد من خير إلى خير، وإنما يتوهم العباد أحياناً أن ما أصابهم ليس بخير، فهذا إما جهل بالواقع أو لأجل ملاحظة التعب الحاصل من ذلك الامتحان.

فالمفروض بنا أن نعي الواقع ونفهمه بطلب العلم والمعرفة من ينابيعها

الصافية، وأن لا نجعل التعب أمامنا، فإن صاحب الهمة العالية والطموح الكبير يتوقع التعب والمشقّة، ولا يهتم ولا يتأثّر بمثل هذه الأمور الزائلة ما دام الهدف الكبير ماثلاً أمام عينيه، وكما يقول الشاعر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائـمُ وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وتعــظمُ في عين الصغيرِ صغارها وتصغُرُ في عين العظيم العظائمُ

ثم إن المؤمن يرجو من الله تعالى ما لا يرجوه غيره، ولذلك تسمع الإمام الحسين (عليه السلام) عندما بقي وحيداً في عرصة كربلاء قائلاً: (هوّن عليّ ما نزل بي أنه بعين الله). فكل شيء مسجّل ومكتوب عند الله تعالى، والثواب محفوظ، والأجر ثابت، والرحمة الربانية تفيض وتُضاعف ولله الحمد.

يقول الله عز وجلّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ (البقرة : ١٥٥-١٥٦)

فالصبر هو السلاح الفعّال في مثل هذه الظروف، ويقوى هذا الصبر كلما ازداد الوعي والالتفات، ولا يتم هذا الوعي إلا بفهم معنى ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾، فنحن عباد الله وخلقه وهو يتصرف في ملكه كيفما يشاء، وإن كان الواقع كما قلنا أنه يتصرف في ملكه بمقتضى الرحمة واللطف على كل حال، وإنما يخفى علينا وجه اللطف في بعض الأحيان لأجل قصورنا وجهلنا وقلة إيماننا بربنا الخالق عزوجل، ولو كُشف لنا الغطاء لفرحنا بكل ما يصيبنا، كما يفرح الطالب المستعد بمجيء الامتحان باعتبار أنه يقدمه خطوة إلى الأمام، ويفتح أمامه أبواب المستقبل الذي يتمناه.

وأما الرجوع إلى الله تعالى فهو يعني أن أعمالنا كلها محفوظة عند الله

تعالى، كما يعني أننا في طريقنا إلى الله تعالى إذا صبرنا وتحمّلنا ومشينا على الصراط المستقيم.

كمايعني أيضاً أننا بالنهاية أمام موعد للحساب والجزاء، وإنما هي مدة محدودة أرسلنا فيها الله تعالى ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

ولا ننسى أننا اخترنا أفعالنا وتصرفاتنا، فمن الطبيعي أن نتحمل الآثار والنتائج.

(رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ).

والحمد لله أولاً وآخراً

النجف الأشرف - حيدر اليعقوبي

١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م

الكتاب الثاني

خواطر حول الذنوب والأدعية

بسم الله الرحمن الرحيم

قد يسأل البعض عن وجه العلاقة بين الذنوب والأدعية حتى يجمعهما عنوان واحد. والجواب عن هذا السؤال ببساطة هو إنّ من أهم شروط استجابة الدعاء أمران:

أولهما : الاستغفار والتوبة عن الذنب قبل أن يبادر الفرد بالدعاء ، لأنّ هذا من أوضح مظاهر الأدب والأخلاق ، خصوصا بين العبد الذي هو الفرد ، وبين السيد الذي هو الله تعالى.

ثانيهما : طهارة الفرد الداعي من الذنب لحظة الانشغال بالدعاء والمسألة ، وإنّما يتصور ذلك على النحو الآتي ... فإذا سأل العبد ربّه تعالى بلسانه شيئاً فانّه ينبغي لهذا اللسان أن يكون طاهراً. وإذا سأله بقلبه فينبغي أن يكون طاهراً أيضاً. تماماً مثلما تشترط الطهارة في المصلّي الذي هو يدعو الله بنحو من الأنحاء.

وإذا كانت طهارة بدن المصلّي بالتطهير و الوضوء ، فان طهارة اللسان أو القلب إنما تكون بالاستغفار أو التوبة على الأقل. هذا من جانب ومن جانب آخر فان كثيراً من الروايات والأدعية المأثورة تنص بصراحة على قوة العلاقة بين الدعاء و الذنب ، ولعل من أوضح مصاديق ذلك ما ورد في دعاء كميل ﴿ اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء ﴾. كما انه يوجد ارتباط آخر بين الموضوعين ؛ فان الاستغفار من الذنب هو احد مصاديق الدعاء ، بل لعلّه أفضل أنواع الدعاء، حيث يقول الله تعالى:﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ نوح (١٠ -١٢)

وهنا أجد القارئ يتفق معي على وجود ترابط وثيق بين موضوعي الدعاء و الذنوب ، و بالتالي فهو لا يعترض علينا إذا جمعنا بين موضوع الذنب وموضوع الدعاء في هذا الكتيب المتواضع. ولذلك سوف نجعل الكلام على محورين ، يدور الأول حول الذنب والاستغفار ، ويدور الثاني حول موضوع الدعاء و شروطه وفوائده. ونسأل الله التوفيق والتسديد.

المحور الأول : حول الذنب والاستغفار

معنى الذنب ...

قيل عن الذنب انه الجرم أو الخطأ أو المنكر أو السيئة أو الإثم أو الرجس أو الظلم أو العدوان أو الخطيئة أو المعصية أو التقصير أو ما يبعد عن الله. وقيل غير ذلك مما يرجع كلّه إلى معنى واحد عام هو إنّه كل ما يقبح سواء كان فعلاً أو تركاً. كما إن معناه الإجمالي الذي ينبغي أن يلاحظه المؤمن هو: ما يُسخط الله تعالى أو مالا يرضاه ﷻ.

ولذلك نجد أن مفهوم الذنب يكاد يكون واضحاً جداً عند جميع المستويات والاتجاهات ، إذ أنّ كل منها لديه معنى للذنب يحدده بمقاييسه الخاصة التي تستند إلى ذلك المعنى الذي قلناه. على إن ما يهمنا الآن هو معنى الذنب في الشريعة الإسلامية عموماً على اعتبار إنها دين الإنسان الذي يحدد له ما هو الحسن و القبيح.

ما الذي يقابل الذنب ؟

لعل من أهم الوسائل التي توصلنا إلى معرفة الشيء و العلم به هو معرفة ضده أو ما يقابله ؛ فإن العدم مثلاً قد لا يستطيع البعض تصوره وتعريفه ؛ فإذا تصوروا مفهوم الوجود الذي يقابله فإنهم سيعرفون معنى العدم الذي هو عدم الوجود.

وهكذا فإن الذنب بالمعنى الخاص – وهو أي واحد مما قيل في معنى الذنب على نحو الجزئية – يقابله عدم الذنب من باب تقابل الملكة و عدمها ، على اعتبار

إن الذنب هو مما يصدر من قابله. فتكون النتيجة إن ما يقابل الذنب اعم من الإحسان و المعروف ، فمجرد الكف عن الذنب لا يعد إحساناً – أي حسنة[١]– ولا معروفاً ، إلا بوجود شرطين اثنين : أن يعلم الفرد الذنبَ ولا يعمله ، وأن يكون المانع من ذلك هو مانع حسن ، سواء كان هذا المانع مأجوراً كالتقرب إلى الله تعالى أو غيره كالعطف و الرحمة المحضين. وقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع) ما مضمونه ﴿إن الله تعالى يقول لملائكته إنه من همّ بسيئةٍ فلم يعملها، كُتبت له حسنة لأنه إنما تركها لأجل الله تعالى﴾

وهنا لو لم يذنب الفرد في لحظة معينة فليس شرطاً أن يكون محسناً !

لأنه قد يكون مذنباً من جهة أخرى أو على مستوى أعمق كما لو كان تركه للذنب غير مقترن بنية التقرب لله عز وجل ، فيكون مقصراً من هذه الناحية أي مذنباً. ويقابل الذنب بالمعنى العام ، الإحسان والمعروف – بالمعنى الخاص[٢]– من باب تقابل النقيضين. وهنا فان الفرد إذا لم يذنب في لحظة معينة فانه سوف يكون محسنا بالمعنى (الخاص) ؛ ولذلك عرف الجرجاني[٣] الذنب بأنه﴿ ما يبعد عن الله﴾ أي ولو درجة مهما كان مستواها.

---

(١)الحسنة تطلق مرة على نفس العمل الصالح ، وأخرى على جزاء هذا العمل و ثوابه .

(٢)المقصود من الإحسان و المعروف بالمعنى الخاص ، أن يكونا تامين لا ينقصهما شيء ، أو بمعنى آخر ان يكونا من حسنات المقربين لا حسنات الأبرار .

(٣)في كتابه التعريفات .

مراتب الذنب ...

كما إن للذنب معانٍ متعددة ؛ كذلك له مراتب متعددة ؛ فالذنب قد يكون محرماً كالقتل ، وقد يكون مكروهاً كعدم احترام الكبير ، وقد يكون مباحاً كالاشتغال عن ذكر الله ، بل قد يكون مندوباً لكنه مرجوح كصلاة بعض المستحبات بدل النوافل فإنها مرجوحة والنوافل راجحة. ومن هنا نفهم قول المعصومين(ع) إن ﴿حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴾ ؛ فان ما يراه البار حسنة – وهو كذلك فعلاً – يراه المقرب سيئة ؛ لأن الحسنة عند المقربين هي ما يرجح ، والسيئة عندهم هي ما يرجح عليه. وهكذا فان الفهم إذا تعمق تعمقت المسئولية وارتفعت المنزلة بإذن الله ﷻ..

وفي الدعاء (اللهم إني أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ، ومن كل راحة بغير أنسك ، ومن سرور بغير قربك ، ومن كل شغل بغير طاعتك) .

وهاهنا ملاحظة مهمة هي إننا جميعاً مقصرون بلا شك ، ولم نؤد واجبنا المفروض ؛ ولذلك فان من حق الله أن يعذبنا لو حاسبنا بعدله ، أي إننا جميعا نستحق العذاب و العقاب من الخالق تعالى الذي يقول في محكم كتابه :﴿ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات و الأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ إبراهيم-١٠-

فلابد للمرء إذاً أن يخلص نفسه من العذاب ، وإنما يتم ذلك بالتملق و التقرب لله ﷻ[1] فيخلص نفسه من العذاب بمقدار ما يعمل من الطاعات ويتجنب عن المعاصي و السيئات قربة إلى الله تعالى.

---

(١)هذا هو قانون التفاضل الطبيعي والحقيقي ، فأكرم الناس اتقاهم لله ، أي اكثرهم عملا ، وإلتزاما بالطاعات ، و اجتنابا عن السيئات .

فهذا غاية ما يستطيعه الفرد ، وإن كان ذلك أيضاً بفضل الله ورحمته و توفيقه ، ولذا يدخل المرء الجنّة برحمة الله ﷻ ، وقد ورد في الدعاء :﴿ فكلّما قلت لك الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد ﴾ وحيث إن هذا مستحيل لأنّه يؤدي إلى التسلسل ، لذلك فنحن جميعاً مذنبون أي مقصّرون. غير أنّ ما يهون الأمر إننا نرجو الله تعالى أن يعاملنا و يحاسبنا برحمته لا بعدله عزّ وجل.هذا من جانب ، ومن جانبٍ آخر فإنّه يكفي العزم على حمد الله و شكره ، فإنه ورد في الحديث عن المعصومين سلام الله عليهم ﴿ إن المؤمن إنما يخلد في الجنّة لأنه ينوي أن لو خلد في الدنيا لم يزل شاكراً لله. و إنما يخلد الكافر في النار لأنه ينوي أن لو خلد في الدنيا لم يزل مذنباً أو عاصياً لله ﴾.

الجرأة في الذنب :

قلنا أنّ الذنب عموماً هو ما يقبح فعله أو تركه ، لكن ثبت أنّ ما صدر عن إكراه أو جهل قصوري أو نسيان ، لا يعد ذنباً بالمعنى الشرعي ، وإن كان ذنباً في المعنى اللغوي.

وحيث إن ما يهمنا هو المعنى الشرعي ، فلابد إذاً من إضافة قيد (العمد) إلى تعريف الذنب فيصبح : هو ما يقبح فعله أو تركه عمداً.

وبهذا فان للجرأة و العمد دخل في تحديد الذنب أو الإساءة ، وقد ورد في السنّة الشريفة :﴿ لا صغيرة مع الإصرار[١] ولا كبيرة مع الاستغفار (الحقيقي) ﴾.
وورد أيضاً :﴿لا تنظر إلى مقدار معصيتك ولكن انظر إلى من عصيت﴾.

وأما ما يصدر عن غفلة دنيوية أو جهل تقصيري فهذا داخل في التعريف

---

(١)أي الجرأة و العناد .

وإن لم يكن عمداً لأن للعمد دخل في أسباب الذنب وان لم يدخل فيه.

والضابط في هذا كلّه إن ما كان عائداً للفرد فهو داخل في التعريف ، وما كان غير عائد له فهو غير داخل في تعريف الذنب.. و الله العالم.

حول الكبائر و الصغائر :

ورد في كثير من الأخبار و الروايات[١] إن الذنوب منها الكبائر و منها الصغائر ، بل في القرآن أيضاً إشارات إلى هذا المعنى.

ولذلك اختلف المفسرون و المتكلمون في هذا المقصود من الكبائر و الصغائر[٢] (وهي اللمم) ..

وراح البعض منهم يصنف الذنوب تحت هذين العنوانين بحسب مقاييسه التي لا تعدو كونها خاصّة و شخصية..

ولما لوحظت مجموعة من الإشكالات على هكذا تصنيف ، راح البعض إلى القول بأنّ كل الذنوب كبائر..

غير إن المتأمل لا يجد فرقاً بين الكبيرة و الصغيرة ، من جهة إن كلاهما مبغوض عند الله تعالى.

كما ورد في السنة الشريفة انه ﴿ لا صغيرة مع الإصرار[٣] ولا كبيرة مع الاستغفار[٤]﴾أي انه لا يوجد ذنب كبير في نفسه ، ولا صغير بنفسه ، وإنما هذا

(١)انظر مهذب الاحكام ١١٦/٨ – ١٤٤ والميزان ٣٢٤/٤ والوسائل ٢٥١/١١١.

(٢)الصغائر هي (اللمم) التي وردت في القرآن الكريم .

(٣)في الوسائل ج١١ ، ص ٢٦٨ ، عن الإمام الباقر (عليه السلام) : (الاصرار ان يذنب الذنب فلا يستغفر الله ، ولا يحدث نفسه بالتوبة فذلك الإصرار).

(٤)الوسائل ج ١١ ، ص ٢٦٨ .

الذنب نفسه يكون كبيراً إذا صدر عن تعمد مثلاً ، ويمكن أن يكون صغيراً إذا صدر عن غفلة مثلاً فالذي يميزه بين العنوانين إنما هو نية المذنب و قصده.

وقد يقال إن كون هذا الذنب صغيراً أي نسبةً إلى ما هو أكبر منه و كونه كبيراً أي بالنسبة إلى ما هو اصغر منه ، و إلا فالذنوب كلها ذنوب ، و هذا القول و إن كان صحيحاً إلى حدٍ ما ، وبه نتخلص من إشكال[١]قد يرد على ما اخترناه نحن ، إلا إنه مخالف لما ورد عن المعصومين (ع) من أنه لا ينبغي أن يحتقر شيء من المعاصي لئلا يكون سخط الله فيه ، أي إن الكذب مثلاً وإن قيل (ظاهراً) إنه اصغر من الزنا مثلاً إذا كانا معاً عن غير تعمد ، إلا إنه من قال أنه في الواقع اصغر منه ، بل لعلهما متساويان ، أو لعل الكذب اكبر.. حيث إن قولنا لا يتعدى كونه مجرد رأي ناتج عن قياس باطل ، تماماً كما قال البعض إن البول أنجس من المني ، و إن الصلاة أفضل من الصوم ، مع إن الإمام (عليه السلام) منعهم عن ذلك وردّ عليهم بأن أول من قاس إبليس ، و إن السنة إذا قيست مُحِقَ الدين ، كما هو مضمون الرواية عن الصادق (عليه السلام) عموماً ، فقد ورد عن الإمام (عليه السلام) ﴿ إن الله خبأ ثلاثاً في ثلاث ، خبأ أوليائه في عباده ، فلا تحتقرن أحداً من الناس فلعلّه ذلك الولي ، و أخفى رضاه في طاعته فلا تحتقرن من الطاعة شيئاً فلعل رضا الله فيه ، و خبأ سخطه في معصيته ، فلا تحتقرنّ من المعاصي شيئاً فلعل سخط الله فيه[٢] ﴾.

وهذا حديث جليل ينفع المتأمل.

وكذلك ورد عنهم (ع) :﴿ لا تنظر إلى ما فعلت ، ولكن انظر إلى من عصيت ﴾.

---

(١)وهو ان الزنا مثلا اكبر (بحسب الوجدان المتشرعي) من الكذب اذا لم يكونا عن عمد .

(٢)نص الحديث في الوسائل ج١١ ص ٢٤٧

لماذا يذنب الفرد ؟

يقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) في دعاء (أبي حمزة الثمالي): ﴿ الهي لم أعصك حين عصيتك ، وأنا بربوبيتك جاحد ، و لا بأمرك مستخف ، و لا لعقوبتك متعرض ، و لا لوعيدك متهاون.. لكن خطيئة عرضت وسولت لي نفسي ، وغلبني هواي ، و أعانني سترك المرخى علي ﴾.

و من هذا الدعاء نفهم إن المذنبين على طوائف خمسة بلحاظ نواياهم و أسباب وقوعهم في الذنوب..

أ-الطائفة الأولى : من يذنب لأنه جاحد بالإلوهية أو مشرك. وهذا إما ممن وصل إليه التبليغ لكنّه أنكر جاحداً أو أشرك عامداً ، فيكون مذنباً و جاحداً ، أو مذنباً و مشركاً في الوقت نفسه.

وأما من لم يصل إليه التبليغ و لم يعلم الحق لأنه قاصر لا مقصّر ، فيكون متروكاً للرحمة الإلهية لقول الله تعالى: ﴿لأنذركم به و من بلغ﴾ الأنعام -١٩-. وإن كان هذا مذنبا أيضاً.

ب- الطائفة الثانية : من يذنب لأنه مستخف بأمر الله و قدسه و جلاله ، وهذا أيضاً مذنب ، لكنه مذنب و مستخف في الوقت نفسه.

ج-الطائفة الثالثة : من يذنب لأنه مغرور يريد أن يتحدى العقوبة الإلهية ، فهو مذنب و مغرور في ذات الوقت.

د- الطائفة الرابعة : من يذنب لأنه يتهاون بوعيد الله للمذنبين بالعذاب و النار ، أو بالعذاب الدنيوي ، وهذا مذنب و متهاون كذلك.

وقد لاحظنا إن ما يميز ذنب كل طائفة عن الأخرى هي تلك الصفة الزائدة المعطوفة التي توجد في المذنب ، فالمذنب إذا كان متهاوناً فهو من الطائفة الرابعة ،

و إن كان مستخفاً فهو من الثانية ،وهكذا.

هـ- الطائفة الخامسة : من يذنب لتسويل نفسه أو الشيطان ، و غلبة هواه على إيمانه أو عقله ، ولم يكن من الجاحدين أو المشركين أو المغرورين أو المستخفّين أو المتهاونين.. و أهل هذه الطائفة الخامسة على قسمين :

الأول : من لو انتبه لَتَرَكَ الذنب ولم يعد إليه أبداً ، و كان من المستغفرين و التائبين ، و هؤلاء هم المؤمنون.

الثاني : من لو انتبه لتردد بين ترك الذنب و الاستمرار به ، أو من لو انتبه لم يترك الذنب و إن أحسّ إنّه مذنب.. و هؤلاء هم عامّة المسلمين الذين ينقسمون إلى فاسقين و غير فاسقين.

أمّا لماذا يفعل هؤلاء – أي عامة المسلمين الذين هم القسم الثاني من الطائفة الخامسة – ذلك ، فإنه كما قلنا راجع لتسويل النفس أو الشيطان الذي يمنّيهم بأحد أمور أو جميعها ، وهي :

أ- ستر الله على المذنبين ، من حيث أنه ستار العيوب.

ب- عفو الله عن المذنبين ، من حيث إنه تعالى غفار الذنوب.

ج- تأخير عقوبة المذنبين ، من حيث انه تعالى حليم عن العاصين.

د- رحمة الله الواسعة [1]، من حيث إنه تعالى أرحم الراحمين.

ولا يخفى إن جميع هذه الأماني و الأمور ، و إن كانت صحيحة في نفسها ،

---

(١)تلك الرحمة التي يقابل بها الخلق كافة سواء كانوا مستحقين لها ام غير مستحقين ، وفي دعاء الافتتاح : (وتتودد الي فلا اقبل منك ، كأن لي التطول عليك ، فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والإحسان الي)

لكن لا يصح أن يذنب الفرد على أملها ، لأن موضوعها هم الذين يذنبون لا بقصد الذنب ، و أما الذين يذنبون اعتمادا عليها فإنها مسلوبة عنهم (سالبة بانتفاء الموضوع).. هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان هذه الأشياء لا يصح أن يعتمد عليها الفرد ليذنب ذنبه المقصود أي المتعمد[1] .

بيان ذلك على التفصيل الآتي :

أما بالنسبة إلى (ستر الله) ، فإنه ستر دنيوي ، وهو لا يمحو أي أثر من آثار الذنب التي سوف نعرفها.

و أما بالنسبة إلى (عفو الله) فإنه إنما يكون لغير المتعمدين ، وقد جاء كثيراً في القرآن الكريم إن الله شديد العقاب مثلما هو غفور رحيم ، فكيف يأمن الفرد أن يتكل على جانب المغفرة و يدير وجهه عن جانب العقاب ؟

و أما بالنسبة إلى (تأخير العقوبة) فإنه أيضاً غير مفيد للمذنب، لأنه من المعلوم إن الإنسان يمر بعدة عوالم كالدنيا و القبر و البرزخ و النشور و عذاب كل مرحلة لاحقة أشد من عذاب سابقتها كما تصرح به السنة الشريفة ، حيث تنص على إن عذاب الدنيا يخفف من عذاب الآخرة.وفي الحديث عنهم (ع):﴿ إذا أراد الله بعبدٍ خيراً عجل له عقوبته في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبدٍ سوءً أمسك عليه ذنوبه حتى يوفى بها يوم القيامة﴾ انظر الخصال ص٢١ وعدة أحاديث مشابهة في الشافي ٦/٥٨٥ .

و كذلك ورد في السنة إن الله تعالى يبتلي عبده المؤمن في الدنيا، و إلا ففي القبر ، و إلا ففي البرزخ ، حتى يأتيه يوم القيامة وليس عليه ذنب ، لأن الابتلاء

---

(١)نعم ، يصح ان يعتمد عليها الفرد بالنسبة لذنوبه السابقة اذا استغفر وتاب عنها ، كما صرحت بذلك الأخبار المتواترة .

الإلهي يخفف من ذنوب المبتلى، ولذلك ورد في بعض الأدعية ﴿ الحمد لله على ما أبلى و ابتلى[1]﴾.

فالإبلاء في النعمة ، و الابتلاء في النقمة ، ومرجعهما واحد ، وهو الامتحان و الاختبار.

عموماً ، تبقى هناك طائفة سادسة من المذنبين ، تلك هي طائفة المقربين الذين قلنا إن ذنوبهم إنما هي مجرد مرجوحات و إن كانت في نفسها حسنات بل مستحبات. و إنما يقع هؤلاء المقربين في هذه الذنوب بسبب عدم العلم أو عدم الفهم أو عدم الاستحقاق – الذي يكون إمّا بسببهم أو لأجلهم أي لمصلحتهم – وإن كان الواقع إن عدم العلم أو عدم الفهم يرجعان إلى عدم الاستحقاق ، لأنهم لو استحقوا لعلموا أو فهموا.

آثار الذنب :

للذنب آثار مادية (تكوينية) و معنوية ، وله آثار دنيوية و أخروية.

وقد ورد في الأدعية إن الذنوب تغير النعم ، و تنزل النقم ، وتنزل البلاء ، وتقطع الرجاء ، وتحبس الدعاء ، والعياذ بالله.

فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) :﴿ إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب انمحت ، و إن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح أبداً [2]﴾ وعنه أيضاً ﴿إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل﴾[3] وهذا طبعاً على

---

(١)مجمع البحرين ج ١ ، ص ٦١.

(٢) الوسائل ج ١١ ص ٢٣٩ .

(٣) نفس المصدر وعن آثار الذنب عموما يراجع الوسائل ١١ / ٥١٢ – ٥٢٠

سبيل المثال. وحيث إن للمذنب هذه الآثار المتعددة و الخطيرة ، فإن الفرد لابد له أن يسعى جاهداً لمحو و إلغاء هذه الآثار ، كلها أو بعضها ، بحسب الإمكان والتوفيق و الرحمة الإلهية ، و إنما يتم هذا بالاستغفار و التوبة ، فما هو الاستغفار، و ما هي التوبة ، و كيف يكون كل منهما ؟

وقد ورد في الحديث عن الإمام علي (ؑ):﴿تعطروا بالاستغفار ، لاتفضحكم روائح الذنوب﴾ .

معنى الاستغفار والتوبة :

الاستغفار هو طلب المغفرة والعفو من الله تعالى ، باعتبار إن الذنب يصدر من العبد نحوه ، فحقٌ أن يطلب منه العفو والصفح. وحيث إن الاستغفار إنما هو لرفع الذنب وآثاره ، لذا يمكن تصور العفو الإلهي بعدة أشكال بحسب نية المستغفر وقصده..

الشكل الأول : محو الذنب من صحيفة الفرد المستغفر ، فإنه من المعلوم بالضرورة إن أعمال الفرد تسجل في صحيفة أعماله إن خيراً أو شراً ، وذلك حتى يحاسب عليها يوم القيامة ، يوم يخرج الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم.

الشكل الثاني : محو الذنب من صحيفة الفرد المستغفر ،و سكون الغضب الإلهي ، فإنه من المعلوم إن الذنب يُغضب الله ويسخطه.

الشكل الثالث : محو الذنب من صحيفة الفرد المستغفر ،و سكون الغضب الإلهي ،ورجوع الرحمة الإلهية إليه بالالتفاتة الإلهية ، فانه من المعلوم إن الله تعالى يصفح بوجهه الكريم عن وجوه المذنبين.

الشكل الرابع : محو الذنب من صحيفة الفرد المستغفر ،و سكون الغضب

الإلهي ،ورجوع الرحمة الإلهية إليه ، ومحو آثار الذنب إجمالاً ، إذ لا يمكن محو آثار الذنب كلياً ، لأن المذنب سوف يكون بالتأكيد أقل درجة من غير المذنب ، أي إن رجوعه إلى حالة ما قبل الذنب وإن كانت ممكنة برحمة الله إذا استغفر بمقدارها ، إلا انه لا يخفى إن وقتاً قد ضاع منه في ذلك. وهذا الوقت له قيمة في موازين الأعمال و المفاضلة. ولهذا ورد في السنة الشريفة إن ﴿ من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبدا﴾ وفي الحديث أيضاً إن ﴿ التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴾ ولا يخفى إن المشبه أقل رتبة من المشبه به.. فتأمل.

الشكل الخامس: محو الذنب من صحيفة الفرد المستغفر ،و سكون الغضب الإلهي ،ورجوع الرحمة الإلهية إليه ، ومحو آثار الذنب إجمالاً ، وستر الذنوب عنه فوق ذلك. وبيانه : إن الفرد حينما يقول (اللهم اغفر لي) فان معنى الغفران هو الستر ، والستر الإلهي –هذا- إنما يتصور بأنه محو الذنب وآثاره. ولكن يوجد تصور آخر لهذا الدعاء بالمغفرة ، وهو أعمق من السابق وهو أن يقصد الداعي أن يغفر الله ما سبق من ذنوبه بالستر ، وأن يغفر أي يستر عنه الذنوب في المستقبل حتى لا يدنو منها ولا يقترفها ، حيث ورد في الدعاء عن الأئمة (ع):﴿ اللهم تب عليّ حتى لا أعصيك[1]﴾ ..وهذه هي المغفرة الحقيقية التي يجب أن نقصدها في قولنا ﴿ اللهم اغفر لي ﴾. حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ غافر-٩ - وفي الدعاء :﴿ وكرّه إلي فيه الفسوق والعصيان﴾.

وهكذا نلاحظ اختلاف أشكال العفو الإلهي بحسب الاستحقاقات ، وكلما

---

(١) وورد في المصباح للكفعمي ص ٢١ : و اغفر لي مغفرة عزما جزما لا تغادر لي ذنباً ولا اكتسب بعدها محرماً

كان الاستغفار معمقاً ، كلما كان العفو أشمل وأعلى. ولا يخفى إن الاستغفار بحد ذاته ذكر يستحق الأجر و الحسنات على أية حال.هذا عن الاستغفار.

وأما عن التوبة فهي عبارة عن وعد أو عهد يعطيه العبد لله ﷻ بأنه نادم على ما سبق، عازم على عدم الرجوع إليه.. وهذا الوعد لابد من الوفاء به ، وإلا فهو ذنب آخر يضاف إلى ذنبه.

والتوبة هي أول الاستغفار ، لأنها الندم على ما مضى ، والعزم على ترك العود إليه أبداً [١]. فإذا لم تكن هناك توبة ، لم يكن هناك استغفار فعلي حقيقي. هذا وينبغي الإشارة هنا إلى أن الاستغفار و التوبة إنما يحصلان بهداية الله ، فإذا وجد في قلب المذنب استعداداً حقيقياً للاستغفار و التوبة التفت إليه و رزقه التوبة ، حيث يقول الله تعالى﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾التوبة-١١٨-

أفضل الاستغفار :

بعد أن لاحظنا أشكال العفو الإلهي ، و لمسنا كيف تتفاوت فضلاً فيما بينها ، نقول الآن : إن الاستغفار ينبغي أن لا يكون من أجل محو السيئة ، أو سكون الغضب الإلهي فحسب ، بل لابد أن يضع المستغفر أمامه حقيقة إنه حينما أذنب حصل هناك قطع في الرحمة الإلهية ، وحصل حاجب بينه وبين الحق و الكمال. فحريّ به إذا أن يستغفر الله من أجل إبعاد هذا الحاجب الخطير ، ومن أجل إرجاع الفيض الإلهي ، ومن أجل الرجوع إلى حالته قبل أن يذنب. وإلا فما قيمة أن يمحى ذنبه ، وتذهب سيئاته.. ومازالت آثار ذنبه باقية كوسمة العار في الجبين ،

---

(١) هناك شرط ثالث للتوبة وهو ترك التلبس بالذنب ، وان كان الواقع انه متضمن في الشرطين الأولين.

أو كالغشاوة على العين. و إنما يحصل ذلك الاستغفار بالاجتهاد في سبيل محو هذه الآثار ولو جملة ، ولا يتم ذلك إلا بقانون خاص فصله لنا مولانا الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) و لنسمه قانون الاستغفار الحقيقي.

فقد روي أن الإمام علي (عليه السلام) قال لقائل بحضرته أستغفر الله ﴿ ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان : أولها (الندم على ما مضى). والثاني (العزم على ترك العود إليه أبداً). والثالث (أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله سبحانه أملس ليس لك تبعه)[١] والرابع أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها). والخامس (أن تعمد إلى اللحم الذي نبت بالسحت[٢]فتذيبه بالأحزان[٣]حتى يلصق الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس (أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية[٤]) فعند ذلك تقول أستغفر الله[٥] ﴾ ٠

ومقصود الإمام علي (عليه السلام)من كل ذلك هو أن يستعيد المرء مرتبته التي أبتعد عنها بالذنب ، فعند ذلك يكون استغفاره صادقاً ومفيداً وقد ورد في الدعاء :﴿ اللهم تب عليّ حتى لا أعصيك ﴾ وهذا الذي ذكرناه هنا عن منزلة التائب الحقيقي ..

---

(١) تبعة أي ذنب .

(٢) السحت أي الحرام .

(٣) سوف نتكلم لاحقا عن معنى وحدود هذه الأحزان .

(٤) من الواضح طبعا ان مقصد الإمام (ع) بالألم والحلاوة هنا هو مفهومهما الدنيوي ، والا فان للطاعة حلاوة عند المؤمنين ، كما إن للمعصية ألما عندهم . لكن الإمام (ع) وصفها كذلك لأنه كان في مقام التكلم مع شخص مذنب ، فكلمه بما يفهمه ، لا بما يعرفه هو (ع) .

(٥) الوسائل ج ١١ ص ٣٦١ .

وهو معنى آخر من معاني قوله تعالى ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ التوبة-١١٨-

اللهم فاجعلنا من التوابين ، واجعلنا من المتطهرين.

لماذا يستغفر الفرد ؟

يختلف المستغفرون إلى طوائف ثلاثة ، من حيث إن الاستغفار هو عبادة:

الطائفة الأولى – هم الذين يستغفرون الله تعالى خوفا منه أو من عذابه ﷻ.

الطائفة الثانية - هم الذين يستغفرون الله تعالى حباً له ورغبةً إليه وطمعاً في رضاه وقربه.

الطائفة الثالثة - هم الذين يستغفرون الله تعالى طمعاً في رحمته أو جنته.

وليس شرطاً في جميع هذه الطوائف أن يكون الاستغفار عن ذنب فهو كما قلنا عبادة على أية حال.

وبهذا ينتهي ما أردنا ذكره في موضوع الذنوب ..

ونتنقل الآن إلى المحور الآخر من محوري البحث.

المحور الثاني : حول موضوع الأدعية

يقول الله تعالى في محكم كتابه :﴿ وإذا سألك عبادي عني ، فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ ، فليستجيبوا لي و ليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ البقرة-١٨٦- ويقول أيضاً :﴿ قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعائكم ﴾ الفرقان-٧٧-. فالدعاء إذا هو أمر مهم وضروري في حياة الفرد الدنيوية والأخروية ،العامة و الخاصة ؛ ولذلك يجب أن نفهم بوضوح معنى الدعاء وحقيقته ، وبعضا مما يتعلق به علاقة أولية ،حتى نتمسك بالدعاء ، ونحرص على أن يكون نافعاً ، وهذا لا يتم إلاّ بالمحافظة على شروطه ومقدماته التي من أهمها اجتناب الذنوب وآثارها ، وخصوصاً بعد أن عرفنا في المبحث السابق معنى الذنوب ، وخطورة آثارها وكيفية التخلص منها. عموماً فإن مما لاشك فيه إن للدعاء تعريفات عديدة متشابهة أو مختلفة ، وإن منها ما يصح أن يقال عنه منطقياً إنه تعريف ، ومنها لا يصح أن يقال عنه ذلك ، لكونه مجرد شرح للاسم والاصطلاح.

فإذا غضضنا النظر عن تلكم التعريفات أجد أن من المناسب تعريف الدعاء بما يأتي :

الدعاء : هو مخاطبة الله أو مناجاته على نحو ينال الداعي بعده عطاء دنيوياً أو أخروياً أو هما معاً .

وهذا التعريف لم يسبق إليه أحد حسب علمي ، وهو تعريف جامع مانع. نعم يحتاج إلى توضيح بعض الأمور ، وذلك من خلال النقاط الأربعة التالية :

الأولى - أن هذا التعريف يشمل فقط الدعاء لله ﷻ كما هو مقتضى تقيد المخاطبة بالله تعالى. ولذلك فإنه لا يعم مخاطبة المعصومين (ع) وإن سميت في

بعض الأحيان دعاء ؛ لكن هكذا دعاء خارج عن موضوع هذا المبحث.

الثانية – يجب أن تكون هذه المخاطبة بخضوع وتوسل ، إذ الدعاء أو الرجاء هو طلب أو سؤال يتوجه من الداني إلى الأعلى[١]، وهذا بخلاف الأمر فإنه إنما يتوجه من العالي إلى الداني. وعليه فالمخاطبة بين العبد و الخالق لا تكون دعاء إلا إذا كانت بنحو المسألة أو الخضوع.

الثالثة- يختلف العطاء الإلهي الذي يناله الداعي بحسب أمور عديدة ..

منها : نية الداعي ، ومضمون دعائه ، و مقصوده من الدعاء أو هدفه منه. ومنها حكمة الله ، والمصلحة العامة أو الخاصة ، ومنها غير ذلك. فمن يدعو الله تعالى أن يرزقه ولداً - على سبيل المثال - فيرزقه ذلك فهو قد نال عطاءً دنيوياً.ومن يدعو الله أن يرزقه شيئاً فلا يستجيب الله له لسبب معين أو لحكمة ما ، فهذا قد نال عطاءً أيضاً إذ أنه حصل على ثواب الدعاء وثواب التوجه بالسؤال لله ﷻ. ومن يدعو الله ليرزقه شيئاً محرماً فيستجيب الله له لسبب معين كالابتلاء أو المد في الطغيان [٢] فقد نال أيضاً عطاءً دنيوياً.

الرابعة- ما هو مقياس معرفة أن هذا الشيء أو الأمر دنيوي أو أخروي ؟

الجواب : إن المقياس يختلف ، فتختلف النتيجة أيضاً. بيان ذلك أنه إذا كان المبدأ في القياس هو مكان أو زمان حصول الأمر ، أو بالمعنى الأدق : الظرف أو الوعاء أو القابل أو العالم الذي يحصل فيه الأمر أو الشيء ، فيكون ما يحصل في

---

(١) أي من المحتاج الى الغني ، ومن الضعيف الى القوي .

(٢) وهو معنى قوله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) . آل عمران – ١٧٨ - .

عالم الدنيا هو دنيوي ، سواء كان مادياً أو معنوياً. وسواء كان حسناً أو قبيحاً. ويكون ما يحصل في عالم الآخرة هو أخروي سواء كان مادياً أو معنوياً. ويمكن أن نسمي هذا المقياس الأول : مقياس الحصول الظرفي. وهناك مقياس آخر وهو : إن ما يكون لأجل الآخرة فهو أخروي ، وما يكون لأجل الدنيا فقط فهو دنيوي.. ومن هنا ورد في الحديث « الدنيا والآخرة ضرتان لا تجتمعان » ويمكن أن نسمي هذا المقياس الثاني :مقياس العلة الغائية.

وهكذا فإنه يوجد مقياسان لمعرفة ما هو الدنيوي وما هو الأخروي وكل واحد يختلف تماماً عن الآخر من حيث المفهوم ، وإن تداخلاً في بعض الموارد المصداقية. فمثلاً : إن شارب الخمر - والعياذ بالله - يحس بلذة معينة فهذه لذة دنيوية بالمقياس الأول ، وإن كانت بالواقع ليست بلذة ، لأنها مزيفة ومكروهة لدى الخالق تعالى. وإن المؤمن العارف بالله يحس بلذة حقيقية « لا يلقاها إلا الذين صبروا ، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ولذته هذه وان كانت دنيوية بالمقياس الأول ، إلا أنها أخروية بالمقياس الثاني.

وبهذا المقدار نستطيع فهم العطاء الذي يحصل الداعي عليه- أي الذي يدعو الله ويرجوه - من حيث كونه عطاء دنيوياً أو أخروياً.

ولابد من التنبيه إلى أن ما كان أخروياً هو أفضل دائماً ؛ لأسباب عديدة لعل أظهرها هو أن الدنيا دار مجاز (أو ممر) ، والآخرة دار قرار (أو مقر) كما ورد عن الإمام علي (عليه السلام) وهكذا فإن الدعاء هو حالة من حالات الذكر و صورة راقية من صور العبادة ، إذ أنها تتضمن صلة واتجاه ومناداة من العبد لربه وخالقه عز وجل.

ولقد كانت كلمة (الصلاة) في الأصل تطلق على معنى الدعاء و أفعاله ،

وعندما فرضت الصلاة اليومية على المسلمين انتقل اللفظ ليطلق على هذه الأفعال التي يؤديها المصلي. أي أن لفظ الصلاة منقول من الدعاء إلى هذه الأفعال التي يؤديها المصلي من تكبيرة إحرام ، وقيام ، وركوع ، وسجود ، وتشهد ، وتسليم. ولكن مع حصول هذا النقل ، إلا أنه من الممكن إطلاق لفظ الصلاة على الدعاء ، فيقال لمن يدعو إنه يصلي ، وهو إطلاق يقبله الذوق ولا ترفضه اللغة. ومنه قوله تعالى :﴿وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ أي ادع لهم إن دعائك سكن لهم.

بين الدعاء والمناجاة ...

بقيت في المقام نقطة أخرى ينبغي الإشارة لها ، وهي ما الفرق بين الدعاء والمناجاة وهل هما مختلفان أم شيء واحد ؟ أقول : إن المناجاة هي دعاء ، أي إن كل مناجاة هي دعاء ولكن ليس كل دعاء مناجاة ، فالمناجاة أخص مطلقاً من الدعاء.

وحيث أن المناجاة دعاء ، فلا يهمنا بيان الفرق في خصوصياتهما مادام إن كلاهما يدخل في التعريف الذي وضعناه للدعاء.

وإن كان الظاهر إن الدعاء هو مخاطبة الله لأجل السؤال ، أو لأجل الحصول على عطاء وأما المناجاة فهي مخاطبة الله لأجل المخاطبة فقط حتى ولو كان فيها سؤال أو أدت إلى عطاء.. فالاختلاف بينهما إنما يكون في الغاية الأولية - أي ما هو مطلوب أولاً وبالذات.

تأليف الدعاء...

نظرا لأهمية الدعاء في حياة الإنسان ، ولأن آثاره ونتائجه تكون مهمة للداعي ، فقد منع الشارع المقدس جل شأنه أحداً عن وضع الأدعية من عند نفسه، بل عليه أن يأخذ الأدعية التي تصدر عن المعصومين (ع) باعتبارهم حجج الله على خلقه وأوليائه في عباده ، وأنواره بين خلقه وقد وردت رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) ينهى بعضهم عن تأليف الدعاء ، وقال له دعني من اختراعك. ثم علمه عملاً ينفعه[1]ولا يخفى إن المنهي عنه إنما هو تأليف الدعاء بعنوان التشريع ، أي بعنوان إنه يصبح دعاء في مستوى أدعية المعصومين (ع) إذ إنه بهذه الصورة سيكون بدعة ، والبدعة حرام. وإلا فإننا كثيراً ما نسأل الله وندعوه لقضاء حوائجنا بما يلهج به اللسان ، وإن كان عامياً غير فصيح ، وهذا لا نهي عنه بالتأكيد لأنه ليس بدافع التأليف، بل بدافع المسألة والدعاء فقط. وهذا هو ملاك التميز بين المنهي عنه وغير المنهي عنه هنا.

أما ما هي الحكمة من المنع عن التأليف ، فهي متعددة الجوانب ونذكر جانباً واحداً منها وهو إننا لا ندرك المصالح الحقيقية بعقولنا القاصرة ، فكيف يجوز لنا أن نصيغ ونؤلف أدعية نطلب بها أموراً معينة قد يكون فيها ضرراً علينا ؟!.

عموما ينبغي الإشارة إلى أن لأدعية المعصومين (ع) نفساً خاصاً، يتذوقه كل من عرفهم و أدرك مقامهم ؛ ولذا فهي تكاد تكون معجزة لهم ؛مثلما كان القرآن معجزة للنبي محمد (ص)[2].

---

(١) مفاتيح الجنان ص – ٤٣٤ - .

(٢) من عجائب ادعية المعصومين انك تجدها منسجمة ونافعة و معبرة عما في قلب كل فرد مهما كان مستواه من العلو أو الضحالة ؛ فأعلى الأولياء إذا قرأها يجدها تعبر عما في خاطره وهذا==

أنواع الدعاء...

إن لكل دعاء غاية ومقصد وضع لأجلهما ، وقد تجتمع هذه الغايات والمقاصد في دعاء واحد مهما كان صغيراً أو كبيراً. ولا يفوتنا التنبيه على أن المقصود بالدعاء هنا هو تلك الفقرة أو الجملة الواحدة التي هي مصداق لتعريف الدعاء ، وليس مقصودنا مجموع هذه الجمل والفقرات التي تجتمع لتكون دعاء تام النص.

بيان ذلك : إننا حين نريد تعداد أنواع الدعاء ، فإننا لا نأتي إلى دعاء (أبي حمزة الثمالي) مثلا ونضعه تحت نوع معين ، بل نلاحظ كل واحد من فقراته وعباراته مجزأة ونضع كل منها تحت نوعه المناسب ، شريطة أن يكون هذا الجزء دعاء بنفسه ، أي يصلح لانطباق التعريف عليه. وهكذا فانه توجد عدة أدعية ، كل واحد منها يدخل في نوع معين من أنواع الدعاء التي نذكرها على النحو الآتي:

١- النوع الأول : الأدعية العقائدية.

هي الأدعية التي يكرر فيها المؤمن ويجدد (عهده) مع الله تعالى ، إذ يناجيه ويشهده إنه مازال مؤمنا بالله ورسوله والقرآن الكريم ويوم القيامة -كما في دعاء يوم الجمعة للإمام السجاد (عليه السلام) - وبالأئمة المعصومين (ع) - كما في دعاء العهد - وبكل ما يجب التصديق به - كما في دعاء العديلة - وتبرز فوائد هذه الأدعية العقائدية أو العهدية ، في أنها تجعل المسلم على صلة وانتباه ووعي بأصول دينه و

== إنما يدل على انهم أعلى من كل مستويات الخلق . كما إن اشقى الاشقياء اذا تاب وقرأها يجدها تعبر تماما عما في نفسه وهذا إنما يدل على ان الله تعالى أطلعهم على ما في نفوس العالمين .

ضروريات عقيدته ؛ حتى يصبح على بصيرة من أمره في معظم أوقاته ، فتزداد حسناته وهو يردد هذه العقيدة الإلهية المقدسة أو يقوى إيمانه شيئاً فشيئاً.

٢- النوع الثاني : الأدعية التمجيدية.

هي الأدعية التي تشمل التسبيح لله ، والثناء عليه ، وتمجيده ﷻ. وفيها يتناول الداعي مواضيع مهمة هي مقدمات وأوليات للتوكل على الله ، ولقصده في طلب الحاجات ، ونحو هذه من الفوائد الجليلة ما ينفع في الدنيا والآخرة فينتقل الداعي هنا بين الإيمان بالله خالق الخلق و مدبر أمورهم ، وبين الإيمان بوحدانيته ، وبين التعرف على صفاته ، من غضب و رحمة ، وعطف وشدة ، عقاب ومغفرة ، وقوة وحكمة.. إلى غيرها من الصفات الإلهية. ومن أمثلة ذلك الأدعية الأولى من الصحيفة السجادية فتتواجد لدى الداعي فكرة غنية عن الله لكي يلجأ إليه أوقات الضيق وساعات العسرة والحاجة لأن الداعي أدرك بواسطة هكذا أدعية إن الخالق ﷻ هو مسبب الأسباب من كل جهة ومن كل باب. وفي الدعاء : ﴿ مولاي يا مولاي ، أنت القوي وأنا الضعيف ، وهل يرحم الضعيف إلا القوي ؟ مولاي يا مولاي ، أنت الغني و أنا الفقير وهل يرحم الفقير إلا الغني ؟ ﴾.

إن هذه الأدعية تعطي للمؤمن أكبر دافع لأن يلتزم بحبل الله ، ويتوكل عليه تعالى ، لأنه سيجد الأشياء كلها منقادة إليه ؛و منتهية عنده جل شأنه فلماذا يسأل غيره ،و لماذا يدعو سواه و يرجو غيره ؟! بل العارف لا يرى هذه الأشياء ، ولا ينتبه لهذه الأسباب أو يدركها ؛ لأنه لا يرى فاعلاً ومسبباً إلا الله تعالى.

يقول الإمام السجاد (عليه السلام) مناجياً الله : ﴿ لا مصدر لما أوردت ولا صارف لما وجهت ولا فاتح لما أغلقت ولا مغلق لما فتحت ولا ميسر لما عسرت ، ولا ناصر

لمن خذلت ﴾ [١]

ويقول (عليه السلام) في دعاء (الثمالي) :﴿ فو عزتك لو نهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك ﴾ معللاً ذلك بقوله :﴿ لا تسأل عن فعلك ولا تنازع في ملكك ولا تشارك في أمرك ولا تضاد في حكمك ولا يعترض عليك أحد في تدبيرك.. لك الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾. كما يتناول الداعي في مثل هذا النوع من الأدعية شكر الله وذكره وتنزيهه وتسبيحه والتهليل له عز وجل.

ولا شك إن هذه الأدعية فيها فوائد عديدة منها : تقوية الإيمان بالله عند المسلم الداعي. وتعريفه بصفات الخالق وتمكينه على حالة من حالات الذكر سواء كانت قلبية أو لسانية هذا بالطبع علاوة على الحسنات التي سيجنيها الداعي وتكون ثقلاً يرجح كفة الصالحات في ميزانه يوم القيامة ، إذ الحسنات تدور مع العبادة أياً كانت مادامت قربة إلى الله تعالى ، وقد عرفنا إن الدعاء صورة عالية من صور العبادة. ومن أمثلة هذا النوع من الأدعية :دعاء العشرات ، ودعاء المشلول وغيرهما.

كما تتفصل صفات الله وحاجة الخلق إليها على السواء في دعاء السحر الذي يدعى به في ليالي شهر رمضان ، كذلك العديد من الفقرات في دعاء الجوشن الكبير.

---

(١) مفاتيح الجنان ص ١١٥ .

٣- **النوع الثالث : الأدعية التي تصور حالة العبد** العامة أو الخاصة مع الله تعالى. وهذا النوع من الأدعية له أهمية خاصة ؛ لأنه من أعظم الأدعية تأثيراً في النفوس[1] حيث إن أفراد هذا النوع توفر للداعي أموراً لا غنى له عنها إن كان من المؤمنين ، فهي تحزن القلب و تبكي العيون ، وهاتان الفائدتان مما ينبغي للمؤمن تحصيله ، إذ أن مثل هذه الأمور الباطنية والظاهرية تغسل الذنوب وتطهر الروح وتمحو الكثير من آثار الذنوب ، وقد ورد في الدعاء ﴿ واغرس اللهم بعظمتك في شرب جناني ينابيع الخشوع ، واجرِ اللهم لهيبتك من آماقي زفرات الدموع[2]﴾

وهنا أجد من المناسب أن نتكلم عن الحزن و البكاء اللذين نقصدهما هنا ، فنقول : إن هكذا حزن و بكاء ، ليس مما يضر الإنسان ، لأنهما سبب معنوي تنتج عنه السعادة والراحة ؛ كما إن لهما لذة خاصة يشعر بها الفرد المستحق ، بحيث إنه يطير فرحا إذا تولد لديه مثل هذا الحزن وهذا البكاء ما دام إن لهما سبب مشروع ، وما داما محمودان شرعاً ، فإن أي بكاء أو حزن يكون له سبب مشروع - أي ترضى به الشريعة الإسلامية - ويولد في النفس بهجة و لذة وسعادة وراحة ، ويؤدي إلى نتيجة إيجابية ، ويقدم الإنسان في طريق التكامل ، فهو محمود ومأجور لكن ليس مقصودنا من هذا الكلام إن الحزن و الفرح يجتمعان معا في وقت واحد، بل هما يتعاقبان زماناً ، أو يختلفان محلاً ، كما لو كان الحزن قلبياً واللذة

---

(١)من الملاحظات الجلية ، انك اذا قرأت دعاء الامام (عليه السلام) وقرأت دعاءً آخر ألفه أي فرد آخر ، ستجد إن الأول يسمو كثيرا عن الثاني ، سواء من حيث المبنى أو المعنى ومن حيث تأثيره في النفوس وهذا دليل أكيد على ان لهؤلاء الأئمة (عليهم السلام) منزلة متميزة وخاصة في واقع الأمر وليست هذه المنزلة الا قربهم الشديد من الله تعالى .

(٢)من دعاء الصباح للإمام علي (عليه السلام)

عقلية .. عموماً هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن أي بكاء أو حزن يولد في النفس الكربة والضيق والألم والقنوط ، ويؤدي إلى نتائج سلبية فهو مذموم وغير مأجور بل ربما يكون مأثوماً في بعض الحالات لأنه يؤخر الإنسان عن التكامل ، بل ربما يوقعه في المعاصي والرذائل. فقد ورد إن جماعة أقبلوا إلى النبي محمد (ص) وأخبروه أن رجلاً يتمرغ في التراب ويبكي بشدة ؛ وهو على هذا الحال منذ مدة ، فجاء إليه النبي (ص) وسأله عن السبب ، فأجابه الرجل إنه أذنب ذنباً كبيراً وهو يخاف من الله أن لا يغفر له ذنبه فقال له النبي (ص) إن هذا يأس وقنوط من الرحمة الإلهية ، وهذا اليأس ذنب أكبر من ذلك الذنب الذي كان قد عمله ، فإن الله غفور رحيم ، فينبغي للعبد أن يحسن الظن به ﷻ. وأما اليائس والقانط فهو كالكافر بالله تعالى.

وهكذا يجب أن يوازن الفرد بين خوفه ورجائه بالأسلوب الذي يؤدي إلى تكامله الفعلي. وقد قال الإمام محمد الباقر (عليه السلام) : ﴿ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران ، نور خيفة ونور رجاء، ولو وزن هذا لم يزد على هذا.﴾ وقد جمع الله سبحانه في وصف

من أثنى عليهم فقال :﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ وقال : ﴿يدعوننا رغبا ورهباً﴾[١].

أقول إن معنى قول الله ﴿ وادعوه خوفاً و طمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ الأعراف-١٥٦ ، هو اعبدوا الله (خوفاً وطمعاً) عبادة حسنة تؤدي إلى التكامل والتصاعد ، كما إن عبادة الله لأجل الخوف أو الطمع أيضا هي عبادة حسنة ، يستحق العامل بها أن يكون من المحسنين إلى أنفسهم.

---

(١) جامع السعادات ج١ ص ٢٥١ .

وعلى أية حال ، فإنه سواء كان الحزن والبكاء المحمودان والمشروعان ؛ بسبب الدعاء ، أو بسبب تلاوة القرآن ، أو بسبب تذكر المصائب التي مرت على أهل البيت (ع) لاسيما مصيبة الإمام الحسين (عليه السلام) أو بسبب تذكر أو تدبر بعض الحقائق أو النوازل التي تصيب الإنسان بعد الموت ، أو بأي سببٍ آخر مشروع ، يحزن المؤمن ويجعله يخاف أو يبكي أو يتباكى.. فإن النتيجة واحدة على اختلاف قوتها عند الأشخاص ، تبعا لأي حالة منها ، وهذا الاختلاف راجع إلى أن الناس يتفاوتون في درجة التقوى والفهم وكذلك التوفيق ، فكلما كانت هذه الأمور أقوى عند الفرد ؛ كلما كان تأثير تلك الأسباب أشد وأوضح. كما إن كل حالة من الحالات والوسائل التي تأتي بالحزن أو البكاء لها تأثيرها الخاص على الأشخاص ، وكذلك لها أجرها وحسناتها الخاصة ، وهكذا ستمحى بعض آثار السيئات عندئذ ، وتحس الروح بسعادة تغمرها حينما تزول عنها بعض عينات الغشاوة أو عمى البصيرة. فيتلخص إن الحزن أو البكاء إذا كان فيه سعادة فهو محمود ، وإلا فهو مذموم.

إن المؤمن بالله وبرسوله وبالقرآن وبكل ما يجب الإيمان والتصديق به مما هو حق وصدق ثابت ، لا تضيره تلك الأحزان الظاهرية ولا تخدش سعادته الواقعية تلك الدموع المادية ، وتلك الأحزان المعنوية ، لأنها تخفي ورائها مباهج باطنية ولذات داخلية ، فهي نافعة من حيث إنها تسعده وتؤنسه وتقدمه [1] .. هذا على مستوى معين.

وأما على أدنى المستويات فنقول ، إنه ليس المطلوب من المؤمن أن يقضي

---

(١) وهذا ليس بالغريب ، إذ أن الطب النفسي يؤكد إن أمراض نفسية عديدة تشفى بمجرد البكاء ، وهناك من يشبه البكاء بأنه كالمطهر الذي ينظف الجروح ويداويه .

حياته في حالة خوف وحزن وبكاء ، بل هي مجرد لحظات مباركة يمر فيها الفرد بتلك الحالات الطريقية قربة إلى الله تعالى ، وهي لا تستغرق وقتا كثيرا بل ولا يكاد يقارب مع الوقت الآخر الذي نصرفه فيما لا ينفع ، فضلاً عما نصرفه فيما يضر. وأما ما ينفع فهو مشروع وراجح عموماً - ما دام ينفع دنيوياً أو أخروياً -.

إذ المرء مثاب ومأجور عندما يمارس حياته وأعماله وواجباته وأفراحه ، ما دام يضمن الطاعة وعدم الخروج عن حدود ما أمر الله تعالى ، خصوصاً إذا جعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى.

وبهذا المقدار نختم حديثنا عن الحزن والبكاء ، لنعود إلى النوع الثالث من أنواع الأدعية التي تصور حالة العبد العامة أو الخاصة أمام الله تعالى..

فنقول : إن هذه الأدعية تتناول حالة العبد من عدة أوجه أو مواقف لعل أهمها ما يأتي :

أ- توضيح حاجة الإنسان إلى خالقه ومدبر أموره ومن بيده أمره [(١)] ، سواء كانت هذه الحاجة دنيوية أو أخروية. وقد ورد في الدعاء : ﴿ الهي أنا الجاهل في علمي ، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي ، الهي أنا الفقير في غناي ، فكيف لا أكون فقيراً في فقري﴾.

ومن هذه الأدعية (فقرات دعاء كميل) أو (المناجاة السجادية).

---

(١) يقول صدر المتألهين في تفسير قول الإمام الصادق (عليه السلام) : (لا جبر ولا تفويض ولكن امر بين أمرين) يقول : ان العبد مجبور في قدرته ، قادر في جبره . مضطر في عين اختياره ، مختار في عين اضطراره. والفعل ثابت له من حيث هو ثابت لله ، وصادر عنه من حيث هو صادر من الله .

ب- تصوير موقف الإنسان في الدنيا وما بعدها.. فهو في الدنيا كما يقول الإمام علي (عليه السلام) ﴿ يا رب وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها وما يجري فيها من المكاره على أهلها ﴾ ثم ينتقل الإنسان إلى العوالم الأخرى كالقبر والبرزخ ، ويعيش ما فيها من أهوال وصفها الإمام السجاد (عليه السلام) في دعاء الحزين قائلاً :﴿ الهي أي الأهوال أتذكر وأيها أنسى ولو لم يكن إلا الموت لكفى ، كيف وما بعد الموت أعظم و أدهى﴾ ثم يأتي يوم القيامة ذلك اليوم الذي ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ولذلك يقول الإمام علي (عليه السلام) في دعاء كميل :﴿ فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها وهو بلاء تطول مدته ويدوم مقامه ولا يخفف عن أهله لأنه لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك ﴾ عموماً إن كل عالم من هذه العوالم له شدته وثقله ومواقفه ، وإن تصوير هذه المواقف ينفع جداً ، فهو يلهب النفوس الصافية ، ويحزن الأفئدة الواعية ويذكر القلوب الغافلة.. رهباً أو طمعاً أو حباً. كما إنه ينفع الأفئدة النورانية ، والقلوب العارفة ، وإن كانت غير جاهلة. ولا غافلة عن مثل تلك المواقف.

وعلى أية حال فإن أي مؤمن يعلم إن هذه المواقف حقيقية ، وإنه لابد له من المرور بها كما مر بها من كان قبله ، كانت تلك الدموع التي يذرفها من تلك المدافع المبصرة وهو يتلو مثل هذه الأدعية ؛ كانت تخفيفا عليه وسكينة له وجنةً تحوطه.. فيشعر عندئذ بالأمان مادام مستعيناً بالله رب العالمين ، ومادام لم يدن من أعدائه الماديين والمعنويين ، وكلٌّ ما يبعد الإنسان عن طاعة الله والتزام أوامره

فهو عدو للإنسان [1] .

وعلى أية حال ، فإن من أمثلة هذا النوع من الأدعية التي تصور مواقف يمر بها الإنسان في الدنيا وما بعدها ، بعض المقاطع من دعاء (أبي حمزة الثمالي) ودعاء مروي في بحار المجلسي يقرأ في صلاة الوتر من صلاة الليل وفيه ﴿ صلِ على محمد وآل محمد وارحمني إذا أشتد الأنين ، وحظر علي العمل وانقطعَ مني الأمل وأفضيت إلى المنون وبكت علي العيون وودعني الأهل والأحباب وحثي علي التراب ونسي إسمي وبلي جسمي وانطمس ذكري وهُجِرَ قبري فلم يزرني زائر ولم يذكرني ذاكر ﴾.

جـ- تصوير أشكال التقصير والتعدي لدى الإنسان عموماً وقد ورد في الدعاء : ﴿الهي قلبي محجوب ونفسي معيوب وعقلي مغلوب وهواي غالب وطاعتي قليل ومعصيتي كثير ولساني مقر بالذنوب ﴾ إن أي إنسان هو في الحقيقة مقصر في حق الله ﷻ وذلك لأنه لم يؤد تمام الواجب الذي عليه تجاه الخالق المنعم جلّت آلاؤه ، ولعل من أظهر أشكال هذا التقصير هو عدم تأدية الشكر على أكمل وجه لله عزّوجل.. وفي الدعاء : ﴿فكلما قلت لك الحمد وجب علي

---

(١) في كتابنا المخطوط {معالم التكامل } في تربية الانسان تجد مبحثا عن اعداء الانسان وهم خمسة عموما : الجهل والنفس والشيطان والدنيا والظالمين . اما الجهل و الظالمين فعداؤهما واضح ولا ينكر ذلك احد . واما النفس فهي عدة مراتب ، والعدو من مراتبها هي النفس الأمارة بالسوء . واما الشيطان فهو لفظ يشمل ابليس واعوانه من الجن والانس ، وان كان اعوان ابليس من الانس هم الظالمين – ويشمل ايضا الذين يشبهونه في الإضلال كما يشمل النفس الامارة بالسوء ايضا .. وكل هؤلاء اعداء للإنسان كما لا يخفى . واما حرام الدنيا فهو عدو للإنسان من حيث انه يبعد عن الله ، واما الدنيا في حد ذاتها فهي ليست عدوة للإنسان ، بل فيها منافع كثيرة له ، منها مادية ومعنوية ، ودنيوية واخروية .

لذلك أن أقول لك الحمد﴾. ولذلك يسمى يوم القيامة بيوم التغابن ، أي يوم الحسرة والندامة فإن كل إنسان يتندم لأنه لم يعمل من الصالحات أحسن مما كان قد عمله ، أو إنه لم يصل إلى أعلى مما كان قد وصل إليه ، ولعل هذا المعنى هو واحد من معاني قول الله ﷻ :﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً﴾ مريم-٧١-. وعموماً ، فإنه ينبغي الإشارة هنا إلى إن لهذا النوع الثالث من الأدعية ، فوائد عديدة ومهمة ، منها : تنبيه الغافلين عن أنفسهم ، ولذلك ورد عنهم (ع) ﴿ حاسبوا أنفسكم قَبْلَ أن تُحاسبوا ﴾.. فهكذا أدعية تعرّف الفرد بعيوبه وذنوبه حتى يحاسب نفسه عليها ، ويتلافاها جهد إمكانه.

ومن فوائدها إنها اعتراف ، والاعتراف يخفف من العقوبة كما لا يخفى.

أما أمثلة هذا النوع من الأدعية فهي فقرات من (المناجاة الشعبانية) ومناجاة الشاكين ، وبعض الفقرات من دعاء الحسين (عليه السلام) يوم عرفة.

يقول الإمام السجاد (عليه السلام) في مناجاة الشاكين :﴿ الهي أشكو إليك نفساً بالسوء أمارة والى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة ولسخطك متعرضة تسلك بي مسالك المهالك وتجعلني عندك أهون هالك ﴾.

د- تصوير الرحمة الإلهية على العباد وتفصيل بعض المواقف الدنيوية والأخروية التي تظهر سعة عفو الله وكرمه وغفرانه للذنوب.فقد ورد في دعاء الافتتاح..﴿ فلم أر مولى كريماً أصبر على عبدٍ لئيمٍ منك علي يا رب ، إنك تدعوني فأولي عنك ،وتتحبب إلي فأتبغض إليك ، وتتودد إلي فلا أقبل منك ، كأن لي التطول عليك ، فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والإحسان إلي ، والتفضل علي بجودك وكرمك ﴾.إن هذا التصوير يدفع الفرد إلى عدم اليأس والقنوط من الرحمة الربانية التي وسعت كل شيء وقد ورد عن الإمام الرضا

(عليه السلام) ﴿أحسن الظن بالله، فإن الله عز وجل يقول أنا عند حسن ظن عبدي بي ، إن خيراً فخيرا، وإن شراً فشرا ﴾ [١]

ومن أمثلة هذا النوع دعاء الحزين الذي يقرأ في وقت صلاة الليل ، وكذلك المناجاة الشعبانية التي يقول فيها الإمام علي (عليه السلام)﴿ الهي كأني بنفسي واقفة بين يديك ، وقد أظلها حسن توكلي عليك ، فقلتَ ما أنت أهله و تغمدتني بعفوك ﴾.

وهناك نوع رابع من الأدعية قبل أن نذكره لابد من الإجابة على سؤال قد يخطر في بال البعض عن سبب تسمية هذه الأنواع الثلاثة السابقة وهي﴿أدعية العقائد – أدعية التمجيد – أدعية تصوير حالة العبد ﴾ بأنها أدعية ، مع أنها لم يطلب فبها شيء معين ؟.

وجواب هذا السؤال يكون على نحوين ، أولهما : إننا قلنا في تعريف الدعاء أنه مخاطبة الله أو مناجاته على نحو ينال الداعي بعده عطاء. ومن المعلوم أن من يخاطب الله ويناجيه بأي واحد من الأدعية السابقة سوف ينال عطاءات عديدة بمقدار نيته وتوجهه ومستواه. و لذلك يصح أن تسمى هذه الأنواع أدعية.

وثانيهما : أن منطوق هذه الأدعية وإن كان لا يتضمن طلباً أو سؤالاً ، إلا أنه يدل بالملازمة على وجود داعيه وسببه ، وهذا الداعي الذي يبعث الفرد على تلاوة مثل هذه الأدعية إنما هو طلب الأجر أو المغفرة أو التقرب أو أي فائدة أخرى. كالتكامل مثلاً - ولو كانت هذه الفائدة دنيوية. أي أن قراءة الدعاء هي أمر معلول لابد له من علة غائية ، وعلته الغائية إنما هي طلب و سؤال وبالخصوص إذا كانت نية الداعي في قراءته للدعاء إنه يدعو الله ويناجيه تعالى.

---

(١) جامع السعادات ج١ ص ٢٥٣.

فتكون هذه الأدعية مصاديق للتعريف العام ويصح حينئذ أن تسمى أدعية. نعم يتوجه السؤال السابق حول أنواع أخرى من الأدعية كتلك التي تهدف إلى التعريف بمكارم الأخلاق ، وهي الأدعية الأخلاقية و تلك التي تهدف إلى التعريف بأصول التعامل الاجتماعية ، وهي أدعية العشرة أو الأدعية الاجتماعية وتلك التي تتضمن التخويف والترهيب من القدرة الإلهية. وتلك التي تروي حوادث تاريخية أو أسماء بعض المخلوقات ، كما يلاحظ ذلك كله في الأدعية الأولى من الصحيفة السجادية..

لكن يمكن الإجابة أيضاً بأن مثل هذه الأنواع إنما يقال لها أدعية بلحاظ ما في فقراتها من الدعاء و المسألة ، من باب تسمية العام باسم الخاص أو الكل باسم الجزء ، تماما كما يسمى الإنسان أحياناً بالرقبة كقول الفقهاء ﴿ اعتق رقبة ﴾ أي أعتق إنساناً مع العلم أن الرقبة هي جزء خاص من الإنسان. وهذا الجواب يصلح كذلك للأنواع الثلاثة أنفة الذكر بعد التنزل عن الجواب الذي ذكرناه هناك على نحوين.

ويحضرني الآن جواب آخر مهم ، هو أن هذه الأدعية إنما سميت أدعية لأننا نقرأها بنية الدعاء أو المناجاة.. هذا من جانبنا. وأما من جانب المعصومين (ع) وهم الذين ألفّوا هذه الأدعية ، فما داموا قد أسموها أدعية ، فهي أدعية بنص السنّة الشريفة.

النوع الرابع: الأدعية التي يراد بها قضاء الحوائج..

وهي على نوعين دنيوية و أخروية.

أ – الأدعية الأخروية : وتشمل أدعية المغفرة و التوفيق والهداية والإيمان و الجنة ومرافقة الأبرار ، وكل ما هو نحو ذلك مما يتصل بالآخرة وتحصيل الإجابة

هنا أمر مهم جداً للداعي ، فلابد أن يسلك جميع الطرق و الوسائل حتى ينال عطائه ويحصل على إجابة إلهية في صالحه. وفي الدعاء ﴿ ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضاً ، ولي فيها صلاح ، إلا قضيتها يا أرحم الراحمين ﴾.

ب - الأدعية الدنيوية [١] وهي أوضح من أن نفصلها ، فيكفينا القول عنها أنها هدية من الخالق الكريم إلى عباده ، إذ يفتح لهم باب الإجابة إذا قصدوه في مسائلهم وحاجاتهم إذا اشتد بهم الضيق و تعسرت أحوالهم فلم يلجئوا إلا إليه ﴿فمن لي غيرك أساله كشف ضري و النظر في أمري ﴾.

وقد قال الله تعالى :﴿ إدعوني أستجب لكم ﴾غافر-٦٠-.

و لعمري فإن من يفهم هذه الآية ، ويدرك المعنى الحقيقي لكلمة ﴿ إدعوني﴾ والمعنى الحقيقي لكلمة ﴿ أستجب ﴾ سوف يفهم ويعرف فلسفة الدعاء ، ويعلم إنه ما من دعاء فعلي إلا وقد استجاب الله له فعلاً حيث نسمع في مناجاة الراجين ﴿يا من لا يرد سائله ولا يخيب آمله﴾.

ثم إنّ إجابة الدعاء تكون أمر بسيط وشيء ثانوي ، إذا قارناها مع العطاء الآخر الذي ينبغي أن يكون الهدف الأهم والرئيسي ؛ ذلك العطاء هو ما يناله الداعي جزاء توجهه وقصده إلى الخالق ﷻ. بل إن هذا العطاء والأجر هو الفائدة الحقيقية من الدعاء لو عرفت ، وأما ما سواه فهو أدون منه وأقل نفعا [٢]، بالنسبة

---

(١)لا يخفى ان هذه الادعية تسمى (دنيوية) بالمقياس الاول وليس الثاني. إذ المفروض هنا ان الداعي مؤمن بالله وبالآخرة . والا كانت الادعية دنيوية صرفة ، أي دنيوية بالمقياس الثاني.

(٢) هذا كله اذا كان الدعاء لمصلحة الدنيا وملذاتها ﴿ أي الأمور الدنيوية المحضة ﴾ ، واما ما كان من الدعاء للآخرة أو التكامل في الدنيا ، فالأمر ليس كذلك بالتأكيد ، اذا المطلوب في هكذا دعاء يكون راجحا ، ومثاله ان يطلب الفرد من الله تعالى ان يرضى عنه ، فالرضا الإلهي افضل من الحسنات ، وان كانت الحسنات تقتضيه.

لمن ينظر بعين المؤمن المهتدي الذي إنما ينظر بعين الله كما في الروايات إذ ما قيمة هذه الدنيا الفانية التي لا يدوم عزّها ولا سرورها ، وما قيمة أن يُقضى للمخلوق طلب فيها في مال أو خلاص أو شفاء أو نحوه ، في مقابل الأجر الكبير والحسنات والمنزلة العليا التي سيحصل عليها الداعي جزاء توكله على خالقه ، وطلبه للحاجات منه ، خصوصاً وإن هذه الدنيا هي دار امتحان و بلاء ومن المفروض فيها أن نظهر رضانا بما قسم الله تعالى لنا ، وقناعتنا – على الأقل – بما قدر الله لنا فيها.

وقد ورد عن المعصومين (ع) ﴿ إن الله ﷻ يقول : من شُغِلَ بذكري عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطي من سألني ﴾[1] فإن الإنسان الذي يذكر خالقه تعالى في ساعة العوزة والحاجة هو إنسان مؤمن ، وهذا الشيء الذي يفعله أمر كبير ، كبير بالنسبة له لأنه محتاج وليس بالنسبة إلى الله الغني العزيز. ولن ينسى الله هذا الذكر بل سيجازيه الجزاء الأوفى.

وأعوذ بالله السميع العليم ، والشاهد المجيب أن يكون معنى هذا الكلام أن نفي إجابة الدعاء عن الله جلّ شأنه ، مثلما قال به المبطلون الساذجون. كيف والله هو أحسن من يجيب ، وهو أكرم مقصود وخير مؤتى ، لا يرد سائله ، ولا يخيب أمله ، لأنه القادر على كل شيء والمالك لكل شيء ، وهو الذي يمحو ما يشاء ويثبت بقدرته وبحسب ما يراه من الحكمة والرحمة ؛ ولأنه الكريم الذي لا حد لكرمه ولانهاية لجوده ؛ ولأنه ﷻ جعل ذلك - أي الاستجابة - قانوناً عاماً ووعداً جلياً أجراه على لسان أنبيائه ورسله وكتبه ، وآخرها القرآن الكريم حيث

(١) الشافي في شرح أصول الكافي ج٧ ص٥١ .

جاء فيه ﴿إدعوني أستجب لكم﴾ وهذا وعد صريح من قادر متسلط[١] نعم ، إجابة الدعاء مشروطة بأمور عديدة لابد من بيانها بالتفصيل.

شروط استجابة الدعاء ...[٢]

أهم هذه الشروط ما يلي :

أولا : انقطاع الإنسان إلى الله تعالى ، بمعنى أن يعلم أن كل شيء مأمور بأمر الله وإرادته ، فكل ما يشاؤه يكون - بل كان - وكل ما لم يشاءه لم يكن.. وإنما كانت هذه القدرة والسيطرة الربانية ؛ من حيث أن الله هو خالق كل شيء ، وواهب القوة لكل شيء. وقد ورد عن المعصومين (ع) أن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق ، فلو أخلص نيته لله لأتاه الذي يريده في أسرع من ذلك[٣] وجاء في مناجاة الإمام السجاد (عليه السلام) ﴿فمن حاول سد خلّته من عندك ، ورام صرف الفقر عن نفسه بك ، فقد طلب حاجته من مظانها ، وأتى طلبته من وجهها.ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك فقد تعرض منك للحرمان ، واستحق من عندك فوت الإحسان﴾ وفي دعاء آخر ﴿ومن طلب حاجة إلى الناس فاني لا أطلبها إلا منك يا رب العالمين﴾.

ثانيا : اطمئنان الفرد إلى أن الله قادر على استجابة الدعاء مهما كان ، فإن ذلك يدل على حسن ظنه بالله عز وجل ، وقد سمعنا من قبل أن الله تعالى يقول :﴿ أنا

---

(١) بل أكثر من ذلك ، حيث قال الله تعالى (قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم) الفرقان - ٧٧ - ، وهذه الآية فيها معان عميقة ، توصلنا الى أهمية الدعاء بالنسبة الى الخلق كله .

(٢) را جع آداب الدعاء وكيفياته في خاتمة مصباح الكفعمي ص ٩٩٢ والميزان ج٢.

(٣) الشافي ج ١ ص ١٤٧.

عند حسن ظن عبدي بي إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴾ ..

ومعلوم أن من لا يطمئن بالإجابة الإلهية فهو غير مؤمن بالله ، وإذا كان غير مؤمن به فكيف يدعوه؟ و إذا دعاه فكيف يستجيب الله له ؟ خصوصا وإن الله غير محتاج إلى أي مخلوق.

ثالثاً : الانتباه ، بأن يتوجه الإنسان الداعي إلى الله ، على وجه يشعر أنه يخاطبه ويدعوه ويطلب منه قضاء حاجته. وقد قال الإمام الصادق (عليه السلام) ،﴿ إن الله عز وجل لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساهٍ ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ، ثم أستيقن الإجابة﴾[1].

رابعاً : إرادة الله ومشيئته عز وجل ، إذ قد لا يستجيب لدعوته وتوسلاته من باب الامتحان لإيمان المسلم وتوكله ، أو من أي باب آخر قد نجهله أو لا ندرك سره ، خصوصا ونحن بهذه القلوب الضعيفة ، والعقول القاصرة المقصرة.

خامساً : وجود المصلحة العامة للفرد أو لغيره عند إجابة الدعاء، فإن أحدنا قد يدعو الله لحاجة يريدها وهو لا يعلم أنها تضره وتؤذيه مثلاً [2] فتكون عدم إجابته هي خوفاً عليه و رحمة به وحفظاً لمصلحته.. وهذا كله من مصاديق قوله تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيراً لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شراً لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾البقرة-٢١٦-.

ولا يخفى إن المخلوق الفاهم يدرك أن ملاك المصلحة هو الواقع ، أي أن المصلحة الحقيقية هي الغاية ، لا المصلحة الظاهرية. كما أن المصلحة الحقيقية قد

---

(١) الشافي ج٧ ص ١٤ .

(٢) قال تعالى : ﴿ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير .. وكان الإنسان عجولا﴾ الإسراء – ١١ – .

تتحد مع الظاهرية أو تختلف عنها ؛ فإذا كان هذا الأمر يفهمه المخلوق الواعي ويدركه ويعمل على طبقه ومقتضاه ؛ فكيف إذا بخالق الخلق ﷻ ؟ إنه بالتأكيد يعامل الخلق طبقا للمصالح الحقيقية ، فقد ينعم عليهم إذا كان ذلك في مصلحتهم ، وقد يحرمهم أو يعاقبهم إذا كان ذلك في مصلحتهم.. وكل هذا يفعله الله رحمة لعباده ومخلوقاته. ولذلك ورد في الدعاء : ﴿ الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ﴾ ؛ لأن هكذا مكروه إنما هو مكروه ظاهراً ؛ لكنه في الواقع حسن ومحبوب فيكون محموداً ومشكوراً ، ولهذا فإن العارفين يشكرون الله على أي حال ، بل هم يسألونه أن يفعل بهم ما يريد لأنهم يثقون أنه تعالى يقلبهم في ساحة رحمته من خير إلى خير ، وفي الدعاء ﴿ يا مدبري ولست أدري ﴾.

قال الشاعر :

فسِسْنا كيف شئت ولا تكلنا إلى تدبيرنا يـــــا ذا المعالي

وقد ورد إن الإمام السجاد (عليه السلام) قال :﴿ مرضت يوماً فقال لي أبي : ما تشتهي يا بني ؟ فقلت له :أشتهي أن أكون ممن لا أقترح على الله ربي ما يدبر لي. فقال لي : أحسنت يا بني لقد ضاهيت إبراهيم الخليل حيث قال له جبرائيل : هل لك من حاجة. فقال : لا أقترح على ربي ، حسبي الله ونعم الوكيل﴾[1].

وهنا لابد من الإشارة إلى الأمر التالي : وهو أن البعض حينما يشاهدون كل هذه الشروط لاستجابة الدعاء ، قد يخطر في بالهم أن إجابة الدعاء مستحيلة أو نادرة لكن هذه الفكرة غير صحيحة ، لعدة أسباب ، منها أن التجربة العملية و الملاحظة التاريخية تثبت الإجابة الإلهية وتؤكدها ، بل تؤكد أنها متواترة، والتواتر

(١) سيرة الأئمة الاثنى عشر – ج٢ ص ١٦٥ .

علامة الحقيقة والواقعية ، كما هو مقرر في محله. ومنها : أن هذه الشروط هي القانون العام وهذا لا يعني أنه لا توجد استجابات إلهية للدعاء حصلت و تحصل بدون هذه الشروط ؛ ولأسباب خاصة أما من الله تعالى أو من الفرد الداعي نفسه فتكون مثل هذه الاستجابات الموجودة فعلا وهو بمثابة إستثناءات من القاعدة أو القانون العام.

ومنها – أي من أسباب عدم صحة القول باستحالة الإجابة أو ندرتها ، مع وجود تلك الشروط - إن الله تعالى لو استجاب جميع الدعوات ؛ لسار الخلق والوجود وفق عقول الخلق و أهوائهم ؛ لأن كل واحد منهم يريد أمرا معينا ؛ فتتصادم الإرادات مع بعضها ويفسد الكون[١] أما لو تحكمت الإرادة الإلهية بهذه الإرادات ونظمتها على أساس المصلحة العامة والحكمة التامة ؛ فسيكون الكون منتظماً ومرتباً ﴿ ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ﴾[٢] وكذلك ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[٣] أي لو كان في السموات والأرض إرادات مختلفة لفسدت السموات والأرض ؛ لكنها منتظمة في الخارج ؛ لأنه لا توجد إلا إرادة واحدة هي الإرادة الربانية.. فتأمل.

سادساً : وهناك شرط آخر مهم لقبول الدعاء ، وقد أكد عليه أئمتنا المعصومون (ع) في روايات عديدة[٤] علاوة على سيرتهم عليه. فالفرد يجب أن يبدأ أولاً بحمد الله ، ثم الثناء عليه بذكر بعض صفاته عز وجل. ثم الإقرار

---

(١) هذا بالإضافة الى ان هذه العقول المخلوقة قاصرة عن ادراك المصالح الكلية بل قاصرة عن ادراك كمال مصالحها الشخصية لوحدها .

(٢) المؤمن – ٧١ - .

(٣) الأنبياء – ٢٢ - .

(٤) راجع الشافي ج٧ ص ٢٧ وما بعدها عن هذه الروايات .

بالذنوب أو الاستغفار منها استغفاراً حقيقياً. ثم الصلاة على النبي محمد واله الطاهرين. وبعد ذلك يسأل الفرد ويدعو رب العالمين ، بأن يدعو لغيره قبل أن يدعو لنفسه. كما إن من الأفضل له أن يتصدق بشيء من ماله قبل الدعاء فقد جاء في القرآن :﴿ إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ المجادلة-١٢- .هذا عن النبي محمد(ص)، فكيف عن الله ومناجاته ودعائه ﷻ ؟.

فالمتحصل إذا إن كيفية الدعاء ينبغي أن تكون وفق الخطوات التالية :

١ - الصدقة قبل الدعاء : والأفضل أن تكون سراً وقد ورد أن ﴿ الصدقة تدفع البلاء ، وترد القضاء ﴾ كما ورد إن ﴿ صدقة السر تطفئ غضب الرب ﴾.

٢ - حمد الله وشكره والثناء عليه بذكر بعض صفاته ﷻ [1]: وأحسن الحمد هو قول ﴿ يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ﴾ وقول ﴿ الهي أنت كما أحب ، فاجعلني كما تحب ﴾.

٣ - الاستغفار و التوبة بصدق وإخلاص.

٤- الصلاة على النبي محمد وآله الطاهرين فقد ورد عن الصادق(عليه السلام) ﴿لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلى على محمد وآل محمد﴾.

٥ - الدعاء للآخرين بالمغفرة والرحمة أو أي دعاء آخر لهم.

حيث ورد عن الصادق(عليه السلام) ﴿ من قدّم أربعين من المؤمنين ثم دعا استجيب له﴾

٦ - الدعاء للنفس بالمغفرة.

٧ - الدعاء للنفس وطلب الحوائج والمسائل.

٨ - تسليم الأمر بعد ذلك لله ﷻ ﴿ اللهم افعل بي ما أنت أهله ، ولا تفعل

---

(١) انظر رواية في الميزان ٤٢/٢

بي ما أنا أهله ﴾.

إن هذه الكيفية ، وهذه الشروط مهمة جداً لذلك ينبغي للفرد أن يراعيها بقدر الإمكان وبحسب مستواه فانه من المعلوم أن المستويات إذا اختلفت ، اختلفت الوسائل..ولا نريد أن نطيل في هذا الموضوع ؛ فإن هذا البحث موجز وعام .

وفي رواية عن إمامنا الباقر (ع) أحببت ذكرها الآن ، أن الله تعالى يقول لعبده إذا دعاه : (لبيك عبدي ، لئن عجلتُ لك ما سألتَ إني على ذلك لقادر ، ولئن ذخرت لك فما إدخرت لك خير لك) .

أثر المعصومين (ع) في استجابة الدعاء :

يقول الله تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾الأعراف(١٧٠-١٧١) .

وحيث أن أئمتنا الأطهار (ع) كلهم شهداء[١]لأنهم قالوا كما مضمون رواية عن الإمام الحسن(عليه السلام)في الأنوار البهية ص٨٠ ﴿ ما منا إلا مقتول أو مسموم ﴾[٢] ولذا فهم أحياء يسمعون الكلام ويردون الجواب،وإن كنا محجوبون بالدنيا عن سماع جوابهم ، وقد ورد في زيارة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يوم الميلاد النبوي الشريف : أشهد إنك تسمع كلامي وتشهد مقامي ، وورد أيضاً : و أعلم أن رسولك وخلفائك عليهم السلام أحياءٌ عندك يرزقون ، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردون سلامي ، وإنك حجبت عن سمعي كلامهم ، وفتحت باب فهمي بلذيذ مناجاتهم[٣].

وحيث إن دعاء الأحياء مستجاب ،وهؤلاء الأئمة (ع) هم أحياء ، فدعاؤهم مستجاب .. وهذا ما يسمى بالقياس المنطقي الذي يتألف من كبرى وصغرى ونتيجة.

عموماً ، فإن هؤلاء الأئمة (ع) ليسوا أشخاصاً عاديين ، بل يمتازون

---

(١) أقول هذا الوجه الذي ذكرناه في الاستدلال على حياة الأئمة (عليهم السلام) هو من اظهر الوجوه و أوضحها ؛ وتوجد وجوه أخرى نعرض عن ذكرها لأنها تحتاج الى عمق ليس هذا محله .

(٢)أما بالقوة كالإمام المهدي (عليه السلام) كما في بعض الروايات ، أو بالفعل كباقي المعصومين (عليهم السلام).

(٣) مفاتيح الجنان ص ٣١١.

بالعصمة لقوله تعالى ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ وقول النبي محمد (ص) في حديث الكساء الصحيح :﴿ اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي﴾ [1]عن هؤلاء الأئمة (عليهم السلام).

ولذلك فان لهم دور مهم جداً في عملية الدعاء ينبغي الالتفات إليها ولو في الجملة . وهذا الدور إنما يحصل من خلال عدة أساليب نذكر المناسب منها ونترك الباقي إلى أهله :

الأسلوب الأول – الدعاء ، فهم (ع) يدعون الله تعالى بقضاء حوائج المؤمن الذي يأتيهم ليتوسل بهم وبكرامتهم إلى الله . فإذا قصدهم المحتاج وطلب منهم أن يدعو له الله ، فإنهم بالتأكيد لن يتخلوا عن المحتاج المخلص ، وإذا استجابوا لطلبه ؛ و سألوا الله عزّ وجل ؛ فإن الله سوف ينظر إلى دعائهم أفضل بكثير من نظره تعالى إلى دعاء الفرد العادي ؛ وذلك لأنهم يستحقون تلك النظرة الخاصة فإن للخلق مراتب ومقامات ، وإن لكل مرتبة ميزاتها ، كما إن لكل مرتبة ثمنها وجهدها .. فتأمل .

عموماً ، فإن هذا الأسلوب هو مفهوم عند الزائرين من المؤمنين ، ولعله الأظهر لديهم ، حيث يقول الشاعر مخاطبا الإمام الحسين (عليه السلام):

هذي ذنوبي قد أقضت مضجعي   وغزت فؤادي هجمة الكربات

هــلا دعوت الله غفر مزلتــي   بدم الرضيع على ثرى العرصات

وليس هذا الأمر بغريب بعد ما قدمناه من أنهم (ع) شهداء، والشهداء أحياء . وقد ذكر القرآن إن الملائكة يفعلون ذلك ، أي يدعون للمؤمنين ويستغفرون لهم ، حيث قال جل جلاله ﴿والذين يحملون العرش ، ومن حوله يسبحون

---

(١) نفس المصدر السابق ص٢ من الخاتمة .

بحمد ربهم ، ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ﴾المؤمن-٧-

فلماذا نستكثر هذا الشيء على الأنبياء والمرسلين والأئمة المعصومين (ع) الذين تتشرف الملائكة بخدمتهم وتلوذ بمراقدهم. وهذا لا يسمى شركاً والعياذ بالله؛ لأن المحتاج يعلم تماماً إن قضاء حاجته إنما هو بيد الله وحده ؛ إذ أنه مسبب الأسباب وخالقها لكنه قصد المعصوم (عليه السلام) ، ليدعو له ، على اعتبار إنه أفضل منه على الأقل وأقرب منزلة منه إلى الله تعالى . فقد ورد في زيارة الإمام المهدي (عليه السلام) ﴿ أسألك يا مولاي أن تسأل الله تبارك وتعالى في صلاح شأني وقضاء حوائجي وغفران ذنوبي﴾[1] .

وهذا أشبه شيء بما نفعله نحن جميعاً حينما نذهب إلى الشيخ الجليل أو العالم العابد أو الشخص المبارك ونطلب منه أن يدعو لنا قائلين له ﴿ نرجو دعاءكم ، أو نسألكم الدعاء ﴾.

الأسلوب الثاني : الجاه والمقام الكريم ، فهؤلاء المعصومين (ع) لهم منزلة عظيمة عند الله ، ودرجة رفيعة لديه تعالى ، وكذلك يحوز هذه المنزلة والدرجة كل من عمل عملهم وجاهد جهادهم (ع) . وإن من المعلوم إن الفرد إذا أراد حاجة من ملك معين أو حتى من أي شخص ، فإنه يبعث بسؤاله مع أقرب الناس إلى هذا الملك أو الشخص وذلك لتقضى حاجته بأسرع وقت ، أو لكي يعتني بحاجته أو سؤاله . وإذا كانت هذه هي سيرة العقلاء عموماً فإنها بالتأكيد سيرة جارية حتى بين الخالق ومخلوقيه لأنه واحد من العقلاء بل هو سيدهم ورئيسهم

---

(١) المصباح للكفعمي ص ٤٩٨ و مثله في دعاء مسجد السهلة ـ مقام المهدي (عليه السلام) ، راجع الاستغاثة بالمهدي (عليه السلام) في مفاتيح الجنان ص ١١٧ .

فيكون السائل أو الداعي أمام أحد أمرين لا ثالث لهما أولهما: أن يتوجه إلى الله تعالى بسؤاله وحاجته بعد أن يقدم بين يدي سؤاله وساطة مؤثرة لها دخل معين في الإجابة أو الاعتناء .

ثانيهما : أن يتوجه إلى الله بسؤاله وحاجته من دون أن يقدم ذلك ولا ريب أن الأول أنفع للعاقل وأفضل للسائل لأن فيه سبباً إضافياً لتحصيل الإجابة ولا يوجد أحد أفضل من هؤلاء الكرام المطهرين الذين خلق الله الكون لأجلهم كما في بعض الروايات لا يوجد أحد أفضل من هؤلاء يمكن أن نسأل الله تعالى بجاهه وحقه فيستجيب الله لنا إكراماً له ومحبة لذكره وقد ورد في زيارة النبي محمد (ص) :﴿ وإني أتيتك مستغفراً تائباً من ذنوبي ، إني أتوجه بك إلى الله ربي وربك ليغفر لي ذنوبي ﴾ .وفي زيارة العباس بن علي (عليه السلام) تجد الدعاء الأتي : ﴿اللهم فأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعل رزقي بهم داراً وعيشي بهم قاراً وزيارتي بهم مقبولة وحياتي بهم طيبة ﴾ .

الأسلوب الثالث : الكرامة ، فإن كرامتهم عند الله ثابتة ولها مظاهر مجربة وأكيدة إذ أن أرواحهم لمقدسة وأجسامهم لمقدسة فتكون مراقدهم مقدسة ومباركة وقد ورد في الدعاء : ﴿اللهم صل على محمد وآل محمد ولا تدع لي يا رب في هذا المكان المكرم والمشهد المعظم ذنباً إلا غفرته ﴾ وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته[1]حادثة نقلها له ثقاته ومضمون هذه الحادثة إن جماعة يستشفون في حضرة الإمام علي (عليه السلام) في النجف ليلة السابع والعشرين من رجب وقد قال ابن بطوطة إنه شاهد هؤلاء بعينه .

---

(١) رحلة إبن بطوطة ص ١٩٥ .

وقال الشاعر – مخاطبا الله تعالى – وهو في حضرة الإمام الحسين (عليه السلام) :

يا مهبط البركات حسبي بعضها   فلقـــــد نزلت بمهبط البركات

فالإنسان إذا دعا الله في أحد هذه المراقد المقدسة فإنه سوف يضيف سبباً آخر من أسباب الاستجابة حيث أن لهذه البقاع قدسية وكرامة ونفحات مباركة وقد ورد عن عبد الله بن عباس إن النبي (ص) قال في حق الحسين (عليه السلام) :﴿ ألا وإن الإجابة تحت قبته والشفاء في تربته ﴾ [1] ولعل خير مثال على هذا الأسلوب الثالث هو أنك إذا أردت حاجة من شخص معين فإنك تحاول أن تسأله في حضرة أحب الناس إليه لأن هكذا حالة لها تأثيرها الطبيعي في استجابة الطلب وقضاء الحاجة كما هو ثابت بالتجربة .

الأسلوب الرابع : الشفاعة[2]حيث أن المعصومين (ع) يشفعون لمن يستحق الشفاعة منا عند الله تعالى وعندئذ سوف تزداد العناية الإلهية وتقوى ويقوى معها احتمال تحصيل الإجابة فهذه أربعة أساليب يتبين منها تأثير المعصومين (ع) في إجابة الدعاء ولا يفوتنا أن نذكر إن كل هذه الأساليب مشروط أيضا ومن شروطه : الانتباه في مخاطبة المعصوم (عليه السلام) والاطمئنان إلى منزلته وتأثيره (عليه السلام) في قبول الدعاء وكذلك وجود المصلحة العامة وأخيراً لابد من التعرض –في هذا المقام– إلى التهمة التي يوجهها البعض إلى زوار المراقد المقدسة والعتبات الشريفة على أصحابها أفضل التحيات والسلام . حيث أن البعض يتهم من يزور العتبات المقدسة ومراقد المعصومين (ع) بالشرك ويشنع عليهم بأن عملهم هذا يشبه عمل

---

(١) الوسائل ج١ ص ٣٥٢.

(٢) الشفاعة وردت في روايات عديدة جدا بل قد وردت حتى في القرآن الكريم ونحن لا نريد ان نخوض في مبحث الشفاعة لكي لا نخرج عن موضوعنا الأساسي.

المشركين الذين يعبدون الأصنام والعياذ بالله .

لكن لا يخفى أن هذا الاتهام باطل وغير صحيح لأنه يوجد فرق واضح جداً – لكل من لديه عقل- بين الأمرين . فالمشركون يعبدون الأصنام بحجة أنها تقربهم إلى الله تعالى . وأما المؤمنون الذين يزورون هذه العتبات و المراقد المباركة فإنهم لا يعبدون أصحابها كما هو معلوم وإنما هم يعبدون الله ﷻ ويطيعونه ويعملون المستحبات لأجل التقرب إليه تعالى ولذلك فهم يزورون تلك المراقد والأضرحة قربة إلى الله تعالى على اعتبار إنها من المستحبات –على الأقل – تماماً مثل زيارتهم المريض للعيادة وزيارتهم إخوانهم المؤمنين للمودة ، كل ذلك قربةً إلى الله تعالى[1]حيث أن كل من زيارة المريض وزيارة المؤمنين وزيارة المعصومين (ع) في مراقدهم .. هي أمور مستحبة في نفسها ومطلوبة شرعاً بل هي واجبة بلحاظ بعض العناوين الخاصة .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان من المعروف أن من أحب شخصاً أحب أقربائه وأصحابه وكل من يتعلق به وكلما كانت المحبة أكثر كان الحب للمتعلقين أكثر فمن هذه الناحية فان الفرد الذي يحب الله تعالى ينبغي له أن يحب الأشخاص الذين يحبهم الله ولا يخفى إن الله تعالى يحب أولياؤه كما ورد في القرآن والأخبار لذا كان جديراً بالفرد المحب لله أن يحب أولياءه وإن أعظم أولياءه هم المعصومون (ع) فإذا أحبهم الفرد زارهم وأقام عندهم وتقرب إليهم وفي الحديث الوارد قي الخصال ص٣٣٠ عن النبي (ص) ﴿ حبي وحب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن أهوالها عظيمة : عند الوفاة ، وفي القبر ، وعند النشور ،

---

(١) وقد ورد في زيارة العباس (عليه السلام) : (اللهم اني تعرضت لزيارة اوليائك رغبة في ثوابك ورجاء لمغفرتك)

وعند الكتاب ، وعند الحساب ، وعند الميزان ، وعند الصراط﴾ وهناك رواية أخرى مثلها ص٣٧٤.

وبهذا المقدار نختم الحديث عن أثر المعصومين (ع) في إجابة الدعاء .

فوائد الدعاء ..

تختلف فوائد الدعاء ونتائجه بين مادية ومعنوية ، والمعنوية تختلف في شدتها بين لسانية وقلبية ، أو قل بين الجوارح والجوانح بمعنى أشمل كما تختلف هذه النتائج عموماً بحسب المستويات الفردية والقصدية . وأخيرا فهي تختلف بين دنيوية وأخروية .

وفوائد الدعاء كثيرة لعل أهمها :

١- توفير صورة العبادة عند الداعي إذ إن الدعاء ذكر على الأقل .

٢- تكثير الحسنات والخيرات له مادام منشغلاً بالدعاء.

٣- إضفاء حالة الحزن من الذنوب والخوف من علام الغيوب على الإنسان الداعي مما يمحو عنه الكثير من آثار الذنوب والسيئات بل وينفعه جداً .

٤- تمكين معرفة الخالق وصفاته عند المسلم .

٥- تقوية الإيمان عند الإنسان بعد أن يزداد توكله على الله ﷻ .

٦- قضاء حاجة الداعي ومسألته، وقد ورد عنهم (ع) ﴿إن الدعاء يرد القضاء﴾.

وقد اعترض البعض من الجاهلين على فائدة الدعاء هذه وعلى الاستجابة الإلهية للدعاء ، وقالوا إنه لو حصلت استجابة فلربما تكون من باب المصادفات الطبيعية لا من باب إجابة الله لدعاء عبده ، لكن هذا الاعتراض باطل وهذا

القول لا يصدر إلا من جاهل ، إذ إنه يوجد فرق واضح بين أن يكون الحصول بسبب الإرادة الإلهية السابقة –أي القضاء – وبين أن يكون بسبب الدعاء ، بل لو فرضنا إن هذا الحصول – أي حصول الأمر المطلوب – لو كان بسبب القضاء الإلهي وليس بسبب الدعاء فإن هذا لا يعني مطلقاً إن الدعاء ليس له أثر هنا بل إن هذا شيء وهذا شيء آخر.

بيان ذلك ، إنه قد يكون القضاء الإلهي مستنداً إلى ذلك الدعاء بحيث لو لم يكن هناك دعاء لم يكن هناك قضاء على مقتضى الدعاء ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فنحن مأمورون بالدعاء إذ ورد عنهم (ع) ﴿ إلهي كيف تؤيسني من عطائك وقد أمرتني بدعائك ﴾ ، وليس من المعقول أن نؤمر بالدعاء إذا لم تكن هناك فائدة بل الفائدة موجودة وموعودة بقول الله ﷻ :﴿ إدعوني أستجب لكم ﴾ والوعد الإلهي متحقق لا محالة لأنه تعالى صادق حكيم ولأنه لا يوجد مانع من تحققه ﴿ ولا يعترض عليك أحد في تدبيرك ﴾ ، كما أن الدعاء أمر مشهور ومتواتر – كما ذكرنا سابقاً – بل هو أمر فطري تشترك فيه حتى الحيوانات وإن جميع الأديان السماوية والوضعية تنظر إلى الدعاء على أنه مؤثر ونافع .

فيتلخص .. إن على الفرد أن يدعو الله تعالى فإن ظهرت النتيجة بسبب الدعاء فهو المطلوب وإن ظهرت النتيجة بسبب التخطيط الإلهي أو القضاء المسبق فهذا لا ينافي الدعاء وأهميته.

عموماً .. توجد فوائد أخرى للدعاء منها : تعليم ضروريات الدين ، والأخلاق ، وآداب العشرة ، وبعض الأحداث الكونية ، وأسماء المخلوقات ، وأنواع الملائكة ، وغير ذلك مما يلاحظ أكثره في أدعية الصحيفة السجادية بالخصوص.

بين الدعاء والعمل ..

لا يمكن للإنسان أن يجعل دعائه شماعة يعلق عليها آماله وأمانيه ومشاريعه، بل عليه أن يعمل ويجهد نفسه قدر استطاعته ويستعمل السبل والوسائل الطبيعية التي تؤدي إلى قضاء حاجته بشرط التوكل على الله ﷻ فإن رب العالمين وإن كان هو مسبب الأسباب إلا أنه قد جعل لكل شيء سبباً وجعل ذلك سنة الحياة ، يقول الإمام الصادق (ع) ﴿ أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب فجعل لكل شيء سبباً﴾ [١] فهذا الوجود يخضع لقوانين طبيعية[٢] ونظام دقيق ؛ هيأه الله تعالى لكي تدخل فيه كافة تحركات الخلق وفعالياتهم ولولا إن الله قد جعل لكل شيء سبباً لما كان هناك داع لوضع تلك القوانين .

وعليه فلو أراد الفرد أن يحصل على أمرٍ ما – من حقه أن يحصل عليه – فلا بد له من سلوك الطرق المؤدية إلى ذلك الأمر، نعم في كل هذا وغيره يجب أن ينتبه الفرد إلى حقيقة واحدة هي أن هذه الأسباب التي أمره الله تعالى بإتباعها[٣] كلها مأمورة بأمر الله وإرادته فإن شاء أمضاها وإن شاء منعها .

فإذا أدرك الفرد هذه الحقيقة كان من المتوكلين وإن كان في الظاهر يسلك هذه الأسباب لأنه في الباطن يعتمد على مسببها وخالقها ﷻ يقول الرسول (ص) :﴿ ثلاثة لا يستجيب الله لهم . أحدهم رجل أبتلي بامرأة سوء فهو يقول ..اللهم

(١) فلسفات إسلامية ص ٦٣ .

(٢) ليس المراد من كونها طبيعية إنها مادية بل المراد إنها قوانين عامة وضعها الخالق عز وجل فقد تكون مادية كالجاذبية أو غير مادية كقانون {عبدي أطعني ، تكن مثلي . تقل للشيء كن فيكون } .

(٣) هذا الأمر إرشادي وليس مولوي .. فتأمل .

خلصني منها. يقول الله له .. وقد خلصتك منها ؛ جعلت بيدك طلاقها . والثاني رجل مقيم في بلد لا يحضره فيه كل ما يريده ، ويقول اللهم خلصني من هذا البلد .. يقول الله .. يا عبدي قد خلصتك من البلد وقد أوضحت لك طريق الخروج منه ؛ فاخرج منه إلى غيره . والثالث .. رجل أوصاه لِدَيْنِه بشهود وكتاب وقلم ، فلم يفعل ذلك ودفع ماله إلى غير ثقة بغير وثيقة﴾.(١)

---

(١) ورثة الفردوس ص ٢٥٨ .

خاتمة ..

وأخيراً نقول إن أفضل الأدعية التسليم والرضا ، والأدعية التي يراد بها التكامل والتقرب لله عزّ وجلّ .

كما أن من الأدعية الحسنة هو الدعاء للآخرين قربة إلى الله تعالى ، لا حباً فيهم ولا كرامةً لهم ؛ لأن ثواب كل عامل إنما يأخذه ممن قصده وعمل لأجله كما ورد في الروايات ، وكما هو معنى من معاني قول الله تعالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ الإسراء-٧١-. أي بنياتهم وغايات أعمالهم ؛ على اعتبار أن النية والغاية كالإمام توجه أعمالهم إلى حيث تكون .. فأهل الله هم الذين كانت نواياهم وغاياتهم خالصة لله تعالى. وأهل غير الله هم الذين كانت نواياهم وغاياتهم لغير الله عزّ وجلّ .

وكذلك من الأدعية الحسنة هو طلب ما يختاره الله ، مثل دعاء ﴿ اللهم افعل بي ما أنت أهله ، ولا تفعل بي ما أنا أهله﴾؛ فانه يدل على تسليم الداعي لله وثقته العالية به .ومثله دعاء ﴿الهي علمك بحالي يغنيك عن سؤالي﴾. وكذلك الدعاء الذي يقرأ في قنوت صلاة العيد : ﴿ اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد ، وأن تدخلني في كل خيرٍ أدخلت فيه محمداً وآل محمد ، وأن تخرجني من كل سوءٍ أخرجت منه محمداً وآل محمد﴾. فان هذا دعاء عظيم لو تأمله الفرد ؛ إذ أن محمداً وآل محمد (ص) هم أفضل الخلق وأقربهم إلى الله .

بقي أن نشير إلى ملاحظتين عن هذا المبحث بصورة عامة ..

الأولى – إننا تكلمنا باختصار جداً ، ولم نتطرق إلى جميع المباحث المتعلقة سواء بالذنوب أو بالأدعية ؛ وذلك لأننا اخترنا جملة من المباحث وجدناها –

بلحاظ معين – أهم من غيرها فتناولناها هنا دون غيرها مع الاعتذار .

الثانية – إننا تحدثنا في هذا المبحث عن بعض الأمور بصورة عامة وبما يناسب النظرة العامة ، ولم نتطرق إلى النظرة الخاصة أو المعمقة إلا بحدود ضيقة جداً ؛ وذلك لأن هذا المبحث (عام) وليس (خاص).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتب في السنة الخامسة عشرة

بعد الألف والأربعمائة من الهجرة المباركة

في ليلة التاسع عشر من شهر رمضان الكريم .

الكتاب الثالث

طَريقُكَ نَحوَ الجَنَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

((كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات

الى النور بأذن ربهم، الى صراط العزيز الحميد.

الله الذي له ما في السموات وما في الارض))

ابراهيم (١-٢)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

فكـرة هـذا الكتـاب تـأتي بنحـو الاجابـة علـى تسـاؤلات طبقـة واسـعة مـن الناس، بـل لعل اكثر الملتزمين تدور في اذهانهم هذه الاسئلة، والتي تتلخص في ان الجنة التي ورد في الحديث عن المعصومين (ع): (فليس لأنفسكم ثمن الاّ الجنة، فـلا تبيعوها بغيرها، فانه من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخسيس)[١]

هذه الجنة تحتاج الى عمل وجهد، وهـو بـدوره يحتاج الى وقت وفراغ، في حين تجد أن هموم الحياة ومشاغلها بكل متعلقاتها وتفرعاتها المتشابكة تفرض نفسها على واقع أوقاتنا لتاخذه كله او تترك لنا منه ما نسد به رمق الراحة ونطفيء به حرارة التعب، لنستعد ليوم جديد كسابقه.

فـاذا كـان لـبعض الافـراد طمـوح وأمـل في تحصـيل مراتـب عاليـة في الجنـة، فالمشكلة تكون أكبر واعظم بطبيعة الحال.

أقـول: هـذه الافكـار وان كانـت نابعـة مـن الايمـان والحـرص علـى الطاعـة وتحصيل الجنة، الاّ انها في الحقيقة ناتجة عـن الغفلـة وعـدم الالتفـات الى جملـة مـن المبـادئ الـتي يبـتني عليهـا نظـام العبـادة والطاعـة، فهـؤلاء يظنـون ان طريـق الجنـة منحصر مثلاً بكثرة الصلاة او الصوم أو التسبيح او قـراءة الادعيـة ونحوهـا، او انـه منحصـر بكثـرة المطالعـة وقـراءة جميـع الكتـب والمؤلفـات الـواردة في التفسـير او

---

(١)البحار ١/ ١٤٤.

الاخلاق او العقائد.

لكن الصحيح ان هذه الامور وان كانت سبلاً لتحصيل الجنة والمقامات العالية الاّ انها ليست السبل الوحيدة، بل يُوجد غيرها من الطرق مالا حصر له، ولعله بعدد انفاس الخلائق ان لم نقل اكثر من ذلك.

بل حتى كثرة الصلاة والادعية او كثرة المطالعة والتأليف اذا لم تكن مقرونة بالاخلاص والعمل، فانها لاتكون طريقاً الى الجنة، لان الله تعالى انما يتقبل من المتقين كما ورد في القران الكريم، ولان (العلم مقرون بالعمل)[١] ، ولولاه لكان العالم منافقاً.

وقد ورد في الحديث عن النبي (ص): العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمهِ فهو ناجٍ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك)[٢].

في حين تجد من ناحية اخرى ان عدداً من النساء مثلاً تخلدت اسماؤهن في التاريخ، رغم ان كل واحدة منهن لم تفعل اكثر من مسؤلياتها الاعتيادية المتعارف عليها.

كما تجد بعض اصحاب المحلات كان استاذاً روحياً لبعض المراجع العظام، واذا تطلعت التاريخ تجد كبار الصحابة كانوا اناساً اعتياديين يخرجون لاعمالهم، ويكدون لعيالهم، رغم ان منازلهم في الجنة مما يغبطهم عليها كل مؤمن ومؤمنة.

فالقضية اذاً ليست معقدة كما يتصورها البعض، والجنة ليست حكراً على المتفرغين للعبادة والقراءة، بل هي مفتوحة (على اوسع ما يكون) امام كل انسان مهما كانت منزلته، ومهما كان وضعه وترتيب حياته، ما دام يسلك اليها على

---

(١)وهو مضمون رواية عن الصادق (ع) أنظر مرآة الرشاد/ ص٢١٨.

(٢)مرآة الرشاد /ص٢١٧.

الصراط المستقيم خصوصاً اذا التفتنا الى أن التعاليم الالهية ترافق الفرد في جميع تفاصيل حياته،حتى الامور الضئيلة كالمصافحة والسلام، بل حتى في حالات التنظيف والغسل ونحوها فان لها مستحبات وآثار كبيرة.

وهنا تجدر الاشارة الى ان الصراط المستقيم وان كان طريقاً واحداً كما هو مقتضى قوله تعالى: ((وانّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله))الانعام/١٥٣.

الا ان وحدة هذا الطريق لا تمنع من تعدد مساراته ما دامت بنفس الاتجاه، تماماً كما في الطريق العام للسيارات الذي ينقسم الى عدة مسارات أو (سايدات) بأصطلاحهم.

فرصة التكامل متساوية للجميع

وعلى اية حال: فان فكرة هذا الكتاب تتلخص في ان الله تعالى لايظلم احداً، وانه تعالى يهيئ الفرص للجميع على حدٍ سواء، وإن كانت أشكال هذه الفرص تختلف من حيث الصورة والحالة، فمنهم مثلاً من يولد في اسرة واعية، ومنهم من يولد في اسرة جاهلة، فان الظاهر بدواً ان فرصة الاول أفضل، ولكن التأمل يقودنا الى ان المسألة منوطة بارادة الفرد وهمته وحسن توفيقه، فلعل الاول لايصلح وان وُلد في تلك الاسرة، ولعل الثاني يصلح ويكون من كبار العلماء وان كان مولده في تلك الاسرة. وهذا يعني ان الفرص متكافئة، وان توهمنا انها غير متكافئة بحسب الظاهر والعيان، فالمولود في تلك الاسرة الجاهلة يؤيِّده الله تعالى بصديق ناصح، او بنفس صافية، ليعوضه بدل جهالة أسرته، وبذلك تكون فرصته مساوية لفرصة المولود في تلك الاسرة الواعية.

فهذه هي الفكرة الاولى لهذا الكتاب.

واما الفكرة الثانية له فهي تتلخص في تطييب خواطر عامة المجتمع، وزف البشرى لهم، بان الجنة مفتوحة لهم، كما هي مفتوحة للخاصة من العلماء او المقربين او نحوهم، بل لعل بعضهم ينال اعلى الدرجات رغم بساطة حياته، او انشغاله في قوت عياله، أو تربية اطفاله .

ففي الخصال عن الصادق (ع) (قال النبي (ص) ان في الجنة درجة لاينالها الا إمام عادل ، أو ذو رحم وصول ، أو ذو عيال صبور) .

ومن هنا يدرك القارئ ان المفروض بكتابنا هذا ان يكون سلساً مبسطاً قدر الامكان.

وفي الحقيقة فان مضمونه سيكون على شكل رؤوس نقاط، او افكار موجزة، لان استيعاب المطالب يحتاج الى مجلد ضخم او لعله اكثر من ذلك.

والمأمول ان يوفقني الله تعالى ويهيأ لي الوقت او الفراغ الكافي للتفصيل والتوسع، او يهيأ غيري لذلك فانها مسؤولية الجميع، وقد ورد في الحديث (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

اما منهجية الكتاب فسوف تكون ضمن اربعة فصول، حيث سنبدأ بالحديث عن المبادئ العامة للطريق الى الجنة، ثم نذكر اهم الاسباب والوسائل العامة لها، وبعدها نتعرض الى ما يلائم الرجل من هذه الاسباب، وما يلائم المرأة منها، مع مراعاة اهم الادوار والعناوين الخاصة بكل منهما.

حيث يقول الله تعالى: ((ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة)) النساء/١٢٤.

ولا يخفى ان مصاديق هذه الصالحات كثيرة وذات عدة مستويات، ومن المعلوم ان بعض هذه الصالحات تصدر غالباً عن الرجال كالعمل خارج البيت

خصوصاً تلك الأعمال التي تحتاج الى جهد وعناء، او كالدفاع عن العائلة وحمايتها او نحو ذلك. في حين تختص النساء بفعل صالحات عديدة كالحمل والولادة والإرضاع ونحو ذلك، وهذا الاختصاص ناشئ أما لأسباب تكوينية او تشريعية او عقلائية.

ومع ذلك توجد امور كثيرة قابلة لان تصدر من الرجل او المرأة على حد سواء كمساعدة الناس، أو اداء المستحبات الشرعية، أو تربية الاطفال، أو نحو ذلك.

نسأل الله تعالى ان يتقبل منا هذا الجهد المتواضع القليل، وان ينفع به الكثير، لعلهم يدعون لهذا العبد القاصر بالمغفرة والرضوان، اللهم آمين يا رب العالمين وارحم الراحمين وخير الساترين.

((والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً الا وسعها، اؤلئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون، ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ تجري من تحتهم الانهار، وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، ونودوا ان تلكم الجنة أورثتُموها بما كنتم تعملون)) الاعراف (٤٢-٤٣).

الفصل الاول

المبادئ العامة لتحصيل الجنة

يعتقد بعض الناس ان من حقه ان يصنع لنفسه طريقاً يوصله الى الجنة، فيرتب قواعده ومضامينه حسب مستوى تفكيره وأرادته، من دون ان يراجع – في ذلك – القواعد والحدود الالهية فيكون عندئذ مصداقاً لقول الله تعالى: ((قل هل نبئكم بالاخسرين اعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً)) الكهف(١٠٣-١٠٤).

ولا فرق في هذه المصداقية بين كونهم متجاهلين للحدود الشرعية ام كونهم جاهلين بها اصلاً، فان النتيجة واحدة..

((أنهم إتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، ويحسبون انهم مهتدون)) الاعراف/٣٠.

في حين ان الطريق الاسلم هو ذلك الطريق الذي يختاره الله تعالى ويحدده لنا، فان الجنة جنتهُ، ونحن خلقه وعبيده، وهو اعرف بمصالحنا الواقعية، حيث يقول عزوجل، ((ان هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)) الانعام – ١٥٣.

وقال تعالى ايضاً :

((فلذلك فادعُ، واستقم كما أُمرت، ولا تتبع اهواءهم)) الشورى-١٥.

وقد ورد في الدعاء المعروف بزمن الغيبة:

(اللهم عرفني نفسك فانك إن لم تعرفني نفسك لم اعرف رسولك، اللهم عرفني رسولك فانك ان لم تعرفني رسولك لم اعرف حجتك. اللهم عرفني

حجتك فانك ان لم تعرفني حجتك ضللتُ عن ديني)[1]. وفي مناجاة المريدين للامام السجاد(عليه السلام): (سبحانك ما اضيق الطرق على مَن لم تكن دليله، وما اوضح الحق عند من هديته سبيله، الهي فاسلك بنا سبل الوصول اليك، وسيِّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك)، وفي دعاء الثمالي: (يارب بك عرفتك وانت دللتني عليك، ودعوتني اليك ولولا انت لم ادر ما انت).

فلنستعرض الان – بهداية الله وتسديده- أهم المبادئ والأسس العامة لهذا الطريق الالهي الذي جعل استقامتنا عليه مفتاح الدخول الى الجنة والنجاة من النار..

((فمن زُحزح عن النار، وأُدخل الجنة فقد فاز)) آل عمران – ١٨٥.

---

(١) مفاتيح الجنان ص١٠٢ (طبعة الاعلمي).

المبدأ الأول: الإيمان بالله وبأصول الدين :

حيث يقول الله تعالى عن المؤمنين:

((واذا سمعوا ما أُنزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا امنا فاكتبنا مع الشاهدين، ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع ان يدخلنا ربُنا مع القوم الصالحين، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين)) المائدة(٨٣-٨٥).

في حين يقول تعالى عن الكافرين:

((ان الذين كذّبوا باياتنا واستكبروا عنها لا تُفتَّح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخِياط، وكذلك نجزي المجرمين)) الاعراف- ٤٠.

فالايمان إذاً مبدأ اساسي لايمكن التنازل عنه، وبدونه لايستحق الفرد الدخول الى الجنة، والمراد بالايمان هنا ما يعم الاسلام، لانه عبارة عن الاعتقاد والتصديق بالعقائد الالهية التي جاء بها الاسلام كالتوحيد والنبوة والامامة وغيرها[1].

وفي الحديث عنهم (ع): (الايمان إقرار وعمل، والاسلام إقرار بلا عمل)[2]، فكل مؤمن –اذاً- هو مسلم بالتأكيد.

---

(١)أنظر كتابنا (معالم التكامل في العقيدة) فانه ينفع من هذه الناحية بأذنه تعالى.

(٢)الشافي في شرح اصول الكافي ج٥/ص٣٦.

المبدأ الثاني: العبودية:

بمعنى ان يقيم الفرد نفسه مقام العبودية للخالق عزوجل بان يستشعر ذلك في نفسه ويستحضره في ظاهره وباطنه ويعمل على اساسه: والاّ فالعبودية ثابته لنا واقعاً..

((ان كل من في السموات والارض الاّ آتى الرحمن عبداً)) مريم – ٩٣.

وقد ذكرنا في كتابنا (الله اكبر من الشيطان) ان العبودية الخالصة من أشرف المراتب القدسية[1]، لانها غاية الخلق، ولذلك يفتخر الامام علي (عليه السلام) بقوله: (الهي كفى بي عزاً ان اكون لك عبداً). وكذلك افتخر عيسى(عليه السلام) من قبل: ((قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً)) مريم/٣٠.

كما أنه ورد في جملة من الروايات ان الله تعالى يباهي ملائكته بعبادهِ الصالحين، بل المتأمل في القران يجد ان الله تعالى غالباً ما يصف انبياءه ورسله (ع) بانهم عباده، وهذا انما يدل على عظمة هذا الوصف، وعلو هذه المرتبة..

((سبحان الذي اسرى بعبده)) الاسراء/١.

((واذكر عبدنا أيوب)) ص/٤١ .. .. وهكذا.

فالعبودية مبدأ اساسي لتحصيل الجنة، لان الواردفي القران: ((يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي)) الفجر (٢٧-٣٠).

وورد في مقام آخر: ((ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم

---

(١)حيث قلنا هناك (ان العبودية انما تتحقق بقوة الايمان، وبتمام الاخلاص وبحسن التوكل) ومعلوم ان هذه الامور هي من اعلى المنازل في سلم التكامل ولذلك يقول الله تعالى مخاطباً الشيطان: ((ان عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلاً)) الاسراء – ٦٥.

داخرين))غافر/٦٠.

ثم انه قد يتصور البعض ان معنى العبودية هو كثرة العبادة، أو ان معناها كثرة الخوف او عبادة العبيد كما في بعض الروايات، ولكن الصحيح ان معنى العبودية هو ما قلناه من استيعاب نوع العلاقة بين المخلوق والخالق عزوجل، والتصرف على هذا الاساس.

ولذلك قد تجد شخصاً كادحاً يستشعر هـذا المعنى ـ في حين قد تجد عابداً لايستشعره. فالمسألة تحتاج الى وعي والتفات، وان كانت كثرة العبادة – بطبيعة الحال – من أظهر مظاهر العبودية، ولكنها على أية حال لاتنحصر بها.

وهنا يُفترض ان يرد السؤال التالي: وهو أن مقام العبودية – كما عرفناه الآن – هو من المقامات العالية التي لايصلها الاّ من يستحق ان يصاحب المعصومين(ع) والاولياء، وهذا بالتأكيد خارج عن استطاعة الاعم الاغلب منا، فاذا جعلناه من مبادئ الدخول الى الجنة، فالمفروض على هذا ان لاندخل الجنة لصعوبة تحصيل هذا المبدأ؟

والجواب: عن هذا السؤال ببساطة: هو أن العبودية مقام له عدة درجات، تختلف بحسب اختلاف مستوى الوعي والاخلاص والايمان، والمطلوب من هذه الدرجات كمبدأ هو الحدالادنى، فيكفي (لتحصيل الجنة ودخولها) ان يعرف الفرد انه عبد مملوك لخالقهِ عزوجل، وانه مطالب بالطاعة قضاءً لحق هذا المولوية، فاذا استشعر الفرد ذلك كفاه وأجزأه، لتحقق المبدأ المطلوب حينئذ، وهذا ليس بالامر العسير كما لايخفى.

اما سائر درجات العبودية فهي مراتب تكاملية، يرتقي بها الفرد الى منازل المقربين وانما اشرنا اليها قبل قليل من باب الأستطراد والتذكير للنفس وللاخرين. نعم نحن نعترض على كل من يقول بان هذه المراتب العالية خارجة عن قدرة البشر، فانه قول ناتج عن الغفلة والجهل بما أودعه الله تعالى فينا من قابليات وقدرات ..

وقد ذكرنا في كتابنا (معالم التكامل في العقيدة)[١] ان من الاسباب التي إقتضت ان يكون النبي او الرسول من جنس البشر، هو جعل الحجة امامهم ومن جنسهم ليراجعوها ويتابعوها ويتعلمون منها ويقتدون بها ويتأسون بتصرفاتها ...

((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)) الاحزاب/٢١.

---

(١)أنظر موضوع أصل فكرة النبوة .

المبدأ الثالث:الإلتزام وعدم الفسوق[1]:

والمراد به هنا ما يرادف العدالة بالمعنى المتشرعي المعروف، وهو المعنى الرابع من معاني العدالة التي ذكرناها في كتابنا(فلسفة الاحكام الشرعية).

وهو عبارة عن الالتزام بالاوامر الشرعية وعدم الانحراف عن الطريق المستقيم الذي حددته الشريعة ، وهذا انما يتحقق بأداء الواجبات، واجتناب المعاصي، وبذلك تتحقق الطاعة التي هي سبب اكيد لتحصيل الجنة ..

((ومَن يُطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار)) النساء/١٣.

وفي النبوي(ص) المشهور (الجنة لمن اطاع ولو كان عبداً حبشياً، والنارلمن عصى ولو كان سيداً قرشياً) ..

فالمفروض بالمؤمن اذاً ان يتفقه في دينه ليعرف ما هي الواجبات التي يفترض ان يؤديها، سواء كانت شخصية او نوعية، وكذلك ليعرف ما هي المحرمات والمعاصي التي لايرضاها الله عز وجل لكي يجتنبها ويبتعد عنها، وبذلك يستحق الجنة كما قال تعالى: ((ومن يُطع الله والرسول فاؤلئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً)) النساء/٦٩.

فاذا التفتنا الى ان الله تعالى لايكلف نفساً الا وسعها، وانه ما جعل علينا في الدين من حرج، فسندرك بالنتيجة ان التكاليف التي امرنا الخالق تعالى بها، هي تكاليف ممكنة وميسورة بالنسبة الينا، أي انها داخلة تحت مجالات قدرتنا، ولئن كان الكثير منا من يستثقلها فهذا يرجع اما الى قلة ايمانه، او قلة وعيه، او قلة

---

(١)الفسوق هو الخروج: والمراد هنا الخروج عن الطاعة أو قل: الخروج عن حدود الشريعة، فيكون المطلوب هو عدم الفسوق، أي عدم الخروج عن حدود الشريعة.

همته، وقد ورد في الدعاء: (واجعل همتي في طاعتك ولزوم عبادتك).

وبهـذا ونحـوه ينبغـي ان نفهـم مـا ورد في بعـض الاخبـار بمـا مضـمونه ان الطاعات تكون ثقيلة على الناس، بينما تكون المعاصي خفيفة عليهم، فان هـذا اما ان يكون بلحاظ الأعـم الأغلـب مـن مجمـوع البشـر، واما ان يكـون بلحـاظ الـنفس الامارة فانها تستثقل الخير وتستأنس الفساد.

ومن هنا ورد (حفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات)[1].

ولذلك يقول الله عزوجل: ((وان كانـت لكـبيرة الاّ علـى الخاشـعين، الـذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون)) البقرة (٤٥-٤٦).

حيث ان المؤمن (العارف) على خلاف عامة الناس ، وعلى خلاف انفسـهم الأمارة بالسوء، فانه يستثقل المنكر وان اضـطر اليـه، كمـا انـه يحب الطاعـة ويـأنس بالمعروف.

((ولكـن الله حبَّـب الـيكم الايمـان وزيَّنـه في قلـوبكم، وكـرَّه الـيكم الكفـر والفسـوق والعصـيان، وأولئـك هـم الراشـدون)) الحجـرات/٧. وفي الكشـكول (٢٥٩/١) عن النبي(ص): (من أذنب ذنباً فأوجعه قلبه غفر الله له ذلك الذنب).

وورد في الحديث عن الـنبي (ص): (قـال الله تبـارك وتعـالى: لـو لم يكـن في الارض الاّ مؤمن واحد لاستغنيت به عن جميع خلقي، ولجعلت له من ايمانه أَنسـاً لايحتاج الى أحد)[2].

(١)البحار ج٧٥/ ص٧٨ رواية ١٢.

(٢)الشافي ج٦/ ص٣٢٥.

وعلى اية حال فقد ورد عن المعصومين (ع) في أهمية اجتناب المحارم ان الله تعالى ناجى نبيه موسى(عليه السلام): (يا موسى ما تقرّب الي المتقربون بمثل الورع عن محارمي، فاني أبيحهم جنان عدن)[1].

وورد عنهم (ع) في اهمية العمل بالطاعات واداء الواجبات ان الله تعالى يقول: (ما تحبب الي عبدي بأحب مما افترضت عليه)[2].

فلنعمل جميعاً على ذلك، ما دام الامر تحت قدرتنا وامكانياتنا، خصوصاً وان التأييد الألهي مفتوح للجميع مادامت النية الحقيقية موجودة، وما دام العبد غير مقصر وغير متهاون. ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)).

---

(١)ن.م/ ج٥/ ص١٠٧ .

(٢)ن.م/ ج٥/ ص١٠٩.

المبدأ الرابع: التقـوى

حيث يقول عزوجل.

((تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً))مريم/٦٣.

((وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين)) آل عمران/١٣٣.

والتقوى من الاتقاء او الوقاية، فتأتي بمعنى الحذر والخوف، والظاهر ان هذه اللفظة (أي التقوى) تستخدم في الموارد التي يلاحَظ فيها الخالق عزوجل، في حين تستخدم لفظ (التقية) في الموارد التي يلاحَظ فيها الانسان، فالتقوى لاتكون الاّ مع الله تعالى، وأما التقية فتكون مع الانسان، وان كان اصل الكلمتين واحد.

والتقوى من أهم المبادئ الأساسية لتحصيل الجنة، حيث يقول الله تعالى:

((وتزودوا فان خير الزاد التقوى)) البقرة/١٩٧.

بل لعل نظرة فاحصة في آيات القران الكريم تجعلنا ندرك الاسرار العظيمة التي يحملها مفهوم التقوى، وكذلك النتائج والفوائد الهائلة التي تترتب على تطبيقها والالتزام بها[١].

نذكر من ذلك قوله عزوجل.

((ومن يتق الله يجعل له مخرجاً،ويرزقه من حيث لايحتسب)) الطلاق(٢-٣).

((ان الله يحب المتقين)) التوبة/٧.

((ولو ان أهل القرى أمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض))الاعراف/٩٧.

---

(١)أنظر المعجم المفهرس لالفاظ القران. مادة (وقى).

((ان اكرمكم عند الله اتقاكم)) الحجرات/١٣.

وفي الحقيقة فان التقوى شرط في قبول الاعمال عند الله عزوجل حيث يقول:-

((انما يتقبل الله من المتقين)) المائدة/٢٧.

وفي الحديث عن الامام علي (عليه السلام): (لايقل عمل مع تقوى، وكيف يقل ما يتُقبل)[1].

وفي رواية المفضل قال: كنت عند ابي عبد الله (عليه السلام) فذكرنا الأعمال. فقلتُ أنا: ما أضعف عملي، فقال(عليه السلام): مه، أستغفر الله، ثم قال (عليه السلام) لي: إن قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى)[2].

أقول: يريد الإمام (عليه السلام): بذلك ان ينبه الى اهمية التقوى، وانها الغاية التي ينبغي تحصيلها، والا فانه من المعلوم قطعاً ان كثرة العمل لوحدها لاتكفي لتحصيل الجنة، بل لابد معها من الايمان والتقوى والاخلاص ونحوها من المبادئ، حيث يقول عزوجل في هذا المقام:

((لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم)) الحج/٣٧.

أي ان الاعمال وان كانت مطلوبة بنحو الوجوب او الاستحباب على حسب ماورد في الشريعة، الا ان العبرة بالتقوى أي مخافة الله عزوجل واتقاء غضبه وعقابه، أو اتقاء ناره، او إتقاء حرمانه، أو اتقاء سخطه وإبعاده وفراقه.. الى غير ذلك مما يختلف بحسب اختلاف الغايات والمستويات، وبهذا تعرف ان للتقوى اشكالاً ودرجات، كما ان لها عدة مصاديق اهمها ما يلي:

---

(١)الشافي ج٥/ص٩٩.

(٢)ن.م/ ص١٠٠.

مراتب التقوى

أ- ترك المحرمات واداء الواجبات.

ب- ترك المكروهات واداء المستحبات.

ج- ترك الرذائل الخلقية كالجبن او كثرة الكلام، والاتصاف بالفضائل التي هي الحد الوسط بين الافراط والتفريط.

د- الوقوف عند الشبهات الفعلية، وقد ورد انه (لا ورع كالوقوف عند الشبهة)[1].

هـ الوقوف عند الشبهات المحتملة، ويسمونه بورع المتقين، حيث ورد عن النبي(ص) انه: (لايكون الرجل من المتقين حتى يدع مالابأس به مخافة ان يكون فيه بأس)[2]. بمعنى انه يترك بعض الحلال الذي يحتمل او يخاف ان يقع بسببه في الحرام.

و- محاسبة النفس ومراقبتها باستمرار.

ولئن كانت بعض هذه المصاديق غير سهلة بحسب الظاهر اوالغالب، الا انها بالتاكيد داخلة في قول الله عزوجل.

((يا ايها الذين أمنوا أتقوا الله حق تقاته)) آل عمران/١٠٢.

وبالمناسبة فقد ورد في تفسير هذه الاية عن الصادق (عليه السلام): (يُطاع فلا يعصى ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر)[3].

وكذلك ما روي عن النبي (ص): (لايتقي الله عبدٌ حق تقاته حتى يعلم ان

---

(١)الوسائل/باب١٢/صفات القاضي/حديث ٢٠.

(٢)مجمع البحرين ج٤/ص٤٠٢.

(٣)الميزان في تفسير القرآن /ج٣ / ص٣٣٧.

ما اصابه لم يكن ليخطئه، وما اخطأه لم يكن ليصيبه)[1]. حيث يشير (ص) بذلك الى التسليم والرضا على اعتبار انهما درجة عالية من درجات التقوى وهذا هو معنى ما ورد في ذيل الاية السابقة.

((ولا تموتُن الاّ وانتم مسلمون)).آل عمران /١٠٢.

بقي ان نعيدهنا ما قلناه سابقاً من ان هذه الدرجات وان كانت مطلوبة ونافعة، الاّ انه يبقى لكل فردٍ قدرته وقابلياته وظروفه الخاصة، ولذلك خاطب الله تعالى (عامة) الناس بقوله عزوجل:

((فاتقوا الله ما أستطعتم)) التغابن/١٦.

الاّ ان هذا لايعني ترك الحد الادنى وهو الالتزام بالواجبات واجتناب المحرمات، لان الوارد في ذيل هذه الآية:

((واسمعوا وأطيعوا)) وهو يقتضي الالتزام بالحدود الشرعية. فيتحصل من ذلك كله أنه يكفي في تحقيق مبدأ التقوى ان يلتزم الفرد بالواجبات ويجتنب المعاصي، وان كان المفروض كذلك ان لايتهاون بالمستحبات او المكروهات بمعنى انه يراعيها بالمقدار الممكن الذي يناسب حاله وظروفه، وبذلك يتحقق شرط آخر من شروط الدخول الى الجنة.

---

(١)الميزان في تفسير القرآن /ج٣ / ص٣٣٧

المبدأ الخامس: الإخلاص

حيث يقول الله تعالى:

((قل اني أُمرتُ ان اعبد الله مخلصاً له الدين)) الزمر/١١.

وفي الحقيقة فان الاخلاص يقابل الشرك[1]، فلما كان الشرك على عدة درجات كان الاخلاص كذلك على عدة درجات وأهمها ما يأتي:-

١- الاخلاص بمعنى التوحيد في الذات، وذلك بان يعتقد بوحدانية الله عزوجل وانه لاشريك له ولامعبود سواه.

حيث ورد في الحديث عن الصادق(عليه السلام): (خالصاً مخلصاً ليس فيه شيء من عبادة الاوثان)[2]. ولايخفى ان هذه الدرجة تدخل في المبدأ الاول وهو (الاسلام والايمان).

٢- الاخلاص بمعنى التوجه بالاعمال لله تعالى وحده، وهو من أظهر مصاديق الاخلاص، حيث يذكرونه في الرسائل العملية للفقهاء، ويعتبر شرطاً

---

(١)المعروف ان التوحيد هو الذي يقابل الشرك، ولكن قد يورد عليه إن الرياء مثلاً الذي يتفقون انه من أقسام الشرك الخفي انما يقابل الاخلاص كما لايخفى. كما إن الإخلاص يتضمن التوحيد أكيداً، ففي الحديث عن الامام علي (عليه السلام): (أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له). وذلك بناء على ان المرتبة الاكمل متضمنة للمرتبة الادنى..

كما يمكن القول ان التوحيد والاخلاص مترادفان ولو إجمالاً من حيث المعنى ومن حيث المراتب، ففي المثال السابق، يمكن ان يكون التوحيد، مقابلاً للرياء، اذا فهمنا من التوحيد وحدانية الغاية او القصد وهو ان يكون العمل صادراً لاجل الله تعالى وحده، وهو معنى خلوصه لله عزوجل.

(٢)الشافي ج٥/ ص٢٤.

لقبول العمل العبادي بل مطلق الاعمال. ((أنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً)) الانسان/٩.

وقد ورد في الحديث عن المعصومين(عليهم السلام): (الإبقاء على العمل حتى يخلص، أشد من العمل. والعمل الخالص الذي لاتريد ان يحمدك عليه أحد الاّ الله عزوجل)[١].

وعن النبي (ص): (أخلِص العمل يُجزك منه القليل)[٢].

وعن الصادق(عليه السلام): (قال الله عزوجل مَن أشرك معي غيري في عمل لم أقبله الاّ ما كان لي خالصاً)[٣].

أقول: اني لأعجب ممن يعمل ويرائي به، ولا أظنه (عاقلاً)، فأي مصلحة او منفعة ينتظرها من الاخرين، وما قيمتها بالنسبة الى ما عند الله عزوجل بل حتى هذا الذي يرائي بالعمل أمامه، لاينفعه ولاينظر اليه الاّ بمشيئة الله تعالى وارادته عزوجل.

ففي الحديث عنه (عليه السلام) ايضاً: (مَن اراد الناس بالكثير من عمله، في تعب من بدنه، وسهر من ليله، أبى الله الاّ ان يقلله في عين من سمعه)[٤].

وفي الحديث عنه (عليه السلام) ايضاً: (اجعلوا امركم هذا لله ولا تجعلوه للناس، فانه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد الى الله)[٥].

٣-الاخلاص بمعنى الطاعة والالتزام، فقد ورد في الحديث عن أبي عبد الله

---

(١)الشافي ج٥/ ص٢٥

(٢)جامع السعادات ٤٠٤/٢.

(٣)الوسائل/ج١/ ص٤٤.

(٤)الوسائل/ج١/ص٤٩.

(٥)الوسائل/ج١/ص٥٢.

(عليه السلام): (لاينظر الله الى عبده ولايزكيه اذا ترك فريضة من فرائض الله، او ارتكب كبيرة من الكبائر، ثم قال (عليه السلام): (قد أشرك بالله ... ان الله أمره بأمر، وأمره ابليس بأمر، فترك ما أمر الله عزوجل)[١].

كما انه من المعلوم وجداناً ان من يخلص لجهة معينة، يحاول جاهداً ان لا يغضبها أو يسخطها، والاّ فانه خلاف إخلاصه المدعى.

٤- الاخلاص بمعنى الحب والتعلق مع الله تعالى، بحيث يكون هدفه رضاه وقربه وشكره، وهذا ما يعبر عنه بعبادة الاحرار او الكرام، ففي الحديث عن أمير المؤمنين(عليه السلام): ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وان قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار)[٢].

أقول: هذا لايعني ان عبادة العبيد او التجار ليست صحيحة او غير مقبولة، بل هي ممدوحة ومحبوبة عند الله عزوجل حيث يقول:

((أنهم كانوا يسارعون في الخيرات، يدعوننا رغباً ورهباً)) الانبياء/٩٠.

ولكن المقصود ان عبادة الاحرار هي الأفضل والاسمى، حيث ورد عن الامام علي(عليه السلام)، مناجياً رب العالمين: (الهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك).

ثم انه توجد درجات اخرى للاخلاص ليس هذا مقامها، لكن يكفي ان نذكر ماورد في الحديث القدسي (الاخلاص سرمن أسراري، إستودعتُه قلب من احببتُ من عبادي)[٣] ..فلنحاول اذاً – من اجل خلاص انفسنا على الاقل- ان

---

(١)ن.م/ ص٢٥.

(٢)ن.م/ ص٤٦.

(٣)جامع السعادات ٤٠٤/٢.

نكون ممن احبهم الله تعالى، وهم التوابين والمحسنين والمتطهرين والمتقين والمتوكلين والمقسطين ونحوهم ممن ذكر الله تعالى محبتهم في القران الكريم، أو لنكن على الاقل من أهل الطاعة والالتزام ليشملنا قوله عزوجل.

((قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم))آل عمران/٣١.

وبذلك تدخل اسرار الاخلاص في قلوبنا، كما انه من جهة اخرى فان الوارد في الحديث عن الصادق (عليه السلام) انه قال: مرّ بي أبي (أي الباقر) وانا بالطواف وانا حدث وقد أجتهدت في العبادة، فرأني وانا اتصاب عرقاً، فقال لي يا جعفر يابني ان الله اذا احب عبداً ادخله الجنة ورضى منه باليسير)[١] ، فالمحبة الالهية اذاً لها فوائد عديدة ومهمة، فلنحرص على تحصيلها منه عزوجل[٢]

كما انه من جانب اخر فان الاخلاص سبب أكيد للأستخلاص، فكلما إزداد إخلاص الفرد، وصعدت درجاته، كلما صار العبد يقترب من مقام المخلَصين (بالفتح)، وهم الذين يستخلصهم الله تعالى ويصطفيهم ويتفضل عليهم بأحسن نعمهِ وبركاته، حيث ورد في مناجاة المحبين: (فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك).

بقي ان نشير الى ان الاخلاص المطلوب كمبدأ أساسي لتحصيل الجنة هو خصوص الدرجات الاولى والثانية والثالثة مما ذكرناه، واما الباقي فهو خير على خير.

---

(١)الشافي ج٥/ص١١٦.

(٢)وفي الحديث عن النبي (ص): (اذا أحب الله عبداً، جعل له واعظاً من نفسه، وزاجراً من قلبه، يأمره وينهاه) أنظر (جامع السعادت ١٨٠/٣).

المبدأ السادس: محبة أهل البيت (عليهم السلام)

والمراد منهم ما يعم الأئمة الإثنى عشر (ع)، فان محبتهم واجبة، وبغضهم حرام، ولذلك يحكم بنجاسة الناصبي بل ورد انه انجس من الكلب.

وهذا أمر طبيعي ، فالائمة (ع) جسدوا صورة الاسلام في الخارج، وطبقوه على أفضل ما يكون، فاستحقوا بذلك تلك المنزلة العالية عند الله تعالى، فالمفروض ان يُقابَلوا بالحب والاحترام والتقدير. واذا ما قابلهم احد بالبغض والكراهية فهذا يعني انه يبغض صورة الاسلام ويبغض أحباء الله عز وجل، ولا يخفى ان هكذا شخص ملعون عند الله تعالى لانه يخالف إرادته ويعارض شانه عزوجل.

فاذا التفتنا الى ان هؤلاء الائمة (ع) هم حجج الله على خلقه، وانهم اولي الامر الذين امرنا الله تعالى ورسوله بالرجوع اليهم[1].....

فعندئذ يكون الامر اوضح واكثر عمقاً، لان المفروض عندئذ ان المحبة وحدها لاتكفي بل لابد من الموالاة لهم والاقتداء بهم وعدم الخروج عن مبادئهم العقائدية والفقهية ونحوها مما يرجع الى العلم او العمل.

وفي الحقيقة فان هؤلاء الائمة المعصومين (ع) هم آيات ناطقة ، ومدارس متجسدة ، ولايعرف ذلك ولايدركه الاّ من هداه الله تعالى لقراءة اخبارهم واحوالهم.. وكلما تأمل الفرد في أدعيتهم وأقوالهم وافعالهم، كلما ازداد تقرباً الى الله عزوجل ، لانه سيفهم من الحقائق مالا يفهمه الاخرون ممن راحوا الى غيرهم.

---

(١)أنظر النصوص الكثيرة الدالة على ذلك في كتاب الشافي ج٢ ،كتاب الحجة، وكذلك في كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة)وغيرها.

وقد ورد في الحديث عنهم (ع): (أنتم افقه الناس اذا عرفتم معانى كلامنا).

ولذلك فانه من الطبيعي ان يأمر الله تعالى بمحبة هؤلاء المعصومين(ع) وينهى ويمنع عن بغضهم أو التقليل من شأنهم (ع) وهذا هو معنى إشتراط محبتهم (ع) لتحصيل الجنة.

ففي الحديث عن النبي (ص): (مبغض علي وآل علي في النار)[١]. وعن أبن عباس في حديث عن النبي(ص): (لو ان أمرء صفّ بين الركن والمقام فصلى وصام، ثم لقى الله عزوجل وهو لأهل بيت محمد (ص) مبغض، دخل النار)[٢].

ثم انه ينبغي الالتفات كذلك الى حقيقة أساسية يغفل عنها الكثير من عامة الناس..

وتتلخص هذه الحقيقة في ان محبة أهل البيت(ع) لاتكفي وحدها لتحصيل الجنة، فانها مبدأ واحد من مجموعة من المبادئ المطلوبة بمجموعها.

ففي رواية جابر عن الباقر(ع): (ياجابر أيكتفي من أنتحل التشيع ان يقول بحبنا أهل البيت، فو الله ما شيعتنا الا من أتقى الله وأطاعه) ثم قال (ع): (من كان مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تُنال ولايتنا الاّ بالعمل والورع)[٣].

فالائمة (ع) انما يحبون الملتزم بالحدود الشرعية، وأما غيره فهم لاينظرون اليه ولايأبهون به، بل هم يسخطون عليه ويتألمون من افعاله، فأذا علمنا ان الوارد عنهم (ع)، انه: (مِن أوثق عرى الايمان ان تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في

---

(١)البحار ٢٢/ص٤٩٤.

(٢)ن.م ٢٧/ص١٧١.

(٣)الشافي ٥/ص٩٨.

الله وتمنع في الله)[١] ، فاننا سنعلم عندئذ ان الائمة (ع) يبغضون هؤلاء العصاة والمنحرفين بل لعل هذا هو احساس كل مؤمن (مهما كان مستواه ومقامه) غيور على دينه ومبادئه.

نعم اذا حصلت التوبة عادت المحبة من جديد، وحصل التقارب بين العبد وأئمته(ع) لان التوبة تعني الرجوع الى الطريق الصحيح، والصراط المستقيم الذي يسير فيه الصالحون تحت قيادة المعصومين(ع) الى السعادة والجنة ورضوان رب العالمين.

ولايخفى ان التوبة الحقيقية كاشفة عن حصول الطاعة والالتزام وهذا هو المطلوب، حيث يقول الباقر (عليه السلام): فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لاتغتروا، ويحكم لاتغتروا)[٢] ، وفي الحديث عن الصادق (عليه السلام): (كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً)[٣] ، ثم انه ينبغي على المؤمن ان يتذكر النبي محمد (ص) والائمة المعصومين(ع) في كل يوم، وان يستذكر خصائصهم وصفاتهم (ع)، ليأخذ منها العبر والمواعظ، كما انه يجدر به ان يسلِّم عليهم (ع) في كل يوم وهو في مكانه ولو بأن يقول (السلام على رسول الله(ص) وعلى الائمة المعصومين الاثنى عشر(ع)) وكذلك يسلم على فاطمة الزهراء (ع)) فانها احد المعصومين، فضلاً عن كونها سيدة النساء، وكذلك يسلم على سائر الانبياء والاوصياء(ع)، فان ذلك كله مما يقتضي نيل شفاعتهم وحلول بركاتهم بأذن الله تعالى.

---

(١)الشافي ٥/١٧٠.

(٢)ن.م ٥/١٠٠

(٣)الوسائل ج٨/ ص٤٠٠و٤٠١.

المبدأ السابع : الصبر

وهو مفتاح الفرج وتحصيل الجنة، حيث يقول الله تعالى ((انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب)) الزمر/١٠.

بل هو مفتاح كل المقامات العالية.

((وما يلقّاها الا الذين صبروا، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم)) فصلت/٣٥.

ولذلك ورد ذكر الصبر والصابرين في موارد كثيرة جداً في القران الكريم[1] منها ما كان بنحو الامر والحث على ذلك، ومنها ما كان بنحو بيان فوائد الصبر وآثاره الدنيوية والاخروية.

وفي الحديث عن المعصومين (ع): (الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا أيمان لمن لاصبر له)[2].

مراتب الصبر وأشكاله

ثم ان للصبر اشكال اهمها ما ورد عن النبي(ص): (الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية)[3].

فاما الصبر على المصيبة فهو أمر لابد منه لكل عاقل لان الوارد في الحديث بما مضمونه ان المصيبة تمر على الرجل فان قابلها بالصبر مرت عليه وهو مأجور، والا فقد مرت عليه وهو غير مأجور بل لعله يأثم فوق ذلك اذا جزع او ارتكب محرماً، وقد ورد عن النبي (ص): (ماتجرع عبد قط جرعتين احب الى الله من

---

(١)أنظر المعجم المفهرس لالفاظ القران/ مادة (صبر).

(٢)الشافي ج٥/ ص١١٩ .

(٣)الشافي ج٥/ ص١٢٣.

جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها)[١].

والمراد بالمصيبة مايعم البلاء والامتحانات، وقد ورد عن بعض العارفين ان أدنى مراتب هذا الصبر هو ترك الشكوى، ثم من بعدها مرتبة الرضا بالقدر والقضاء بمعنى عدم الاعتراض، وآخرها مرتبة المحبة والسعادة بالقدر والقضاء مهما كان وهذه مرتبة الصديقين.

واما الصبر على الطاعة، فهو امر لابد منه لكل مؤمن، لانه اذا لم يصبر على الطاعة لم يلتزم بها، وعندئذ يقع في الحرام، والمراد بهذا الصبر ان يصبر على فعلها وان يصبر على المداومة والاستمرار عليها، بل ان يصبر كذلك على عدم تفويتها او احباطها برياء او غيبة او نحوهما، ففي الحديث عنهم(ع): (ان الابقاء على العمل حتى يخلص، أشد من العمل).

واما الصبر عن المعصية، فهو ايضاً ضروري للمؤمن، لانه اذا لم يصبر عنها فانه سيرتكبها ويقع في الحرام، وهذا الصبر هو الذي اراده الله تعالى بقوله:

((واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فان الجنة هي المأوى)) النازعات (٤٠-٤١).

وقد ورد عن الامام علي(عليه السلام): (الصبر صبران: صبر عند المصيبة، حسن جميل، واحسن من ذلك: الصبر عند ما حرم الله عزوجل عليك)[٢].

ثم انه توجد أشكال اخرى للصبر منها الصبر على المستحبات، والصبر على التكامل، وكذلك الصبر عن المكروهات، والصبر عن (التسافل) بل الصبر عن

---

(١)جامع السعادات ٢٨٧/٣.

(٢)الشافي ج٥/ص١٢٢.

(عدم التكامل) أصلاً[١].

وفي الحقيقة فان الصبر يشارك أغلب الفضائل ان لم يكن كلها، ولذلك فهو رفيق كل المقامات:

((وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا)) السجدة/٢٤.

ولايخفى ان الكلام عن الصبر لطيف وواسع، ولكننا سنصبر عن التوسع فيه، مراعاة للاختصار وللمستوى العام.

وبالمناسبة فانه يكفي لتحصيل مبدأ الصبر ان يكون الفرد صابراً على الطاعة، وصابراً كذلك عن المعصية، حيث ورد في الحديث عن الامام(عليه السلام): (اذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه. فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون نحن أهل الصبر. فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معاصي الله. فيقول الله تعالى: صدقوا، أدخلوهم الجنة)[٢].

---

(١)معنى الصبر عن (التسافل)، ان الفرد الذي يسير في طريق التكامل ينبغي عليه ان يصبر ويرابط حتى لايتسافل، وهذا انما يتحقق باجتناب الامور التي يتوقع انها تؤدي به الى التسافل فيصبر عن ارتكابها، واما الصبر عن (عدم التكامل) فهو ان الفرد الذي لايسير في طريق التكامل، ينبغي عليه ان يتقدم ويحاول التخلص من كل ما يقلل عزيمته او يفل همته، فيصبر عن ارتكاب مثل هذه الامور التي تمنعه عن التكامل، وهذا هو معنى قوله تعالى: ((واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون وجهه، ولاتعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تُطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً)) الكهف/٢٨.

(٢)جامع السعادات ٢٩٢/٣.

خاتمة الفصل الاول

قد يخطر في بال البعض ان فقدان احد المبادئ السابقة يستلزم عدم تحصيل الجنة، نهائياً، بمعنى انه لو لم يكن مؤمناً او مخلصاً او ملتزماً او صابراً فانه لايدخل الجنة ولايصل فردوسها فيصيبه اليأس والقنوط لذلك.

ولكن الواقع ان هذه الامور التي ذكرناها، وان كانت مبادئ اساسية، الا ان فقدانها لايوجب اليأس ما دامت الحياة موجودة وقد ورد في الحديث: ان الله تعالى يقول: (وعزتي وجلالي وعظمتي لاأحجب التوبة عن عبدي حتى يغرغر بها)[1] ، كما ورد ان (التائب من الذنب كمن لاذنب له)[2]. بل ورد عن الصادق (عليه السلام): (ان الله عزوجل يفرح بتوبة عبده المؤمن اذا تاب كما يفرح احدكم بضالته ان وجدها)[3].

كما ان باب الدعاء بالتوبة والهداية مفتوح، ففي الدعاء: (الهي كيف اصدر عن بابك بخيبة منك وقد وردته على ثقة بك، وكيف تؤيسني من عطائك، وقد أمرتني بدعائك).

ثم ان الجنة هي جنة الله عز وجل، وهي في سلطانه وملكوته، وهو عزوجل أرحم الراحمين. نعم من الناحية النظامية، ومن حيث القواعد والقوانين الالهية فان المفروض بان الشخص الذي يكون فاقداً لاحد المبادئ السابقة فانه لا يدخل الجنة الا اذا تاب كما ذكرنا.

وقد ورد في دعاء كميل للامام علي (عليه السلام): (فباليقين اقطع لولا ما حكمت

---

(١)البحار ٦/١٦.
(٢)الشافي ٥/ص٥٧٣.
(٣) الشافي ٥/ ص٥٧٥.

به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من اخلاد معانديك، لجعلت النار كلها برداً وسلاماً، وما كان لأحد فيها مقراً ولا مقاماً).

ولا يخفى ان الله تعالى وصف نفسه في قرآنه بانه شديد العقاب مثلما انه واسع المغفرة، فلابد اذاً من الطاعة والتزام هذه المبادئ التي ذكرناها، خصوصاً واننا لاحظنا انها لطيفة ونافعة لنا في الدنيا والاخرة وما بينهما، هذا علاوة على ان المطلوب الواجب من مراتبها هو أمر ميسور ومقدور بالنسبة الينا .. والله ولي الرشاد وهو الهادي اولاً وآخراً.

الفصل الثاني

الأسباب والوسائل العامة لتحصيل الجنة

في هذا الفصل سنتحدث عن أهم الاسباب والوسائل العامة التي تقرب الانسان الى الجنة وتبعده عن النار. وسنلاحظ ان هذه الوسائل تتفاوت من حيث فوائدها وآثارها، كما تتفاوت من حيث الجهد المبذول في تحصيلها والالتزام بها، وان كانت على العموم داخلة تحت قدرة الانسان وإمكانياته..

ولا يخفى ان ضمان الجنة أو مراتبها يزداد كلما جمع الفرد سبباً جديداً يضيفه الى الاسباب والوسائل التي لديه، فلنحرص جميعاً على تحصيل الممكن بهداية الله تعالى وحسن توفيقه.

ولنتذكر قبل كل شيء ان دخول الجنة انما هو برحمة الله وفضله عزوجل، لانه هو الذي هدانا للطريق، وهو الذي أودع فينا العقل للتمييز، وهو الذي جعل فينا القوة والهمة للطاعة، وهو الذي ساعدنا في حرب الشيطان وجهاد النفس. وهو الذي رزقنا اليد التي تفعل الخير، والقدم التي سعت الى الخير، واللسان الذي نطق بالخير، الى غير ذلك مما لا يمكن حصره وهذا هو أحد معاني قوله عزوجل: ((الاّ رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيراً)) الاسراء/٨٧.

ولذلك ورد في الدعاء: ((فكلما قلت لك الحمد، وجب علي لذلك ان اقول لك الحمد)).

وفي الحديث عن النبي (ص) ان الله عزوجل يقول: (لايتكل العاملون على اعمالهم التي يعملونها لثوابي. فانهم لو إجتهدوا واتعبوا انفسهم وافنوا اعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي، فيما يطلبون عندي

من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع درجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا وبفضلي فليفرحوا والى حسن الظن بي فليطمئنوا، فان رحمتي عند ذلك تداركهم)[١].

وهذا الحديث نستفيد منه في هذه العجالة ثلاثة أمور:

أولها: عدم جواز الاغترار والعجب بالاعمال فانها راجعة الى الله تعالى.

ثانيها: ان الانسان مقصر مهما فعل، فلابد له من الاعتراف بذلك.

ثالثها: ان الخلاص لايكون الاّ بالرحمة الالهية، وهي عامة لكل من ينوي الخير ويحاول ان يفعله، فان استطاع فهو خير على خير، وان لم يستطع ان يفعل ما نواه، كما لو أنشغل بما هو أهم منه، أو كما لو عجز عنه لنقصٍ في صحته او ماله او فراغه و أوظرفه، فليتذكر انه ((لا يكلف الله نفساً الا وسعها))[٢]. وان الوارد في عدة روايات ان نية المؤمن خير من عمله، فليحسن الظن برب العالمين وليتوكل عليه فانه ارحم الراحمين. وقد ورد في الحديث عن النبي(ص)، مامضمونه ان رجلاً يدخل النار فيمكث فيها الف سنة ينادي ياحنان يامنان. فيؤتى به امام ربه عزوجل. ثم يأمر به ان يرجع ثانية الى النار، فيمشي ذلك الرجل ويتلفت الى ورائه، فيقول له الله تعالى الى أي شيء تلتفت؟ فيقول الرجل، لقد رجوتُ ان لاتعيدني اليها بعد اذ اخرجتني منها. فيقول الله تعالى: اذهبوا به الى الجنة[٣].

ومما جاء في دعاء كميل للامام علي(عليه السلام): (أفتراك سبحانك يا الهي

---

(١)الشافي ٨٢/٥ و٨٣.

(٢)وكذلك يقول عزوجل: ((لايكلف الله نفساً الا ما آتاها)) الطلاق/٧.

(٣)جامع السعادات ٢٤٨/١.

وبحمدك تسمع فيها صوت عبد مسلم، سُجن فيها بمخالفته، وذاق طعم عذابها بمعصيته، وحُبس بين اطباقها بجرمه وجريرته، وهو يضج اليك ضجيج مؤمل لرحمتك، ويناديك بلسان اهل توحيدك، ويتوسل اليك بربوبيتك، يامولاي فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك، ام كيف تؤلمه النار وهو يأمل فضلك ورحمتك ... هيهات ما ذلك الظن بك ولا المعروف من فضلك).

وفي مقام آخر يقول (ع) في هذا الدعاء: (أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك، وبعدما انطوى عليه قلبي من معرفتك، ولهج به لساني من ذكرك، واعتقده ضميري من حبك، وبعد صدق أعترافي ودعائي خاضعاً لربوبيتك .. هيهات انت اكرم من ان تضيع من ربيته او تبعِّد من أدينته، أو تشرد من آويته).

وفي الحديث عن الباقر (عليه السلام): (ان الله كريم، بيده الخيرات، يستحي ان يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه؛ فاحسنوا بالله الظن وارغبوا اليه)[1].

وفي دعاء الجوشن الصغير (وعزتك ياكريم لأطلبن مما لديك، ولالحَّن عليك، ولأمدّن يدي نحوك مع جرمها إليك، يارب فبمن أعوذ وبمن الوذ، لاأحد لي الا أنت).

---

(١)الشافي ٩٥/٥.

وعلى أي حال: فلنرجع الان الى بيان اهم الوسائل العامة التي قلنا انها تؤدي الى الجنة بأذن الله رب العالمين[1].

(١)في بالي منذ مدة ان اكتب كتاباً عن (الآداب المعنوية في احاديث المعصومين(ع) مما يتعلق بمجمل التصرفات الفردية والاجتماعية دنيوياً وأخروياً، وفي بالي ايضاً ان يكون ذلك بالاستناد الى (وسائل الشيعة)، وخصوصاً الروايات المعتبرة منه، فأسأل الله ان يوفقني او يوفق غيري لاداء هذه المهمة قربة الى الله تعالى ليكون ذلك بمثابة دستور او دليل لايستغني عنه كل مسلم او مسلمة.

أولاً: تعديل النية وتفعيلها:

وذلك بان يعزم الفرد وينوي في داخله أن يؤدي جميع الخيرات التي يقدر عليها، وان يترك جميع السيئات، فهذه النية الفعالة لها آثار عديدة ولها ثواب عظيم، رغم انها سهلة وميسورة لكل احد مهما كان ظرفه ووضعه، سواء كان عاملاً او موظفاً او ربة بيت او غيرهم، فما دامت النية منعقدة حقيقة على فعل الخير، واجتناب الشر، فان الثواب والحسنات سوف تملأ صحيفته وتزين كتابه وان لم تتوفر له فرصة التطبيق، ما دام غير مقصر ولا متهاون في ذلك، كما ان هذه النية سوف تجعل من الفرد في استعداد وألتفات ووعي، وسوف تحرره من طوق الغفلة الذي يحيط بأعناق اكثر الناس، وبذلك يصير قابلاً للفيوضات الربانية.

ففي رواية أبي بصير عن الصادق(عليه السلام): (أن العبد المؤمن الفقير ليقول يارب ارزقني حتى افعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فاذا علم الله عزوجل ذلك منه بصدق نيتهِ كتب الله له الاجر مثل ما يكتب له لو عمله، ان الله واسع كريم)[١] .

وفي رواية أخرى عنه(عليه السلام): (انما خَلد اهل النار في النار لان نياتهم كانت في الدنيا ان لو خلدوا فيها ان يعصوا الله ابداً. وانما خلد أهل الجنة في الجنة لان نياتهم كانت في الدنيا ان لو بقوا فيها ان يطيعوا الله أبداً، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء)[٢].

---

(١)الشافي ٥/ص١١٣.

(٢)الشافي ٥/ ص١١٤.

ثانياً: الالتزام بالذكر:

وفي الحقيقة فان هذا الامر من أهم الوسائل التي تؤدي بالعبد الى الجنة، بل الى اعلى المراتب، فاذا علمنا انه من أيسر الامور وانه في مقدور كل الناس مهما كان وضعهم الاجتماعي والعلمي، ومهما كان مستواهم الديني او الدنيوي، فالمفروض اننا ندرك الآن أن فرصتنا واسعة، واننا امام كنز مفتوح من الحسنات والخيرات فلنأخذ منها ما نقوى على حملهِ. وسنحاول نحن بدورنا ان نذكر بإختصار اهم الآثار والكيفيات التي تتعلق بالذكر.

يقول الله عزوجل : ((يا أيها الذين أمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً)) الاحزاب/٤١.

وقال تعالى أيضاً: ((فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم)) النساء/١٠٣.

وفي الحديث عن الصادق (عليه السلام): (ان الله أوحى الى موسى (ع): (لاتدع ذكري على كل حال)[1].

بل ورد عن الباقر (عليه السلام): (ان موسى (ع) سأل ربه فقال: الهي انه يأتي علي مجالس اعزك وأجلك ان أذكرك فيها. فقال: ياموسى ان ذكري حسن على كل حال)[2].

---

(١)الوسائل/ باب٢/ الذكر / الحديث١.

(٢)ن.م/ باب١ /حديث١.

فوائد الذكر وآثاره

وأما فوائد الذكر وآثاره فهي عديدة نذكر منها: ما ورد في الحديث عن النبي(ص): من أكثر ذكر الله أحبه الله، ومن ذكر الله كثيراً كُتبت له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق)[١].

ومنها: ما يقوله الله تعالى: ((فاذكروني أذكركم)) البقرة/١٥٢، ومعلوم ان الله تعالى انما يذكر عبده بالخير والرضا والحسنات، وقد ورد عن الصادق(عليه السلام): قال الله عزوجل : يابن آدم اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملأك)[٢].

ومنها: قول الله عزوجل: ((الا بذكر الله تطمئن القلوب)) الرعد/ ١٨.

ومنها: ما ورد عن الصادق(عليه السلام): ان الله عزوجل يقول: مَن شُغل بذكري عن مسألتي اعطيته أفضل ما يُعطى من سألني)[٣].

ومنها: تحصيل النصر والغلبة بكل معانيهما المادية والمعنوية لان الله تعالى يقول: ((يا أيها الذين أمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)) الانفال/٤٥.

على اعتبار أن المراد بالفئة هنا ما يعم الكفار ونحوهم من اعداء المؤمنين، بحيث يشمل حتى النفس الآمارة بالسوء، وحتى الشيطان حيث يقول الله تعالى: ((ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون)) الاعراف/٢٠١.

---

(١)ن.م/ باب٥ /حديث١.

(٢)ن.م/ باب٧ /حديث١.

(٣)ن.م/ باب١٠ /حديث١.

اما النتائج التي تترتب على ترك الذكر والاعراض عنه فهي كثيرة وأهمها ما ورد في قوله تعالى: ((ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين)) الزخرف/٣٦.

أقول: هذا لايعني ان الله تعالى هو الذي يهيأ له شيطاناً، بل المعنى انه حينما يعرض العبد عن ذكر الله تعالى فانه سيقع تحت مخالب الشيطان وتأثيراته وسوف لن يتدخل الله تعالى لمساعدته وتخليصه، وهذا ما وضحناه في كتابنا (الله اكبر من الشيطان)، أي ان الحاصل هنا هو من باب شرط النتيجة لاشرط الفعل.

ومن نتائج ترك الذكر (قساوة القلب) وهي حاجب أكيد عن الهداية والطاعات ، ففي الحديث عن المعصومين(ع) ان الله تعالى (ناجى النبي موسى(ع): يا موسى لاتنسني على كل حال، فان نسياني يميت القلب)[١].

كما ورد في الحديث عنهم(ع): (ما من قوم قعدوا في مجلس ثم قاموا ولم يذكروا الله الاّ كان حسرة عليهم يوم القيامة)[٢].

أقول: وهذا لانهم سيُحرمون من الثواب العظيم الذي كانوا سيحصلون عليه لو تكلموا بذكر الله عزوجل. فقد ورد عن النبي(ص): (ما جلس قوم يذكرون الله عزوجل الاّ ناداهم منادٍ من السماء: قوموا فقد بدّلت سيئاتكم حسنات، وغفرت لكم جميعاً. وما قعد عدة من أهل الارض يذكرون الله عزوجل الا قعد معهم عدة من الملائكة)[٣].

ثم ان الله تعالى يقول في محكم كتابه ((ومن أعرض عن ذكري فان له

---

(١)الوسائل/ باب ٥/ الذكر/ حديث٥.

(٢)ن.م/ باب ٣/ حديث ٥.

(٣)ن.م/ باب ٣/ حديث ٤.

معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى)) طه/١٢٤.

وهنا قد يقول البعض: اننا نشاهد أحوال الكثير من المنحرفين والكافرين في ازدهار وغنى، وليس في عسر وضنك.

وهذا القول ناتج عن الغفلة والجهل بحقيقة الحال، فان الضنك قد يلازم الغنى مثلما يلازم الفقر، بل قد تجد فقيراً هو أسعد الناس وتجد غنياً هو أتعس الناس، ولعل هذا هو حال اغلب الناس الاغنياء وان تَصوَّرهم الناس على انهم سعداء، فمشاكل الغنى اكثر بكثير من مشاكل الفقر، ولذلك قالوا: (المفلس في القافلة أمين) وقد قال الله تعالى مخاطباً المؤمنين: ((ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لايرجون)) النساء/١٠٤.

ثم ان مفهوم السعادة لعله غير واضح عند اكثر الناس، فالسعادة الحقيقية تكمن في الاستقرار النفسي والقناعة والتسليم بحكم الله تعالى وتحصيل قربه ورضاه، وهذا المفهوم وان كان يصعب تصديقه على مَن لم يتذوق طعم مثل هذه الامور، الاّ انه يبقى المفهوم الواقعي الوحيد للسعادة الكاملة. وقد ورد في دعاء الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: ((ماذا وجد من فقَدك وما الذي فقَد من وجَدك لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً)،وقال كذلك: (يا من أذاق احباءَه حلاوة المؤانسة) الى غير ذلك.

فالمؤمن الملتزم – مهما كان ظرفه المادي او الاجتماعي – يعيش هذا النعيم في الدنيا والآخرة وما بينهما، اما في الاخرة فمعلوم، واما في البرزخ او القبر فلما ورد بما مضمونه ان قبر المؤمن روضة من رياض الجنة، واما في الدنيا فلنستمع هذه الرواية المعتبرة عن صالح بن سعيد حيث قال: دخلت على ابي الحسن(عليه السلام) –أي الامام الهادي(عليه السلام)- فقلت له: جعلت فداك في كل الامور، ارادوا إطفاء نورك،

والتقصير بك حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع، خان الصعاليك. فقال (عليه السلام): هاهنا انا يا ابن سعيد، ثم أومأ (عليه السلام) بيده وقال: أنظر فاذا انا بروضات آنقات وروضات باسرات، فيهن خيرات عطرات وولدان كأنهن اللؤلؤ المكنون، وأطيار وظباء وأنهار تفور، فحار بصري وحسرت عيني. فقال(عليه السلام): حيث كنّا فهذا لنا عتيد، لسنا في خان الصعاليك)[1].

ولايخفى ان الكافر او المنحرف في ضنك من جميع هذه النواحي، هذا علاوة على ان غناه وراحته ان حصل عليها فهذا من باب الاستدراج حيث يقول الله تعالى: ((ولايحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم، انما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مُهين)) آل عمران/١٧٨.

أساليب للذكر

بقي ان نختم الكلام عن الذكر ببيان أساليبه وكيفياته وهي الآتي:

أـ ذكر الله تعالى بتذكر الواجبات والفرائض، كالصوم والصلاة ونحوها، ومما ورد في هذا الباب قولهم(ع): (إمتحنوا شيعتنا عند مواقيت الصلاة، كيف محافظتهم عليها)[2] ، فتذكر الواجبات وأدائها هو نوع من أنواع الذكر ولذلك قال الامام الحسين(عليه السلام) لاحد أصحابه حينما أخبره بدنو وقت الصلاة في يوم عاشوراء: (ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين).

ب- ذكر الله تعالى عند المعاصي والمحرمات، بمعنى انه يتذكر الله تعالى ليكون ذلك رادعاً عنها، فعن الامام علي(عليه السلام): الذكر ذكران، ذكر الله عزوجل

---

(١)منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل ج٢/ص٦٢٣ نقلاً عن الكافي للكليني.

(٢)الوسائل ج٣/ص٨٣.

عند المصيبة، وأفضل من ذلك ذكر الله عند ماحرم عليك فيكون حاجزاً)[١].

وفي بعض الاحيان يقترف العبد معصية والعياذ بالله، ولكنه سرعان ما يتذكر ويستغفر: ((والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) آل عمران/١٣٥.

ج- ذكر الله تعالى عند المستحبات والمكروهات والشبهات، وذلك بمحاولة أداء المستحبات وترك المكروهات، والوقوف عند الشبهات.

د- ذكر الله تعالى بالتسبيح والاستغفار والدعاء ونحو ذلك، وهو من أوضح مصاديق الذكر، حيث ورد في الحديث عن النبي(ص): (اكسل الناس عبد صحيح فارغ لايذكر الله بشفةٍ ولا بلسانٍ)[٢] وفي الحديث عن النبي(ص): (من أُعطي لساناً ذاكراً فقد اعطي خير الدنيا والآخرة)[٣].

ثم ان الذكر لايختص باللسان، بل يكون بالقلب أيضاً ولعله بالقلب أفضل وانفع[٤]. لان العبادات السرية يكون اجرها أكبر. وهناك ذكر أخر بالسمع، وهو يناسب الكثير من ذوي الاعمال والمهن، كالسائق او صاحب المحل او ربة البيت أو الطبيب. أو نحوهم وذلك بأن يفتح كل واحد منهم المسجل او الراديو ليستمع الى قرآن او دعاء، لينال بذلك ثواب الذاكرين وبركاتهم وهو مستمر على عمله ونشاطه.

---

(١)الشافي ١٢٢/٥.

(٢)الوسائل ج٤/ ص١١٧٩.

(٣)الوسائل ج٤/ صو١١٨٢.

(٤)حيث يقول عزوجل: ((واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة)) الاعراف/٢٠٥.

هـ - ذكر النعم الالهية .. ((فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون)) الاعراف/٦٩.

أي يذكر العبد جميع النعم التي أنعمها الله تعالى على الخلق عامة، وعليه خاصة، فان تذكر هذه النعم يعتبر صورة من صور الشكر الذي به تدوم النعم.

و- ذكر الحدود الشرعية والعقائدية:

((واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة))البقرة/٢٣١.

وبذلك سوف تكون تصرفات الفرد وردود أفعاله منسجمة دائماً مع المبادئ الالهية.

ز- ذكر العقاب الالهي، ليكون رادعاً للفرد عن التهاون او الانحراف، ((وذكِّرهم بأيام الله)) ابراهيم/٥.

ح- ذكر الصالحات والصالحين، والمراد بالصالحات الافكار والاحاديث الشرعية، والمراد بالصالحين هم الانبياء والائمة المعصومين(ع) حيث ورد عن الباقر(عليه السلام): (ان ذكرنا من ذكر الله)[1]. على اعتبار ان ذكرهم (ع) والحديث عن اخبارهم وأحوالهم يكون دافعاً للتكامل والتقرب الى الله تعالى لان المفروض ان نتأسى بهم ونقتدي بأفعالهم واحوالهم(ع).

---

(١)الوسائل/ باب ٣/ الذكر/ حديث٣.

وهكذا فان الذكر بسيط المؤونة، عظيم المنفعة، وقد ورد عن النبي(ص): (اعلموا ان خير اعمالكم عند مليككم، وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس: ذكر الله سبحانه وتعالى، فانه أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني)[1].

ومن هنا ورد في مناجات الذاكرين: (ومِن اعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا، وإذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك).

(١)ن.م/ باب ١٠/ حديث٣.

ثالثاً: المواظبة على قراءة القرآن والادعية:

ولا يخفى ان مجرد قراءة القران او الدعاء، هي من انواع الذكر كما قلنا، فالثواب ثابت عليهما من هذه الناحية، ولكن الذي نريد بيانه هنا هو أهمية التأمل والتدبر في هذه القراءة. [١].

اذ القران هو كتاب الله عزوجل، ودستوره ومستودع علمه وأسراره، وقد وصفه الله تعالى بانه تبيان لكل شيء، وانه يهدي للتي هي أقوم، فالمفروض بنا إذاً أن نتدبر في آياته، ومراجعة تفاسير العلماء الذين يستندون في تفسيرهم الى مبادئ المعصومين(ع) ورواياتهم.

وفي الحقيقة فان الامر لايقتصر على ذلك، لان في تلاوة القران جلاء للبصر والبصيرة، وشفاء للنفوس والقلوب، بل وشفاء للأبدان كذلك، وكيف لايكون كذلك وهو كلام الله عزوجل[٢]، وقد ورد في الحديث عن الإمام زين العابدين(عليه السلام): (لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحشتُ بعد ان يكون القران معي)[٣]. وأما بالنسبة للدعاء فيكفي ان نلاحظ قوله تعالى:

((قل ما يعبؤبكم ربي لولا دعاؤكم)) الفرقان/٧٧.

وقد كتبنا كتاباً مختصراً حول الدعاء بعنوان (خواطر حول الذنوب والادعية) وهو ينفع في المقام بأذنه تعالى.

ثم ان البعض قد يقول بان الفراغ غير متوفر لنا، وان العمل ومشاغل

---

(١)راجع في (فضل القران والدعاء) وآثار قراءتهما: كتاب الوسائل. ج٤/ ابواب القراءة وابواب الدعاء.

(٢)راجع كتابنا (معالم التكامل في العقيدة)حول معاجز القران وآياته.

(٣)الانوار البهية/ ص٩٥.

الحياة تتغلب علينا، بحيث لا تترك لنا مجالاً لقراءة القران او الأدعية.

ولكننا نقول لهم ان مشاغل الحياة مهما كانت فهي لاتصل الى الحد الذي يعجز المرء فيه عن قراءة صفحة من المصحف الشريف او دعاء صغير او مقطع من دعاء كبير في اليوم الواحد.

ثم اننا قلنا قبل قليل انه يمكن تلافي الامر بالاستماع الى ذلك عبر المسجل او الراديو اثناء العمل او أثناء الراحة.

بقي ان نشير الى جملة من الادعية النافعة والمؤثرة جداً خصوصاً من الناحية التكاملية ، كالمناجات الخمسة عشر، والمناجاة الشعبانية، ودعاء كميل والافتتاح ، ودعاء ابي حمزة الثمالي ، ودعاء الحسين(عليه السلام) يوم عرفة وغيرها.

رابعاً: المواظبة على شكر الله تعالى:

وفي الحقيقة فان الشكر كالذكر لانه مما يسهل فعله واداؤه رغم عظيم الاجر والثواب الذي يترتب عليه، حيث يقول الله عزوجل.

((ولقد أتينا لقمان الحكمة: ان اشكر لله، ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد)) لقمان/١٢.

أي ان الله تعالى اعتبر الشكر حكمة، وهو فعلاً كذلك اذا لاحظنا حقيقته وآثاره التي نذكر منها قول الله تعالى.

((لئن شكرتم لأزيدنكم)) إبراهيم/٧.

ومنها قوله تعالى: ((ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وامنتم)) النساء/١٤٦.

أي ان الشكر حرز من العذاب، وطريق الى الجنة، وقد ورد عن الباقر(عليه السلام): (والله ما اراد الله من الناس الاّ خصلتين: ان يقروا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم)[1]. ولعل هذا هو أحد معانى قوله تعالى.

((انا هديناه السبيل أما شاكراً واما كفورا)) الانسان/٣.

بتقريب ان الشكر والاقرار بالنعم يقتضي الطاعة وعدم المعصية، واما الكفران فهو يقتضي العناد والابتعاد.

ثم ان الشكر قد يكون على السراء فقط، وقد يكون على السراء والضراء، وهذا مقام من رضي بقضاء الله وقدره، حيث ورد ان رسول الله(ص): (كان اذا ورد عليه أمر يسره، قال الحمد لله على هذه النعمة. واذا ورد عليه أمر يغتم به،

---

(١)الوسائل ج١١/ص٣٤٧.

قال: الحمد لله على كل حال)[١].

وهناك عدة اقسام ودرجات للشكر، وأهمها ما يلي.

أـ الشكر بالكلمات، سواء جرت على اللسان ام في القلب او الضمير، فعن الصادق(عليه السلام): (ما انعم الله على عبد بنعمة صغرت او كبرت، فقال، الحمد لله الاّ ادى شكرها)[٢].

ب- الشكر بالافعال، كالسجود او الصلاة شكراً لله عزوجل، فقد ورد ان رسول الله(ص) كان في سفر، يسير على ناقة له، اذ نزل فسجد خمس سجدات. فلما أن ركب، قالوا يا رسول الله انا رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه؟ فقال (ص): نعم استقبلني جبرئيل(ع) فبشرني ببشارات من الله عزوجل، فسجدت لله شكراً لكل بشرى سجدة)[٣].

ج- الشكر بالآثار، وذلك بان يجتنب المحرمات ويلتزم بالطاعات، بنية الشكر لله عزوجل، وقد ورد عن الصادق (عليه السلام): (شكر النعم اجتناب المحارم)[٤]. وهو أمر ينبغي ان يكون واضحاً جداً لان الفرد لايكون شاكراً حقيقة حتى يجتنب إسخاط المنعم وإيذائه، ومعلوم ان اجتناب السخط الالهي انما يكون بأداء الواجبات وترك المحرمات.

واما اذا ادى المستحبات واجتنب المكروهات، فيكون مستوى الشكر اعمق، وكذلك اذا وقف عند الشبهات، وهكذا.

---

(١)الشافي ج٥/ص١٣١.

(٢) الشافي ج٥/ ص١٢٩.

(٣)الشافي ١٣٢/٥.

(٤)ن.م/ ١٢٨/٥.

د- عرفان النعمة، وهذا مهم جداً، لان العبد اذا عرف ان هذه النعمة انما هي من الله الخالق عزوجل، فقد ادى شكرها لان الاعتراف بالنعمة هو اول الشكر، وقد ورد عن الصادق(عليه السلام): (من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه، فقد ادى شكرها)[١]. ولعل هذا هو احد معاني قول الله تعالى: ((واما بنعمة ربك فحدِّث)).

فان المعروف ان التحدث بالنعمة يكون باظهارها قدر الامكان كما هو مبنى بعض المفسرين، ونحن نقول هنا ان التحدث بالنعمة داخل النفس والاعتراف بانها من الله تعالى، وتذكر النعم السابقة كذلك، يكون مطلوباً بمقتضى هذه الآية.

إن كثيراً من الناس من يشتكي ويقول بان الله تعالى لم يتفضل عليه بشيء، وهذا وان كان راجعاً الى الغفلة وقلة الايمان وعدم القناعة[٢].....

الاّ اننا مع ذلك سنحاول تذكيره بنعمة البصر والعقل واليدين، وغيرها مما لايعد ولا يحصى[٣]، ويكفيه ان ينظر الى من هو اسوء منه حالاً ليعرف النعمة التي هو فيها ولا يخفى ان قراءة دعاء الجوشن الصغير تنفعه كثيراً في ذلك، بل يكفيه ان يغلق عينيه او اذنيه ليتصور كيف تكون حياته بدون ذلك، حتى يعرف مقدار فضل الله تعالى عليه. ((هذا من فضل ربي ليبلوني أ أشكر أم أكفر)) النمل/٤٠.

ومن كلام السجاد(عليه السلام) في مناجاة الشاكرين، (فآلاؤك جمة ضعف لساني عن احصائها، ونعماؤك كثيرة قصر فهمي عن أدراكها فضلاً عن استقصائها،

---

(١)ن.م/ ٥/ ١٣٠.

(٢)وقد قيل في الحكمة:(لاتشكون الى الخلائق انما تشكو الرحيم الى الذي لايرحم).

(٣)((وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها)) النحل/١٨.

فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري اياك يفتقر الى شكر فكلما قلت لك الحمد وجب علي لذلك ان أقول لك الحمد).

وقد ورد ان موسى (عليه السلام) قال: يارب وكيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به الا وأنت انعمت به علي؟ فقال (الله تعالى) ياموسى الآن شكرتني حين علمت ان ذلك مني)[1].

ثم ان المفروض بكل واحد منا ان لايعتد بنفسه، بان يقول ان نجاحي مثلاً يستند الى ذكائي، أو ان كثرة اموالي تستند الى كثرة عملي، أو نحو ذلك، فان النعم كلها ترجع الى الله تعالى[2]، وقد مدح الله تعالى في القران الكريم قوماً اسندوا النعمة كلها اليه عزوجل.

((وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)) الاعراف/٤٩.

حول شكر الواسطة في النعمة

نعم ورد ان شكر الواسطة امر مهم، لان الله تعالى يحب الشاكرين، حيث ورد ان الله تبارك وتعالى يقول لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرتَ فلاناً؟ فيقول بل شكرتك يارب، فيقول لم تشكرني اذ لم تشكره)[3].

وورد كذلك ان الله تعالى يعاقب العبد يوم القيامة اذا لم يشكر الواسطة، حيث يقول له: انك لم تشكر من أجريتُ لك النعمة على يديه، واني قد آليت

---

(١)الشافي ١٣٣/٥.

(٢)((وما بكم من نعمة فمن الله)) النحل/٥٣.

(٣)الشافي ١٣٤/٥.

على نفسي ان لا أقبل شكر عبد لنعمة انعمتها عليه حتى يشكر من ساقها من خلقي اليه)[١] ..

ولايخفى ان المراد بهذه الاحاديث ان نشكر الواسطة، بعنوان كونه واسطة، مع الاعتقاد والاعتراف بان المنعم الحقيقي هو الله تعالى عزوجل الذي يتفضل علينا تارة بواسطة، واخرى بغير واسطة أنه نعم المولى.

ثم ان البعض قد يقول ان شكر الواسطة قد يعارض بعض المراتب العالية من الاخلاص، على اعتبار ان في ذلك شيئاً من المراتب الدقية للشرك الخفي[٢]وجوابه انه يمكن التخلص من هذا الاحتمال بسهولة، وذلك بان يقصد من وراء شكر الواسطة طاعة الامر المتوجه اليه بذلك، فهو يشكر الواسطة لان الله تعالى امره به، وبذلك ينعدم الشرك تماماً، ويتحقق الاخلاص في مراتبه العالية. ونفس الكلام يقال في طلب الرزق بالعمل، ومراجعة الطبيب عند

(١)الوسائل ج١١/ ص٥٤١ باب تحريم كفر المعروف مطلقاً فيه عدة روايات.

(٢)الشرك أما جلي أو خفي، فالشرك الجلي هو حال المشركين ممن يعبدون مع الله تعالى الهاً آخر ولذلك يسمى بشرك العبادة وهو يوجب النار كما لايخفى، واما الشرك الخفي فهو الذي يجامع الايمان والتوحيد الظاهري، حيث يقول الله تعالى: ((وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون))يوسف ١٠٦ وهذا الشرك له عدة درجات منها الرياء، ومنها اتّباع الشيطان ونحوه. وهو شرك الطاعة، حيث ورد عن الباقر(عليه السلام) : في الميزان(٢٨٠/١١) (والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك الطاعة اطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله الطاعة لغيره وليس بأشراك عبادة) وهناك مراتب من الشرك الخفي اكثر عمقاً، وبعضها لايوجب العذاب ولايحُبط الاعمال، ولكنه يكشف عن النقص وعدم الكمال، ومن ذلك ما ورد عن الصادق(عليه السلام) في تفسير الآية: هو الرجل يقول لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لاصبت كذا وكذا، ولضاع عيالي. الا ترى انه جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه؟ قال الراوي قلت فيقول: لولا ان مَنّ الله علي بفلان لهلكت؟ قال(عليه السلام): (نعم لابأس بهذا). ومن ذلك ماورد عن الباقر(عليه السلام) في تفسير الميزان(٢٨١/١١): ومن ذلك قول الرجل، لاوحياتك) أي يقسم بغير الله عزوجل.

المرض، ونحو ذلك، فانه لاينافي المراتب العالية من التوكل اذا قصدنا بهذه الاسباب طاعة الامر الالهي المتوجه الينا بطلب الرزق للعيال والنفس، وبالحفاظ على النفس ومراجعة الطبيب عند توقع الضرر .

مثال على أهمية الشكر

بقي ان اذكر رواية لطيفة تبين مقدار الرحمة الالهية والكرم الرباني، وهي رواية معتبرة وصحيحة عن أبي بصير عن الصادق(عليه السلام): ان الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء، فيوجب الله له بها الجنة. ثم قال (عليه السلام): انه ليأخذ الآناء فيضعه على فيه[١]، فيسمي[٢]، ثم يشرب فينحيه، وهو يشتهيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله، فيوجب الله عزوجل بها له الجنة)[٣].

أقول: وينبغي ان لا تعجب من ذلك فان الوارد عن المعصومين(ع) ما مضمونه: لا تحقرن شيئاً من الطاعات فلعل رضا الله تعالى يكون فيه.

---

(١)أي في فمه

(٢)أي يقول (بسم الله الرحمن الرحيم).

(٣)الشافي ١٣٠/٥.

خامساً:السبق الى الطاعات:

حيث يقول الله تعالى:

((وسـابقوا الى مغفـرة مـن ربكـم، وجنـة عرضـها كعـرض السـماء والارض))الحديد/٢١.

وقال عزوجل أيضاً.

((السابقون السابقون، اولئك المقربون في جنات النعيم)) الواقعة/١٢

((فاستبِقوا الخيرات)) البقرة/١٤٨.

والمراد بالسبق هو التسابق والمسارعة الى فعل الخيرات علاوة على اداء الفرائض والواجبات، بمعنى ان يؤديها في أول أزمنة امكانها، وقد ورد إستجباب تعجيل الخير مطلقاً[١].

وهناك معنى اخر للسبق وهو ان الفرد المؤمن يحاول ان يسبق غيره في مجال البر والتراحم، فيسلم عليه قبل ان يبتدره بالسلام، ويزوره قبل ان يأتيه هو، ويؤثره على نفسه قبل ان يؤثره هو على نفسه، ويبتدره بالعون والمساعدة قبل ان يطلبها منه، وهكذا يكون الفرد السابق مصداقاً لعنوان (السابقين) الذين عرفت انهم المقربون.

ورغم ان مثل هذه الامور السهلة لاتحتاج الى مؤونة، الاّ اننا نلاحظ ان اغلب الناس لايطبقها عملياً وان كان يؤمن بصحتها من الناحية النظرية، وهذا يرجع الى النفس الامارة بالسوء التي تزين للانسان ترك الفضائل، وتمنعه من

---

(١)أنظر الكافي ج٢/باب تعجيل فعل الخير/عدة احاديث منها حديث٤. عن النبي (ص) (ان الله يحب من الخير ما يُعجَّل).

تطبيقها والالتزام بها.

ويمكن علاج ذلك بأذن الله تعالى اذا تذكر الفرد مقدار الاجر العظيم الذي سيحصل عليه سواء في الدنيا او في الاخرة. اما في الاخرة فقد عرفنا الآيات الكريمة، وأما في الدنيا فلأنه سينال لذة الانتصار على هوى النفس والشيطان، تلك اللذة التي تحسها النفس المطمئنة القريبة من الله رب العالمين.

ولنتذكر معاً دعاء كميل المروي عن الامام علي(عليه السلام): (وهبْ لي الجد في خشيتك، والدوام في الاتصال بخدمتك، حتى اسرح اليك في ميادين السابقين، وأسرع اليك في المبادرين).

سادساً: البقاء على الطهارة قدر الامكان:

حيث يقول الله تعالى ((والله يحب المطهرين)) التوبة/١٠٨.

وورد في روايات عديدة التركيز على الوضوء، بل ورد ان الوضوء على الوضوء نور على نور، وهو ما يسمى بالوضوء التجديدي.

ولنذكر الان اهم فوائد الوضوء ، رغم انه بالتأكيد عمل بسيط لايحتاج الى جهد اوتعب

أـ عن النبي(ص) انه يُبعد الشيطان[١].

ب- عن الصادق (عليه السلام): انه ينفع في قضاء الحاجات[٢].

ج- عن الصادق (عليه السلام):من جدد وضوءه لغير حدث جدّد الله توبته من غير استغفار)[٣].

د- عن النبي (ص): من بات على طهر فكأنما أحيا الليل[٤].

هـ عن النبي (ص): أكثر من الطهور يزيد الله في عمرك[٥].

و- وفي نفس الرواية:وان استطعت ان تكون بالليل والنهار على طهارة فأفعل، فانك تكون اذا متَّ على طهارة شهيداً.

ز- عن النبي (ص): ان الوضوء قبل الطعام وبعده شفاء في الجسد ويمن في

---

(١)مرأة الرشاد/ ص١٤٤.

(٢)الوسائل/ ج١/ ص٢٦٢ باب٦.

(٣)الوسائل ج١/ ص٢٦٤.

(٤) الوسائل ج١/ وص٢٦٦

(٥)ن.م/ ج١/ ص٢٦٩.

الرزق[١].

الى غير ذلك من الفوائد التي تترتب على الوضوء، حتى انه ورد عن النبي(ص): (الوضوء نصف الايمان)[٢]، ولعله لان الطهارة تجلو الروح، وتجعل الفرد مستعداً للعبادة في أي وقت، ومن هنا يقول الله تعالى:

((وينزل من السماء ماء ليطهركم به)) الانفال/١١.

فالطهارة مطلوبة اذاً، سواء بنحو الوضوء، او التيمم ان لم يقدر، خصوصاً عند النوم لان (روح المؤمن تروح الى الله عز وجل فيلقيها ويبارك عليها) كما ورد عن الامام علي (عليه السلام)[٣].

فلنحاول -اذاً- تحصيل هذا الامر قدر الامكان لعل الله تعالى يرزقنا به الجنة والنعيم.

---

(١)مرأة الرشاد/ ص١٤٥.

(٢)مرأة الرشاد/ ص١٤٥.

(٣)الوسائل ج١/ص٢٦٦.

سابعاً:الـحلم وكظم الغيظ والعفو:

اما كظم الغيظ فهو عدم إظهار الغيظ الحاصل في النفس، حيث ورد عن النبي(ص): (من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأه الله أمناً وايماناً[١]، وفي رواية اخرى عن الصادق (عليه السلام): ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه[٢].

بل الوارد عن الباقر(عليه السلام): ما من جرعة يجرعها عبدٌ أحب الى الله من جرعة غيظ يرددها في قلبه فردها بصبر او ردها بحلم)[٣][٣].

واما الحلم فهو السيطرة على انفعالات النفس وغرائزها الانتقامية، ولذلك فهو يقابل الغضب، وقد ورد عن الباقر(عليه السلام)، ان الله عزوجل يحب الحيي الحليم[٤]، وعن الرضا (عليه السلام): لايكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً[٥].

ولا يخفى ان الانسان حينما يتملك اعصابه وانفعالاته فسوف لن يصدر منه ما قد يندم عليه، ولذلك يقول النبي(ص): (ما أعز الله بجهل قط، ولا أذل بحلم قط)[٦] ، وهو مجرب أكيد لان الحليم يحتفظ بوقاره وهيبته سواء على المستوى الظاهري ام الباطني. وفي الحديث عن الصادق(عليه السلام): أذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما: قلتَ وقلتَ وأنت أهل لما قلت، ستجزى بما قلت ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت سيغفر الله لك ان اتممت ذلك)[٧].

---

(١)مرأة الرشاد/ ص٨٦-٨٧ ، أنظر باب كظم الغيظ في الشافي ١٤٨/٥.

(٢)مرأة الرشاد/ ص٨٦-٨٧ ، أنظر باب كظم الغيظ في الشافي ١٤٨/٥.

(٣)مرأة الرشاد/ ص٨٦-٨٧ ، أنظر باب كظم الغيظ في الشافي ١٤٨/٥.

(٤)الشافي ٥/ ١٥١ و١٥٢.

(٥)الشافي ٥/ ١٥١ و١٥٢.

(٦) الشافي ٥/ ١٥٢

(٧)الشافي ١٥٣/٥.

ومن هنا ندرك بطلان الفكرة التي تعيش في اذهان اغلب الناس والتي مفادها ان السكوت عن (الرد) فيه منقصة وذلة، فان هذه الفكرة من تسويلات الشيطان. بل الملتفت الواعي يلاحظ ان الحلم والسكوت عن (الرد على المقابل) سوف يجعل الفرد في راحة من هذه الناحية، وستكون اعصابه باردة، في حين تلاحظ ان الغضب والانتقام بالافعال او الكلمات يجعل الفرد في وضعية مثيرة للأستهزاء والسخرية وهذا هو أحد معاني قول النبي(ص): (عليكم بالعفو، فان العفو لايزيد العبد الا عزاً، فتعافوا يعزكم الله)[١].

وعن النبي(ص): قال موسى يارب أي عبادك اعز عليك. قال: الدي اذا قدر عفى[٢].

مراتب العفو وآثاره

والعفو له عدة درجات او مراتب، بعضها يتداخل مع الحلم وكظم الغيظ، وهناك مراتب اخرى نذكر منها.

أـ نسيان الأمر واعتباره كانه لم يكن، أي ينسى ظلم الآخرين له ويجعله وكأنه لم يحصل، وبذلك يرتاح ويتخلص من تعب التفكير في مثل هذه الامور التي لايأتي منها الاّ الأزعاج والذنوب، ولذلك يقول الله تعالى: ((وان تعفوا أقرب للتقوى)) البقرة/٢٣٧.

ب- مقابلة الاساءة بالاحسان، حيث يقول الله تعالى:

((ادفع بالتي هي أحسن السيئة)) المؤمنون/٩٦.

وغالباً ما يكون لذلك تأثير على الاخرين قد يظهر عاجلاً او أجلاً:

---

(١)الشافي ١٤٧/٥.

(٢)جامع السعادات ٣٠٢/١.

((أدفع بالتي هي أحسن، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)) فصلت/٣٤.

وقد روي ان رجلاً قيل له ان فلاناً قد إغتابك، فبعث اليه طبقاً من الرطب، وقال: بلغني انك قد أهديت الي من حسناتك فاردت ان اكافيك عليها، فاعذرني فاني لاأقدر ان اكافيك على التمام)[1] . أقول: يشير بذلك الى ماورد عن النبي (ص) بما مضمونه ان الغيبة تحول حسنات المغتاب الى سجل من اغتابه[2].

ج- الحزن على المسيئ، كما فعل الامام الحسين(عليه السلام) في يوم عاشوراء حينما بكى على الجموع التي إحتشدت لحربه، لانها سوف تدخل النار بسببه.

وقد خاطب الله تعالى نبيه (ص) بقوله:

((ولا تذهب نفسك عليهم حسرات)) فاطر/٨.

لان النبي (ص) كان يتألم ويحزن لحال المكذبين له، رغم انهم كانوا يؤذونه ويسيئون اليه.

وعلى اية حال: فالعفو صفة شريفة لها آثار مهمة جداً في الدنيا والآخرة، وهي لاتحتاج الى فراغ او سعة وقت، لانها امر نفساني يستطيع الفرد ان يفعله اينما كان، ومهما كان وضعه ووظيفته.

---

(١)ن.م/ ١/ص٣٠٧ وص٣٠٦.

(٢)ن.م/ ١/ص٣٠٧ وص٣٠٦.

ولعل اوضح اثار العفو وفوائده ما يلي:

أـ تحصيل المغفرة، حيث يقول الله تعالى،

((وليعفوا وليصفحوا، الا تحبون ان يغفر الله لكم)) النور/٢٢.

وليعلم كل واحد منا انه كلما عفى عن الاخرين، كلما كان نصيبه من العفو الالهي اكثر واعظم، وقد ورد ان الامام زين العابدين(عليه السلام) كان يجمع غلمانه فيقف بينهم ويبكي ويقول: (ربنا انك امرتنا ان نعفو عمن ظَلَمنا، وقد عفونا كما امرت، فاعف عنا فانك أولى بذلك منا) ثم يعفو عن جميع عبيده ويعتق رقابهم[1].

ب- اكتساب رضا الله تعالى ومحبته عزوجل، حيث يقول:

((والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين)) آل عمران/١٣٤.

((فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين)) المائدة/١٣.

ج- دخول الجنة بسرعة، حيث ورد عن النبي(ص) اذا جمُع الخلائق يوم القيامة، نادى مناد: اين أهل الفضل؟ فيقوم ناس ـ وهم يسير ـ فينطلقون سراعاً الى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: انا نراكم سراعاً الى الجنة؟ فيقولون: نحن أهل الفضل.

فيقولون ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظُلمنا صبرنا، واذا أسيء الينا عفونا، واذا جُهل علينا حلمنا. فقال لهم: أدخلوا الجنة فنعم اجر العاملين)[2].

---

(١)سيرة الأئمة الاثنى عشر ج٢/١٦٠ (بتصرف).

(٢)جامع السعادات ٢٩٦/١.

ثامناً: مجاهدة النفس:

وقد تحدثنا عن ذلك في عدة كتب[1]، فينبغي الاحالة عليها حذراً من الاطالة والاعادة، الاّ اننا نريد التنبيه هنا الى أن مجاهدة النفس لاتعني التصوف وترك الدنيا كما يتصوره البعض. فان لجهاد النفس مراتب ودرجات عديدة، يستطيع كل واحد منا ان يحتل المرتبة التي تناسب مستواه الحالي، وظرفه الحياتي او الاجتماعي، فالانسان المتفرغ مثلاً يستطيع ان يجاهد نفسه ويروضها ضمن مراتب عالية او شديدة اذا كان مستواه العام يتحمل ذلك، كما ان الانسان الذي لديه مهنة او عمل يستطيع ان يجاهد نفسه ويروضها بالامور التي يتعرض لها عمله، فيقهر نفسه بالصبر والتواضع وحسن الاخلاق ومساعدة الاخرين ونحو ذلك، وكذلك الزوجة تستطيع ان تجاهد نفسها بمداراة زوجها واطفالها، وتقهر نفسها اذا عاندتها في ذلك، وقد ورد ان (جهاد المرأة في حسن التبعل)، وهكذا فان لكل شخص موارد خاصة يجاهد نفسه من خلالها بحيث لايقصّر بذلك في اداء مسئولياته الواجبة او المستحبة ولو بالعناوين الثانوية[2]، نعم اذا استطاع ضبط نفسه وتطويعها في مجال حياته الاصلي، جاز له ان يعبر الى المجالات الاخرى. ولذلك تجد ان المعصومين(ع) متكاملون في بيوتهم، ومع عوائلهم، ومع الناس، بل وحتى مع سائر المخلوقات، بالاضافة طبعاً الى تكاملهم الاساسي مع الله تعالى.

---

(١)أنظر معالم التكامل في المعرفةالعامة، وكذلك أنظر كتاب (الله أكبر من نفسك) وكتاب (الله اكبر من الشيطان).

(٢)كعنوان الإحسان او الإيثار او الرفق او نحو ذلك.

تاسعاً: مداراة الناس:

وهي من اعظم الاسباب المؤدية الى تحصيل الجنة، حيث ورد في الحديث عن النبي(ص): ثلاث من لم يكنّ فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يرد به جهل الجاهل)[١].

وورد عنه (ص) ايضاً: امرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض)[٢].

فهذا الامر اذاً مطلوب وواجب على اية حال، فالمفروض ان نلتزم بذلك اذا كنا نريد الجنة فعلاً.

وفي الحقيقة فان مداراة الناس كاشفة عن مجموعة كبيرة من الصفات الحسنة، لانها تتطلب تواضعاً وحباً وصدقاً ومخالفة لهوى النفس ونحو ذلك مما يطول بيانه.

كما ان مداراة الناس يمكن ان تتحقق بعدة صور او أشكال، أهمها ما يلي:

أـ الرفق بهم، والعطف عليهم، فقد ورد في الحديث عن النبي(ص): (ما إصطحب اثنان الاّ كان اعظمهما اجراً واحبهما الى الله عزوجل أرفقهما بصاحبه)[٣]. بل ورد عنه (ص): (ان في الرفق: الزيادة والبركة، ومن يُحرم الرفق يُحرم الخير)[٤].

ولا يخفى ان الرفق ينشأ من الرحمة وطيبة القلب، وهما من أعلى

(١)الشافي ٥/ ص١٥٩ و ص١٦٠.

(٢)الشافي ٥/ ص١٥٩ و ص١٦٠.

(٣)ن.م/ ٥/ص١٦٤ وص١٦٢.

(٤)ن.م/ ٥/ص١٦٤ وص١٦٢.

الصفات، ويترتب عليهما جملة من الآثار والفوائد المادية والمعنوية، سواء في الدنيا او في الآخرة، هذا بالاضافة الى ان الرفق هو من وجوه الاحسان، وقد عرفت ان الله تعالى يحب المحسنين.

ب- حسن الخلق، حيث ورد عن النبي(ص): اكثر ما تلج به أمتي الجنة: تقوى الله وحسن الخلق)[١]. وهنا يظهر الترابط الوثيق والملازمة الوجودية بين حسن الخلق من جهة وبين التقوى من جهة اخرى، كما يمكن القول ان التقوى سبب يؤدي لتحسين الخلق، وان حسن الخلق كاشف[٢]عن وجود التقوى.

وورد عنه (ص) ايضاً: (ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة افضل من حسن الخلق)[٣].

وكذلك ورد عن الصادق(عليه السلام): ما يقدم المؤمن على الله عزوجل بعمل بعد الفرائض احب الى الله تعالى من ان يسع الناس بخُلقهِ)[٤].

ولا يخفى أن المقصود بحسن الاخلاق هاهنا هو حسن التعامل مع الآخرين، حيث قيل للامام الصادق(عليه السلام): ما حد حسن الخلق؟ فقال (عليه السلام): تلين جناحك، وتطيب كلامك، وتلقى أخاك ببشرٍ حسن)[٥].

واما حسن الخلق بالمعنى الخاص، وهو تهذيب النفس وتعديل الصفات العامة للفرد، فهو اعمق بطبيعة الحال، لكنه يتضمن المعنى الوارد في الروايات السابقة، لان من كانت نفسه خالصة وصفاته عادلة فالمفروض بكل تأكيد ان

---

(١)مرأة الرشاد ص٨٠ و٨١.

(٢)ولو من الناحية الشأنية (أي بحسب المفروض).

(٣)مرآة الرشاد ص٨٠.

(٤)الشافي ١٣٥/٥ و ص١٤٠.

(٥)الشافي ١٣٥/٥ و ص١٤٠.

يكون حَسِن التعامل مع الناس، والاّ فليلاحظ الخلل الذي فيه وليحاول اصلاحه.

ج- إدخال السرور على المؤمنين، وذلك بان يسأل عن احوالهم ويهتم بزيارتهم ويعتني بهم، فقد ورد عن النبي (ص): (الخلق عيال الله، فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً)[1] ، وكذلك ورد عنه (ص): (من أصبح لايهتم بامور المسلمين فليس بمسلم)[2]، وهذا اكيد جداً لان المسلم الحقيقي هو الذي يشعر بأخوانه ويحس بهم، على اعتبار انهم شركاؤه في طريقه، وأصحابه في مسئوليته الدينية، ولذلك يقول الامام الصادق(عليه السلام)، (اتقوا الله وكونوا إخوة بررة، متحابين في الله، متواصلين، متراحمين، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه)[3]. ولا يخفى ان مفتاح المودة والمحبة هي الزيارة بين الاخوان حيث ورد في أهميتها وآثارها احاديث كثيرة، منها ما روي عن النبي(ص): (من زار اخاه في بيته قال الله عزوجل له: أنت ضيفي وزائري، عليَّ قراك، وقد أوجبت لك الجنة بحبك اياه)[4].

ومعلوم ان الزيارة التي يريدها الله تعالى ويحبها هي الزيارة التي تشتمل على الاحاديث والمواقف النافعة والمواعظ ونحوها مما تحيى به القلوب وتزداد به الحسنات، ولذلك ورد عن الصادق(عليه السلام): (ما زار مسلم أخاه المسلم في الله ولله، الاّ ناداه الله عزوجل أيها الزائر طبت وطابت لك الجنة)[5].

أقول: هذه الروايات ونحوها تؤكد ما قلناه سابقاً من ان تحصيل الجنة ليس

---

(١)ن.م/ ٥ /٢٢١ وص٢٢٠ وراجع ص٢٢٧ حقوق المؤمن عل اخوانه.

(٢)ن.م/ ٥ /٢٢١ وص٢٢٠ وراجع ص٢٢٧ حقوق المؤمن عل اخوانه.

(٣)ن.م/ ٥ /ص٢٣٥ .

(٤)ن.م/ ٥ / ص٢٣٨.

(٥)الشافي ٥/ ص٢٣٩.

بالامر العسير، ما دامت النية صادقة، وما دام الاخلاص موجود. كما ان هذه الاحاديث ينبغي ان تجعل لدينا دافعاً قوياً لكي نكون سباقين في تطبيقها والالتزام بمضامينها حتى تدركنا الرحمة الالهية.

وفي الحديث عن الباقر(عليه السلام): (تبسمُ الرجل في وجه اخيه حسنة، وصرف القذى عنه حسنة، وما عُبد الله بشيء احب الى الله من إدخال السرور على المؤمنين)(١).

د- بذل النصيحة، واعطاء المشورة النافعة لمن يطلبها، حتى انه ورد (الدين النصيحة)، وروي عن الصادق (عليه السلام): (يجب للمؤمن على المؤمن ان يناصحه)(٢).

هـ - العفو والصفح، وقد سبق الحديث عنه، وفي كشكول البهائي (٢٧٠/١): ان رجلاً شتم أبا ذر الغفاري، فقال له ابو ذر: ياهذا ان بيني وبين الجنة عقبة، فان انا جُزتها فو الله ما أبالي بقولك. وان هو صدّني دونها فاني أهل لاشد مما قلتَ).

و- التضحية والإيثار، وسيأتي الكلام عنهما.

ز- قضاء حوائج الناس وتفريج همومهم، حيث ورد عن الصادق (عليه السلام): (ما قضى مسلم لمسلم حاجة الاّ ناداه الله تبارك وتعالى: علي ثوابك ولا أرضى لك بدون الجنة)(٣). بل ورد عن الباقر(عليه السلام) اكثر من ذلك حيث قال (عليه السلام): (ان المؤمن لترِد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده، فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك

---

(١)الشافي ٥ /ص٢٥٣.
(٢)ن.م/ ص٢٧٩.
(٣)ن.م/ ص٢٦١ وص٢٦٤.

وتعالى بهمه الجنة)[1]، وهذا تأكيد لما ذكرناه سابقاً من أهمية الاهتمام بامور المسلمين، وكذلك تأكيد لما ذكرناه من أهمية تفعيل نية الخير دائماً.

وهكذا فان مدارة الناس تحصل في عدة مجالات، وقد عرفنا ان جميعها مطلوب ومأجور وتترتب عليه عدة فوائد وآثار.

أضف الى ذلك ان جميع مصاديق هذه (المداراة) هي بالتأكيد من (الصالحات) التي ينبغي ان لانفرط فيها اذا كنا من المؤمنين (الواعين)، لان الله تعالى يقول في كتابه: ((ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها الا الصابرون))القصص/٨٠.

ولنعم ما قيل في الحكمة:

كن كالنخيل عن الاحقاد مرتفعاً   تُرمى بصخرٍ فترمي أطيب الثمر

وهنا قد يقول البعض ـ ان لم يكن الاغلب ـ ان هذا الكلام مثالي وغير ممكن من الناحية التطبيقية.

أقول: هذا من تسويلات الشيطان والنفس الامارة: فان التفاصيل التي ذكرناها وان كانت مثالية فعلاً، الا انها ممكنة جداً وداخلة في حدود القدرة البشرية، وقد طبقها الكثير من الناس على طول الاجيال البشرية نعم يحتاج ذلك الى شيء من القوة والعزم، لكي نكبح بهما جماح النفس وانفعالاتها التلقائية، ولنتذكر ما سمعناه من المعصومين(عليهم السلام) من ان الجنة حُفّت بالمكاره والصبر، وانه ليس لانفسكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها بغيرها..

وعندئذ ندرك ان الواجب علينا ان نلتزم بمداراة الناس قدر الامكان، متخطين بذلك غرائزنا وانفعالاتنا العشوائية التي تنبعث من نفسٍ ضعيفة غير

---

(١)ن.م/ ص٢٦١ وص٢٦٤.

صافية، او من شيطان يريد السوء لنا، وكلاهما مما ينبغي مجاهدته، حيث ورد عن الصادق(عليه السلام): (ان الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح)[١].

وفي الختام لنستمع الى وصية الامام علي (عليه السلام) لولده محمد بن الحنفية حيث قال (عليه السلام): واحسِن الى جميع الناس كما تحب ان يُحسن اليك، وأرض لهم ما ترضاه لنفسك، واستقبح لهم ما تستقبحه من غيرك، وحسِّن مع الناس خلقك حتى اذا غبتَ عنهم حنوا اليك، واذا مت بكوا عليك، وقالوا: ((انا لله وانا اليه راجعون))، ولا تكن من الذين يقال عند موته (الحمد لله رب العالمين)). واعلم ان راس العقل بعد الأيمان بالله عزوجل مداراة الناس، ولا خير فيمن لايعاشر بالمعروف من لابد من معاشرته)[٢].

(١)مراة الرشاد / ص٨٠.

(٢)ن.م/ ص٨٢.

عاشراً : التضحية والإيثار:

وهذه في الحقيقة من أهم الصفات، حيث مدحها الله تعالى بقوله:

((ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، ومن يوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون))الحشر/٩.

وورد في الحديث ان الله تعالى قال لنبيه موسى(عليه السلام) في ثواب الإيثار: (لايأتيني احد منهم قد عمل به وقتَاً من عمره الا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتي حيث يشاء)[١]. وكذلك ورد عن الباقر(عليه السلام): ان لله عزوجل جنة لايدخلها الا ثلاثة) وذكر منهم (رجل آثر أخاه المؤمن في الله)[٢].

والايثار جامع لجملة من الصفات العالية كالتواضع والسخاء والبر والكرم والرحمة والحب في الله ونحو ذلك، بمعنى ان كل من يضحي في سبيل الآخرين ويؤثرهم على نفسه فهو مستجمع لمثل هذه الصفات، حيث ورد في الحديث عنهم (عليهم السلام): (خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم. ومِن خالص الايمان : البر بالاخوان والسعي في حوائجهم، وان البار ليحبه الرحمن، وفي ذلك مرغمة للشيطان، وتزحزحٌ عن النيران ودخول الجنان)[٣].

وفي المقابل فان ترك التضحية أو الاستئثار وعدم الايثار يكشف عن وجود صفات سيئة في الفرد منها الانانية والغرور والتخاذل عن الطاعة، والتهاون في تحصيل الجنة والحسنات.

كما انه من جهة اخرى فان التسابق بين المؤمنين في ميدان التضحية يجعل

---

(١)جامع السعادات ١١٩/٢.

(٢)الشافي ٥/ ٢٣٩.

(٣)جامع السعادات ١١٦/٢.

الفرد مصداقاً لعنوان السابقين، الذين عرفت انهم المقربون.

فقد روي عن النبي(ص) ما مضمونه ان بُدلاء أمتي[١]دخلوا الجنة بسخاء الانفس، وسلامة الصدور، والنصح للمسلمين)[٢]. مع الالتفات الى ان النصيحة تكون بالقول والفعل بما في ذلك المساعدة والتضحية.

وهنا قد يقول البعض بان هذه الصفة صعبة جداً، وقد لايفعلها الاّ ما ندر، ونحن نقول لهم: هذا صحيح، ولكن لنتذكر ان الصفات العالية تكون عادة كبيرة وثقيلة الا على الخاشعين، ولذلك لاينالها الا الصابرون العارفون، فحريّ بنا ان نكون اذا من هذه الثلة التي يحبها الخالق عزوجل ويخفي لها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ((ان تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله، وان كنتُ لمن الساخرين)) الزمر/٥٦.

ولذلك ينبغي ان لانحزن ولا ننزعج اذا قوبل ايثارنا وتضحيتنا بالتجاهل والنكران من قبل الاخرين لان المفروض ان عملنا انما هو لاجل الله تعالى.

((انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)) الدهر/٩.

وقد ورد في الحديث عن النبي(ص): (اصنع المعروف الى من هو اهله، والى من ليس بأهله، فان أصبتَ أهله فقد اصبت اهله، وان لم تُصب أهله فانت من أهله)[٣] ، وفي الحديث (تخلَّقوا بأخلاق الله) ومعلوم ان الله تعالى هو الرحمن الرحيم، حيث نسمع مناجاة الامام علي (عليه السلام) في دعاء الافتتاح: (فلم أر مولى كريماً اصبر على عبد لئيم منك عليّ يارب، أنك تدعوني فأولي عنك،

(١)البدلاء: هم ذوي المقامات العالية.

(٢)جامع السعادات ١١٤/٢.

(٣)ن.م/

وتتحبب اليّ فأتبغض اليك، وتتودد الي فلا أقبل منك، كأن لي التطول عليك ، فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي والاحسان اليّ والتفضل عليّ بجودك وكرمك).
فاذا كان الله تعالى وهو الخالق الغني، يتعامل مع عباده هكذا، أفلا ينبغي علينا نحن العباد ان نتعامل هكذا فيما بيننا، خصوصاً وان اعمالنا محفوظة عند مَن عنده حسن الثواب.

بل المفروض بالعبد الملتفت الواعي ان يفرح حتى اذا قوبل بالنكران، لان هذا يعني انه صار افضل واسمى، وانه احرز أنه صار من السابقين، وكلما زاد ايثاره كلما زاد سبقه، وبالتالي زادت حسناته ومراتبه عند الله تعالى.

ولذلك ورد عن الامام الحسين(عليه السلام) انه قال في عرصه كربلاء وفي آخر لحظاته مناجياً الله تعالى: (هوّن ما نزل بي انه بعينِك)، مشيراً بذلك الى المآسي التي تعرض لها على ايدي اعدائه، رغم انه لم يخرج الاّ لاجل الاصلاح والهداية في هذه الامة.

وهذا في الحقيقة بلسم وشفاء لجميع الجروح والآلام البدنية والنفسية، فان المؤمن اذا تذكر ذلك هانت عليه جميع مشاكله، ولم يفكر الاّ في الطاعة والتكامل، لانه سيعلم ان الله تعالى يسجِّل اعماله ويحفظها امانة عنده، وانه لايوجد شيء يضيع عند الله تعالى:

(الم يعلم بان الله يرى)) العلق/١٤.

((وان ليس للانسان الا ما سعى، وان سعيه سوف يُرى ثم يجُزاه الجزاء الاوفى)) النجم/(٣٩-٤١).

وهنا يجدر الاشارة الى قوله تعالى:

((ذلك بانهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدوٍ نيلاً الاّ كُتب لهم به عمل صالح، ان الله لايضيع اجر المحسنين)) التوبة/١٢٠.

فالاية وان وردت في جهاد المشركين، الا انها من باب أولى تشمل جهاد النفس لانه ـ كما ورد ـ الجهاد الاكبر، فكل فعل يفعله الانسان قربة الى الله تعالى ليغيظ به نفسه الامارة بالسوء، او يغيظ به الشيطان، يعتبر موطئاً في سبيل الله يستحق عليه الثواب.

التضحية والإيثار علاج لأغلب المشاكل العائلية

ثم انه ينبغي الالتفات الى ان التضحية والإيثار يحلان جميع المشاكل في العالم، وهذه حقيقة لايمكن التنازل عنها ، ولكن المجال لايسع للحديث عن تفاصيلها، لكن سنكتفي الان بذكر مشكلة واحدة يمكن حلها من أصلها بالتضحية، تلك هي مشكلة الحياة الزوجية، وتعارض رغبات الزوجين وحقوقهما الواجبة والمستحبة.

حيث نلاحظ انها مشكلة قلما تنجو منها عائلة من العوائل، وقد طُرحتْ لها حلول كثيرة ومعالجات مفصلة قد لايكون اكثرها مفيداً من الناحية العملية.

اما نحن فنطرح هنا علاجاً واحداً يتألف من أمرين متلازمين احدهما الايمان وثانيهما التضحية والايثار.

فان التزام الطرفين معاً او أحدهما على الاقل بهذا العلاج سوف يساعد كثير في حل المشاكل الزوجية، لان الفرد اذا آثر غيره على نفسه، وكان اسبق منه الى فعل الخيرات او كان سبّاقاً في الاحسان اليه، وأدخال السرور على قلبه، فانه

بالتأكيد يكون بذلك قد حصل على ثواب جميع هذه الامور، ولا داعي لان يطالب الاخر بالمقابل او حتى ان يطالبه بالاعتراف، لان عمله كلما كان خالصاً لله تعالى كلما كانت آثاره أفضل وأحسن.

وهذا طبعاً لايقتصر على الواجبات، بل الواجبات مفروضة اصلاً ولها ثوابها الخاص، وانما نحن نتحدث عن الامور المستحبة بالعناوين الثانوية السابقة كعنوان الايثار والاحسان وأدخال السرور وقضاء الحوائج ونحو ذلك[1] مما قد لايكون واجباً لكن الفرد لو أداه نال عظيم الاجر وحصل على الجنة، بل يستطيع ان يرقى أعلى الدرجات كلما زاد عطاؤه وايثاره وأحسانه، فكلما كان الفرد اسبق واكثر احساناً وعطاءً من الآخر، كلما كانت منزلته اعظم عند الله عزوجل، ((ان اكرمكم عند الله اتقاكم)).

وهذا يستدعي منه الفرح والسرور على هذا التوفيق. ثم ان الوارد في الروايات ان الفرد المؤمن يحب لاخيه ما يحب لنفسه، فاذا اراد الزوج مثلاً من زوجته شيئاً معيناً فوق واجباتها، فليحاول هو ان يفعله لها قربة الى الله تعالى، فان قابلته الزوجة بالمثل فهو خير على خير وان قابلته بالاحسن فلربما كانت افضل منه، وان لم تقابله بشيء من المعروف فيكفيه انه سبقها الى الخير ونال ثواب التضحية والاحسان وقد عرفت ان ثوابهما عظيم جداً.

ومن جهة اخرى فالمفروض بالزوجة المؤمنة كذلك ان تضحي في سبيل زوجها، وان تُحسِن اليه بعمل المستحبات، وتحاول ان تُدخل السرور على قلبه قدر الامكان، وان تحاول ان لا تتعامل معه بمقدار الحقوق والواجبات او بمبدأ الفائدة والمقابل، فان ذلك يسبب المشاكل وعدم التوافق غالباً، ثم ان الواجبات

---

(١)راجع ما ذكرناه عند الحديث عن (مداراة الناس).

الاساسية مفروضة عليها شرعاً فاذا تركتها ستحصل على الاثم والعقاب فيكون أداءها للواجبات من باب الالزام ودفع العقاب الالهي او الاثار الوضعية، في حين انها لو أدت كذلك المستحبات التي ذكرناها قبل قليل، فانها ستنال أجراً إضافياً لانها جاهدت نفسها وعملت بما يحبه الله تعالى قربة اليه عزوجل، مع انه لم يُلزمها به ولم يجعله واجباً عليها، وهنا تبدأ بالارتقاء بمقدار احسانها وايثارها. حيث يقول الله تعالى:

((للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، أولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون)) يونس/٢٦.

وهكذا فان المفروض ان يتسابق الزوج والزوجة فيما بينهما من أجل تقديم المزيد من الخير والاحسان والايثار، وذلك امتثالاً لقوله عزوجل:

((فاستبِقوا الخيرات)) البقرة/١٤٨.

والفائز السعيد منهما هم الاسبق والاكثر عطاء، واما الطرف الاخر فهو اما ظالم لنفسه اذا كان مقصراً، واما انه عادل ولكنه ليس من السابقين، فيكون محروماً من ثوابهم ومنزلتهم، حيث يقول الله تعالى:

((فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد[1]، ومنهم سابق بالخيرات بأذن الله ذلك هو الفضل الكبير، جنات عدن يدخلونها يُحَلَّون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير)) فاطر/ (٣٢-٣٣).

---

(١)المقتصد بحسب الظاهر هو الانسان الملتزم بالواجبات الاساسية فقط، أي انه عادل لكنه ليس بسبّاق لفعل الخيرات المندوبة ، وهناك روايات عدة في تفسير وتأويل المقتصد (أنظر الميزان ٤٩/١٧).

حادي عشر: تقليل الكلام:

وهو مهم جداً، حيث ورد في القران ان من جملة ورثة الفردوس:

((الذين هم عن اللغو معرضون)) المؤمنون/٣.

وهذه قضية منطقية جداً لان أكثر ما يصدر من الكلام فيه إشكالات أخلاقية او شرعية او اجتماعية، حتى قيل:

احذر لسانك ايها الانسان   لا يلدغنـــك أنه ثعبـان

كم في المقابر من قتيل لسانه   كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقد ورد في الحديث عن الصادق (عليه السلام): لايزال العبد يُكتب محسناً، ما دام ساكتاً، فاذا تكلم كُتب إما محسناً او مسيئاً)[1].

ثم ان الكلام لايخلو من أحد أمرين:

أولهما: ان يكون في طاعة الله تعالى، كالذكر او الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة، ونحو ذلك، ولا يخفى انه حسن ومطلوب، مالم تطرأ عليه بعض العناوين الثانوية كالتقية او الرياء مثلاً.

ثانيهما: ان يكون في غير طاعة الله تعالى، وهذا اما ان يكون كلاماً محرماً كالكذب والغيبة والمراء[2]ونحو ذلك من المعاصي التي توجب العقاب والسخط الالهي، واما ان يكون كلاماً فارغاً بنحو اللغو المباح ولكن الاعراض عنه يكون سبباً لتحصيل الفردوس كما ذكَرت الآية السابقة. وقد ورد عن النبي (ص) انه قال لرجل: الا أدلك على أمر يدخلك الله به الجنة؟) فذكر له جملة امور منها

---

(١)الشافي ٥/ص١٥٩.

(٢)حيث ورد في الحديث مامضمونه (إترك المراء ولو كنت محقاً)، فالمراء او الجدل او كثرة المناقشة الفارغة له آثار سلبية عديدة بالاضافة الى الاثم الحاصل.

(فأصمِت لسانك الاّ من خير) ثم قال له (ص): (اما يسرك ان تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرك الى الجنة)[١].

وروي ان الامام علي (عليه السلام) سمع رجلاً يتكلم بما لايعنيه فقال (عليه السلام) له: ياهذا انما تملي على كاتبيك كتاباً الى ربك)[٢].

ثم ان للصمت عدة فوائد، منها الاعتبار بأحاديث الاخرين والتامل فيها، ومنها انه فرصة للذكر القلبي او اللساني، ومنها انه من صفات العارفين، حيث ورد عن الرضا (ع): (الصمت باب من أبواب الحكمة، ان الصمت يُكسب المحبة، انه دليل على كل خير)[٣].في حين ان الكلام الكثير يعرّض الفرد للوقوع في المعاصي او في الاحراجات الاخلاقية او الاجتماعية، ولذلك ورد ان لقمان قال لابنه: (يابني ان زعمت ان الكلام من فضة، فان السكوت من ذهب)[٤].

وكذلك فان المجرب عملياً ان كثرة الكلام تورث الغفلة وقساوة القلب حيث ورد عن الصادق (عليه السلام):ان المسيح(عليه السلام) يقول: لاتكثروا الكلام في غير ذكر الله، فان الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لايعلمون)[٥].

ولايخفى ان الكلام بالطاعات هو نوع من أنواع الذكر كما وضحناه في محله.

وينبغي ان يحرص الانسان الذي يجعل نفسه في مقام النصيحة والارشاد ان يصفي نفسه أولاً، وان يحاول ان يتجرد عن النفاق والرياء، وان يبذل جهده في

---

(١)الشافي ٥/ص١٥٥.

(٢)الكشكول ٢٧١/١.

(٣)الشافي ٥/ ص١٥٤ .

(٤)الشافي ٥/ ص١٥٥ وص١٥٦.

(٥)أشارة الى رواية في اصول الكافي/ باب استعمال العلم/ حديث ١.

تطبيق ما يقوله ويأمر بهِ، حتى لايكون يوم القيامة من أشد الناس حسرة.

((يا أيها الذين آمنوا، لم تقولون ما لاتفعلون، كبُر مقتاً عند الله ان تقولـوا ما لاتفعلون)) الصف/(٢-٣).

فلنحاول جميعاً تقويم السنتنا وحفظها من الآفات والأخطاء، فقد ورد عـن النبي(ص): (لايستقيم ايمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يسـتقيم قلبـه حتـى يسـتقيم لسانه)[١].

بقـي ان نشـير الى نكتـة لطيفـة مفادهـا ان الكـلام كالطعـام، مـن حيـث قلتـه وكثرته، فكما ان قلة الطعام انفـع وأسـلم للانسـان، فكـذلك الكـلام، ولـذلك ورد الصوم عن الكـلام مثلمـا ورد الصـوم عـن الطعـام: حيـث يقـول الله تعـالى مخاطبـاً مريم(ع): ((فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم إنسيا)) مريم/٢٦.

---

(١)مرأة الرشاد /ص٣٣.

ثاني عشر : كثرة العبادة :

ولا يخفى ان هذه وسيلة مضمونة لتحصيل الجنة، لانها من أهم العلامات التي يعبر الفرد من خلالها عن عبوديته لخالقه عزوجل.

يكفيك ان كثرة العبادة هي صفة المعصومين(ع) الثابتة بالتواتر، فالمفروض ان نحاول متابعتهم في ذلك والتأسي بهم بالمقدار الممكن، فان لم توجد الفرصة او المجال عند البعض او لم تساعدهم الصحة على ذلك، فلينوي ان يفعل ذلك بمجرد ان تحين الفرصة ويساعد الحال، مع الالتزام النفسي بمحبة هذا الامر ـ أي تكثير العبادة ـ والتعلق به والتأسف على عدم العمل به ان كان هناك عذر فعلي عنه، او كانت هناك واجبات اخرى مزاحمة كالسعي في طلب القوت، او في رعاية الابناء، او في تحقيق المصالح العامة او نحو ذلك، فهذه (المحبة) مهمة وضرورية لان الوارد عنهم (ع) ان من احب عمل قوم حُشر معهم.. وهذه رحمة إلهية يتوجب علينا شكرها والاستفادة منها.

ثم ان من اهم العبادات هي الصلاة والصوم فينبغي الاكثار منهما حيث ورد في الصلاة انها معراج المؤمن وانها قربان كل تقي، وانها خير موضوع فمن شاء استقل ومن شاء استكثر[1].

واما الصوم فيكفي ان نتذكر هنا الحديث القدسي الوارد عن الله تعالى (الصوم لي وانا أجزي به)، وكذلك ورد عن النبي(ص): (أديموا قرع باب الجنة يُفتح، قيل: وكيف نديم قرع باب الجنة؟ قال (ص): بالجوع والظمأ) أي كثرة الصوم.

---

(١)راجع الوسائل/ ج٥ في ذكر جملة من الصلوات المستحبة، ولعل اهمها صلاة الليل.

كما يعتبر السجود في حد نفسه[١]، من أهم العبادات، أيضاً حيث ورد ان أقرب ما يكون العبد الى الله تعالى وهو ساجد، وان الله تعالى يباهي ملائكته بالعبد الساجد، وقد سمي الامام زين العابدين(عليه السلام) بسيد الساجدين لكثرة سجوده وطوله، حتى قيل له (ذي الثفنات).

وقد ورد في خطبة النبي(ص) في مطلع رمضان: (ايها الناس ان أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم، واعلموا ان الله (تعالى ذكره) أقسم بعزتهِ ان لايعذب المصلين والساجدين وان لايروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين)[٢].

ثم انه ينبغي التعرض هنا لحال طائفتين من الناس، إحداهما صالحة، والاخرى منحرفة، وذلك كما ياتي:

أ ـ الطائفة الاولى، وهي عبارة عن طبقات واسعة من المؤمنين الصالحين الذين يظنون انهم محرومون من هذا الاسلوب (وهو اسلوب تكثير العبادة) لانهم يعانون من موانع حياتية ضرورية تعيقهم عن أداء المستحبات او الاكثار منها، وهذا قد يسبب لهم خيبة الامل. ولكننا نقول لهم ان الله تعالى ارحم بعباده من رحمة الام العطوفة على رضيعها كما هو مضمون رواية عن النبي (ص)، فالأتكال بالدرجة الاساسية ينبغي ان يكون على هذه الرحمة الالهية، واما من الناحية التطبيقية فيكفي مثل هؤلاء ان يعملوا بالميسور وان يلتزموا بالنية الصادقة كما قلنا، بالاضافة الى الالتزام بالفرائض وعدم تضييعها، حيث ورد عن الامام

---

(١)أي بغض النظر عن سجود الصلاة الواجبة او المستحبة.

(٢)مفاتيح الجنان /ص٢٢٥.

زين العابدين(ع): (من عمل بما أفترض الله عليه فهو من أعبد الناس[1].

كما انه من ناحية اخرى فان العبادات لا تقتصر على تلك العبادات الخاصة المعهودة، بل العبادة اعم من ذلك كما وضحناه في كتابنا (الله اكبر من الشيطان) لان معنى العبادة هو الخضوع والتذلل والطاعة والتقرب لله عز وجل، وهو يتحقق في كل عمل مهما كان نوعه، سواء كان حرفة أم وظيفة ام مسئولية عائلية ام مسؤولية اجتماعية مادام هذا العمل منويًا لله تعالى، ومقصوداً به وجهه عزوجل/ حتى النوم والاكل اذا فعله الانسان بقصد التقرب الى الله عزوجل، ولأجل الاستعانة على الطاعة فهو يعتبر عبادة ومأجور عليه، ولذلك ورد عن الصادق(عليه السلام) في جواب من سأله عن معنى العبادة فقال (عليه السلام): (حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منها)[2].

ب- الطائفة الثانية، وهي طائفة ضالة ومنحرفة ممن يدعون العرفان والتكامل، حيث لايعتنون بالعبادات المعهودة بحجة انها ظاهرية، وان تكاليفهم باطنية، وقد يصل الامر بالبعض الى ترك الواجبات وفعل المحرمات والعياذ بالله تعالى.

ولكننا نقول لمثل هؤلاء الذين وقعوا في شباك الشياطين انهم على باطل، وانهم سوف يعاقبون اكثر من غيرهم، لانهم ممن يعرف ويحرِّف، وسنذكر الان باختصار بعض الوجوه والادلة التي تدحض حجتهم وتكشف ضلالهم:

١- انه من المعروف انه لايطاع الله من حيث يعصى، وهذا مبدأ أساسي لايمكن تعديهِ، في حين ان هؤلاء يعصون الله تعالى بحجة انهم يطيعونه باطنياً، وقد

---

(١)الشافي ٥/ ص١١٣.

(٢) الشافي ٥/ ص١١٢.

ورد عن محمد بن مارد انه قال للامام الصادق (عليه السلام): روي انك قلت اذا عرفتَ فاعمل ماشئت، فقال (عليه السلام): قد قلت ذلك. قال[1]: قلتُ وان زنوا او سرقوا او شربوا الخمر. فقال(عليه السلام): انا لله وانا اليه راجعون، والله ما انصفونا ان نكون أُخذنا بالعمل ووُضع عنهم، انما قلتُ اذا عرفتَ فاعمل ماشئت من قليل الخبر وكَثيرهِ فانه يُقبل منك)[2].

أقول: مقصوده (عليه السلام) ان العارف يُفترض به كعارف ان يكون عارفاً للحلال والحرام، ملتزماً بالحدود الشرعية الظاهرية والباطنية وهذا يقتضي ان كل ما يصدر منه ينبغي ان يكون مشروعاً بل مرضياً لله تعالى، فمن هنا قيل انه يفعل ما يشاء، أي بأعتبار انه ـ اذا كان عارفاً فعلاً ـ فالمفروض انه لايفعل الا ما أمر الله تعالى به في شريعته. وقد ورد في دعاء القاموس او السيفي: (أيِّد ظاهري في تحصيل مراضيك، ونوِّر قلبي وسري بالاطلاع على مناهج مساعيك) وهذا يعني ان كلا المنهجين مطلوب، وقد التزم المعصومون (ع) بذلك، كما لا يخفى على من طالع سيرتهم العملية والقولية، فلابد اذاً من التأسي بهم والاقتداء بهم.

٢- ان الله تعالى يقول: ((ان الله لايأمر بالفحشاء)) الاعراف/٢٨.

فهذا نص واضح في ان الله تعالى يتبرأ من أفعال هؤلاء ومن ادعاءاتهم، لان الفاحشة تبقى فاحشة سواء على المستوى الظاهري ام الباطني، فلابد من أجتنابها اذاً على كل حال.

٣- ذكرنا سابقاً ان التقوى مبدأ اساسي من مبادئ تحصيل الجنة، وهذا يعني ان فقدان التقوى يؤدي الى فقدان الجنة، ومعلوم ان فقدان الجنة ملازم

---

(١)أي الراوي (محمد بن مارد).

(٢)الكافي ج٢/٤٦٤/ حديث٥.

لحصول السخط الالهي.

والتقوى كما عرفت لها عدة مراتب، أولها اداء الواجبات وترك المحرمات، حيث ورد عن الصادق(عليه السلام) في تفسير التقوى: (ان لايفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك)[1].

فيتحصل من جميع ذلك ان مثل هؤلاء المنحرفين لاتوجد لديهم ادنى مراتب التقوى، وهذا يعني انهم بعيدون عن الجنة، وانهم قريبون من النار، بل هم في وسط النار.

وفي الحديث عن الصادق(عليه السلام): (ما أحب الله مَن عصاه) ثم تمثل:

تعصي الأله وانت تظهر حبه   هذا محال في الفعال بديعُ[2]

لو كان حبك صادقاً لاطعته   ان المحب لمن يحب مطيعُ

واما ما ورد في بعض الروايات مثل قوله (عليه السلام): (الايمان لاتضر معه سيئة) فهذا انما يريدون (ع) به السيئة غير المقصودة التي يُعبِّر عنها باللمم، أو يريدون (ع) بها السيئة التي حصل بعدها استغفار حقيقي وتوبة فعلية، وهذا ينبغي ان يكون من الواضحات، وتدل عليه جملة من النصوص والروايات يطول عرضها وبيانها.

---

(١)البحار ج٧٠/ ص٢٨٥.

(٢)بديع أي غريب (أنظر مجمع البحرين).

ثالث عشر: الامر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهو سبب أكيد لتحصيل الجنان، خصوصاً اذا كان الفرد نفسه ممن يعمل بالمعروف الذي يأمر به، ويجتنب عن المنكر الذي ينهى الناس عنه.

وقد ورد في الحديث عن النبي (ص): لاتزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر. فاذا لم يفعلوا ذلك نزُعت منهم البركات وسُلِّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الارض ولا في السماء)[١].

وهذا يعني ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي نزول البركات الالهية من الناحيتين المعنوية والمادية، كما انه يقتضي انتشار الالفة والمحبة والتعاون بين الامم، وكذلك يقتضي حصول النصرة والعزة للمؤمنين.

وقد ورد عن الباقر(عليه السلام): الامر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله، فمن نصرهما اعزه الله، ومن خذلهما خذله الله)[٢].

وفي الحقيقة فنحن لا نريد التوسع في هذا المورد، لانه من الواجبات الاساسية التي يفترض ان يعرفها كل مؤمن اطلع على الرسائل العلمية لفتاوى المجتهدين، فانهم يفردون لهذا الامر باباً خاصاً يتحدثون فيه عن جميع التفاصيل والشروط والمراتب[٣].

الا ان مايهمنا الان هو إلفات النظر الى ان الجنة يمكن تحصيلها من هذا الطريق، لان أبسط ثواب يترتب على الامر بالمعروف هو ان الفرد سيشارك

---

(١)الوسائل ج١١/ ص٣٩٨.

(٢)الوسائل ج١١/ ص٣٩٨

(٣)راجع كذلك الاحاديث الواردة عن المعصومين (ع) عن هذا الموضوع ومتعلقاته في الوسائل مج١١ من ص٣٩٣ الى ص٦٠١ وهي مهمة ونافعة جداً.

الاخرين في ثوابهم اذا التزموا بكلامه وطبقوه، وهذا يستدعي منا ان نحاول جهدنا وان لانقصر في هذا المجال، حيث ورد عن النبي(ص): (من أمر بمعروف او نهى عن منكر او دل على خير أو أشار به فهو شريك، ومن أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به فهو شريك)[١].

(١)الوسائل ج١١/ص٣٩٨.

رابع عشر: صلة الرحم:

وهذا الامر وان أمكن دخوله في (مداراة الناس) على اعتبار ان الارحام هم من جملة الناس الذين تجب مداراتهم وصلتهم، الاّ ان إفراد (الارحام) بأعتبار ان صلتهم هي طريق خاص ومستقل لتحصيل الجنة ـ يكون أولى لان مداراتهم مقدمة على مداراة غيرهم حيث يقول الله تعالى ((واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله)) الاحزاب/٦.

وكذلك لان ثواب صلتهم أفضل من ثواب صلة سائر الناس، حيث ورد عن النبي(ص): (ان اعجل الخير ثواباً صلة الرحم[١].

ثم انه سُئل الامام الصادق(عليه السلام): عن قول الله تعالى: ((واتقوا الله الذي تساءَلون به والارحام)) النساء/١. فقال (عليه السلام): (هي أرحام الناس، ان الله عزوجل أمر بصلتها وعظّمها)[٢]. وكذلك سُئل (عليه السلام) عن قوله عزوجل: ((الذين يصلون ما امر الله به ان يوصل)) الرعد/٢١. فقال (قرابتك)[٣].

وهنا نود الاشارة الى الامور التالية:

١- ان صلة الرحم مطلوبة سواء كان هناك تواصل من الطرف الآخر ام لم يكن، حيث ورد: (ان الرحم معلقة بالعرش)، تقول اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني[٤].

وقد أتى رجل للنبي(ص) فقال: يارسول الله، أهل بيتي أبوا الاّ توثباً

---

(١)الشافي ٥/ ص٢٠٥.

(٢)الشافي ٥/ ص٢٠٥.

(٣)الشافي ٥/ ص٢١٠.

(٤)الشافي ٥/ص٢٠٣.

علي وقطيعة لي وشتيمة فأرفضهم؟ قال (ص): أذاً يرفضكم الله جميعاً، فقال: فكيف أصنع؟

قال (ص): تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، فانك اذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهير)[١]. فما يقوله بعض الناس من الاعتذار عن مقاطعه ارحامهم بسبب عدم الترحيب بهم من قبلهم غير مقبول، ولايرضى به الله تعالى، لان المطلوب في جملة من الروايات هو (صِل من قطعك). فلا بد اذاً من مجاهدة النفس والصبر واحتساب ذلك عند الله تعالى فانه عزوجل يرى ويسمع ويحفظ وهو تعالى خير الشاكرين.

٢- ان لصلة الرحم عدة فوائد بالاضافة الى انها طريق يقتضي تحصيل الجنة، حيث ورد في عدة روايات انها تزكي الاعمال وتنمى الاموال وتيسر الحساب وتدفع البلوى وتزيد في الرزق[٢]. والمتأمل يجد ان آثارها كأثار الصدقة بل هي صدقة فعلاً.

٣- ان لصلة الرحم عدة أشكال أيسرها التسليم، حيث ورد عن الامام علي (عليه السلام) (صلوا ارحامكم ولو بالتسليم) [٣] . أي بالقاء السلام والتحية عليهم. وأوضحها الزيارة، لانها من أظهر مصاديق التواصل والتقارب. وهناك أشكال اخرى لصلة الرحم كالمساعدة المادية بمالٍ او نحوه، او المساعدة المعنوية بنصح او أرشاد او نحو ذلك.

---

(١)ن.م/ ٥/ص٢٠٢ وص٢١١ وص٢٠٨.

(٢)ن.م/ ٥/ص٢٠٢ وص٢١١ وص٢٠٨.

(٣)ن.م/ ٥/ص٢٠٢ وص٢١١ وص٢٠٨.

٤- قد يسأل البعض انه لو كان هناك شخصان أحدهما ذي رحم لكنه غير مؤمن او غير ملتزم، والاخر ليس بذي رحم لكنه مؤمن، فمن هو الاولى بالصلة؟. وجوابه انه مع عدم التزاحم فان لكل واحد منهما حقه فيزور رحمه بمقدار ما يصدق معه صلة الرحم، ويزور المؤمن بمقدار ما يؤدي به حقه، او بمقدار ما يشاء اذا كان في زيارته لهذا المؤمن منافع اخروية.

واما مع التزاحم فيقدم الاهم من الناحية الشرعية، كما لو كان رحمه في حاجة ماسة اليه، او كان المؤمن في حاجة أشد اليه، أو كان هو في حاجة ماسة لزيارة المؤمن، سواء كانت الحاجة مادية ام معنوية. فيتحصل مما سبق ان للرحم حقه من الصلة مهما كان مستواه الايماني.

حيث ورد ان احدهم سأل الامام الصادق (عليه السلام): تكون لي القرابة على غير أمري[1]ألهم علي حق؟ فقال(عليه السلام)، نعم حق الرحم لايقطعه شيء، واذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حق الرحم وحق الاسلام)[2].

نعم يستطيع الفرد ان يقلل من زياراته لارحامه المنحرفين اذا كان ذلك لأجل ردعهم عن الانحراف، أي من باب النهي عن المنكر، بل يستطيع بعد ذلك. ان يقاطعهم لمدة معينة اذا لم يشاهد منهم استجابة، لكن هذه المدة ينبغي ان لاتطول حتى لايقع في الحرام من حيث لايشعر، بمعنى انه اذا لم يشاهد منهم تغيراً فليرجع الى صلتهم، لكنه ينبغي عندئذ ان يقتصر على الضروريات وعلى ما يتحقق به مسمى الصلة، كالتسليم او الزيارة القصيرة، ولا يجوز له الانقطاع عنهم نهائياً او لفترة طويلة نسبياً اللهم الا ان يكون لديه عذر شرعي حقيقي كالاضطرار

(١)أي على مذهب آخر أو دين آخر غير الحق.

(٢)الشافي ٥/ص٢١٠.

او عدم القدرة أصلاً او نحو ذلك مما يمنعه فعلاً عن الاتصال بهم، وينبغي للفرد هنا ان يحذر من تسويلات الشيطان او النفس الامارة بالسوء، فقد يصوران له أعذاراً وهمية لمنعه من صلة الرحم أو من سائر الطاعات فالمفروض بالفرد إذا ان يتثبت ويتحقق من ذلك.

٥- يمكن القول ان الرحم نسبي وسببي، والاول هو المعنى الحقيقي للرحم وهم القرابة، واما الثاني ولنقل انه معنى مجازي على اعتبار ان المؤمنين إخوة فيكونون أرحاماً فيما بينهم بلحاظ هذا السبب وهو الايمان..

وعندئذ يدخل المؤمنون في هذا العنوان، ويكونون مشمولين بوجوب الصلة وحرمة القطيعة، وقد ورد في الحديث عن الباقر(عليه السلام): (المؤمن اخو المؤمن لابيه وأمه لان الله عزوجل خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى في صدورهم من ريح الجنة، فلذلك هم اخوة لاب وأم)[1].

وفي الخبر عن النبي (ص) انه قال للامام علي (عليه السلام): (ياعلي انا وانت أبوا هذه الامة)[2] ، وفي رواية علل الشرايع عنه (ص): (انا وعلي أبوا هذه الامة)[3].

---

(١)الشافي ٥/ص٢٢٤.

(٢)روضة الواعظين ص٣٢٢.

(٣)علل الشرائع ١/ص١٢٧.

خامس عشر: الرضا والقناعة والتسليم:

في الحقيقة يوجد جامع بين هذه العناوين الثلاثة، وهو ان الفرد يقبل بالحال التي هو عليها من دون ان يعترض على الله تعالى، ومن دون ان يرتكب المعاصي من اجل تغيير تلك الحال.

وبهذا التفسير يتبين لنا حقيقة الرضا والقناعة، فليس المقصود منها ان يكون الفرد جامداً وبلا شعور كما قد يفهمه البعض، فالنبي (ص) بكى عندما توفي أحد اولاده، ولما قيل له في ذلك، قال (ص) ما مضمونه ان العين لتدمع وان القلب ليحزن ولكن لانقول ما يُغضب الرب.

كما انه ليس المقصود بالقناعة الغاء الطموح والافكار المستقبلية كما قد يتوهمه البعض، بل المقصود هو ان لايكون هذا الطموح سبباً للوقوع في المعاصي او الرذائل الخلقية، أو سبباً في الاعتراض على الله تعالى،

ولذلك فان الطموح الى الخير مشروع بل يكون واجباً في اغلب الاحيان كما في قوله تعالى: ((ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))الرعد/١١.

ثم ان التكامل في جميع مستوياته انما يبتني على وجود الامل والرجاء في التقدم والترقي، ولولا هذا الامل لكانت الهمة ضعيفة، وبالتالي يخسر الانسان وتفوت عليه الفرصة التي وهبها الله تعالى له في هذه الدنيا.

وينبغي الكلام هنا ضمن النقاط التالية.

١- ان الرضا والتسليم يتعلق بثلاثة امور كلها مطلوبة:

أ- الرضا بالقضاء والقدر سواء كان محبوباً أو مكروهاً لديه، حيث ورد في الخبر انه قيل للامام الصادق (عليه السلام) باي شيء يُعلم المؤمن بانه مؤمن؟ قال (عليه السلام) بالتسليم لله والرضا فيما ورد عليه من سرور او سخط)[1] ، وهذا هو أوضح موارد الرضا.

ب- الرضا بالتشريعات الالهية وعدم الاعتراض عليها، حيث يقول الله تعالى: ((فلا وربك لايؤمنون، حتى يحكّموك فيما شجر بينهم، ثم لايجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلِّموا تسليماً)) النساء/٦٥.

ج- الرضا بما جاء به النبي محمد (ص)، والاوصياء (ع) من العقائد والاصول بمعنى انه مادام يعتقد بنبوة النبي محمد (ص) وبأمامة الائمة الاثنى عشر (عليهم السلام) فالواجب عليه الاذعان والتسليم بالعقائد الواردة عنهم (ع) بالطرق والاخبار المعتبرة.

٢- قلنا ان المطلوب في الرضا او القناعة هو أمران:

أ- عدم الاعتراض على الله تعالى.

ب- عدم التصدي لتغيير الحاصل عن طريق امور غير مشروعة وغير مرضية عند الله تعالى.

وهنا نريد ان نقول ان تغيير الحال السيئة او الظرف الصعب التي يمر بها الفرد سواء من الناحية المادية او الصحية ام غيرها، لامانع منه اذا كان بالطرق المشروعة كزيادة العمل لتحسين المعيشة مثلا، فهذا لاينافي القناعة، وانما ينافيها اذا كان غير ضروري وتسببَ في فوات مصالح معنوية للفرد سواء في علاقته مع

---

(١)الشافي ٨٥/٥.

الخالق عزوجل او مع المخلوقين.

بل قد تكون القناعة محرمة أحياناً، كما لو كانت سبباً في الاضرار الفعلي بالاخرين ممن تنجَّز حقهم في ذمة الفرد، مع كـون التغيير ممكناً بـالطرق المشروعة، والا فلا يطاع الله من حيث يعصى.

فتحصل مما سبق ان السعي لاينافي القناعة، خصوصاً اذا كان سعيه قربة الى الله عزوجل، وكذلك فان محاولة التغيير للحال السيء لاتنافي الرضا، ولـذلك ورد في عـدة روايـات ان الـدعاء او دفـع الصـدقات يـرد القضـاء ويـدفع الـبلاء ، كمـا ان صـلة الـرحم تعمـر الـديار وتوسـع الارزاق وتطيـل الاعمـار، وهكـذا. فالقناعة وان كانت تتحقق بالصبر والرضا بتقـدير الله تعـالى، الا ان محاولـة التغـيير وتحصيل الافضل غير ممنوعة مادامت بالطرق الصحيحة المرضية للخالق عزوجـل، فـان نـال الفـرد مـا يطمـح اليـه عندئـذ فهـو نعمـة جديـدة، وان فشـل في تحقيـق طموحاتـه، ولم يحصـل علـى الافضـل، فليشـكر الله تعـالى علـى النعمـة الـتي بـين يديه، وليقنع ولا يعترض، وليعلم ان الله تعالى لايريد له الاّ الخير والصلاح. غاية الامر ان الفرد قد لايدرك صلاحه الحقيقي، ففي الحـديث عـن الـنبي (ص) ان الله عزوجـل قـال: ان مـن عبـادي المؤمنين عبـاداً لايصـلح لهـم أمـر ديـنهم الا بـالغنى والسعة والصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصـحة البـدن، فيصـلح علـيهم أمـر ديـنهم. وان مـن عبـادي المـؤمنين لعبـاد لايصـلح لهـم أمـر ديـنهم الاّ بالفاقـة والمسكنة والسقم، فيصلح عليهم امـر ديـنهم، وانـا اعلـم بمـا يصـلح عليـه أمـر ديـن عبادي المؤمنين)[1]. وفي ذلك يقول الله تعالى في القران الكريم.

((فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)) النساء/١٩.

---

(١)الشافي ٥ /٨٢ .

وكذلك قال عزوجل:

((وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خيرلكم، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وانتم لاتعلمون)) البقرة/٢١٦.

فالتسليم مطلوب دائماً وثوابه محفوظ ((واصبِر لحكم ربك فانك بأعينِنا)) الطور/٤٨.

كما ان الدعاء بالخير والعافية نافع ومؤثر بأذنه عزوجل، نسأل الله تعالى ان يصلح أمرنا بالخير والعافية انه نعم المجيب، والحمد لله على كل حال.

٣- توجد هنا عدة درجات للرضا أوالتسليم، وهي كالآتي:

أـ الرضا صبراً، بمعنى ان الفرد يعتبر الحالة التي مرت عليه مصيبة، وانه يصبر عليها رضا بقضاء الله تعالى وقدره، فلا يشكو لأحد ولايعترض سواء امام الاخرين ام أمام نفسه.

وقد ورد في الحديث عن الباقر (عليه السلام): (من رضي بالقضاء اتى عليه القضاء وعظم عند الله أجره، ومن سخط بالقضاء أتى عليه القضاء وأحبط الله اجره)[1].

ب- الرضا قبولاً، بمعنى ان الفرد يقبل بالحالة التي مرت عليه، من دون أن يعتبرها مصيبة، بل قد يتعامل معها وكأنها نعمة، لانه يدرك انها في صالحه واقعاً، وان بدت في ظاهرها على خلاف ذلك. وقد ورد عن الصادق (عليه السلام) ان الله تعالى يقول: عبدي المؤمن لاأصرفه في شيء الا جعلته خيراً له، فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي) وفي الدعاء (الحمد لله على ما ابلانا وابتلانا).

---

(١)الشافي ٥ /٨٤ .

ج- الرضا حباً، بمعنى ان الفرد يحب الحالة التي مرت عليه، ويستأنس بها مادامت من عند محبوبهِ وخالقه ومولاه عزوجل، فهو لايفكر في المصلحة او الخير الذي سيصيبه منها واقعاً، بل غاية ما يراه ويخطر في داخله ان هذا من عند الله تعالى، فيحبه محبة لله عزوجل، وهذه اعلى الدرجات كما لايخفى، وفي الدعاء (يا مدبري ولست أدري).

٤- للقناعة والرضا عدة فوائد اهمها تحصيل الجنة بل المراتب العالية حيث ورد في الحديث القدسي: (ان رضاي في رضاك بقضائي)[1].

ومنها راحة النفس في الدنيا فضلاً عن الاخرة، حيث ورد عن الصادق (عليه السلام): (ان الله بعدلهِ وحكمته وعلمه، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله تعالى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)[2]. وفي البحار (ج٧٣/١٦١) عن الصادق (عليه السلام) حُرم الحريص خصلتين، ولزمته خصلتان حُرم القناعة فافتقد الراحة، وحُرِمَ الرضا فافتقد اليقين).

وورد كذلك ان القناعة كنز لايفنى)[3] ، وهو أمر مجرب فان القناعة تجعل الفرد لا يفكر في غيره، فلا يحسده ولا يحقد عليه ولا يعتدي عليه، بل هو لا يحس أصلاً بوجود الفارق بينه وبين الشخص الاخر الذي قد تكون حالته أحسن ولذلك ورد عن المعصومين (ع) ما مضمونه (استغن عمن شئت تكن نظيره) أي مثله وفي نفس مستواه الاجتماعي.

وفي الواقع فان كل من كانت عنده قناعة تامة فهو من أكثر الناس

---

(١)جامع السعادات ٣/٢٠٤.

(٢)جامع السعادات ٣/٢٠٤.

(٣)الدر المنثور ج١/ص ٣٦١ وهو حديث نبوي.

سعادة، لان القناعة اذا حصلت كان صاحبها في راحة من كل تفكير سيء ومن كل عناء فارغ او باطل، فقد تجد غنياً يلهث في تجارته من الصباح حتى المساء، وقد حرم نفسه من الراحة والعيال، ولكنه مع ذلك لايشعر بالسعادة لانه غير مقتنع بالمستوى المادي الذي هو عليه، في حين تجد فقيراً بسيطاً من اسعد الناس لانه يمتلك القناعة التي يشاهد من خلالها مقدار النعم التي اعطاه الله تعالى، وقد ورد عن المعصومين(ع): (من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس)[1] ، وورد عن النبي (ص): (القناعة ملك لايزول[2]، وفي الحديث عن الامام علي (عليه السلام): (من رضي من الدنيا بما يجزيه كان أيسر ما فيها يكفيه، ومن لم يرض من الدنيا بما يجزيه لم يكن فيها شيء يكفيه)[3].

ومن فوائد القناعة والرضا، تحصيل العزة والكرامة، حيث يقول الشاعر:

خيار الناس من لزم القناعة ولم يكشف لمخلوقٍ قناعَه
أفادتنا القناعة كل عزٍ ولا عز أعز من القناعة[4]

وهو امر مجرب ويعرفه كل من حاول ان يشكو الى الاخرين، فانه نادراً ما يجد منهم القلب الحنون أو الاستقبال العطوف، ولذلك قيل :

لاتشكون الى الخلائق انما تشكو الرحيم الى الذي لايرحم

(١)الشافي ١٨٨/٥.
(٢)البحار ج٧١/ ص٣٤٩.
(٣)الشافي ١٨٨/٥.
(٤)مرآة الرشاد /ص٧٤.

وورد في الدعاء (الحمد لله الذي وكلني اليه فاكرمني ولم يكلني الى الناس فيهينوني).

نعم قد يحتاج البعض احياناً الى من يكلمه ويبث اليه همومه، وهذا امر لامانع منه اذا كان بدافع الاستنصاح وطلب المشورة او المعونة، ولكن ينبغي عندئذ ان يفتح قلبه أمام مؤمن مخلص لكي يشاهد من خلاله نور الهداية والتسديد برعاية الله عزوجل، وفي الحديث المشهور (المؤمن مرآة المؤمن).

وهناك فوائد اخرى يطول بيانها، وهي كثيرة ونافعة جداً، فلا ينبغي التفريط اذاً في تحصيل الرضا والقناعة.

سادس عشر: التوكل:

وهذا طريق آخر من الطرق الاساسية لتحصيل الجنة، وهو لايحتاج الى جهد بدني أو فراغ زمني، إذ انه في متناول كل فرد يريده ويقرر استخدامه، حيث يقول الله تعالى، ((فتوكل على الله، ان الله يحب المتوكلين)) آل عمران/١٥٩.

ومعلوم ان الله تعالى لايمنع الجنة عمن يحبهم. هذا علاوة على الفوائد الاخرى المترتبة على التوكل، وأوضحها ما يأتي:

أـ تحصيل العزة والكرامة، حيث ورد عن الصادق (عليه السلام): (ان الغنى والعز يجولان، فاذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا)[١]. وفي الدعاء (الحمد لله الذي وكلني اليه فاكرمني ولم يكلني الى الناس فيهينوني).

ب- تحصيل الرغبات والآمال، حيث يقول الله تعالى: ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره)) الطلاق/٣، وفي الحديث عن النبي (ص): (من انقطع الى الله، كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لايحتسب. ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها)[٢] ، وكذلك ورد عن الصادق (عليه السلام): (من اعطي الدعاء اعطي الاجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة، ومن أُعطي التوكل أعطي الكفاية)[٣].

ج- الوقاية من السوء، والنجاة من المصاعب، حيث ورد في القران الكريم: ((الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم أيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء)) آل

---

(١)الشافي ٨٦/٥.

(٢)جامع السعادات ٢٢١/٣.

(٣)الشافي ٨٧/٥ .

عمران (١٧٣-١٧٤).

ثم انه ينبغي الكلام هنا ضمن عدة نقاط:

١- انه توجد عدة اسباب تدعو المخلوق الى ان يتوكل على الله تعالى، وهذا طبعاً مع غض النظر عن الجانبين التكليفي والتعبدي[1]، فالله تعالى هو الخالق لكل شيء وهو العالم بكل شيء، وهو المسيطر على كل شيء، وهذا يعني ان التوكل عليه هو سبب اكيد لتحصيل كل شيء باذن الله عزوجل.

((خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل)) الانعام/١٠٢.

((رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلاً)) المزمل/٩.

كما ان الله تعالى هو المتفضل علينا في كل شيء، وهذا ما وضحناه في مبحث الشكر ((ومالنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا))ابراهيم/١٢.

أضف الى ذلك ان الله تعالى موجود في كل مكان ((وهو معكم أينما كنتم)).

وهذا يعني ان الاعتماد عليه ممكن في جميع الاحوال والظروف، ومن دون الحاجة الى واسطة أو رابطة، وفي الدعاء (الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي وأخلو به حيث شئت لسري، بغير شفيع فيقضي لي حاجتي).

ولا يخفى ان جميع هذه الامتيازات غير موجودة لدى المخلوق، اذ يكفي انه لاحول له ولاقوة الا بارادة الله تعالى ومشيئته[2]، حيث ورد في الحديث

(١)على اعتبار ان جملة من الآيات والاحاديث حثت على التوكل بل أمرت به، فلابد من الالتزام به، وان كان الواقع انها أوامر لمصلحة العباد ومنفعتهم.

(٢)أنظر بيان ذلك في كتابنا (معالم التكامل في العقيدة).

القدسي ان الله تعالى يعاتب الفرد الذي لايتوكل عليه تعالى: (الم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي انه لايملك كشفها احد غيري الاّ من بعد إذني)[١]. ويقول كذلك: (ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب)[٢]، وورد في الدعاء عن السجاد(عليه السلام) (فلا مصدر لما اوردتَ، ولاصارف لما وجهت، ولا فاتح لما اغلقت، ولا مغلق لما فتحت، ولا ميسر لما عسرت، ولا ناصر لمن خذلتَ).

٢- قد يقول البعض انه يستطيع ان يسأل الناس ويعتمد عليهم، او يعتمد على نفسه في تحصيل رغباته واحتياجاته، وهذا القول انما لوحظ فيه الجانب المادي الظاهري، ولم تُلاحظ اسبابه الاخرى الاساسية التي لاينتبه لها من امتلأت عيناه بالماديات فحجبت عن مشاهدة ما ورائها.

فهل سأل الواحد من هؤلاء نفسه، من الذي اعطاه القوة ليفكر في الشخص الذي سيعتمد عليه؟ ومن الذي اعطاه القدرة على مخاطبته وطلب الحاجة منه؟ ومَن الذي هيأ لذلك الشخص القابلية على فهم سؤاله؟ ومن الذي رزق ذلك الشخص ما أغناه وجعله قادرا على المساعدة؟ ومن؟ ومن؟ الى ما لايحصى من الاسئلة التي يرجع جوابها الى الله عزوجل.

((واليه يرجع الامر كله، فاعبده وتوكل عليه)) هود/١٢٣.

ان باستطاعة الله تعالى ان يمنع الفرد (بمرضٍ او نحوه) من ان يصل الى الشخص الاخر،كما ان بأستطاعته تعالى ان يمنع ذلك الشخص من الاهتمام بهذا الفرد، كأن يشغله بأمر أهم، كما ان باستطاعته تعالى ان يلقي القساوة على قلبه فلا يقدم له المعونة، الى غير ذلك من الامور التي لو أراد الله تعالى لجعلها مانعاً

(١)جامع السعادات ٣/ص٢٢٣ وص٢٢٢.

(٢)جامع السعادات ٣/ص٢٢٣ وص٢٢٢.

عن فعالية الاسباب المادية، ولكنه تعالى لم يمنع عنها رغم ذلك رحمة وتحنناً وفضلاً منه عزوجل.

فاذا التفت الفرد الى هذه الامور كان حقاً عليه ان يقول: (الهي ليس لي غيرك، فبمن الوذ وبمن اعوذ) وكذلك يقول: (الهي من لي غيرك اسأله كشف ضري والنظر في امري) وكذلك يقول: (الهي اذا لم أسالك فتعطيني فمن ذا الذي اساله فيعطيني؟).. الى غير ذلك من الادعية التي تركز على هذه الفكرة (من أين لي الخير يا رب ولايوجد الاّ من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تُستطاع الاّ بك.

٣- قد يظن البعض ان التوكل يتنافى مع العمل والسعي والاخذ بالاسباب الاعتيادية، ولكنه ظن ليس في محله، حيث قلنا في مقام سابق ان مراجعة الطبيب مثلاً عند المرض، او طلب الرزق بالعمل او نحو ذلك لاينافي التوكل اذا كان الفرد يعتقد فعلاً ان الشفاء او الرزق مثلاً بيد الله تعالى الذي أبى الا ان يجري الاشياء بأسبابها كما ورد في الحديث، وقد روي عن الصادق(عليه السلام): (اذا فتحتَ بابك وبسطتَ بساطك فقد قضيت ما عليك)[1] ،أي أديت ما عليك من الناحية التكوينية والباقي على الله تعالى.

كما اننا من جهة اخرى مأمورون بالسعي او بالتداوي او بنحو ذلك من الاسباب الاعتيادية لتحصيل الامور، حيث ورد عن الصادق (عليه السلام): (أوجب الله لعباده ان يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب[2] التي سببها لذلك، وأمرهم بذلك)[3]

---

(١)جامع السعادات ٣/٢٢٨.

(٢)ومن هذه الاسباب الدعاء والصدقة وصلة الرحم ونحوها من الطاعات التي لها آثار وضعية، بل ومن ذلك ايضاً التوكل نفسه فانه سبب من الاسباب.

(٣)جامع السعادات /ص٢٢٨ وص٢٢٩.

، وفي الحديث القدسي: (فمن أودع العقاقير منافع الاشياء غيري)[1].

وكذلك ورد في قوله تعالى: ((وشاورهم في الامر، فاذا عزمت فتوكل على الله)) آل عمران/١٥٩.

فتحصل ان الفرد المؤمن يُفترض به أن لايتوكل حقيقة الاّ على الله تعالى، الاّ انه انما يسلك الاسباب طاعة لله وامتثالاً لأوامره عزوجل، وبذلك يحصل مثل هذا الفرد على ثواب التوكل وفوائده بالاضافة الى حصوله على ما يريد بأذنه تعالى، حيث ورد في الدعاء عن الامام السجاد (عليه السلام): (فمن حاول سد خلته من عندك، ورام صرف الفقر عن نفسه بك، فقد طلب حاجته من مظانها، وأتى طلبته من وجهها. ومن توجه بحاجته الى احد من خلقك، أوجعله سبب نجحها دونك ، فقد تعرض منك للحرمان واستحق من عندك فوت الاحسان).

٤ ـ قد يرد هنا سؤال مفاده ان جملة من الناس يتوكلون على الله تعالى ولكنهم قد لاينالون مرادهم، فما هي علة ذلك؟ وفي الحقيقة فان جواب هذا السؤال بسيط جداً فان التوكل ليس علة تامة لتحصيل المراد، بل هو مقتضي لذلك، ومعلوم ان المقتضي يحتاج الى شروط، بالاضافة الى فقدان المانع.

بيان ذلك، ان التوكل المؤثر يحتاج الى مقدمات وشروط يتحقق بها التوكل، كالايمان بالله تعالى والثقة به، وكذلك يحتاج الى التزام قلبي حقيقي بمفهوم التوكل، حيث ورد في الحديث عن الصادق (عليه السلام): (اذا اراد احدكم ان لايسأل ربه شيئاً الاّ اعطاه، فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء الا عند الله، فاذا علم الله عزوجل ذلك من قلبه لم يسأل الله شيئاً الاّ اعطاه)[2]. فالتوكل

(١)جامع السعادات /ص٢٢٨ وص٢٢٩.

(٢)الشافي ١٩٩/٥.

اللساني لايكفي، وكذلك التوكل الاختباري بمعنى ان يتوكل ليختبر الله عزوجل. ومن هنا ندرك ان عدم تحصيل البعض لغاياتهم وحاجاتهم رغم توكلهم على الله تعالى، انما يرجع الى عدم تحقق الشروط المناسبة للتوكل، او يرجع أصلاً الى عدم صدق التوكل الصادر منهم. ((ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم)) الانفال/٢٣.

كما انه قد يرجع ذلك لوجود بعض الموانع، كما لو كانت رغبة الفرد تضره من حيث لايعلم، او كانت رغبته تنافي مصلحة فرد آخر اهم، او تنافي مصلحة مجموعة معينة من الناس، بحيث يكون تحقيق رغبته سبباً في ضرر هؤلاء او كما لو كان تأجيل الاستجابة او العطاء انفع للفرد واقعاً، حيث ورد في دعاء الافتتاح للامام علي (عليه السلام): (فإن أبطأ عني عتبتُ بجهلي عليك، ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الامور).

هذا علاوة على الاحتمالات المتعلقة بجانب الابتلاء والتمحيص، فالفرد معرض لاختبار ايمانه بالله تعالى ومقدار ثقته به وتوكله عليه عزوجل.

((أحسِب الناس ان يترُكوا ان يقولوا آمنا وهم لايُفتنون)) العنكبوت/٢.

الا ان النتيجة النهائية والمجربة فعلاً هي ان التوكل على الله تعالى سبب فعال لتحصيل الرغبات والآمال الدنيوية والاخروية، ولا يُنبئك مثل خبير.

سابع عشر : التواضع

وهو من اعظم الاسباب المؤدية لتحصيل الجنة ورضا الله عز وجل، رغم انه في متناول اليد لكل انسان مهما كان وضعه وظرفه ومستواه، ففي الحديث عن الصادق ع (فيما أوحى الله عز وجل الى داود (ع): كما ان اقرب الناس من الله المتواضعون، كذلك ابعد الناس من الله المتكبرون)[1].

والتواضع هو صفة الانبياء والمعصومين (ع)الذين يجب الاقتداء بهم، وقد مدح الله تعالى عباده بقوله ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً)) الفرقان/٦٣.

وورد عن النبي ص:(اربع لايعطيهن الله الا من احبه، الصمت، وهو اول العبادة.والتوكل على الله،والتواضع،والزهد في الدنيا)[2] هذا علاوة على ان للتواضع عدة فوائد واثار منها:

أ ـ تحصيل الرفعة: ففي الحديث عن النبي (ص): (ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة، فتواضعوا يرحمكم الله)[3]. وهذا مثال يوضح لنا ان البشر في غفلة عن جملة من الحقائق الواقعية، فهم يعتقدون ان التكبر يؤدي الى الرفعة، في حين يكشف لنا المعصومون(ع) ان التكبر لا يؤدي الا الى التسافل، و ان التواضع هو الذي يؤدي الى الرفعة سواء في الدنيا ام في الآخرة،وقد ورد في الحديث عن الصادق(عليه السلام): (ان في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع لله رفعاه،ومن

---

(١)الشافي ٥ / ص ١٦٨

(٢)جامع السعادات ٢ / ٣٥٩ و٣٦٠

(٣)جامع السعادات ٢ / ٣٥٩ و٣٦٠

تكبر وضعاه)[1]. وقد جاء في الحكمة ان المتكبر على الناس كمثل الصاعد فوق الجبل، فهو يرى الناس صغاراً ويرونه صغيراً فافهم لتنجو بنفسك .

ب- تحصيل الحكمة، حيث ذكرنا في كتابنا (معالم التكامل في المعرفة) ان التواضع هو سبب من أسباب تحصيل الذكاء او تقويته ، وفي الحديث عن المعصومين (ع) : (تواضع للحق تكن اعقل الناس).

ج- تحصيل الصفاء وخلوص النفس، فان التواضع علاج أكيد لجملة من الامراض والعيوب النفسية التي تحجب صاحبها عن الحق والكمال ،ولذلك يقول الله تعالى: ((كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)) غافر/٣٥.

د- تحصيل الاجر والحسنات ،على اعتبار ان الله تعالى امرنا بالتواضع ((واخفض جناحك)) الشعراء/٢١٥. فيكون امتثال هذا الأمر طاعة توجب الثواب .

مستويات التواضع

ثم ان التواضع له عدة مستويات كلها مطلوبة وواجبة حيث ورد في الدعاء (وفي جميع الاحوال متواضعاً). فأول هذه المستويات هو التواضع امام الله تعالى، باعتبار انه عزوجل هو الخالق والمنعم والمولى والهادي ،وقد ورد في الدعاء (مولاي يا مولاي انت المولى وانا العبد، وهل يرحم العبدَ الآ المولى، مولاي يا مولاي انت المالك وأنا المملوكَ وهل يرحم المملوك الا المالك، مولاي يا مولاي انت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل الا العزيز)... الى آخر هذه المناجاة الشريفة للامام علي (عليه السلام) الواردة في اعمال مسجد الكوفة .

---

(١)الشافي ٥/ ١٦٦

والتواضع لله تعالى له عدة مصاديق، منها ما قلناه من استشعار العبودية لله تعالى داخل النفس، بحيث يأتي الفرد بالطاعات بكل تواضع وانكسار أمام مولاه وخالقه عز وجل، وفي الحديث ان الله تعالى أوحى لنبيه موسى (عليه السلام): (يا موسى تدري لِمَ اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟ ثم قال له :إني قلبت عبادي ظهراً لبطن، فلم أجد فيهم احداً أذل لي نفساً منك يا موسى)[1] .

ومنها: عدم الاعتداد بالنفس امام الله تعالى ، بمعنى ان الفرد يبني على انه لا شيء امامه ،وأن جميع النعم التي هو فيها انما هي راجعة الى الله تعالى ومتوقفة على ارادته ، وفي الدعاء عن الحسين (عليه السلام): (الهي انا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، الهي انا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي).

ومنها: الشعور بالتقصير امام الله عزوجل، بمعنى انه لا يمنَّ على الله تعالى بالطاعات، ولا يَغترّ باعماله فانها قليلة مهما كانت اذا ما قورنت بحقوق الله تعالى على العباد ، ولذلك يقول الامام علي (عليه السلام): (الهي ان كان صغر في جنب طاعتك عملي، فقد كبر في جنب رجائك أملي) وكذلك ورد في الدعاء ما مضمونه (الهي ان كنتُ بئس العبد فانتَ نعم الرب) .

وفي الحقيقة فان الفرد كلما ارتقى وتكامل، كلما شعر بالتقصير اكثر، فتشمله العناية الربانية اكثر وهكذا. ولذلك يلاحظ المتأمل في ادعية المعصومين(ع) انهم يصفون أنفسهم بالتقصير الشديد رغم انهم القمة في التكامل، وهذا يرجع الى ان التكامل يكشف للفرد عن مستويات معمقة من النعم التي تفضل بها الله تعالى على عباده، فيحس المرء عندئذ بمقدار تقصيره وقصوره امام هذه

---

(١)الشافي ١٦٧/٥

النعم[١]،ولذلك ورد أن (حسنات الابرار سيئات المقربين) فان (البار)يفرح مثلاً اذا ادى النوافل اليومية،في حين يحزن (المقرب)على ذلك ،ويعتبر الاقتصار على النوافل تقصير منه يحتاج الى التوبة والاستغفار .

واما المستوى الثاني للتواضع فهو التواضع امام النفس، بمعنى ان الفرد لايتصنع التواضع، بل يعتقد فعلاً انه لاشيء امام الله تعالى. وكذلك يعتقد في نفسه انه ليس بأفضل من سائر العباد فلماذا يتكبر عليهم، وقد ورد في الخبر أن الرضا(عليه السلام) دعا يوماً بمائدة، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم،فقيل له جعلت فداك، لو عزلت لهؤلاء مائدة ؟ فقال (عليه السلام): ان الرب تعالى واحد، والدين واحد، والام واحدة، والأب واحد[٢]، والجزاء بالاعمال)[٣].

وفي دعاء مكارم الأخلاق للإمام السجاد (ع) :(لا ترفعني في الناس درجة الا حططتني عند نفسي مثلها ، ولا تُحدث لي عزاً ظاهراً الا أحدثت لي ذلة باطنة) .

نعم لابأس ان يعرف الفرد قابلياته وامكانياته ليتصرف على اساسها، في وجوه الطاعه الخاصة والعامة ، وقد ورد عن المعصومين (ع): (التواضع درجات منها ان يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم)[٤] ، حيث يشير الامام (عليه السلام) هنا الى ان تصرفات الفرد على ضوء إمكانياته يجب ان تكون في حدود الشريعة وبما لا ينافي التواضع ،فالنبي (ص) قاد الأمة نحو الهداية ،الآ أنه لم يتكبر

---

(١)راجع مناجاة الشاكرين للامام السجاد(عليه السلام) ، حيث ورد فيها: (الهي تصاغر عند تعاظم الآئك شكري، وتضاءل في جنب اكرامك أياي ثنائي ونشري) .

(٢)يقصد (عليه السلام) حواء وادم (ع).

(٣)جامع السعادات ٣٥٦/٢

(٤)الشافي ١٦٩/٥

طرفة عين بل كان (ص) يقول: (انما انا عبد آكل في الارض، وألبس الصوف، وأعقل البعير، وألعق اصابعي، واجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[١].

وروي عن الصادق(عليه السلام): (ما صافح رسول الله (ص) رجلاً قط فنزع يده حتى يكون هو الذي ينزع يده منه)[٢] ، فليتأمل بعض (اهل العلم) في هذا الحديث، وقد ورد في الحكمة :

ملأى السنابل تنحني بتواضع   والفارغات رؤسهن شوامخ

وأما المستوى الثالث فهو التواضع أمام الناس ،وهو من أظهر المصاديق حيث ورد عن الامام الحسن (ع): (أعرف الناس بحقوق اخوانهم وأشدهم قضاء لهم أعظمهم عند الله شأناً، ومن تواضع في الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصديقين، ومن شيعة علي بن ابي طالب(عليه السلام) حقاً)[٣].

وقد قلنا في بعض كتبنا ان هذا التواضع يجب ان يكون حقيقياً،بمعنى انه لايكون متصنعاً امام الناس، لأن فائدة التواضع هو القضاء على العجب والغرور اللذين يصيبان الانسان، فاذا لم يدخل التواضع الى ذات الانسان وحقيقته فانه سوف لن ينجو من هذين الدائين الخبيثين .

ولا يخفى ان للتواضع امام الناس، عدة مصاديق يتداخل بعضها مع جملة من العناوين السابقة التي ذكرنا انها من اساليب تحصيل الجنة. فمن ذلك ما ورد عن الصادق(عليه السلام): (من التواضع ان ترضى بالمجلس دون المجلس، وان تسلم على

---

(١)جامع السعادات ٣٥٦/٢

(٢)الشافي ٢٤٥/٥

(٣)جامع السعادات ٣٦٢/٢

من تلقى،وان تترك المراء وان كنت محقاً،وان لاتحب ان تُحمَد على التقوى)[1]
وعن الرضا(عليه السلام): (التواضع ان تعطي الناس ما تحب ان تعطاه)[2]. ومن التواضع أخذ النصيحة من أي شخص يقولها، ومهما كان حاله أو وضعه او علاقته، حيث ورد في الحكمة (لاتنظر الى من قال ولكن انظر الى ما قال) . وقد مدح الله تعالى جماعه بقوله عزوجل.

((الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اولئك الذين هداهم الله، واولئك هم أولوا الألباب)) الزمر/١٨. في حين يعاند البعض وتأخذه العزة بالاثم أوالعصبية للرأي لأبسط الاسباب ناسياً ان الله تعالى توعد مثله بقوله تعالى ((واذا قيل له أتقِ الله،أخذته العزة بالاثم،فحسبه جهنم ولبئس المهاد)) البقرة/٢٠٦.

نسأل الله تعالى ان يعيذنا من التكبر، وان يرزقنا التواضع بفضله ورحمته فهو ارحم الراحمين.

---

(١)الشافي ١٦٧/٥ .

(٢)الشافي ١٦٩/٥.

ثامن عشر: الحب في الله والبغض في الله:

وهو من الاسباب المهمة لتحصيل الجنة، كما ان الالتزام به له أثار عظيمة في النشأتين. حيث ورد عن النبي (ص): (مَن أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله)[١]. والمتأمل في هذا الحديث ونحوه يلاحظ ان المطلوب هاهنا ليس مجرد الحب والبغض في الله، بل المطلوب أعم من ذلك وهو ان يكون الفرد ملاحِظاً لله تعالى في جميع افعاله وتروكه، بمعنى انه يراعي في جميع ذلك غاية واحدة وهي التقرب الى الله عز وجل. ولنقل بتعبير أخر ان المطلوب هو التعامل مع الله تعالى أولاً وآخرا[٢]، فتكون علاقته الاساسية مع الخالق عزوجل، واما سائر علاقاته مع الخلق فهي فيض منها ومعلولة لها، وهذه مرتبة عالية تندرج فيها جملة من المبادئ والخصائص. وفي الحديث عن الصادق (عليه السلام): (مِن أوثق عرى الايمان ان تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله)[٣]، ولايخفى ان المراد بالعطاء هنا هو كل مايصدر عن الانسان من الصالحات، كما ان المنع هنا يراد به كل ما يمتنع عنه الانسان من السيئات. ثم ان (الحب في الله والبغض في الله) له عدة حالات أهمها:

١- ان يحب ما يحبه الله تعالى، ويبغض مايبغضه، ومن المعلوم ان الله تعالى انما يحب الطاعات العامة والخاصة، ويبغض المعاصي والسيئات.

وكمال هذه الحالة أن يعمل الفرد بالطاعات، ويسعى لنشرها عن طريق الهداية والامر بالمعروف، ويفرح لأنتشارها بين الناس .

---

(١)الشافي ١٧٠/٥.

(٢)ولعله احد معاني قوله تعالى ((هو الاول والآخر،والظاهر والباطن))الحديد –٣.

(٣)الشافي ١٧٠/٥.

((ذلك ومن يعظم شعائر الله، فانها من تقوى القلوب))الحج/٣٢.

ومن جانب اخر لابد له ايضاً من إجتناب المعاصي، ومنع الناس عنها بالهداية وبالنهي عن المنكر، حيث ورد في الخبر المعروف: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان).

بمعنى انه يجب عليه عندئذ ان يحزن ويغضب على الأقل إذا شاهد المنكر خارجاً وهو لايستطيع منعه.

٢- انه يحب من يحبهم الله تعالى، ويبغض من يبغضهم، وفي الحديث عن النبي (ص): (أوثق عرى الايمان ،الحب في الله والبغض في الله ،وتوالي أولياء الله، والتبري من أعداء الله)[١].

بل ورد في القرآن الكريم قوله عزوجل: ((لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا أباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم[٢]. اولئك كتبَ في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا ان حزب الله هم المفلحون)) المجادله/٢٢.

وفي الحديث عن الباقر(عليه السلام): (اذا أردت ان تعلم ان فيك خيراً، فانظر الى قلبك، فأن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض اهل معصيته ففيك خيراً، والله يحبك. وان كان يبغض اهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خيراً، والله يبغضك والمرء مع من أَحب)[٣].

(١)الشافي ١٧١/٥

(٢)الشافي ١٧١/٥

(٣)الشافي ١٧٣/٥

اقول: وهذا المقياس الذي ذكره الامام (عليه السلام) مهم جداً، فينبغي على كل واحد منا ان يلاحظ هواياته وميوله، فان كانت نحو أهل الحق فليشكر الله تعالى على هذه النعمة، وان كانت ميوله نحو أهل الباطل والفساد فليحذر وليستغفر الله عزوجل، فان الله تعالى لايبغض الاّمن غضب عليه.

((ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى))طه/٨١.

بقي ان نشير الى نقطة مهمة، وهي ان البغض لاهل المعاصي، قد لا يستلزم الشعور بالحقد والكراهية نحوهم، لأن المطلوب الاساسي هو ان نبغض المعاصي نفسها، أي الشعور بالغضب والكراهية تجاه الأفعال المنكرة والاعمال السيئة، فان هذا الشعور واجب نفساني (أي جوانحي) كما ان دفع المنكر واجب باليد او باللسان (أي جوارحي).

اما الاشخاص أنفسهم فالمفروض ان نشعر بالمسؤولية تجاهم وذلك بالنصح لهم وإرشادهم قدر المستطاع، فان لم ننجح معهم فلندعو لهم بالهداية والتسديد للخير والصلاح. واما كيفية التصرف معهم بعد ذلك فهذا يختلف بحسب اختلاف الموارد والظروف، والمرجع في ذلك كله هو الاحكام الشرعية المفصلة.

تاسع عشر – كثرة الاستغفار والتوبة :

وهما من اهم الاسباب لتحصيل الجنة ورضا الله تعالى: وتترتب عليهما عدة آثار و فوائد، كما ان لكل منهما معناه ومستوياته[1]، ونحن هنا سنذكر المهم المناسب باذنه تعالى وذلك ضمن النقاط التالية :

١- يحسن في البداية ان نعطي فكرة عامة (إجمالية) عن معنى الاستغفار والتوبة، فالاستغفار يعني طلب المغفرة، واما التوبة فهي الندم والرجوع عن المعصية. ولا يخفى ان الاستغفار لا يحصل حقيقة الآ بتحقق الندامة والتوبة، كما ان التوبة والندامة وحدها لا تكفي بل لابد معها من الاستغفار وطلب العفو.

وهناك تفاصيل اخرى ومراتب خاصة لكل من التوبة والاستغفار لكن لا يوجد مجال الآن لبيانها والحديث عنها .

٢- ينبغي الالتفات الى ان للتوبة والاستغفار جملة من الفوائد العظيمة، نذكر منها مايلي :

أـ تحصيل العفو والمغفرة،حيث يقول الله تعالى ((أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم)) المائدة-٧٤

وكذلك يقول تعالى ((وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات))الشورى/٢٥.

وفي الحديث عن الباقر(عليه السلام): كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وان الله غفور رحيم، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فأياك ان

(١)راجع كتابنا (خواطر حول الذنوب والادعية) فانه ينفع في المقام باذنه تعالى.

تقنط المؤمنين من رحمة الله[١].

ب- تحصيل الفلاح والهداية، حيث يقول الله تعالى :

((وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)) النور/٣١

((لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون))النمل –٤٦

ج- تحصيل الخير والبركات، فان الخالق عزوجل يقول:

((استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً، ويزدكم قوة الى قوتكم)) هود/٥٢، وكذلك يقول تعالى ((استغفروا ربكم انه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم باموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً))نوح/(١٠-١٢)

د- تحصيل محبة الله عزوجل، حيث يقول في محكم كتابه:

((ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)) البقرة/٢٢٢

والتطهر هنا وان كان يعني الطهارة المادية من الخبث والحدث،الا أنه يعني كذلك الطهارة المعنوية، وهي تطهير الجوانح بالابتعاد عن الرذائل الخلقية، وكذلك يعني التطهر بالتوبة والاستغفار من اوساخ الذنوب وقذارات المعاصي .

هـ تكفير السيئات ومحو الذنوب، حيث يقول الله تعالى ((الاّ من تاب وأمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات))الفرقان/٧٠.

وينبغي ان تعلم (اخي القارئ) ان تكفير الذنوب لاينحصر بالابتلاءات والعقوبات الدنيوية أو البرزخية كما ورد في بعض الروايات، اذ من الممكن ان يحصل التكفير بدون الحاجة الى ذلك، خصوصاً مع الالتفات الى سعة رحمته عزوجل، فالعمل الصالح مثلاً يغسل السيئات: ((ان الحسنات يذهبن السيئات))

---

(١)الشافي ٥٧٢/٦.

هود/١١٤.

وكذلك الاستغفار الصادق والتوبة النصوح والدعاء وحسن الظن بالله تعالى، فافهم واغتنم واشكر الله تعالى على هذه الرحمة الربانية، وقد ورد في بعض أدعية رمضان (اعوذ بجلال وجهك الكريم ان ينقضي عني شهر رمضان او يطلع الفجر من ليلتي هذه ولكَ قِبَلي تبعة او ذنب تعذبني عليه). ولولا ضيق المجال لكان من المناسب بيان التفاصيل اللطيفة المتعلقة بهذه الفائدة .

و- تحصيل الجنة، حيث يقول الله عزوجل: ((ياايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً، عسى ربكم ان يكفّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار)) التحريم/٨.

ز- تحصيل الاجر والثواب، فان الاستغفار والتوبة من الاعمال الصالحة التي يستحق الفرد عليها الاجر والحسنات، ولعل هذا أحد معاني قوله تعالى: ((الا من تاب وأمن وعمل صالحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)) الفرقان/٧٠.

ح- تحصيل الوقاية والأمان من النقم والكوارث والابتلاءات، حيث يقول عزوجل ((وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون))الانفال/٣٣.

وكلما كان الاستغفار أكثر واعمق كلما كانت الوقاية أعظم بإذنه تعالى.

ط- تحصيل الستر، حيث ورد في الحديث عن الإمام علي (ع) :(تعطروا بالإستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب) .

وفي الخبر الصحيح عن معاوية بن وهب قال: سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول: اذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله، فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ فقال(عليه السلام): ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي الى

جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي الى بقاع الارض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)[1].

اقول: ينبغي ان نستفيد جيداً من هذا الحديث فنستغفر الله تعالى ونتوب اليه ، قبل ان ينتهي وقت التوبة ويحين وقت الحساب .

٣- ينبغي على العبد ان يراقب نفسه لئلا يقع في المعاصي، وهذا يستدعي منه – بطبيعة الحال – أن يتفقه اولاً ليعرف الحلال والحرام، ومن هنا ندرك وجوب التعلم على كل انسان، ففي الحديث عن الامام علي(عليه السلام): (بالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويوحد، وبالعلم توصل الارحام، وبه يعرف الحلال من الحرام)[2].

ثم انه ينبغي عليه كذلك ان يحاسب نفسه باستمرار،فان وجدها مذنبة عاتبها نادماً و استغفر وتاب، وان وجدها مطيعة شكر الله تعالى من دون أن يأخذه العجب او الكبر، وليتذكر ما قلناه سابقاً من ان الاعتماد يجب أن يكون على الله تعالى وحده وعلى رحمته وفضله. وقد ورد ان أحد العباد أمر به الى الجنة، فقال في نفسه: ان أعماله هي التي أدخلته. فاستوقفه الله تعالى وأخذ يحصي نعمه عليه،ويبين تقصيره أمام هذه النعم،فعندئذ صاح العبد: برحمتك يا ربي، فقال له الله تعالى ادخل الجنة برحمتي .

وعن الامام ابي الحسن الكاظم (عليه السلام): ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فان عمل حسنا إستزاد الله، وان عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب

---

(١)الشافي ٥٦٨/٦.

(٢)مرآة الرشاد ص ٢٠٣.

اليه)[١].

ولا يخفى ان هـذه المحاسبة انما تنفـع العبـد ذاتـه، لأنـه اذا لم يطبقهـا فانـه سيعرض نفسه للهلاك من حيث لا يشعر، شأنه في ذلك شأن كـل تـاجر لا يحاسـب نفسه باستمرار ليرى ربحه أو خسارته، حيث يقول الله تعالى :

((ولتنظر نفس ما قدّمت لغدٍ)) الحشر/١٨.

وعن الـنبي (ص): (حاسبوا انفسكم قبـل ان تحاسـبوا، وزنوهـا قبـل ان توزنـوا)[٢] وهنـا أود ان اشـير الى نقطـة مهمـة جـداً، حيـث ان جملـة مـن النـاس يعتقدون ان ذنوبهم بسيطة، أو أن طاعاتهم أكثر من سيئاتهم، او قد يصل الـبعض الى ان يعتقـد أنـه بـلا ذنـوب، فينصـرف حينئـذ الى الانشـغال بعيـوب الآخـرين، او إنتقادهم، او قد يكتفي بان ينظر الى الآخرين وكأنه افضل منهم .

وهـذا في الحقيقـة مـن اشـد العيوب،حيـث ورد عـن الامـام علـي(عليه السلام): (جهل المرء بعيوبه مـن اكبر ذنوبـه)[٣]. وفي الحـديث عـن الصـادق(عليه السلام): (واذكـر خطيئتـك وإيـاك وخطايـا النـاس)[٤] وعنـه (عليه السلام) ايضـاً: (اذا رأيـتم العبـد متفقـداً لذنوب الناس، ناسياً ذنوبه فاعلموا انه قد مكر به)[٥].

واما مسألة خلو هؤلاء من الذنوب، فهو وان كان ممكناً في الواقع الآ ان الرضا عن النفس وعدم الأعتراف بالتقصير يعتبر ذنباً في حد نفسـه، بـل لعلـه مـن اكبر الـذنوب، فقـد روي عـن الـنبي (ص): (لـو لم تـذنبوا لخشيت علـيكم مـا هـو

---

(١)مرأة الرشاد ص ٣٧

(٢)جامع السعادات ٩١/٣.

(٣)الكشكول للبهائي ٢٤٧/١

(٤)الوسائل/ ج١١/ ص٢٣٠وص٢٣١

(٥)الوسائل/ ج١١/ ص٢٣٠وص٢٣١

أكبر من ذلك: العجب العجب)[١].

وورد في الحديث ما مضمونه: (لا تحقرن شيئاً من المعاصي فلعل سخط الله يكون فيه) وكذلك (لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار).

والظاهر أن ما يعتقده مثل هؤلاء راجع الى انهم غافلون عن سائر الذنوب، او قل بمعنى اوضح: انهم يراقبون انفسهم بلحاظ مجموعة معينة من الذنوب والمعاصي فان لم يقترفوها اعتبروا انفسهم منزهين، في حين ان الذنوب كثيرة ومزالق الشيطان والنفس الامارة متغلغلة ومتداخلة في عدة امور وقد ورد عن النبي (ص): (ان الله تعالى قال لداود (عليه السلام): (أنذِر الصديقين ان لا يعجبوا بأعمالهم، فانه ليس عبد انصبه للحساب الاّ هلك)[٢].

ومن هنا وجب علينا التفقه والحذر، والاعتراف بالتقصير، والاعتماد على رحمة رب العالمين: ((قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)) يونس/٥٨.

٤- ورد في الحديث عن الباقر (عليه السلام): (ليس من عبد مؤمن الا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، ولو وزن هذا لم يزد على هذا)[٣] ،ومعنى هذا الحديث ان المؤمن الحقيقي يوازن بين خوفه من الله تعالى، وبين رجائه له عزوجل، فاذا شعر انه يتجه نحو اليأس والقنوط او الخوف المذموم، فيطرق عندئذ باب الرجاء ليتذكر رحمة الله عز وجل وعفوه وطول أناته. واذا شعر انه يتجه نحو التهاون أو التساهل في الواجبات والمحرمات فانه يطرق عندئذ باب الخوف ليتذكر

---

(١)جامع السعادات ٣٢٣/١.

(٢)جامع السعادات ٣٢٤/١.

(٣)الشافي ٩٠/٥ .

حساب الله تعالى وعقابه وغضبه .

وبذلك يجمع المؤمن فضيلتي الخوف والرجاء، وفي الحديث عن الصادق (عليه السلام): (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو)[1].

٥- لا بأس بالاشارة اجمالاً الى الفوائد والآثار التي يحصل عليها الفرد اذا ابتعد عن المعاصي والذنوب، واهم هذه الفوائد ما يلي :

أ- ان العبد عندئذ سوف لن يخاف من الموت وما بعده، لانه سيكون واثقاً بالله تعالى،ولا يوجد عندئذ ما يُخيفه من وحشة القبر وأهوال البرزخ بل لعله لا يخاف حتى من اهوال يوم القيامة، وهذا ليس من باب الثقة بالنفس،بل من باب الثقة بما وعد الله تعالى به عباده المطيعين .

ب- ان جميع المخلوقات ستحترمه،وستهابه حتى الملائكة خصوصاً اذا كان منزهاً فعلاً عن الذنوب وقد ورد في الحديث : (من خاف الله أخاف الله منه كل شيء)[2].

ج- انه سيكون مقدساً وطاهراً، وكل من كان طاهراً ومقدساً فانه يكون محلاً للبركات الالهية، وفي الحديث ما مضمونه ان الفرد اذا لم يذنب سوف تصافحه الملائكة ويمشي على الماء[3].

د- انه سيكون من اهل الله واحبائه، في حين ان المذنب يبتعد بذنبه عن الله تعالى، ليدخل في زمرة أهل المعاصي، وهم الذين سخط الله تعالى عليهم ولم

---

(١)الشافي ٥/٩٤

(٢)الوسائل ج١١/ص١٧٢

(٣)الميزان ج ٢/ص٢١٦

يرض عنهم، ولا يخرج من هذه الزمرة الاّ بالتوبة الاستغفار. ومن هنا ورد في الدعاء (اللهم اجعل نفسي مستنة بسنن اوليائك، مفارقة لأخلاق اعدائك)، ومعلوم ان سنن الاولياء هي الطاعات، وسنن الأعداء وأخلاقهم هي المعاصي والذنوب، أعاذنا الله تعالى من شرها وقذارتها.

بل ورد في الرواية عن الصادق (عليه السلام): (ان الله تبارك وتعالى أوحى الى بعض اوليائه: قل للمؤمنين لاتلبسوا ملابس أعدائي، ولاتاكلوا كاعدائي، ولاتمشوا كاعدائي). ولايخفى ان النهي هنا انما يتعلق بكل الامور التي يفعلها أعداء الله تعالى مما هو محرم ولو بالعنوان الثانوي أو يعتبر مقدمة للوقوع في الحرام، كما انه ينبهنا الى أن التقليد الأعمى لأعداء الله تعالى، والتشبه الساذج بأهل المعاصي قد يؤدي بالتدريج الى الوقوع في حبائلهم، والدخول في زمرتهم، وهذا ما ينبغي الالتفات إليه والحذر منه .

((رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً، انك ان تذرهم، يضلوا عبادك، ولا يلدوا الاّ فاجراً كفاراً)) نوح/(٢٦-٢٧).

(خاتمة الفصل الثاني)

ذكرنا فيما سبق أهم الاسباب العامة التي يمكن بواسطتها تحصيل الجنة باذنه تعالى وبرحمته،وبالتأكيد توجد أسباب أخرى عامة ايضاً، الاّ ان أكثرها يندرج تحت ما ذكرناه أو يجتمع معه في عدة موارد،بحيث تكون هذه الموارد مصداقاً لأكثر من سبب واحد او عنوان واحد، وبذلك يحصل الفرد على ثواب جميع هذه الاسباب المتداخلة.

أضف الى ذلك اننا حاولنا التركيز على الاسباب التي لاتختص بفئة معينة،ولا بحال معينة، بحيث يمكن لكل انسان (مهما كان مستواه او ظرفه او مهنته أو تكوينه)ان يطبقها ويأخذ بها، لان فكرة الكتاب اصلاً تراعي هذه الجهة كما اشرنا في المقدمة .

ومع ذلك فاننا سنتحدث في الفصلين القادمين عن اهم الاسباب الخاصة بكل من الرجل والمرأة على إختلاف أدوارهما في الحياة .

الفصل الثالث

نصائح خاصة للرجال

وفي الحقيقة فانها كثيرة وتحتاج الى مجلد واسع،الاّ اننا سنذكر باختصار أهم ما يتعلق بالرجل باعتباره والداً أو ابناً أو زوجاً لان هذه هي العناوين الأساسية له،فسيكون الكلام على نقاط ثلاث:

أولاً: علاقة الوالد بأولاده:

قد يقال هنا أن الوالد والوالدة لا يحتاجان الى نصيحة او ارشاد او أمر بالعطف على أولادهم، لان هذا هو مقتضى الفطرة الموجودة في النوع الانساني، وهذا القول صحيح وسليم، الاّ اننا مع ذلك سوف نتحدث عن ذلك مع الآباء، من باب التذكير، وبيان الأجر، خصوصاً وان بعض الآباء يعتقد في نفسه أنه مالك لأولاده، وان من حقه ان يسيطر عليهم كيفما يشاء ولو بالأضرار بهم، وهذا ما يعاني منه أبناؤهم المؤمنون الذين يقعون بين المطرقة والسندان، فمن جهة يريد هؤلاء الابناء أن لايُغضبوا آباءهم، ومن جهة فان الانصياع يؤدي بهم أحياناً الى الوقوع في اضرار مادية أو معنوية، دنيوية أو اخروية .وقد ورد في الحديث عن النبي (ص): (رحم الله والدين أعانا ولدهما على برهما)[1].

وقد قيل للامام الصادق ع كيف يعينه على بره؟ فقال (عليه السلام): (يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره، ولايرهقه، ولا يخرق له)[2].

فاذا عرفنا أن ارهاق الاولاد والاضرار بهم يؤدي غالباً الى القطيعة أو

---

(١)الوسائل ج١٥/ص١٩٩ حديث٤.

(٢) الوسائل ج١٥/ص١٩٩ حديث ٨.

العناد والعقوق، فعندئذ يكون ارهاق الاباء لاولادهم محرماً، لان مقدمة الحرام حرام ايضاً، وهذا هو معنى ماورد عن النبي (ص): (لعن الله والدين حملا ولدهما على عقوقهما)[١]. ثم ان للولد على ابيه حقوق منها واجبة ومنها مستحبة، فاذا أردنا تحصيل الجنة ومراتبها العالية فالمفروض ان نلتزم -كآباء- بأداء الحقوق المستحبة كذلك،لان الدنيا مزرعة الآخرة، واذا مضى بالانسان عمره فقد قلّت فرصته، فالمفروض به ان يكنز لنفسه ما ينفعه في دار خلوده.

وعلى اية حال فقد ورد عن النبي (ص): (يا علي حق الولد على والده، أن يحُسن اسمه، وأدبه، ويضعه موضعاً صالحاً)[٢] ، وهناك جملة من الروايات توجب السعي في رزق الاولاد والتوسعة عليهم. ولئن كانت صلة الرحم واجبة، فأولاد الرجل هم أولى أرحامه، وقد ورد عن الصادق (عليه السلام): (ان الله ليرحم الرجل لشدة حبه لولدهِ)[٣].

وعن النبي (ص): (من قبّل ولده كتب الله له حسنة، ومن فرَّحه فرّحه الله يوم القيامة، ومن علّمه القرأن دُعي بالابوين فكسيا حلتين تضيئ من نورهما وجوه اهل الجنة)[٤] ، وعنه ص ايضاً :(اكرموا أولادكم، وأحسنوا آدابهم، يغفر لكم)[٥].

وفي الحقيقة فان كل والد يحسن الى اولاده، فانه انما يحسن الى نفسه، لان الوارد في الخبر أنه اذا مات الانسان انقطع عمله الاّ من ثلاث صدقة جارية،او

(١)ن. م ص١٢٣ حديث ٣

(٢)ن.م/ص١٢٣ وص٩٨.

(٣)ن.م/ص١٢٣ وص٩٨.

(٤)ن.م/ ص١٩٤ وص١٩٥.

(٥)ن.م/ ص١٩٤ وص١٩٥.

علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، هذا بالأضافة الى أن جميع الصالحات التي سيعملها الولد فان للوالد فيها حصة، لانه تسبب فيها بنحو من الانحاء، وقد ورد عن النبي(ص): (انه قال: مرّ عيسى بن مريم (ع) بقبر يعذّب صاحبه، ثم مرّ به من قابل فاذا هو لا يعذّب. فقال يا رب مررت بهذا القبر عام أول وهو يعذب، ومررت به العام فاذا هو ليس يعذّب. فاوحى الله اليه أنه ادرك له ولد صالح ، فأصلح طريقاً وآوى يتيماً،فلهذا غفرت له بما عمل ابنه)[1].

بقي ان نشير الى مسألة مهمة، وهي أهمية العدالة بين الاولاد فالمفروض بالمؤمن ان لايميز بين اولاده الاّ بميزان التقوى أو الحاجة الفعلية، فقد روي ان رسول الله نظر الى رجل له ابنان فقبّل أحدهما وترك الاخر فقال له النبي:فهلاّ ساويتَ بينهما)[2].

وكذلك ينبغي ان لايفرق الوالد بين الذكر والانثى فان كل واحد منهما انما هو من عند الله، وقد اختاره الله تعالى له كما في الرواية[3]،بل ورد عن الصادق (عليه السلام): (البنون نعيم،والبنات حسنات والله يسأل عن النعيم، ويثيب على الحسنات)[4]،حيث يشير (عليه السلام) الى ما ورد عن النبي (ص): (من عال ثلاث بنات او ثلاث أخوات وجبت له الجنة. فقيل: يا رسول الله واثنتين؟. فقال (ص) وأثنتين. فقيل: يا رسول الله وواحدة ؟ فقال: وواحدة[5]. ولايخفى انه انما يستحق الجنة مع انحفاظ المبادئ العامة التي ذكرناها في الفصل الأول .

---

(١)ن.م/ص٩٨وص٢٠٤

(٢)ن.م/ص٩٨وص٢٠٤

(٣)ن.م /ص١٠٢حديث ٤.

(٤)ن.م ص١٠٤وص١٠٠

(٥)ن.م ص١٠٤وص١٠٠

وهكذا ندرك ان للولد على ابيه حقوق كثيرة، اذا تعّمد أهمالها فان الله تعالى لايرضى عنه عندئذ، حيث ورد عن النبي (ص): (يلزم الوالدين من العقوق لولدهما، ما يلزم الولد لهما من عقوقهما)[1].

ومن أوضح مصاديق هذا العقوق هو التقصير في تربية الابناء دينياً، لأن من اهم مسئوليات الوالد تجاه اولاده أن يبذل جهده في بناء الجانب العقائدي والشرعي والأخلاقي لديهم، لكي لا يقعوا في دائرة الجهل وآثاره المزعجة، وقد ورد في رسالة الحقوق للامام السجاد (عليه السلام) (و اما حق ولدك فأن تعلم أنه منك، ومضاف اليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وانك مسؤل عما ولّيته به من حسن الادب والدلالة على ربه عزوجل، والمعونة له على طاعته. فاعمل في امره عمل من يعلم انه مثاب على الاحسان اليه، معاقَب على الاساءة اليه)[2].

فليحذر الاباء حتى لا يظلموا أبناءهم خصوصاً من هذه الناحية، فأن الله تعالى لايحب الظلم ولايرضاه. وبالمقابل فأن الواجب على الأبناء أن يتلافوا تقصير آباءهم من هذه الناحية، وأن يستغفروا لهم من كل قلوبهم فأن هذا هو مقتضى وجوب البر بهم .

---

(١)ن.م /ص١٩٩

(٢)الطفل بين الوراثة والتربية /ج٢/ص٦و٧ وبالمناسبة يعتبر هذا الكتاب دستور نافع جداً لتربية الاولاد فينبغي على الآباء الاستفادة منه جيداً .

ثانياً:- علاقة الإبن بوالديه:

في الحقيقة فأن البر بالوالدين انما هو من ضروريات الدين، بل من الضروريات العقلائية، وقد ورد في الحديث عن النبي (ص): (رضا الله في رضا الوالدين)[١] وهو يبين لنا أهمية رضا الوالدين، وان الله تعالى يرضى لرضاهما، وفي الحديث ما مضمونه ان البر يدفع ظهر المؤمن يوم القيامة فيدخله الجنة[٢]. وينبغي الألتفات الى ان البر لا يقتصر على الأبوين المؤمنين، بل يشمل حتى الابوين الفاجرين، ففي الحديث عن الباقر(عليه السلام): (ثلاث لم يجعل الله عزوجل لأحد فيهن رخصة) وذكر منها (عليه السلام): (بر الوالدين برين كانا أو فاجرين)[٣].

وهذا يعني ان الأبن مطالب بالأحسان الى والديه والبر بهما حتى وان كانا قد ظلماه او قصّرا في حقوقه، حيث ورد عن الصادق (عليه السلام): (من نظر الى ابويه نظر ماقتٍ لهما وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة)[٤]. هذا طبعاً مالم يستغفر الله تعالى ويتوب اليه ويصلح ما فاته،لأن الله تعالى خير الغافرين، فيحاول الولد ان يسترضيهما ان كانا حيين ويجتنب عقوقهما، واما ان كانا ميتين فيحاول أن يبرهما بالخيرات، حيث ورد عن الامام الباقر(عليه السلام): (انه ليكون عاقاً لهما في حياتهما غير بار بهما، فاذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله عز وجل باراً)[٥]. اقول، المراد بقضاء الدين هنا ما يشمل الديون الدنيوية والأخروية. وعلى أية حال، فاذا كانت صلة الرحم واجبة، فان الآباء والامهات هم اولى

---

(١)الدر المنثور ١٧٢/٤

(٢)الشافي ٥/ص٢١٣.

(٣)الشافي ٢١٧/٥

(٤)الوسائل ٢١٧/١٥

(٥)الشافي ٢١٩/٥.

الأرحام بالصلة والمودة .

ثم انه توجد عدة مصاديق للبر بالوالدين، نذكر منها الأهم :

١- الأحسان اليهما ومساعدتهما من جميع الجهات الممكنة، فقد روي عن ابي ولاد قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ((وبالوالدين احساناً)) ما هذا الاحسان ؟ فقال(عليه السلام): (الأحسان ان تحسن صحبتهما، وان لا تكلفهما ان يسألاك شيئاً مما يحتاجان اليه، وان كانا مستغنيين، أليس يقول الله عزوجل ((لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون))[1] . وعن الصادق (عليه السلام) ايضاً (فيمن قال له : ان أبي قد كبر جداً وضعف فنحن نحمله اذا أراد الحاجة، فقال الامام (عليه السلام): (ان استطعت ان تلي ذلك منه فافعل، ولقّمه بيدك فانه جنة لك غداً)[2].

٢- الصبر وتحمل الأذى من الوالدين، حيث ورد عن الصادق(عليه السلام) في تفسير قول الله عزوجل: ((اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما)) فقال (عليه السلام): (ان اضجراك فلا تقل لهما أف، ولاتنهرهما ان ضرباك، قال: (وقل لهما قولاً كريماً) قال (عليه السلام): ان ضرباك فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قول كريم)[3].

٣-الاحترام والتوقير لهما حيث يقول الله تعالى ((واخفض لهما جناح الذل من الرحمة))، وفي الحديث عن الصادق (عليه السلام): (ولا ترفع صوتك فوق

---

(١)الشافي ٥/٢١١ و٢١٧

(٢)الشافي ٥/٢١٢

(٣)الشافي ٥/٢١٢

أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدم قدامهما)[١].

٤- النظر اليهما بحنان ومودة، حيث ورد في نفس الحديث: (لا تملأ عينيك من النظر اليهما الاّ برحمة ورقة)[٢]. وفي حديث آخر عنه (عليه السلام) ايضاً: (من العقوق ان ينظر الرجل الى والديه فيحد النظر اليهما)[٣].

٥-النصيحة لهما،والدعاء والاستغفار لهما، فان ذلك كله من البر بالتأكيد، حيث ورد عن ابي عبد الله (عليه السلام): (ما يمنع الرجل منكم ان يبر والديه حيين وميتين، يصلي عنهما ويتصدق عنهما ويحج عنهما ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما، وله مثل ذلك، فيزيده الله عز وجل ببره وصلته خيراً كثيراً)[٤].

بل ورد عن الباقر (عليه السلام) : (ان العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهما، ثم يموتان فلا يقضي عنهما ديونهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عاقاً)[٥].

بقي ان نشير الى نقطة مهمة، وهي ان طاعة الوالدين قد لا تكون واجبة، بل قد تكون محرمة أصلاً، الاّ ان عدم امتثال امرهما عندئذ لايعني ترك البر بهما.

بيان ذلك : انه اذا كان يترتب على امتثال أمر الوالدين حصول ضرر حقيقي على الأبن أو ماله أو أهله، فهنا لا يجب امتثال هذا الأمر، نعم يفترض بالأبن البار عندئذ أن يحاول إقناع والديه أو استرضائهم لأجل دفع سخطهم، او نحو ذلك مما يهدأهم به إن أمكنه ذلك. ثم انه في بعض الأحيان قد يأمر الوالدان او أحدهم بالمعصية، وهنا تحرم الطاعة على الأبن، لأن الوارد عن امير المؤمنين

---

(١)الشافي ٢١٢/٥

(٢)الشافي ٢١٢/٥

(٣)الوسائل ٢١٧/١٥

(٤)الشافي ٢١٤/٥

(٥)الشافي ٢١٩/٥

(عليه السلام): (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، وكذلك (لايطاع الله من حيث يعصى).

ومع ذلك ينبغي على الابن ان يبر والديه – حتى في مثل هذه الحالة – بان ينصحهم ويحاول هدايتهم، فان لم يهتدوا فليستغفر الله تعالى لهم وليصاحبهم بمعروف كما ورد في قوله تعالى: ((وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً)) لقمان/١٥.

لا يقال هنا ان الطاعة انما تحرم اذا أمر الوالدان بالشرك فقط، واما اذا أمرا بالمعصية فالطاعة لازمة، فان هذا القول واضح الفساد، لأن ارتكاب المعاصي انما هو وجه من وجوه الشرك كما قلنا في مقام سابق. هذا بالأضافة الى عموم الحديث الذي ذكرناه قبل قليل عن امير المؤمنين (عليه السلام)، لان عنوان (المخلوق) الذي لا طاعة له في معصية الخالق تعالى، يشمل الوالدين وغيرهما.

ثالثاً – علاقة الزوج بزوجته :

يعتقد البعض من الرجال ان زوجاتهم ملك لهم، وان من حقهم أن يأخذوا من المرأة كل شيء، من دون أن يقابلوها بشيء. ويعتقد البعض ايضاً أن المرأة لا قيمه لها بازاء الرجل، ولذلك لا يأبهون لمشاعرها ولا يفكرون بحقوقها الخاصة.

ولا يخفى ان مثل هذه الأعتقادات هي من رواسب الجاهلية ومخلفاتها، ولذلك فهي بعيدة تماماً عن مبادئ الرسالة الاسلامية التي ختم الله تعالى بها رسالاته السماوية.

وبما أننا في صدد الكلام عن الطريق الى الجنة، فلا بد من ان نعرج على حقوق المرأة، لان التفريط فيها يعتبر ظلماً، والظلم حرام، في حين عرفنا أن من مبادئ تحصيل الجنة هو الالتزام بالواجبات وإجتناب المحرمات.

فقد جعل الله تعالى للزوجة عدة حقوق خاصة منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، وهذا طبعاً بغض النظر عن حقوقها العامة باعتبارها أحد أفراد المجتمع المؤمن، حيث عرفنا في الفصل السابق ان مداراة أفراد المجتمع- بما فيهم المرأة- وحسن التعامل معهم انما هو طريق لتحصيل الجنة ورضا الله عز وجل.

حقوق الزوجة

وأما حقوق الزوجة الخاصة فالواجب منها هو ما يلي :

١-عدم جواز ظلمها او الاعتداء عليها لأن الله تعالى يقول: ((وعاشروهن بالمعروف)) النساء/١٩، فقد وري عن النبي (ص): (خير الرجال من أمتي الذين لا يتطاولون على أهليهم ويحنّون عليهم ولا يظلمونهم)[1]. وفي الحديث عن

---

(١)مكارم الاخلاق ص٢٢٤

الأمام علي (عليه السلام): (ان النساء أمانة عند الرجال لا يملكن لانفسهن ضراً ولا نفعاً، وانهن امانة الله عندكم، فلا تضاروهن ولا تعضلوهن)[1] ولذلك ورد عن ابي الحسن (عليه السلام): (ان الله عز وجل ليس يغضب لشيء كغضبه للنساء والصبيان)[2]. فان الله تعالى هو ولي كل عبد ضعيف لا حول له ولا قوة اذا كان هذا العبد مظلوماً، واما اذا كان ظالماً-رغم ضعفه- فان الله تعالى لا يرضى عنه، ولا يغضب لغضبه الاّ ان يتوب ويصلح.

٢- وجوب النفقة عليها، وذلك بان يشبع الرجل زوجته ويكسوها، أي يوفر لها الطعام والملبس الذي تحتاجه فعلاً لا تجملاً، فعن اسحاق بن عمار قال: قلت لابي عبد الله (عليه السلام): ما حق المرأة على زوجها الذي اذا فعله كان محسناً ؟ قال (عليه السلام): يشبعها ويكسوها، وان جهلت غفر لها)[3].

ويلحق بالاشباع والكسوة جميع ما تحتاجه المرأة فعلاً من ضروريات المعيشة كالفراش والسكن والدواء ونحو ذلك مما هو مفصل في كتب الفقه، وينبغي ان تعرف المرأة ان وجوب نفقتها مشروط بعدم نشوزها، حيث يقول الله تعالى: ((ولهن مثل الذي عليهن)) البقرة/٢٢٨.

٣- وجوب اتمام مهرها، سواء كان معجلاً أم مؤجلاً، حيث يقول الله تعالى: ((وآتوهن آجورهن بالمعروف)) النساء/٢٥.

((وآتوا النساء صدقاتهن نحلة))النساء/٤.

ولا يخفى ان المراد بالاجور والصدقات هنا هو المهر والصداق. فلا يجوز

---

(١)مستدرك الوسائل ٢٥١/١٤

(٢)الوسائل ٢٠٢/١٥

(٣)الوسائل١٢١/١٤

التغاضي عن (المؤخر) منه، بحجة انه لا يكون للمرأة الاّ بعد الطلاق، فان هذا من الاعتقادات السائدة في المجتمع رغم انه لا أساس له من الصحة، لان المرأة تستحق جميع مهرها من الناحية الشرعية، وانما تأجل بعض المهر من باب انه دين في ذمة الزوج فلا تبرأ ذمته من هذا الدين الاّ اذا أبرأته الزوجة أو صالحته عليه، وقد ورد عن الصادق (عليه السلام): (أيما امرأة وهبت مهرها لبعلها فلها بكل مثقال ذهب كأجر عتق رقبة)[١].

وينبغي ان تكون هبتها عن طيب نفس، فلا يحل للرجل إجبارها على ذلك أو الاحتيال عليها فيه، فان الله تعالى يقول: ((فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً)) النساء/٤.

٤- وجوب مواقعتها مرة واحدة على الاقل في كل أربعة اشهر، بمعنى انه لا يجوز للرجل أن يترك وطئ الزوجة اكثر من أربعة اشهر، ففي خبر صفوان بن يحيى عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) انه سأله عن الرجل تكون عنده المرأة الشابة فيمسك عنها الأشهر والسنة لا يقربها، ليس يريد الأضرار بها، يكون لهم مصيبة، يكون في ذلك آثماً؟ قال (عليه السلام): (اذا تركها اربعة أشهر كان آثماً بعد ذلك)[٢]، وزيد في بعض الروايات عبارة (الاّ ان يكون باذنها)[٣]. وهذا الحكم مما نقل الأجماع عليه[٤].

---

(١)الوسائل ١٥/ص٣٧
(٢)الوسائل ج١٥/ص١٠٠
(٣)الوسائل ج١٥/ص١٠٠
(٤)مهذب الاحكام ج٢٤/ص٧٧

٥- وجوب المبيت عندها ليلة واحدة في كل أربعة ليالي، بمعنى انه لا يجب عليه اكثر من ذلك، وهذا الحكم هو مشهور الفقهاء، وان استشكل البعض في هذا التحديد خصوصاً إذا كانت الزوجة واحدة، بمعنى انه قد لا يجب عليه المبيت عندها حتى في هذه الليلة الواحدة.

ولا يخفى ان الاحتياط متعين، خصوصاً ونحن نريد الحصول على الجنة وإحراز رضا الخالق عز وجل، بل ورد في بعض الروايات ما معناه أن مما ينافي المروءة ان يبيت الرجل عن منزله بالمصر الذي فيه اهله[١].

هذه هي حقوق الزوجة التي أوجبها الله تعالى لها على زوجها، الاّ ان المفروض بنا ونحن نسير في هذا الطريق المبارك، ان لا نقتصر على الواجبات، لان الاقتصار على خصوص الواجبات قد يؤدي بالفرد الى الهلكة اذا تبين انه لم يؤد جميع ما عليه، كما لو كان هناك خلل أو تقصير لم يلتفت اليه، في حين انه لو عمل المستحبات كذلك، لأمكن تعويض قصوره في الواجبات بثوابه من المستحبات باذن الله عز وجل .

وهكذا فان الوارد في المقام عن النبي(ص): (خيركم خيركم لأهله، وانا خيركم لأهلي)[٢] ، وكذلك قوله (ص): (خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي)[٣].

---

(١)الوسائل ١٢٢/١٥ حديث ٧.

(٢)الوسائل ١٢٢/١٥ حديث ٨و١٠

(٣)الوسائل ١٢٢/١٥ حديث ٨و١٠

وعن الصادق(عليه السلام): (رحم الله عبداً أحسن فيما بينه وبين زوجته، فان الله عزوجل قد ملّكه ناصيتها وجعله القيم عليها)[١] ،وقد قلنا في مقام سابق ان الأيثار والتضحية يحلان جميع المشاكل الزوجية، وهذا ما تؤكده وصية الامام علي (عليه السلام) لولده محمد بن الحنفية التي رواها الصدوق، حيث ورد فيها: (فدارِها على كل حال وأحسن الصحبة لها ليصفو عيشك)[٢].

ثم انه يستحب تحمّل المرأة والصبر عليها حتى وان كانت مؤذيه، حيث روي عن النبي (ص): (أوصاني جبرائيل بالمرأة حتى ظننت انه لاينبغي طلاقها الا من فاحشة مبينة)[٣] وفي حديث آخر عنه (ص) ايضاً: (ومن صبر على سوء خلق إمرأته واحتسبه اعطاه الله له بكل مرة يصبر عليها من الثواب مثل ما أعطى أيوب على بلائه)[٤].

بقي ان نهمس في اذن الرجل الذي قد يقول بان زوجته لا تعترف او لا تقابله بالمثل، فنقول له: صحيح ان الاعتراف والمقابلة بالخير هو الشيء المفروض فعلاً، الاّ اننا ينبغي ان نتذكر جيداً اننا يُفترض بنا الآن ان نكون في الطريق الى الجنة، فاذا لم تعترف المرأة بجهود الرجل معها، أو لم تقابله بالمثل، فانها تحكم على نفسها بالخسارة والندامة، وتجعل نفسها عرضة لسخط الله تعالى، فهل تريد انت ايضاً ان تكون مثلها من هذه الناحية؟ أم هل ترضى لنفسك ان تحرم ثواب الصابرين والمحسنين والسابقين ونحوهم ؟ بالتأكيد لا ترضى ذلك لنفسك، فاصبر

---

(١)الوسائل ج١٤/١٢٢و١٢٠

(٢)الوسائل ج١٤/١٢٢و١٢٠

(٣)ن .م ١٤/١٢١و١١٦

(٤)ن .م ١٤/١٢١و١١٦

واستمر على فعل الواجبات بل والمستحبات معها ان أمكنك. واجعل عملك لله تعالى وحده فانه هو الذي يقدّر الأعمال وهو الذي يجازي عليها في الدنيا والآخرة ((قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون، مَن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم الى ربكم ترجعون)) الجاثية/(١٤-١٥) .

الفصل الرابع

نصائح خاصة للنساء

وهنا ايضاً سيكون الكلام على شكل نقاط ثلاثة، حيث سنتحدث باختصار عن المرأة باعتبارها والدة أو ابنة أو زوجة، وذلك على النحو التالي :

أولاً: علاقة الوالدة بأولادها:

ولا يخفى اننا تحدثنا في الفصل السابق عن علاقة الوالد باولاده، وذكرنا هناك جملة من النصائح التي تشمل الوالدة ايضاً، فالمفروض أن تراجع الام ما قلناه هناك، فاذا كانت تود ان تحصل على الجنة فينبغي عليها ان تتأمل جيداً فيما قلناه وسنقوله الآن، وتحاول ان تطبقه بالمقدار الممكن لتكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، خصوصاً ونحن -والحمد لله رب العالمين-لانتكلم بشيء من عندنا، بل نعرض نصوص القرآن وأحاديث المعصومين (ع) التي تمثل شريعة الخالق وتعاليمه عزوجل، ونحاول أن نستفيد منها ما هو حجة بيننا وبين الله تعالى، ثم نذكره في هذا الكتاب من باب التنبيه والتذكير للنفس وللآخرين ممن نشعر بالمسؤولية تجاههم، نسأل الله تعالى التوفيق للعمل والقبول.

أهمية دور المرأة في المجتمع والحياة

وعلى اية حال : فان الأم تستطيع ان تدخل الجنة من أوسع ابوابها اذا اعتنت بأطفالها وقامت بتربيتهم وفق مبادئ الشريعة وتعاليمها.

وهنا قد تعترض بعض النساء بان هذا الامر قد يكون خارجاً عن واجباتها، ولكن هذا الاعتراض غير مقبول من النساء المؤمنات اللواتي يُردن المراتب العالية في الجنة، فقد مر علينا في الفصل الثاني ان التسابق على الخيرات مطلوب وأن

الأيثار مطلوب، وان الاحسان الى الآخرين مطلوب، خصوصاً مع ابناء الانسان الذين هم أقرب الناس اليه:

((ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها، وهو مؤمن، فاؤلئك كان سعيهم مشكوراً)) الاسراء/١٩.

وهنا يُفترض بالمرأة الواعية التي رافقتنا في هذا الطريق من البداية، ان لا تسأل عن جدوى خدمة الاطفال او العناية بهم، أو حتى ملاطفتهم وملاعبتهم، فان جميع هذه الامور مأجورة ومثابة، وكلما كانت هذه الامور أشد على الانسان كلما كان ثوابها اعظم وأرفع، وقد قلنا في مقام سابق ان تكامل الانسان وجهاده لنفسه ينبغي ان يبدأ أولاً مع أقرب الناس اليه، أو قل يبدأ أولاً ضمن محيطه الاجتماعي، ولذلك ذكرنا ان المعصومين(ع) كانوا متكاملين من جميع الجهات إبتداء من أنفسهم المقدسة وحتى عوائلهم وأصحابهم وسائر المجتمع، والى أبعد الحدود، ومن هنا ورد في بعض الروايات مامضمونه ان النبي (ص) (رغم أهمية الصلاة) فانه خفَّف في صلاته حين سمع صوت صبي يبكي، وقال لأصحابه: (أوَ ما سمعتم صراخ الصبي؟!)[1]، وهذا من باب الرحمة والاحسان كما لا يخفى. فالأم اذاً ينبغي عليها ان تهتم بهذه الامور اذا أرادت ان تُكتب عند الله تعالى من المحسنين والسابقين والصابرين ونحوهم ممن ذكرنا آثارهم ومنزلتهم عند الله تعالى، طبعاً اذا كان عملهم لله تعالى، أي خالصاً له عزوجل حيث عرفنا في مقام سابق ان جميع الاعمال التي نعملها اذا اعتبرناها لأجل تحصيل رضا الله تعالى وقربهِ فهي محفوظة ومأجورة ...

((من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له، وله أجر كريم))

---

(١)أنظر الوسائل ٤٦٩/٥.

الحديد/١١.

ومعلوم ان الاقراض والتصدق لايكون بالاموال فقط، بل هو بالأفعال الحسنة والصالحات أعظم وأرفع...

((وان ليس للأنسان الا ماسعى، وان سعيه سوف يُرى)) النجم/(٣٩-٤٠)

ولنضرب مثالاً على ما ذكرناه الان، فالرضاعة مثلاً ليست من واجبات الزوجة (الأم)، ولكن لنستمع الى ما ورد عن النبي (ص) فيمن أرضعت إحساناً وتقرباً: (اذا حملت المرأة كانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، فاذا وضعت كان لها من الأجر ما لا يدري أحد ما هو لعظمهِ، فاذا ارضعت كان لها بكل مصة كعدل عتق محرَّر من ولد اسماعيل، فاذا فرغت من رضاعه ضرب مَلك كريم على جنبها وقال: استأنفي العمل فقد غُفر لك)[1] ، وفي الحديث عنه (ص): (خير نسائكم نساء قريش، ألطفهن بأزواجهن، وارحمهن بأولادهن)[2].

ثم انه ينبغي الالتفات الى بعض الامثلة من النساء اللواتي خلدتهن الشريعة واعتبرتهن مثالاً يحُتذى به، فهاجِر (ع) والدة اسماعيل النبي (ص) لم يكن لها فضل الاّ انها إعتنت بابنها وقامت بتربيته، ولم تعترض على زوجها ابراهيم (عليه السلام) بان التربية ليست من مسؤلياتها. وكذلك حال مريم العذراء (ع). ولعل موقف أم البنين (ع) زوجة الإمام علي (عليه السلام) هو من أوضح الأمثلة في أذهان النساء، فإنها كرست حياتها لخدمة أولادها وتربيتهم، بل وحرصت كذلك ان تراعي أيضاً أولاد زوجها(ع)، وبذلك استحقت عند الله تعالى وعندنا نحن العباد

(١)الوسائل /ج١٥ /ص١٧٥.

(٢)الوسائل ٢٠/١٤.

اشـرف المراتـب واعلاهـا، ولايشـك احـد انهـا سـتكون مـع المعصـومين (عليهم السلام) والصديقين يوم القيامة.

ومِن قبلها كانت فاطمة بنت أسد أم الإمام علي (عليه السلام)، التي حزن النبي (ص) عليها كثيراً وتوسد في قبرها، وعندما سُئل في ذلك أجابهم بما مضمونه انها كانت من أحنّ الناس عليه.

ومن جهة اخرى فان مقتضى الفطرة الموجودة عند الام هي ما قلناه، واذا خالفت بعض النساء عن ذلك فانها انما تشذ عن الفطرة السليمة التي أودعها الله تعالى فيها، والظاهر ان المعصومين(ع) لاحظوا هذه الجهة، حينما ورد عنهم ان (الجنة تحت اقدام الامهات)[1] ، وان الام تستحق البر أكثر من الاب[2]، فانهم (ع) انما لاحظوا غالبية الامهات ممن تتصرف على حسب فطرتها وطبيعتها، او تتصرف على حسب الإرشادات والتعاليم الإلهية التي مرت علينا هنا وفي الفصل الثاني ضمن الاسباب والوسائل العامة، ويؤيده ما ورد عن النبي (ص): انه قال عن النساء: (والدات والهات رحيمات بأولادهن، لولا ما يأتين الى ازواجهن، لقيل لهن ادخلن الجنة بغير حساب)[3].

وأخيراً لابد من القول ان تربية الابناء وان كانت غير واجبة عيناً على الام، الا انها بالعنوان الثانوي قد تكون واجبة عليها، لان الابناء اذا لم يتحصنوا ضد الشيطان والفساد فانهم سيقعون في المعاصي، وبذلك تكون الأم عاقة لهم ومقصرة في حقهم.

---

(١)مستدرك الوسائل ١٢/١٨٠.

(٢)أنظر الوسائل/ج١٥/ باب ٩٤/ أحكام الاولاد.

(٣)الوسائل ١٤/١٢٦.

وبهذا ندرك عظمة دور الام وخطورته، فهي تستطيع ان تُنتج للمجتمع أفضل الناس، وذلك حينما تحرص على تربية أولادها تربية اسلامية صحيحة، كما فعلت هاجر(ع) وام البنين(ع)،ونحوهما، وبذلك يكون لهذه المرأة حصة ونصيب في جميع الحسنات التي سيعملها هؤلاء الابناء سواء لانفسهم ام للاخرين.

كما ان المرأة تستطيع أيضاً ان تنتج للمجتمع أناساً سيئين، وذلك حينما تُهمل تربيتهم او تقصر فيها، وهذا ما نلاحظه عند أغلب الامهات اللواتي يتركن تربية اولادهن لاجل الاهتمام بمصالحهن الخاصة او الشخصية، وبذلك تكون هذه المرأة قد ساهمت في خراب ابنها او خراب المجتمع ..

فهذه المسألة يجب على كل أم ان تضعها في بالها قبل ان تحدد طريقها في هذه الحياة، وطريقتها في كيفية التعامل مع أولادها.

وفي الختام نقول كذلك للام: اذا كنتِ تريدين ان تحصلي على ثواب إحياء جميع الناس، فما عليك الا ان تسهري على العناية بأولادك لكي يحيون حياة طيبة، فان الله تعالى يقول:

((ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعاً)) المائدة/٣٢.

ومعلوم ان احياء هذه النفس الإنسانية يكون من الناحيتين التكوينية والمعنوية.

ثانياً: علاقة البنت بوالديها:

ولا يخفـى ان علاقـة البنـت بوالـديها، لاتختلـف عـن علاقـة الابـن بوالديـه، فالكلام واحد في المقامين، وهذا يقتضي وجوب مراجعة ما قلناه في الفصل السابق ضمن هذا المحور.

الا اننا نضيف هنا مسألة مهمة، وهي ان البنت يتوجب عليها أن تفتح قلبها لوالـديها وخصوصاً والـدتها، وان لا تخفـي عنهمـا سـراً مريبـاً. فـان الواقـع الـذي يفرض نفسه هو ان البنت المؤمنة العفيفة تحتاج الى من يرعاهـا ويحـافظ عليهـا بكـل أمانة وإخلاص، ولن تجد هذه البنت أحرص عليها من والديها.

ولـذلك يتوجـب علـى البنـت تجـاه والـديها – بالاضـافة الى وجـوب الـبر والطاعـة والاحـترام – ان تتوجـه بالسـؤال الى والـديها في كـل تفاصـيل حياتهـا الخاصة والعامة، بمعنى انها تستشيرهما في كل صغيرة وكبيرة تصـادفها، فـاذا كانـت تشعر بالحياء من والدها فلتسأل والدتها، وبذلك تجنِّب نفسـها الكثير مـن المشـاكل التي تترتب على الجهل وعدم الادراك.

وعليها أيضاً ان تحترم وجهات نظر الوالدين، وتأخذ بها، خصوصـاً اذا كانـا مؤمنين ملتزمين.

ومن جانب آخر فان البنت البالغة الواعيـة تتحمـل مسئولية تقـديم المسـاعدة لوالدتها من جميع الجهات، خصوصاً من الجهـة الدينيـة او التربويـة فيمـا لـو كانـت والدتها قاصرة او مهملة من هذه الناحية.

وفي الحقيقة يمكن القول ان البيت والعائلة همـا (مجتمـع البنـت) الـتي تمـارس فيه قابلياتها وابـداعاتها، وكلمـا كانـت هـذه القابليـات محبوبـة عنـد الله تعـالى كلمـا كان ثوابها اعظم ومرتبتها أرفع، وبالتالي فان الفائدة لها أولاً وأخيراً.

ثالثاً: علاقة الزوجة بزوجها:

تحدثنا في الفصل السابق عن علاقة الزوج بزوجته، وعن حقوق الزوجة، وسنتحدث الان عن حقوق الزوج وكيفية التعامل الشرعي للزوجة مع زوجها. ولكي لاتتهمنا النساء هنا بالتحيز او المبالغة، فاننا سوف لن نتدخل في المقام الاّ اذا استدعت الضرورة، وسنحاول التركيز على عرض الروايات والاخبار الواردة عن المعصومين(ع) في هذه القضية، ولا يخفى ان هذه الروايات حجة على جميع الزوجات، بمعنى انه لابد من العمل بها والالتزام بمضامينها، فان الله تعالى يقول:

((ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا)) الحشر/٧.

((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم)) النساء/٥٩.

حقوق الزوج

ففي الحديث عن الباقر (عليه السلام): جاءت امرأة الى النبي (ص) فقالت: يا رسول الله ما حق الزوج على المرأة؟ فقال لها: أن تطيعه ولا تعصيه، ولا تَصدَّق من بيته الا بأذنه، ولاتصوم تطوعاً الاّ بأذنه، ولا تمنعه نفسها وان كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها الاّ بأذنه. وان خرجت بغير اذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الارض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع الى بيتها)[1].

وفي خبر آخر عن النبي (ص) أيضاً وقد سألته امرأة عن حق الزوج على المرأة فقال (ص)، (وعليها ان تتطيب بأطيب طيبها، وتلبس أحسن ثيابها، وتزين بأحسن زينتها وتعرض نفسها عليه غدوة وعشية، وأكثر من ذلك حقوقه)[2].

وأضاف (ص) في رواية أخرى: (ولا تبيت ليلة وهو عليها ساخط) قالت:

(١)الوسائل ١٤/ص١١٢ ، حديث ١ و٢.

(٢)الوسائل ١٤/ص١١٢ ، حديث ١ و٢.

يا رسول الله وان كان ظالماً؟ قال: نعم[١].

وعن الصادق (عليه السلام): (ثلاثة لايُرفع لهم عمل). ثم ذكر منهم: (وامرأة زوجها عليها ساخط)[٢].

وفي خبر آخر عنه (عليه السلام): (ثلاثة لا تُقبل لهم صلاة) ثم ذكر منهم: (وأمرأة باتت وزوجها عليها ساخط)[٣].

وعن علي بن جعفر انه سأل أخيه الامام الكاظم(عليه السلام): عن المرأة الغاضبة زوجها هل لها صلاة او ماحالها؟ قال: لا تزال عاصية حتى يرضى عنها)[٤].

بل ورد عن النبي(ص): (ايما امرأة آذت زوجها بلسان، لم يقبل الله منها صرفا ولا عدلاً ولا حسنة من عملها حتى ترضيه)[٥] ، فاحترام الرجل اذاً واجب على المرأة، ولا يجوز لها ايذاؤه بفعل او قول، ففي الحديث عن الصادق (عليه السلام): (ايما امرأة قالت لزوجها، ما رأيت منك خيراً قط، فقد حبط عملها)[٦].

ثم انه ورد عن النبي (ص): (ان خير نسائكم الولود الودود العفيفة، العزيزة مع أهلها، الذليلة مع بعلها، المتبرجة مع زوجها، الحصان[٧]على غيره، التي تسمع قوله، وتطيع أمره)[٨].

---

(١) الوسائل ١٤/ص١١٢ ، حديث ٣.

(٢)الوسائل ١٤/ ١١٤ و١١٤ و١١٥.

(٣)الوسائل ١٤/ ١١٤ و١١٤ و١١٥.

(٤)الوسائل ١٤/ ١١٤ و١١٤ و١١٥.

(٥)مكارم الأخلاق ص٢٢١ و٢٢٣.

(٦)مكارم الأخلاق ص٢٢١ و٢٢٣.

(٧)الحصان أي المتحصنة.

(٨)الوسائل ١٤/ص ١٤و ١٥.

ولا يخفى ان معنى (الذلة) الواردة في الحديث انما يراد به التواضع والاحترام، وليس الذلة الحقيقية، ويؤيده ما ورد عن الصادق(عليه السلام): (خير نسائكم التي اذا خلت مع زوجها خلعت له درع الحياء، واذا لبست لبست معه درع الحياء)[١]. فان الحياء ملازم للاحترام.

كذلك ورد في الحديث عن النبي(ص) (من كانت له امرأة ولم توافقه، ولم تصبر على ما رزقه الله وشقّت عليه وحّملته مالم يقدر عليه، لم يقبل الله لها حسنة تتقي بها النار وغضب الله عليها مادامت كذلك)[٢].

فان مثل هذه المرأة اما ان تُوقع زوجها في الحرام، فتكون آثمة من هذه الناحية، واما ان تسبب له الاذى، فتكون آثمة بأيذائها له باعتباره احد المؤمنين فضلاً عن كونه زوجها، ومن هنا ورد عن النبي (ص) في النساء (والدات والهات رحيمات بأولادهن، لولا ما يأتين الى أزواجهن[٣] لقيل لهن أدخلن الجنة بغير حساب)[٤] ، وهذا دليل على ماقلناه سابقاً من ان المرأة التي تؤدي حقوق زوجها و لاتؤذيه فانها تدخل الجنة، بل ورد عن النبي(ص): (لاتؤدي المرأة حق الله عزوجل حتى تؤدي حق زوجها)[٥].

وهناك أمور أخرى ينبغي الالتفات اليها اذا كانت المرأة المتزوجة تريد فعلاً

---

(١)الوسائل ١٤/ص ١٤و ١٥.

(٢)ن.م/ ١٤/ ١١٦.

(٣)أي لولا انهن يؤذين أزواجهن فيحبط بذلك عملهن، لقيل لهن ان يدخلن الجنة بغير حساب،وفي الحديث عن النبي(ص):(انكن كافرات بحق ازواجكن)الوسائل ١٤/ ١٢٦. أي منكرات وجاحدات لحقوق أزواجهن، أو غير ملتزمات بحقوقهم عليهن.

(٤)الوسائل ١٤/ ١٢٦.

(٥)مكارم الاخلاق/ص٢٢٢.

تحصيل الجنة، ففي الحديث عن النبي(ص): (حق الرجل على المرأة إنارة السراج، وأصلاح الطعام، وان تستقبله عند باب بيتها فترحب به)[١].

وعن الصادق(عليه السلام): (ما من أمراة تسقي زوجها شربة من ماء الاّ كان خيراً لها من عبادة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها، ويبني الله لها بكل شربة تسقي زوجها مدينة في الجنة، وغفر لها ستين خطيئة)[٢].

أقول: يجب ان تحذر الزوجة في تطبيق هذا الحديث حتى لا يختنق زوجها من كثرة ما سوف تسقيه من الماء عندما تسمع هذا الحديث.

ثم انه ورد عن النبي(ص): (ما استفاد امرئ مسلم فائدة بعد الاسلام أفضل من زوجة مسلمة، تسّره اذا نظر اليها، وتطيعه اذا أمرها، وتحفظه اذا غاب عنها في نفسها وماله)[٣].

وفي معاونة المرأة لزوجها ورد عن الصادق(عليه السلام): (ثلاثة اشياء لايحاسب عليها المؤمن: طعام يأكله ، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه ويحصن بها فرجه)[٤] ، وفي خبر آخر عنه(عليه السلام) ايضاً: (ثلاثة للمؤمن فيها راحة) وذكر منها: (وأمرأة صالحة تعينه على أمر الدنيا والآخرة)[٥].

وهنا قد تعترض بعض النساء بان بعض هذه الامور قد لايكون من الواجبات الشرعية، ولكن هذا الاعتراض مرفوض أكيداً ولايليق بالمرأة المؤمنة التي تريد ان تسير نحو الجنة، فاننا قلنا في مقام سابق انه من الخطر الشديد ان نغامر

---

(١)مكارم الاخلاق/ص٢٢٢.

(٢)الوسائل ١٤/ ١٢٣.

(٣) الوسائل ١٤/ ٢٣.

(٤)ن.م/ ١٤/ ٢١ و٢٤.

(٥)ن.م/ ١٤/ ٢١ و٢٤.

بالاقتصار على الواجبات، فان التقصير فيها ان لم يكن محرزاً فانه محتمل، وهذا يقتضي التعويض بالمستحبات.

اضف الى ذلك ان المفروض بكل زوجة ان تطمح لان تكون من خير النساء امام رب العالمين، حتى تكون يوم القيامة مع خير النساء.

ثم ان الله تعالى يقول للنساء: ((وان كنتن تُرِدن الله ورسوله والدار الاخرة، فان الله أعدّ للمحسنات منكن اجراً عظيماً)) الاحزاب/٢٩.

ولايخفى ان الاحسان اعم من أداء الواجبات، بل لعل الاحسان يختص بما هو فوق الواجبات.

فارضاع الطفل مثلا ليس من الواجبات الشرعية للزوجة، ولكننا ذكرنا في الحديث عن علاقة (الأم) خبراً عن النبي (ص) مؤداه ان لها بكل مصة كعدل عتق رقبة. وفي حديث آخر عن النبي (ص) أيضاً: (ايما أمرأة دفعت من بيت زوجها شيئاً من موضع الى موضعٍ تريد به صلاحاً، نظر الله اليها، ومن نظر الله اليه لم يعذِّبه)[١] ، وعن الكاظم (عليه السلام): (جهاد المرأة حسن التبعل)[٢] وورد عن الباقر(عليه السلام): انه تقاضى علي وفاطمة الى رسول الله (ص) بالخدمة، فقضى على فاطمة (ع) بخدمتها ما دون الباب، وقضى على علي (عليه السلام) بما خلفه.

فقالت فاطمة: فلا يعلم ما دخلني من السرور الا الله)[٣].

أي ان النبي (ص)قضى على فاطمة (ع) بان تؤدي واجبات البيت، وقضى على علي(عليه السلام) بان يؤدي الواجبات التي خارج البيت كالتسوق والعمل

(١)الوسائل ١٥/١٧٥.
(٢)ن.م/ ١٤/ ١١٦ و١٢٣.
(٣)ن.م/ ١٤/ ١١٦ و١٢٣.

ونحوهما، ولا يخفى ان هذا هو مقتضى التعاون على البر والتقوى، فهو متعين بالعنوان الثانوي وان لم يكن واجباً بالعنوان الاولي (الأصلي).

وقد ورد في بعض المصادر عن الامام (عليه السلام) في ذكر فاطمة (عليها السلام): كانت ابنة رسول الله(ص)، وأكرم أهله عليه، وكانت زوجتي، فجرَّت بالرحا حتى أثّرت الرحا بيدها، واستقت بالقربة حتى أثَّرت القربة بنحرها، وقمّت[1] البيت حتى أغبرَّت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دنّست[2] ثيابها، وأصابها من ذلك ضر[3].

فلتتأمل تلك النساء اللواتي ينادين بالحقوق والواجبات، هل يفعلن هذا في بيوتهن؟ أم أنهن أكرم على الله تعالى وعلى خلقه من فاطمة (ع)؟!.

أن كل من تقول ان هذا ليس من واجبي، وان ذلك ليس من مسؤليتي، ينبغي عليها أولاً ان تعرف حقوقها هي، فهل ترضى ان يتزوج عليها زوجها او يبيت عندها ليلة كل أربع ليالي، أو يقتصر على ما يستر عورتها ويشبع جوعتها؟!.

أننا كمؤمنين يفترض بنا ان لانفكر هكذا، لان هذا تفكير من لم يجعل الله تعالى في حساباته، ولم يلتفت الى عظيم الثواب ورفيع الدرجات التي أعدها لاهل التضحية والايثار والاحسان.

اضف الى ذلك ان المحبة لاتأتي عن طريق التعامل الحدي، أو مبدأ الاخذ والعطاء، وحتى لو حصلت المحبة فانها لانكون بالدرجة نفسها فيما لو كان هناك

---

(١)أي كنست.

(٢)أي توسخت.

(٣)أم أبيها في صحاح المسلمين/ ص٢٤٠ عن حلية الاولياء وفتح الباري وغيرها.

تضحية واحسان وتعاون وعفو ونحو ذلك من الامور التي عرفناها في الفصل الثاني من هذا الكتاب، بل ورد في الحديث عن الامام علي(عليه السلام): (عاتب أخاك بالاحسان اليه، واردد شره بالانعام عليه) فهكذا يجب ان نكون فيما بيننا.

وهنا نقول للزوجة ان تجعل علاقتها مع زوجها خالصة لله تعالى، فان قابلها زوجها بالمثل فهو رفيقها في الجنة وفي نفس المرتبة، وان لم يقابلها بذلك او لم يعترف بفضلها وأحسانها، فقد أمتازت عنه وسبقته، فاستحقت بذلك ثواب السابقين والصابرين والمحسنين ما دامت مستمرة في أحسانها وسبقها وصبرها. وقد ورد في الحديث عن الصادق (عليه السلام): جهاد المرأة ان تصبر على أذى زوجها)[1]، وفي خبر آحر عنه (عليه السلام): (ثلاث من النساء يرفع الله عنهن عذاب القبر، ويكون محشرهن مع فاطمة بنت محمد(ص)). وذكر منهن (امرأة صبرت على سوء خلق زوجها) ثم قال (عليه السلام): (يعطي الله كل واحدة منهن ثواب الف شهيد ويكتب لكل واحد منهن عبادة سنة)[2].

بقيت هنا نصيحة عامة للنساء أحببت ذكرها، وهي نصيحة مبدأية خلاصتها على ما ورد عن الصديقة فاطمة الزهراء(ع): (خيرٌ للنساء أن لايرينَ الرجال ولا يراهن الرجال)[3]. وعن الامام علي (عليه السلام): (وليس خروجهن بأشد من دخول من لايوثق به عليهن، فان استطعتَ ان لايعرفن غيرك من الرجال فافعل)[4]. وقد عاتب (عليه السلام) جماعة فقال لهم: (ان نساءكم يدافعن الرجال في الطريق، أما

---

(١)الوسائل ١٤/١١١.

(٢)ن.م/ ١٥/ ٣٧.

(٣)ن.م/ ١٤/ ٤٣ و٤٢ و١٧٤.

(٤)ن.م/ ١٤/ ٤٣ و٤٢ و١٧٤.

تستحون؟!)[1].

فالمرأة يُفترض بها ان تهتم بدينها وبزوجها وأطفالها وبيتها، فان هذا يكفيها في تحصيل الجنة بل والمراتب العالية، وهذا ما عرفناه في هذا الفصل، واذا أرادت ان تتكامل فلتحاول أولاً ان تتكامل من هذه الناحية فان تم لها ذلك فلتحاول كذلك من سائر النواحي بشرط ان تراعي قدر الامكان ما ورد في الروايات الثلاثة الأخيرة، والاّ فانها تعرِّض نفسها للمجازفة والمغامرة بدينها وعفتها، ولتتذكر دائماً ان الله تعالى لايطاع من حيث يُعصى.

---

(١)ن.م/ ١٤/ ٤٣ و٤٢ و١٧٤.

خاتمـــة الكتـاب

في الحقيقة يمكن ان نستمر في هذا الكتاب الى عدة مجلدات، لان الطريق الى الجنة واسع، وفي الحديث ما مضمونه (ان الطرق الى الله تعالى بعدد انفاس الخلائق)، وهذا يؤكد ما قلناه في أول الكتاب من أن الفرصة مفتوحة أمام جميع الخلق على حد سواء، وان لكل واحد منا طريقه الخاص الذي يلائمه ويناسبه، وقد هيأه الله تعالى رحمة به وعطفاً عليه، مع الالتفات طبعاً الى ان كل الطرق الخاصة والعامة يجب ان تكون بحسب التحديد الشرعي الذي يُعرف من خلال نصوص القران وأحاديث المعصومين(ع)، بمعنى انه لايجوز لأي فرد ولا يحق له ان يبتدع طريقاً من عند نفسه، لان كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار كما هو مؤدى الخبر.

ومحل الشاهد هنا اننا يمكن ان نستمر الى عدة مجلدات ما دمنا نتحدث عن الطريق نحو الجنة، الا اننا أكتفينا بعرض الخطوات والمبادئ العامة والأساسية، ونترك التفاصيل الأخرى الى وقت آخر، أو الى أي شخص آخر يوفقه الله تعالى لأكمال هذه المسئولية أو توسيعها.

الاّ اننا على العموم ننصح بقراءة مجموعة من الكتب النافعة في المقام، بالاضافة طبعاً الى كتابنا هذا، وأهم تلك الكتب (مرآة الرشاد) للمامقاني، و(مهذب الاحكام/ج١٥) للسبزواري فصل جهاد النفس، وكذلك (ورثة الفردوس) و(الاخلاق في حديث واحد)، فهذا الكتب مفيدة ومؤثرة رغم ان اسلوبها بسيط نسبياً، وهو ما يحتاج أليه الأعم الأغلب من أفراد المجتمع.

مقترح جمع الآداب العامة في أحاديث المعصومين (ع)

أقول: يبدو ان من المناسب جداً أن أطرح هنا خلاصة لمشروع كتاب جديد كنت قد اشرت اليه في مقام سابق، وفكرته ان تُجمع الاحاديث الواردة عن المعصومين(ع) في الآداب العامة التي يحتاجها الانسان في مجمل تصرفاته الحياتية الخاصة والعامة، ليكون بديلاً عن كتاب (مكارم الاخلاق) بحيث سيكون أوسع وأعمق وأضبط، لان الاستناد في هذا المشروع الجديد سيكون على (وسائل الشيعة)، بل و(المستدرك) أيضاً[1]، وهذان الكتابان وان كانا معدودين من الكتب الفقهية، الا ان الواقع هو ان فيهما من الاخلاق والآداب ما هو دستور جامع لتكامل الانسان.

وسوف نذكر هنا أهم الأبواب الاخلاقية الواردة في كتاب (الوسائل) للحر العاملي ونترك التفاصيل الى من يوفقه الله تعالى ويهديه لهذه المسئولية العظيمة، التي اذا تمت بنجاح فسيكون الناتج كتاباً أخلاقياً شاملاً يصلح ان يكون عنوانه (دليل الآداب العامة)، أو المرشد الى الآداب العامة في أحاديث المعصومين (ع))، ويوضع في مكتبة كل مؤمن مخلص جنباً الى جنب مع القران الكريم ومع مفاتيح الجنان والصحيفة السجادية.

أما أهم الابواب الاجمالية لهذا الكتاب المقترح فهي كالاتي على حسب ترتيب كتاب (الوسائل):

١ـ آداب العبادات والنية ومراتب الايمان ونحوها /ج١ و٤.

٢ـ آداب الحمام والتخلي والتنظيف والجنابة / ج١.

٣ـ آداب الحيض وبيان الاغسال المندوبة وما يتعلق بالموت والاحتضار ونحو

(١) ولا بأس ان يُراجع معهما أيضاً الخصال وثواب الاعمال للشيخ الصدوق.

ذلك/ج.٢

٤ـ آداب المساكن والملابس وثواب بعض الاحجار الكريمة /ج.٣

٥ـ آداب الصلاة وآداب الادعية، وفضل قراءة القرآن، وآثار السجود، وبيان أهم التعقيبات، وآثار الذكر عموماً/ج.٤

٦ـ آداب النوافل وبيان الصلوات المستحبة، وبيان آثار الاستخارة/ج.٥

٧ـ أهمية الصدقة وآثارها /ج٦ و.١٣

٨ـ أهمية الصوم وآدابه وبيان الصوم المستحب والمكروه/ج.٧

٩ـ آداب السفر، وكيفية التعامل مع الحيوانات /ج.٨

١٠ـ آداب العشرة والاخلاق مع الناس /ج٨ و١٠و.١١

١١ـ آداب الزيارة للمعصومين(ع) ولسائر الناس الاحياء منهم والاموات/ج.١٠

١٢ـ جهاد النفس وآداب التكامل /ج.١١

١٣ـ بيان بعض محاسن الصفات ومساوئها، وأهمية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر/ج.١١

١٤ـ آداب التجارة ومستحباتها ومكروهاتها / ج.١٢

١٥ـ آداب الوقف وفضله /ج.١٣

١٦ـ آداب الزواج، وكيفية التعامل مع العائلة، وبيان حقوق الزوجين، وآداب الحجاب، وآثار العفة، وآداب التعامل والاختلاط بين الرجال والنساء الاجانب/ج.١٤

١٧ـ آداب التعامل مع الأولاد، وبيان أهم مستحباته /ج١٥و.١٤

١٨ـ آداب الأطعمة والمائدة، وبيان الأطعمة والأشربة المحللة والمحرمة

والمستحبة والمكروهة، وبيان فوائدها وآثارها /ج١٦ و١٧.

١٩ـ آداب القضاء والشهود /ج١٨.

٢٠ـ آداب طلب العلم وطالب العلم، والتحذير من الابتعاد عن منهج المعصومين (ع).

وفي الختام، لم يبق الاّ ان نتذكر ما قاله الله عزوجل.

((ان هذه تذكرة، فمن شاء إتخذ الى ربه سبيلاً)) المزمل/١٩.

فالجنة مفتوحة أمامنا، والطريق اليها واضحة وسهلة بأذن الله تعالى ورحمته، وما علينا الا ان نتوكل على الخالق عزوجل ونتوجه اليه بكل إرادتنا، ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)). ويجب ان نحذر من التسويف والتهاون، فان سهام الموت لا تُلحظ ولا تُتقى، ولذلك يقول الله تعالى: ((سارِعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أُعدت للمتقين)) آل عمران/١٣٣.

ولنعلم جيداً ان الطريق الآخر هو طريق النار لا محالة:

أمامك فاختر أيَّ نهجيك تنهج   طريقان اما مستقيم أو أعوج

فكل من لا يختار طريق الجنة، فانه بالتأكيد سيسلك طريق جهنم وعذاب الآخرة، (سبحانك يالا اله الا انت، الغوث الغوث خلِّصنا من النار يارب).

وقد ورد في دعاء كميل: (فكيف احتمالي لبلاء الآخرة، وجليل وقوع المكاره فيها، وهو بلاء تطول مدته، ويدوم مقامه، ولا يُخفَّف عن أهله، لانه لايكون الا عن غضبك وانتقامك وسخطك، وهذا ما لا تقوم له السموات والارض، يا سيدي فكيف بي وانا عبدك الضعيف).

فهل يرضى أحد لنفسه هذه العاقبة والنتيجة؟!، ولعمري فان الخسارة الكبرى أنما هي في الحرمان من رضا الله تعالى وقربه، حيث ورد في الدعاء:

(فهبني يالهي وسيدي ومولاي، وربي صبرتُ على عذابك، فكيف أصبر على فراقك، وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر الى كرامتك).

فلنتأمل جيداً ولنتدبر فإن المروي عن الكاظم (عليه السلام): (ما من شيء تراه عينك الا وفيه موعظة)، ومعلوم ان هذه المواعظ انما هي لنا، فان اعتبرنا بها فهذه ميزة العقلاء، والاّ فلا عقل لمن لم يتعظ.

نسأل الله تعالى برحمته الواسعة ان يجعلنا من اهل الجنة، وممن نال رضاه وقربه عزوجل، والحمد لله الذي لايُهتك حجابه ولايُغلق بابه ولا يُرد سائله. اللهم اني أسألك قليلاً من كثير مع حاجةٍ بي اليه عظيمة، وغناك عنه قديم، وهو عندي كثير وهو عليك سهل يسير فامنن علي به أنك على كل شيء قدير. آمين رب العالمين بحق نبينا محمد وآله الطاهرين.

النجف الاشرف

حيدر اليعقوبي

الكتاب الرابع

أصناف الناس في الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمدٍ وآله الطاهرين.

ورد في الحديث عن الصادق (ع): (يقوم الناس من فُرشهم على ثلاثة أصناف: صنف له ولا عليه، وصنف عليه ولا له، وصنف لا عليه ولا له. فأما الصنف الذي له ولا عليه فيقوم من منامه فيتوضأ ويصلي ويذكر الله عز وجل ،فذلك الذي له ولا عليه. واما الصنف الثاني فلم يزل في معصية الله عز وجل فذلك الذي عليه ولا له. واما الصنف الثالث فلم يزل نائماً حتى أصبح، فذلك الذي لا عليه ولا له).

وفي الحقيقة فقد أحببت في هذا البحث الموجز أن استعرض أصناف الناس من جهة أحوالهم في الليل؛ بمعنى كيف يقضي كل صنف منهم ليلته، لكي يتعلم الفرد الهادف كيف يستغل ليله فيما هو مفيد؛ ولكي يراقب الناس أبناءهم حينما يبسط الليل جناحيه على الأفق ،ويذرُ رماد النعاس في عيون العالمين. فإن الليل ساترٌ رهيب، وغطاء عجيب، له جناحان واسعان، يستر أحدهما عباد الله الصالحين، وهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. ويستر الجناح الآخر شرار الخلق ممن يقضون

ليلهم بالفساد والموبقات والمحرمات؛ فشتّان بين الفريقين، فريق الجنة وفريق النار، وما أعجب ظلمة الليل وهي تجمع المتناقضين، وتضم المتعاكسين.

ولعل بالإمكان أن نعرف شخصية الفرد وميوله العامة من خلال كيفية قضائه لليل ،كما ان الفرد نفسه يستطيع ان يقيّم نفسه ويميز سريرته من خلال

ملاحظة حاله في الليل.

وهكذا فإن اختيارنا لهذا المبحث يتضمن عدة فوائد ومصالح؛ كما انه يبتني على جملة من الأسباب والدواعي، سيدركها القارئ الفطن بعد إكمال الكتاب بإذنه تعالى.

عموماً فإن الليل قد يقضى بالنوم كما هو الأعم الغالب، وقد يقضى بالسهر، وهذا السهر قد يكون إيجابياً، وقد يكون سلبياً، فتكون مباحث كتابنا المتواضع هذا ثلاثة.

المبحث الأول

النوم في الليل

لا يخفى ان الإنسان بحاجة تكوينية للنوم، والمنقول عن الأطباء وذوي الاختصاص انه يكفي ان ينام الإنسان (٥-٦) ساعات في اليوم بحسب الحالات الطبيعية الاعتيادية.

وقد وردت في القرآن الكريم عدة آيات تؤكد هذه الحاجة، حيث يقول الله عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿يونس : ٦٧﴾

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ (الأنعام : ٩٦)

فالسكن بمعنى الراحة والاستقرار واسترجاع القوة، وهذا كله يحصل بعملية النوم.

نعم يمكن ان نفهم من السكن هنا السكينة وهي الراحة المعنوية او الخشوع او الطمأنينة القلبية، التي تحصل من العبادة الممكنة في الليل، وهي بالتأكيد تعطي الراحة والاستقرار وتعيد النشاط والقوة ،خصوصاً إذا كانت لا تتعارض مع مقدار ما يحتاجه الفرد فعلاً من النوم. وقد ورد في الحديث في حكمة النوم (فيه راحة البدن وإجمام قواه).

كيف يكون النوم مأجوراً ومحموداً

ثم ان عملية النوم قد تكون مأجورة ومقدرة عند الله عز وجل، مع انها حاجة تكوينية للفرد تفرضها عليه تركيبته البايلوجية العامة (النوعية) او الخاصة (الشخصية). وذلك يتصور من عدة جهات:

أولها- إذا كان النوم قد حصل بعد جهد او عمل يحبه الله ويرضاه، باعتبار ان النوم أصبح من آثار ومسبَّبات ذلك العمل، وكل آثار العمل الصالح صالحة ومباركة.

وقد ورد في قوله عز وجل ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيكُم مِنْ بَعدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغشَى طَائِفَةً مِنكُم﴾ (آل عمران: ١٥٤)

فالنعاس والنوم يكونان نعمة وهدية من رب العالمين تنزل على من جدّ واجتهد في يومه ونهاره بما يرضي الله عز وجل، مهما كان عمله، ومهما كان جهده.

ثانيها- إذا كان النوم بعنوان الاستعداد والتأهب ليوم جديد، ومن باب إعداد العدة وتجهيز القوة للعمل الصالح، فإن مثل هذا النوم يكون مباركاً وموفقاً لأنه يدخل في مقدمات الصلاح، ومقدمات الصلاح مرضية عند الله عز وجل، حتى أنهم ذكروا أن مقدمة الواجب واجبة، ومقدمة المندوب مندوبة، وهكذا. فإذا توقف عمله في الصباح مثلاً على ان ينام مقداراً معيناً في ليلته وقصد بنومه هذا المعنى، فإنه يثاب عليه بإذن الله عز وجل.

ثالثها- إذا كان النوم بعنوان إعطاء الجسم او العقل حاجته الضرورية من الراحة، بغضّ النظر عن العنوانين السابقين. فإن الإنسان مطالب شرعاً وعقلاً بحماية نفسه من الضرر، ولا يحق له إيذاء نفسه بلا مبرر، فإذا نام بهذا القصد فهو

أيضاً مأجور ومثاب إن شاء الله تعالى.

رابعها- ان يؤدي المستحبات قبل النوم، من قبيل الوضوء او التيمم ولو بدثاره وغطائه، او قراءة بعض الآيات، او بعض التسبيحات ،او التوجه جهة القبلة عند النوم، او نحو ذلك مما هو مستحب قبل النوم أو في أثنائه .. (انظر البحار ج٧٣/ص١٧٨ ومستدرك سفينة البحار ١٠/١٩٠ عن آداب السهر والنوم وأحوالهما).

وفي بعض الروايات ان الأنبياء ينامون على القفا (أي على ظهورهم)، والمؤمنين ينامون على جهة اليمين مستقبلي القبلة، والملوك وأبناءهم ينامون على اليسار.

وقد ورد في بعض الروايات عن النبي (ص) انه من بات على طهر فكأنما أحيا الليل، وفي رواية أخرى وان استطعت ان تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل، فإنك تكون إذا مت على طهارة شهيداً.

أقول: ما أيسر ذلك وما أعظم ثوابه.

وهكذا فإن النوم يمكن ان يُتصور فيه الصلاح والثواب، مع أن أكثر الناس تنام وتستيقظ بدون هدف وبدون قصد فهذا نوم الغفلة والسذاجة؛ لأنهم يفوّتون الفرصة من بين أيديهم، ويضيعون الثواب من حيث لا يعرفون ولا يفهمون، فأي حسرة وندامة سيشعرون بها يوم يعرفون ويفهمون؟!.

هناك صنف آخر من الناس ينام من شدة فراغه وكسله، فهو يؤذي نفسه من حيث لا يشعر، إذ ورد في الحديث عن المعصومين (ع) ما مضمونه أريحوا أنفسكم بالتعب، ولا تتعبوها بالراحة؛ وورد أيضاً ان الله يبغض الشاب الفارغ. وفي الحديث عن الصادق (ع) (إن الله يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ).

ولطالما عجبت ممن يدعي الفراغ، واستغربت لحاله، فأين هو الوقت الكافي، وهذا الزمان يمر من بين أيدينا ونحن مسئولون عنه؛ لأنه فرصتنا في النجاة؛ وطريقنا نحو الكمال؛ فبمقدار ما نستغل وقتنا بالطاعات، ونستفيد من ساعاتنا بالصالحات نكون قد خدمنا أنفسنا، وحصلنا على جواز المرور على الصراط المستقيم.

الانسان الفارغ لا يحس بالمسئولية تجاه نفسه وتجاه الآخرين؛ وهو تائه لا يعرف ما يضره ولا ما ينفعه، وإلا لأدرك ان الوقت قصير، والتكاليف كثيرة ومتنوعة ،وانما يحتاج الامر الى وعي وتفقه، ودراية وتبصّر في الدين.

وانما يقبل الله عذر من كان قاصراً لا مقصراً؛ وانما يتقبل الله ممن حاول بمقدار ما يستطيع، لأنه تعالى يعلم ان الإنسان لا يقدر على استيعاب فرصته بالكامل، ولذلك سمي يوم القيامة بيوم التغابن؛ لأن كل إنسان يتمنى يومئذٍ أن يكون قد تكامل اكثر واكثر، وقد ورد ان (حسنات الابرار سيئات المقربين) فمن يصلي عشر ركعات مستحبة في اليوم هو من الأبرار من هذه الناحية؛ ولكن (المقرَّب) قد يستغفر الله عز وجل اذا لم يصلِّ إلا عشرة ركعات مستحبة مثلاً؛ لأنه يشعر بأن تكليفه أكبر من ذلك.

المبحث الثاني

السهر السلبي في الليل

السهر السلبي نريد به ذلك السهر الذي لا يترتب عليه ثواب وأجر، ولا يكون مباركاً، سواء كان مباحاً أو كان محرماً.

وهذا يعني أننا سنتحدث ضمن محورين:

المحور الأول- السهر المباح:

وهذا له عدة صور أهمها ما يلي:

١- السهر لعدم القدرة على النوم؛ فهو يسهر لأنه لا يقدر على النوم؛ حيث يتقلب البعض في فراشهم، أو يتمدد مرة وينهض أخرى، أو يتمشى ذهاباً وإياباً، بدون سبب، وبدون علة.

ويمكن للفرد في هذه الحالة ان يستثمر جهده وسهره في شيء ينفع، فيقرأ كتاباً، أو يستمع الى دعاء، أو يسبح أو يتلو القرآن أو نحو ذلك مما يمكن ان يقضي به الوقت، ويصرف به جهده، فيكون ذلك مقدمة لحصول التعب او الراحة النفسية ،وكلاهما سبب نوعي لتحقق النعاس ثم النوم، وقد ورد في بعض الأحاديث ما مضمونه ان التعب يريح الإنسان.

كما انه سيحصل على ثواب العبادة وقيام الليل وان لم يكن قاصداً له بالأصل، وسيتحول سهره الى عملية إيجابية ومباركة.

أما اذا اقتصر على الرواح والمجيء، او التقلب في فراشه بدون جهد مندوب او مشروع؛ فسيكون قد ضيّع وقته سلبياً فلا هو نائم فيستريح، ولا هو قائم فيستفيد.

٢- السهر للانشغال بأمور فارغة لا فائدة فيها، من قبيل الأحاديث الفارغة او اللعب او اللهو والمزاح او مشاهدة برامج التسلية او الأفلام التلفزيونية غير المحرمة ونحو ذلك من الأمور التي لا طائل منها رغم انها مباحة في نفسها. فهذه كلها مضيعة للوقت، ويصرف الجهد فيها بدون محصلة واقعية؛ وستكون مجالسهم هذه حسرة عليهم لأنها خالية من ذكر الله، خالية من الطاعات، خالية من المنافع والفوائد الحقيقية.

وقد ورد في بعض الأحاديث ان (نوم العاقل أفضل من سهر الجاهل)؛ لأن العاقل ينام ليستعد ليومه الجديد، او ينام لأنه تعب فاستحق الراحة؛ اما الجاهل فإنه يسهر بدون وعي؛ وبدون فائدة؛ فصار نوم العاقل خير من سهر هذا الجاهل.

٣- السهر للانشغال بمشكلة او عارض معين؛ وهذا في الحقيقة خارج عن الإرادة غالباً؛ فلا يكون سلبياً إلا إذا لم يستغله الفرد للتقرب الى الله عز وجل؛ بأن يحتسبه عنده عز وجل ويصبر عليه، ويهوِّنه لأنه بعين الله رب العالمين.

ولعل في التوكل والتسليم والرضا خير بلسم ودواء لمثل هذا السهر لطارئ؛ لأنه سيرمي حمله بين يدي الله ويترك الأمور والمشاكل والعوارض الى رحمة الله وحسن تدبيره. وما خاب من توكل على الله وسلّم إليه أموره، وعندئذٍ يكون سهره مأجوراً ومباركاً ويصير إيجابياً بفضل الله ورحمته، وقد ورد في الحديث (سهر ليله من مرض أو وجع أفضل وأعظم أجراً من عبادة سنة). فهو تعويض إلهي على صبر الإنسان في الامتحان.

كما أنه يستطيع أن يشغل نفسه بالدعاء او العبادة او الاستغفار او التسبيح لأجل حل مشكلته، ورفع الأذى والسوء عنه، حيث ورد في فضل ليلة الجمعة مثلاً انه ينادي ملك بأمر الله عز وجل (ألا عبد مؤمن يدعوني لآخرته

ودنياه قبل طلوع الفجر فأجيبه، ألا عبد مؤمن يتوب إلي من ذنوبه قبل طلوع الفجر فأتوب عليه، ألا عبد مؤمن قد قتّرت عليه رزقه فيسألني الزيادة في رزقه قبل طلوع الفجر فأزيده وأوسّع عليه، ألا عبد مؤمن سقيم فيسألني ان أشفيه قبل طلوع الفجر فأعافيه. ألا عبد مؤمن مغموم محبوس يسألني ان أطلقه من حبسه وأفرّج عنه قبل طلوع الفجر فأطلقه وأخلي سبيله. ألا عبد مؤمن مظلوم يسألني أن آخذ له بظلامته قبل طلوع الفجر فأنتصر له وآخذ بظلامته) إلى آخر الحديث الشريف.

فإذا كان باب الرحمن واسعاً الى هذا الحد، وإذا كان أقرب الينا من حبل الوريد؛ فلماذا لا نلجأ إليه بالدعاء والاستغاثة والرجاء لنجعل ليلتنا مأجورة ومباركة، ليكون سهرنا إيجابياً ونافعاً؟! .

نعم إذا كان حال الفرد بدرجة لا يمكن معها أن يتحمل الدعاء ونحوه، أو يكون في حرج من هذه الناحية، فعندئذٍ يناله الأجر والثواب كما عرفت في الرواية السابقة (أفضل وأعظم أجراً من عبادة سنة).

الـمحور الثاني- السهر المحرم

وهذا له عدة صور والعياذ بالله، أهمها ما يأتي:

١- السهر امام التلفزيون او الستلايت او الفديو او الانترنت او نحوها من الأجهزة التي يساء استخدامها مع الأسف، فتتحول عند هؤلاء الى أجهزة شيطانية وابواب نحو الفساد وطرق الى جهنم.

ومن العجيب ان ترى في ظلمة الليل وعتمته شخصاً يتقلب في مشاهد المفاسد والشهوات الدنيئة، وهو أمام الستلايت او الانترنت، غير مبالٍ بدينه ولا مكترث لعاقبته، وكأنه حيوان بل أدنى من الحيوان. في وقت ترى فيه شخصاً آخر في مكان آخر يجلس أيضاً امام الستلايت او الانترنت ولكنه يستمع الى أدعية حزينة تقربه الى الخالق عز وجل، او يستمع مجالس حسينية او مراثي هادفة تقربه الى المعصومين (ع)، وتجعله يعيش سيرتهم الشريفة بما فيها من أفراح وأحزان ؛ فشتان بين هذين الشخصين، وأين الثريا واين الثرى.

وفي الحقيقة فإننا نود هنا ان ننصح المؤمنين بأن لا يغفلوا عن أنفسهم وأهليهم وأبنائهم من خطر مثل هذه الأجهزة ذات الاستخدام المشترك، وان يكونوا واعين حذرين في استخدامها، وان يراقبوا أولادهم من هذه الناحية، كما ان المفروض بهم ان يضعوا مثل هذه الأجهزة في الأماكن العامة في البيت ،بحيث لا ينعزل المستخدم عن الآخرين ،وانما يكون في معرض مرورهم واطلاعهم عليه.

على الآباء والأمهات والكبار عموماً ان يكونوا دقيقين في استخدام هذه الأجهزة ليكونوا نماذج إيجابية تظل محفوظة في ذاكرة الصغار، فإن الصغار يتأثرون بالأفعال أكثر مما يتأثرون بالأقوال والنصائح.

كذلك نود ان نقول كلمة مختصرة لهؤلاء الذين يلهثون خلف المناظر

الفاسدة في مثل تلك الأجهزة، نقول لهم انهم قد يموتون في أي لحظة، فهل يقبلون لأنفسهم أن يموتوا وتزهق أرواحهم على هذه الصورة؛ فيتعرضون للفضيحة والهوان في الدنيا والآخرة.

وقد لا يسعفهم الوقت للتوبة او الاستغفار، وقد لا يوفقهم الله لذلك لأنهم قد تعرّضوا للمعصية وإسخاط خالقهم وربهم عز وجل. وكيف يتوقع أحدهم ان يباركه الله ويرحمه

وهو يشاهده على هذه الحال القذرة التي يستحي منها الإنسان نفسه امام الآخرين. ولئن ستره الليل عن الخلق فإنه لا يستره عن رب العالمين الذي يقول في قرآنه الكريم:

﴿أَلَمْ يَعلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ (العلق: ١٤)

﴿وَأَنْ لَيسَ للإِنسَانِ إِلا ما سَعَى، وأَنَّ سَعيَهُ سَوفَ يُرَى، ثُمَّ يُجزَاهُ الجَزَاءَ الأوفَى﴾ (النجم: ٣٩-٤١).

٢- السهر بالانشغال بالشهوات المحرمة أصلاً ،من قبيل الزنا وشرب الخمر أو لعب القمار ونحوها من الموبقات والفواحش. ومثل هؤلاء يضيفون الى أفعالهم القبيحة هذه ،جريمة أخرى تزيد من جرمهم، وتزيد من عذابهم، فإن لليل حرمة خاصة لا يجوز هتكها، تماماً كما لا يجوز هتك حرمة شهر رمضان او نهار الجمعة او نحوها من الأوقات، وتماماً كما لا يجوز هتك حرمة بعض الأماكن والمشاهد المقدسة ونحوها. فمثل هذه الأوقات والأماكن له خصوصيتها اما باعتبار شرفها وقدسيتها في نفسها ،او باعتبار ما ينبغي ان يؤدى فيها من الطاعات؛ فيكون ارتكاب الحرام فيها جرأة إضافية وزيادة في التعدي بارتكاب الموبقات.

وقد ذكرنا سابقاً ان الله تعالى خلق النوم للراحة الضرورية والسكن اللازم

للإنسان، فلا يجوز هتك هذه النعمة الإلهية ومقابلتها بالسيئات والمعاصي. كما اننا سنذكر ان الليل فرصة للمخلصين وفرصة للعاشقين، الذين توجهوا بإخلاصهم وعشقهم لخالقهم ومولاهم عز وجل، فهي لحظات قدسية لا يجوز ان تدنسها آثام النفوس الضعيفة.

٣- سهر العصابات العدوانية ،التي تتستر بالليل لإيذاء العباد وإرهابهم ، بالسرقة أو الإخافة او الاعتداء او قطع الطريق او نحو ذلك من الجرائم الكبرى التي تستهدف خير خلق الله.

فالإنسان محور الخليقة ،والمؤمن عند الله أعظم من الكعبة، وأعظم حتى من الملائكة في بعض حالاته، ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً. وقد أجازت الشريعة للفرد بأن يدافع عن نفسه، وجعلت دم المعتدي هدراً لا قيمة له؛ لأنه دم غير محترم ولا يمت إلى الإنسانية بصلة.

وقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع) (اللص محارب لله ولرسوله فاقتلوه). وكذلك ورد ما مضمونه ان من اعتدى على الآخرين فتضرر فلا شيء له. كما وردت أحكام شرعية مشددة على من يحمل السلاح ويقطع الطريق لإخافة الناس أو إيذائهم ،فراجع أبواب حد المحارب في كتاب الوسائل وغيرها، وكذلك أبواب الدفاع عن النفس في مقدمة كتاب القصاص.

المبحث الثالث

السهر الإيجابي في الليل

ونعني بالإيجابية هنا أن يكون السهر مفيداً ومباركاً، وأن يؤدي الى تحصيل الأجر والثواب، وهذا له عدة صور وكيفيات على حسب اختلاف مناشئ السهر ودواعيه، وسنجعل كلامنا هنا ضمن محورين:

المحور الأول- سهر العبادة بالمعنى الأخص

ونقصد هنا السهر لأجل العبادة بمعناها المتعارف بحسب الاصطلاح، من قبيل الصلاة او كثرة السجود او الدعاء او الاستغفار او الذكر بمختلف أنواعه من تسبيح أوتهليل او نحوهما، او قراءة القرآن، أو غير ذلك مما يدخل في عنوان العبادة بمعناها الخاص.

وقد وردت عدة آيات وروايات في فضل قيام الليل وإحيائه بالعبادة والذكر فمن ذلك قوله تعالى:

﴿قَم الليلَ إلا قَليلاً، نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنهُ قليلاً، أو زِدْ عليهِ ورَتِّل القُرآنَ تَرتِيلاً﴾ (المزمل: ٢-٤)

فهنا تأكيد على عنوان القيام في الليل الشامل للصلاة والتسبيح والاستغفار ونحوها.

وكذلك قوله تعالى:

﴿تَتَجافَى جُنُوبُهم عَن المَضَاجِعِ يَدعُونَ ربَّهُم خَوفاً وَطَمَعاً﴾ (السجدة: ١٦) حيث ورد في بعض الروايات انه ذكر الرسول محمد (ص) قيام الليل ففاضت

عيناه حتى تحادرت دموعه، فقال: (تَتَجافَى جُنُوبُهم عَن المَضَاجعِ).

وقد فُسرت هذه الآية في بعض الأخبار بصلاة الليل حيث ورد عنهم (ع) ما مضمونه ان الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها ،وإنما قال ﴿فَلا تَعلَمُ نَفسٌ مَا أُخفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعيُنٍ جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧)

وفي رواية أخرى عن الباقر (ع) (في معنى تَتَجافَى جُنُوبُهم عَن المَضَاجعِ) قال: نزلت في امير المؤمنين (ع) واتباعه من شيعتنا، ينامون في اول الليل، فإّا ذهب ثلثا الليل او ما شاء الله فزعوا الى ربهم راغبين راهبين طامعين فيما عنده فذكرهم الله في كتابه لنبيه (ص) وأخبره بما أعطاهم، وانه أسكنهم في جواره، وأدخلهم جنته، وآمن خوفهم، وآمن روعتهم.

وفي حديث آخر عن النبي (ص): ما زال جبرئيل يوصيني بقيام الليل حتى ظننت ان خيار أمتي لن يناموا.

وقد جاء في علل الشرائع انه سُئل السجاد (ع) ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجهاً؟ فقال (ع): لأنهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره.

وفي رواية أخرى عن النبي (ص) (إذا قام العبد من لذيذ مضجعه، والنعاس في عينه، ليرضي ربه بصلاة ليله، باهى الله به الملائكة، وقال: أما ترون عبدي هذا قد قام من لذيذ مضجعه لصلاة لم أفرضها عليه، اشهدوا أني قد غفرت له.

وفي حديث بنفس المضمون: ان العبد ليقوم في الليل فيميل به النعاس يميناً وشمالاً، وقد وقع ذقنه على صدره، فيأمر الله تعالى أبواب السماء فتفتح، ثم يقول للملائكة: انظروا الى عبدي ما يصيبه في التقرب الي بما لم أفترض عليه راجياً مني لثلاث خصال: ذنباً أغفره له، أو توبة أجددها له، أو رزقاً أزيده فيه.

اشهدوا ملائكتي اني قد جمعتهن له.

وفي الحقيقة فإنه لا يشترط في قيام الليل ان يكون سهره متصلاً، فإنه يكفيه ان يقوم ويؤدي ما أمكنه ثم ينام ليستريح، وبعدها يقوم ثانيةً ويؤدي ما أمكنه ثم ينام ،وهكذا حسب حاله وقابليته ووضعه الخاص والعام.

ثم ان العبادة في الليل لها صور وكيفيات عديدة كما قلنا؛ وقد ذكر لنا الله عز وجل جملة من هذه الكيفيات، منها:

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَيلِ فَسَبِّحْ﴾ (طه: ١٣٠).

﴿يَتلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَيلِ وَهُم يَسجُدُونَ﴾ (آل عمران: ١١٣)

﴿وَمِنَ اللَيلِ فَتَهَجَّد بِهِ نافِلَةً لكَ عَسى أن يَبعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩)

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آناءَ اللَيلِ سَاجِداً أو قائِماً يَحذَرُ الآخِرَةَ ويَرجُو رَحمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَل يَستَوِي الذينَ يَعلَمُونَ والذينَ لا يَعلَمونَ، إنَّمَا يَتذَكرُ أُولُوا الألبَابِ﴾ (الزمر: ٩)

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَيلِ مَا يَهجَعُونَ، وبِالأَسحَارِ هُم يَستَغفِرُونَ﴾ (الذاريات: ١٧-١٨)

ولعل من أهم صور العبادة الليلية: صلاة الليل، فقد ورد في فضلها الكثير، وورد انها شرف المؤمن، وإن للمؤمن في الدنيا ثلاث فرحات او كفارات منها التهجد بالليل والناس نيام؛ وفي بعض الروايات ان النبي (ص) لولا انه يشقّ على أمته لأوجبها عليهم.

بقي ان نشير الى ان الليالي وان كانت عموماً محلاً للطاعة والتقرّب الى الله عز وجل ،حيث يخلو العبد بربه بعيداً عن ضوضاء الحياة وضجيج العباد، إلا

انه توجد لبعض الليالي خصوصية خاصة وميزة مميزة؛ من قبيل ليالي القدر وليالي الجمعة، وليلة النصف من شعبان التي ورد انه (من أحياها لم يمت قلبه يوم تموت فيه القلوب).

ولكن ونحن نستعرض هذه الأحاديث الشريفة ،ونتخيل روحانية هؤلا ء الذين يقضون لياليهم بهذه الطاعات العبادية، وهم فرحون مستبشرون، يؤسفنا أن نتذكر أولئك المساكين الذين يضيعون ليلهم بالفراغ والغفلة؛ وكأننا نستمع الى مناجاة الإمام علي (ع) وهو يقول:

إلهي حليفُ الحبِ في الليلِ ساهرٌ   يناجي ويدعو والمغفلُ يهجعُ

إلـهي وهـذا الخـلقُ مـا بين نائم   ومـنتبهٍ فـي ليـله يتـضرعُ

كما يزعجنا ويؤلمنا في نفس الوقت ان نتذكر أولئك المنحرفون الضالون، الـذين يقضـون ليلـهم بالفسـاد والمنكـرات ،واللـهث كـالكلاب وراء الملـذّات والشـهوات المحرّمـة؛ فـلا هـم يربحـون شـيئاً مـن هـذه المنكـرات دنيويـاً؛ ولا هـم يستحقون ان يلطف الله بهم ويرأف لحالهم؛ فهم في حسرة بعد حسرة، وندامة إثر ندامة ؛ ما لم يتوبوا توبة صادقة، ويستغفروا الله استغفاراً حقيقياً..

المحور الثاني- سهر العبادة بالمعنى الأعم

وهذا له عدة صور ودواعي اهمها ما يلي:

١- السهر بداعي التأمل والتفكر في نعم الله وآلائه، او في ملكوته، او في أي مجال يربطه بالخالق عز وجل، حتى وإن كان تدبره وهو في فراشه وتحت دثاره.

ولا يخفى ان التأمل عبادة، والتفكر عبادة، وقد ورد في بعض الاخبار أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة،وفي رواية أخرى أنه خير من قيام ليلة. ثم ان الله عز وجل مدح اولي الألباب كثيراً في القرآن، ومعلوم ان التفكر والتأمل من أوضح علامات أولي الألباب.

٢- السهر بداعي مساعدة الفقراء وإيصال صدقات السر اليهم، كما كان يفعل إمامنا علي بن الحسين (ع) تطبيقاً لقول الله عز وجل:

﴿الذينَ يُنفِقونَ أموَالهُم بالليلِ والنهارِ سراًّ وعَلانيةً فَلَهُم أَجرُهُم عِندَ ربِّهِم﴾ (آل عمران: ٧٤).

وقد ورد في الروايات ان صدقة السر أو الليل تطفئ غضب الرب، كما ان التفريج عن المؤمنين وقضاء حوائجهم فيه أجر عظيم، ومن فرّج عن مؤمن فرّج الله عنه، وخير الأمور أحمزها أي أشدّها.

٣- السهر بداعي مذاكرة العلم او التفقه في الدين، او لأجل كتابة بحث او تحقيق عن مسألة نافعة دينياً، فإن طلب العلم محبوب ومبارك في كل حين.

وفي الحديث انه لا سهر إلا في ثلاث (تهجدٌ في قرآن، او في طلب العلم، أو في زفاف عروس).

وفي رواية أخرى انه (لا بأس في السهر في الفقه)، و(لا بأس) هنا يراد منها بحسب الظاهر الإرشاد الى المندوبية، كما تقول لأحدهم مشجعاً ومرشداً (لا

بأس أن تذهب لزيارة الحسين (ع)) فانتبه وتفطن.

٤- السهر بداعي إحياء مجالس الموعظة والذكر الصالح، فإن مثل هذه المجالس يحبها الله تعالى، ويحبها المعصومون (ع) كما ورد في الأحاديث، فهي إيجابية ومباركة وإن لزم منها السهر.

٥- السهر بداعي الجهاد في سبيل الله عز وجل، سواء كان بنحو المرابطة في الحدود (الثغور) الداخلية والخارجية، او كان بنحو حراسة المؤمنين للمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم ومصالحهم، او كان بنحو القتال والدفاع عن الإسلام والمسلمين كما حصل في صفين حيث كان القتال يستمر أحياناً حتى الليل.

وقد ورد في الحديث (كل عين باكية يوم القيامة إلا عينٌ سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشية الله، وعين غضّت عن محارم الله).

٦- السهر بداعي مساعدة الآخرين في مشكلة أو مرض أو نحوهما، سواء كانت مساعدتهم حاصلة فعلاً، او انها كانت معدة وجاهزة بحسب القوة والشأنية، كالطبيب ورجل الإطفاء ونحوهم ممن يضطر لسهر الليالي لأجل مساعدة الناس ، او لأجل الاستعداد والجهوزية للامور الطارئة والعياذ بالله عز وجل.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق (ع) (المؤمنون أخوة بنو أب وأم، فإذا ضرب على رجل منهم عِرقٌ ، سهر الآخرون).

٧- ذكرنا في مقام سابق ضمن السهر المباح ان السهر قد يحصل نتيجة مشكلة او ألم او نحو ذلك، فإذا صحح الفرد نيّته في مثل هذه الأحوال، وسلّم امره الى الله ربه، ولم يجزع ولم يرتكب معصية، فإنه سيكون سهره مباركاً ومأجوراً ايضاً حيث ورد (ان سهر ليلة من مرض او وجع أفضل وأعظم من عبادة سنة).

٨- سهر الزوجين في ليلة الزفاف، بل مطلقاً على الأرجح؛ حيث ورد انه (لا سهر إلا في ثلاث منها: زفاف عروس) او في رواية أخرى (عروس تهدى الى زوجها). وفي بعض الأخبار ان مثل هذه العلاقة المقدسة برباط الزوجية تباركها الملائكة خصوصاً اذا كانت أصلاً او بعناوين ثانوية قربة الى الله تعالى.

٩- السهر بداعي أداء عمل معين، يضطر الى فعله ليلاً؛ فإن العمل وطلب الرزق والسعي في الكد من أجل العيال، مما ندب اليه الخالق عز وجل، وأجزل فيه الثواب والعطاء.

فإذا قضى الفرد ليلته بمثل هذه الأعمال من قبيل الخياطة او الصياغة او نحوهما من أسباب الرزق الحلال، فإنه سيكون قد نفع واستفاد؛ وقام بجهد عقلائي مشروع بل مأجور في بعض الأحيان، وعندئذٍ يكون سهره إيجابياً من هذه الناحية.

إلى هنا ينتهي ما أردنا ذكره وبيانه في هذا المختصر الـموجز، نسأل الله عزوجل ان يجعله نافعاً مقبولاً،وأن يرزقنا العمل بما نقوله أونتعلمه من الخيرات.. والحمد لله أولاً وآخراً.

حيدر اليعقوبي

١٤/ربيع الاول/١٤٢٨هـ

الكتاب الخامس

ما الذي نحتاج أن نتعلمه من أئمتنا المعصومين (ع) في ظروفنا الحالية؟

المقدمة

عندما طلب مني بعض الاخوة الأعزاء أن اكتب محاضرة بهذا العنوان ، لكي تلقى في ندوة فكرية خلال شهر محرم ، وجدت ان هذا العنوان اللطيف واسع جداً ، ففكرت أن أطرح الخطوط العامة ورؤوس النقاط المهمة ، لأن وقت المحاضرة لا يسمح بأكثر من ذلك .

وليكن هذا البحث المتواضع نموذجاً آخر على هذا الطريق ، أعني طريق الدراسة المجموعية لحياة المعصومين (ع) .

النجف الأشرف

١/ محرم / ١٤٢٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الذي نحتاج أن نتعلمه من أئمتنا المعصومين (ع) في ظروفنا الحالية؟ ..

سؤال مهم ينبغي ان نتأمل فيه جيداً ونحن في عصر الغيبة ، حيث تحجبنا ذنوبنا وخطايانا المقصودة وغير المقصودة من ان نتشرف بالظهور الخاص او العام للشمس المهدوية التي لازالت تنير حياتنا رغم السحاب .

وفي الحقيقة فان الحلول والخطوات التي نحتاج اليها سواء على المستوى الفردي او المجتمعي ، موجودة اما بالمطابقة او بالتضمن ، في سِير السابقين حيث يقول الله تعالى :

(لتركبُنَّ طبقا عن طبق) الانشقاق ـ ١٩

وورد في حديث النبي (ص) : (لتركبن سنن الذين من قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة).

ولذلك يهتم العلماء والسياسيون بدراسة التاريخ بعمق وحيوية ، لكي يستفيدوا من حياة السابقين ويتعلموا من أخطائهم وتجاربهم ، وبذلك يختصرون الطريق على أنفسهم ..

وقد قال الله تعالى :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ) يوسف- ١١١

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ) ابراهيم -٥

وفي ميزان الحكمة عن الإمام علي (ع):(من عرف الأيام ، لم يغفل عن الإستعداد).

وفي وصية أمير المؤمنين (ع) لولده الإمام الحسن (ع) : (أحيِ قلبك بالموعظة ، و أمته بالزّهادة ، وقوّه باليقين ، و نوّره بالحكمة ، و ذلّله بذكر الموت

، و قرّره بالفناء ، و بصّره فجائع الدّنيا ، و حذّره صولة الدهر ، و فحش تقـلّب اللّيالي والأيّام ، و اعرض عليه أخبار الماضين ، و ذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأوّلين ، و سر فى ديارهم و آثارهم ، فانظر فيما فعلوا ، و عمّا انتقلوا ، و أين حلّوا و نزلوا) ..

ثم يقول (ع) :(أي بني ، إنّي و إن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت فى أعمالهم ، وفكّرت فى أخبارهم ، و سرت فى آثارهم ، حتّى عُدت كأحدهم ، بل كأنّي بما انتهى إلىّ من امورهم قد عمّرت مع أوّلهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، و نفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كلّ أمر نخيله ، و توخّيت لك جميله ، و صرفت عنك مجهوله).

ونحن المسلمون المؤمنون يوجد عندنا - بفضل الله تعالى - رصيد عظيم من الدروس والعبر والمواعظ المستفادة من تاريخ المعصومين (ع) ، سواء كانوا أنبياء ام أوصياء ، باعتبار انهم يمثلون الكمال الحقيقي وينطقون بالواقع الذي لابد منه ، فالمفروض بنا ان نركز جيداً على سيرة المعصومين (ع) ..

وقد ورد في الحديث : (ذروا الناس فان الناس أخذت عن الناس ، وانتم أخذتم عن رسول الله (ص)) ..

وانطلاقاً من هذه الفكرة المبدأية فإننا سنتحدث الآن عن جملة من الأمور التي نحتاج ان نتعلمها من حياة أئمتنا المعصومين الإثني عشر (ع) ، ونحن نمر في هذه الظروف الحرجة ، حيث يعيش المجتمع فوضى حقيقية على جميع المستويات أو اغلبها .

ولعل أهم ما يخطر على البال في هذه العجالة هو ما يلي :

الأمر الأول : القيادة النموذجية

نحن في هذه المرحلة نحتاج ان نتعلم القيادة النموذجية ، تلك القيادة التي تمتاز بمؤهلات خاصة ذات قيمة اخلاقية عالية ، حيث تمتزج فيها الحكمة والعدالة والامانة والكفاءة الميدانية ، مع روح الشريعة الالهية الخالصة ، تحت شعار الاخلاص التام والحقيقي لله رب العالمين .

هكذا كان امامنا امير المؤمنين علي (ع) ، فهو قائد من نوع خاص ، يتعامل مع السلطة او القيادة على انها تكليف إلزامي ، وواجب حتمي ، ولولا ذلك لما دنى اليها ولاركب صهوتها ، وهو القائل (يادنيا غرّي غيري) ، وكيف لا ، وهو يعتبرها (كعفطة عنز) ..

وقد ضحى من قبل بحقه الشرعي بالقيادة والحكومة من اجل المحافظة على وحدة المسلمين ، ولم يقبل بها الا بعد ان تكالب الناس عليه وألزموه بها .

حيث يقول (ع) : (لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ، ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها) .

وقد ورد في الرواية ان عبد الله بن عباس جاء الى الامام علي (ع) واخبره ان القوم ينتظرونه ليتحدثوا معه ويسمعوا منه باعتباره امير المؤمنين ، فسأله الامام علي (ع) مشيرا الى نعله (ما قيمة هذا النعل ؟) فأجابه ابن عباس بانه لا قيمة له . فقال له الامام (ع) : (والله لهي أحب الي من إمرتكم الا ان أُقيم حقاً او أدفع باطلاً) .

هكذا يكون القائد النموذجي ، فهو لايتنافس على السلطة ولا يريدها غاية او هدفا ، وانما يتعامل معها على انها تكليفه و سلاحه الـمفروض لإقامة الـحق و دفع الباطل ، وكما ان السلاح ثقيل على الانسان باعتبار انه سبب للتعب والارهاق ، فكذلك السلطة .

يقول الامام علي (ع) : (أأقنع من نفسي بان يقال هذا أمير الـمؤمنين ، ولا اشاركهم في مكاره الدهر ، او أكون لهم أسوة في جشوبة العيش) .

هذه هي القيادة الصالحة ، التي نحتاج اليها ونبحث عنها ، قيادة لا تتعامل بالدكتاتورية او البراغماتية (الذرائعية) ، وانما تتعامل مع الامور والقضايا بحسب المقاييس الالهية التي تبتني على الحكمة والرحمة في آن واحد ، وهذه هي الثيوقراطية الحقيقية التي يرضى بها الله تعالى ، ويَنعم بها العباد ، وتأمن بها البلاد .

مع الإلتفات الى حقيقة ان النصر الحقيقي إنما يتمثل بانتصار الأهداف السامية والقيم النبيلة ، وكل ما عداه فهو نكبة واقعية تمر بها الأمة مهما كان تصورها الظاهري عن معنى النصر والخسارة ، وهذا الـمعنى الآخر للنصر قد لا يفهمه الكثير من الماديين والدنيويين وأصحاب النفوس المريضة ، فالنصر الواقعي ليس منوطاً بانتصار الأشخاص عسكرياً ، وانما هو منوط بإنتصار الاهداف والافكار التي يحملها الأشخاص أو الأمم ..

وكل جهة تفشل في تحقيق اهدافها فهي جهة خاسرة واقعاً مهما بدا انتصارها الـمادي او العسكري .

ومحل الشاهد أن الإمام علي (ع) ربح الدنيا والآخرة ..

أما الدنيا فسلطانه فيها ثابت وراسخ الى يوم الدين ، في الأرض وفي السماء ، وإن رغمت أنوف الظالمين .

وأما في الآخرة فهو قسيم الجنة والنار ، وساقي الكوثر ، وشيعته على منابر من نور ، بجوار خاتم الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد (ص) .

الأمر الثاني : التضحية الحقيقية

نحن نحتاج ايضا الى تعلم التضحية الحقيقية (الفعلية) ، ونعني بها التضحية من أجل حفظ الدين الالهي ومصلحة المسلمين والدولة الإسلامية .

ولا يخفى ان نوع التضحية يختلف بحسب اختلاف الظروف ، فقد يضحي الفرد بنفسه او ماله أو ولده ، وقد يضحي بمنصبه ، وقد يضحي بشيء آخر له قيمته الشخصية او العقلائية ..

ونحن نحتاج في هذه الظروف ان نتعلم هذه التضحية من الامامين السبطين الحسن والحسين (عليهما السلام) ..

واذا كان الامام الحسين (ع) قد ضحى بنفسه وأولاده وأهل بيته واصحابه ، من أجل إعلاء كلمة (لاإله الا الله ، محمد رسول الله) ، ولسان حاله يقول : (ان كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي ، فيا سيوف خذيني) ، فان الامام الحسن (ع) ضحى كذلك بمنصبه الظاهري وحقه في الحكومة الفعلية ، من اجل حفظ الامة الاسلامية من الضياع والفرقة ، في حين ورد في الحديث (ان آخر ما يُنزع من قلب المؤمن هو حب الجاه) ، بل لعل الكثير منا مستعد للتضحية بنفسه وماله من اجل منصبه ، بينما نلاحظ ان إمامنا الحسن (ع) ضحى بمنصب الخلافة لكي يوقف الخلافات الدامية التي كانت تفت في عضد الدولة الاسلامية ، خصوصا بعد الالتفات الى ان أصحابه غدروا به ، ولم يوفروا له الحجة الشرعية التي تدعوه لمواصلة الجهاد و إكمال مسيرة والده الامام علي (ع) .

وهذا هو الوارد في كلامه (ع) مع حجر بن عدي الكندي : (إني رأيت هوى عظم الناس في الصلح ، وكرهوا الحرب ، فلم احب ان أحملهم على مايكرهون ، فصالحت بقياً على شيعتنا خاصة من الحرب ، ورأيت دفع هذه الحرب الى يوم ما ، فان الله كل يوم هو في شأن) ..

وفي حديث آخر عنه (ع) مخاطباً الشيعة (ما أردت بمصالحتي معاوية الا ان ادفع عنكم القتل ، عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب ، ونكولهم عن القتال).

وفي الحقيقة فان صلح الحسن (ع) انما هو تمهيد لثورة الحسين (ع) ، على اعتبار ان الحسن (ع) لو قاتل فانه سيقال عندئذ لماذا يقاتل ويفرّق المسلمين ؟ ولماذا لا يضحي ويتنازل قربة الى الله تعالى ؟

اما الامام الحسين (ع) فسوف لن يقال له ذلك ، لان الحل السلمي الذي طرحه الامام الحسن (ع) بكل شجاعة وتضحية لم ينفع مع الامويين ، فلم يبقَ الا الحل الآخر الذي قام به سيد الشهداء (ع) ، وهو الثورة والجهاد والخروج في طلب الاصلاح في امة محمد (ص) .

ومن هنا نفهم الحكمة في قول النبي (ص) : (الحسن والحسين إمامان ، قاما او قعدا) ..

فالحسن (ع) قطع العذر على كل من يريد الاعتراض امام ثورة الحسين (ع) .

الأمر الثالث : الإرتباط بالله تعالى

في هذه المرحلة العصيبة نحتاج ايضا الى التعلق بالله تعالى والارتباط التام به ، وهذا يتحصل من خلال عدة قنوات ، لعل اهمها الدعاء والمناجاة ، حيث ورد ما مضمونه ان الدعاء مخ العبادة ، وان الدعاء سلاح المؤمن ..

وهذا الامر نتعلمه بالتأكيد من امامنا السجاد زين العابدين علي بن الحسين (ع) ..

وفي الحقيقة فان الاهتمام بالدعاء انما هو اهتمام بالاخلاق والتكامل العام ، ونعني به التكامل والصلاح على المستويين الفردي والاجتماعي . فقاريء الدعاء سوف يتعلم الكثير ، يتعلم مثلا المفاهيم التربوية العالية التي ستمر عليه ضمن فقرات الدعاء ، كمفهوم التواضع ومقابلة الإساءة بالإحسان ونكران الذات ، وحب الآخرين ، والتوحد والانصهار مع سائر المؤمنين ، ونحو ذلك .

وسوف يحاول قارئ الدعاء ايضا ان يكون طاهراً من الخطايا والذنوب ، لانه سيشعر ان الله تعالى يُقبِل بنفحاته على خصوص الصادقين ، مع انفسهم ومع الله تعالى .

وسيدرك هذا الفرد ان الذنوب والمفاسد هي حجب تبعد عنه البركات ، وتسلب عنه النعم والخيرات ..

فاذا لاحظنا الأمة باعتبارها مجموعة من الافراد ، فسندرك بالتأكيد خطورة هذه الذنوب على المجتمع عموما ..

وقد قالوا ان إصلاح الأمة يبدأ بإصلاح الفرد نفسه ..

وفي ذلك يقول الله تعالى (استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة الى قوتكم) هود ـ ٥٢

وهكذا فنحن بحاجة الى الالتزام بالدعاء ومقدماته ، فان الله تعالى يقول :

(قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعائكم)الفرقان-٧٧

الأمر الرابع : نشر الدين والوعي

في هـذه الفـترة الـحرجة نـتعلم ايضـا مـن إمامنـا مـحمد البـاقر (ع) وإمامنـا جعفـر الصـادق (ع) كيـف إسـتفادا مـن ظـرف انهيـار الامـويين ، وبدايـة تسـلط العباسـيين ، في نشـر العلـوم والمعـارف الاسـلامية ، وتطهـير المـدارس الفكريـة مـن الشوائب والإنـحرافات . وهذه قضية بنيوية ومسألة اساسية ، ينبغي الاهتمـام بهـا جيدا ، وعدم التفريط بهذه الفرصة التي سنحت لنا هذه الايام .

فالأمة تحتاج الى البناء العقائدي والاخلاقي والفقهي ، وكل واحد من هـذه الـمحاور يعتبر أساساً ضرورياً تستند عليه القواعد الجماهيرية ، لتثبت في مواجهـة التيارات المنحرفة التي يتوقع لها ان تعصـف بشـعبنا العراقـي العزيـز في هـذه الأيـام والأيام التالية .

وهـذه القواعـد امانـة في اعنـاق العلمـاء والـواعين ، وهـي الآن متمسـكة - والحمـد لله - بعلمائهـا ومراجعهـا ودينهـا ، الا انهـا تحتـاج الى التوعيـة الـمبرمـجة التي تعتمد الإستراتيجية والآليات المناسبة لكل طبقة من طبقات الـمجتمع .

فنحن نـحتاج لهـذه الـمرحلة الى دعـاة مـخلصين واعـين ، سـواء كـانوا مـن الحوزة أو من خارجها ، يأخذون على عاتقهم مسؤولية رعاية الجماهير وتحصينهم عقائدياً واخلاقياً وفقهياً ، بل ينبغي توعيتهم ثقافياً ، من اجل ان يكونوا عـلى بينـة ودراية بالمفـاهيم السياسـية او الاجتماعيـة ، الـتي تصـطدم مـع المفـاهيم الاسـلامية وتتعارض معها ..

وفي ذلك يقول الله تعالى : (فلولا نفر من كـل فرقـة منهم طائفـة ليتفقهـوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) التوبة ـ ١٢٢ .

الأمر الخامس : الصبر والتحمل

نحتاج ايضا الى تعلم الصبر وقوة التحمل ، ونحن نواجه مختلف الظروف القاسية التي تمر بنا هذه الايام ..

وهذا الامر نتعلمه من امامنا موسى الكاظم (ع) الذي واجه السجون والاعتقالات ، ومختلف الضغوط ، لا لشيء إلا لكونه ثابتا على دينه ومنهج آبائه الطاهرين ، وبقى رمزاً شامخاً للإباء والصمود ، وهو يخاطب هارون العباسي بكل شجاعة :(أنا إمام القلوب ، وأنت إمام الجسوم). ونحن في العراق - هذا البلد الجريح - تعرضنا لمختلف الجراح ، وأحاطنا صدام اللعين بسجن كبير من أجل أن يقهرنا ، ويقتل إيماننا، ويميت إلتزامنا، الا اننا وبحمد الله تعالى إنتصرنا عليه بصبرنا الواعي ، وتضحياتنا الجسيمة ، وثقتنا العالية بخالقنا عزوجل ..

(شيعة) نحن رغم أنف الأعادي	صفوة الناس لم نزل في رشاد
نحن شعب التوحيد قولاً وفعلاً	ودعاة الإيمان بين العباد
نحن بيت الإسلام حقاً وصدقاً	عِلمُنا صاغَه النبي الهادي
كم صبرنا والصبر منا جميل	وركبنا الهموم ظهر جواد
وشربنا الآهات أعذب ماء	وجراحاتنا غدت خير زاد
نعشق العيش تحت ظل المنايا	ولواء الولاء طي الأيادي
قد صرعنا فرعون كل زمان	بدمانا ولَوعة الأصفاد
راسخات أقدامنا حيث كنا	شامخات رؤوسنا في عناد
عاديات قلوبنا لا نبالي	أين مادت بنا رمال البوادي

ونحن الآن أمام سجن جديد ، لعدو قديم ، يحاول ان يتدخل بمصيرنا وقراراتنا وثقافتنا الاسلامية ، فالمفروض ان نواجهه بصبر اقوى ، وثبات أشد ، وثقة اعلى ، فان الصبر الإيجابي (وليس السلبي) هو مفتاح الفرج ، وهو سلاح فعال يفوق تأثيره حد التصورات المادية ..

ولنتذكر بوعيٍ قول الله تعالى :

(إن تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون) ..

فنحن نرجوا كرامة الدنيا والآخرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهذا كله خاص بنا نحن المؤمنون ، كما لا يخفى .

ثم انه يوجد سجن آخر يبدو انه بدأ يقيد الكثيرين منا ويحيطهم بأسلاكه الشائكة ، ذاك هو سجن الأنانية وحب الذات ، فيجب علينا ان نواجهه ونكسر أبوابه ، حتى لا يحجبنا عن الآخرين ، ولا يمنعنا عن التوحد والانسجام والاشتراك معهم في بناء هذا البلد المقدس ، الذي كتب الله تعالى له ان يكون مثوى المعصومين (ع) ، وعاصمة دولة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف .

الأمر السادس : إستغلال الفرص بحذر

نحتاج أيضاً في هذه المرحلة الحساسة ان ندرك انه لا مانع من اشغال وملأ المراكز المهمة والحيوية في دولتنا الحالية ، من قبل العناصر المؤمنة ، التي تمتاز بالكفاءة والقابلية على التأثير ، خصوصا وان الفرصة مفتوحة أمام الجميع ، وهي فرصة قد هيأها الله تعالى لنا على أية حال .

نعم ينبغي ان يكون هذا الأمر ملحوظاً بعنوان الوسيلة او الطريقية ، لا بعنوان الغاية او الموضوعية كما يعبرون ..

فالإمام علي الرضا (ع) وان كان مُكرَهاً على قبول ولاية العهد في زمن المأمون العباسي الا انه كان إيجابياً في مركزه ، عندما تتطلب الضرورة والمصلحة العامة .

حتى انه ورد في بعض الاخبار ان الرضا (ع) واجه المأمون يوماً بكل صلابة وقال له : (اتق الله في أمة محمد (ص) ، وما ولاك من هذا الامر ، وخصك به ، فانك قد ضيعت امور المسلمين ، وفوضت ذلك الى غيرك يحكم فيها بغير حكم الله عز وجل) .

ويبدو للمتأمل في قراءة الاحداث يومئذ ، ان الرضا (ع) كان يوظف الاحداث ويستغل منصبه لاجل إعداد القواعد الشعبية وتوجيههم نحو الولاية الحقيقية ، والمفاهيم الاسلامية الصحيحة ، خصوصا ان الجماهير قد بدأت بالالتفاف التام حوله كما حصل في قضية صلاة العيد وصلاة الاستسقاء ، حيث حصلت فيهما تعبئة عفوية واسعة للجماهير المؤمنة .

وهذه المحاولات قد أدركها المأمون وفهمها، وأحس ان البساط بدأ ينسحب من تحت قدميه ، فبادر الى التخلص من الامام الرضا (ع) ، رغم انه لم يبقَ في ولاية العهد الا حوالي سنتين .

ثم انه ورد في الاخبار ان الرضا (ع) إنما قبل الولاية بشرط ان لا يولّي أحدا ولا يعزل أحدا ، ولا ينقض رسماً ولا سنة ..

وهذا إن دل على شيء فانما يدل على عدم قيامه بهذه الامور بعنوان انه ولي عهد للمأمون ، لان ذلك سوف يعطي للمأمون شرعية واضحة كما لا يخفى ، ومن هنا فهو لا يتدخل بهيكلية الدولة العباسية ، لانه لا يعترف أصلا بسلطتها وقيادتها .

وفي الحديث انه (ع) رفع يديه نحو السماء وقال : (الهي انك تعلم انهم أكرهوني على هذا الأمر ، وألجأتني الضرورة إلى القبول به ، فلا تؤاخذني على ذلك يا رب) ..

نعم هو (ع) يعمل سراً وواقعاً بموجب ولايته الشرعية الثابتة له بالنص والوصية ، حيث يقول (اللهم لا عهد الا عهدك ، ولا ولاية لي الا من قِبلك ، فوفقني لاقامة دينك ، وإحياء سنة نبيك) .

الأمر السابع : إثبات الذات النوعية

نحن نحتاج في هذه المرحلة الى إثبات قدراتنا العلمية والميدانية والمعنوية امام الاخرين ، لكي يعرف العالم (صديقهم وعدوهم) اننا شعب مؤهل لتحمل المسؤولية ، سواء على مستوى القيادة الدينية او السياسية ، او على مستوى الجماهير وطبقات الأمة .

وهذا الأمر نتعلمه من إمامنا محمد الجواد (ع) الذي اثبت قدراته العلمية وتحدى كبار الفقهاء والعلماء آنذاك ، وبرهن لهم انه الإمام الحق ، رغم صغر سنه ، و قد إعترفوا له وهم صاغرون ..

فهل نستطيع نحن العراقيون الآن ، أن نثبت للعالم اننا قوم واعون ، قادرون على قيادة أنفسنا بأنفسنا ، قادرون على توفير الأمن والنظام والعدالة في بلادنا..

بالتأكيد نستطيع ذلك اذا تعاهدنا على الوحدة والإخاء والإحترام المتبادل ونبذ الأنانية واجتناب العصبية ، لنكون معاً يداً واحدة تمثّل الدين ، وتدافع عن الدين ، وتحمي المؤمنين ، ويد الجماعة أقوى وأشد ..

ولعل خير شاهد على ذلك هو ما حصل في أول زيارة أربعينية للإمام الحسين (ع) بعد سقوط الطاغية الهدام سنة ٢٠٠٣ م / ١٤٢٤ هـ ، حيث اصيب العالم بالدهشة والذهول وهو يرى تلك الجموع الحاشدة التي تقدر بالملايين ، وهي تُنظّم نفسها بنفسها .

نعم نحن مطالبون بالإستمرار على هذه الحالة قربة الى الله تعالى ، وحفاظاً على هذا البلد العزيز ، وهذا الشعب المسلم الذي يبحث عن السلام

والاطمئنان..

ولنعتبر أنفسنا الآن في مناظرة سياسية مع الغرب واعداء الاسلام ، فهل نستطيع التغلب عليهم وإفحامهم بوعينا ووحدتنا ، وبإثبات قدراتنا وكفاءاتنا في مختلف مجالات الحياة ؟.

يقول المسعودي في (مروج الذهب) واصفاً العراق وأهله نقلاً عن بعض الحكماء : (وأما العراق فمنار الشرف ، وسُرّة الأرض وقلبها ، إليه تحادرت المياه ، وبه إتصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ، فصفَت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدّت خواطرهم ، واتصلت مسراتهم ، فظهر منهم الدهاء ، وقويت عقولهم ، وثبتت بصائرهم . وقلب الأرض العراق ، وهو المجتبى من قديم الزمان ، وهو مفتاح الشرق ، ومسلك النور ، ومسرح العينين ، ولأهله أعدل الألوان ، وأنقى الروائح ، وأفضل الأمزجة ، وأطوع القرائح ، وفيهم جوامع الفضائل ، وفوائد المبرّات ، وفضائله كثيرة ، لصفاء جوهره ، وطيب نسيمه ، واعتدال تربته ، وإغداق الماء عليه ، ورفاهية العيش به).

ثم يقول : (إن الله تبارك وتعالى قسم الأرض أقساماً فضّل بعضها على بعض ، فأفضل أقسامها العراق ، فهو سيد الآفاق ، وقد سكنه أجيال ، وأمم ذوو كمال) .

ولنتذكر كذلك أن أسعد الناس بإمامنا المهدي (ع) هم أهل العراق ، فعاصمته الكوفة ، ومنه تنطلق الفتوحات ، واليه تتجه الأنظار ..

فلنتحمل مسئولياتنا بوعي وإلتفات ، وشجاعة وثبات ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، والعاقبة للمتقين .

الأمر الثامن : الحيطة والحذر

نحن اليوم في أمس الحاجة الى سياسة الحذر ، وعدم كشف الاوراق أمام المحتلين ، وأمام أعداء الإسلام ، وأعداء المذهب الحق ..

وهذا الأمر نتعلمه من الإمامين علي الهادي (ع) ، والحسن العسكري (ع) ، حيث كان لهما دور كبير في تمهيد القواعد الشعبية لاستقبال فكرة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) ، وترتيب مقدماتها ..

واستطاعا أن يؤديا دور القيادة العليا والولاية الشرعية بسرية تامة ، رغم أعين السلطات المنتشرة التي كانت تفرض طوقاً أمنياً حولهما .

إننا نواجه الآن عدة مؤسسات أو تيارات منحرفة ، من المؤكد انها تبحث الآن عن رموزنا الفعلية أو المستقبلية ، وهي تخطط بأية وسيلة للقضاء على هذه الرموز أو اسقاطها .

وهذا يتطلب منا حذراً شديداً وتكتماً حقيقياً على أهدافنا المبدأية وتصوراتنا الإستراتيجية ، خصوصاً فيما يتعلق بالوضع الراهن وما يرتبط به .

ولنحرص على أن لا نكشف أوراقنا كاملة امام الأعداء ، لكي لا يعرفوا أسرارنا ، ولا يقدروا على تحديد قدراتناالحقيقية ، وهذا لوحده يكفي في إشغال العدو وإرهاقه ، لأنه سيظل أسير الخوف والترقب والحذر طيلة الوقت .

الأمر التاسع : التأني وحسن التخطيط

كما اننا نحتاج في هذه المرحلة الى التأني وعدم الإستعجال بتحصيل النتائج..

وهذا الأمر نتعلمه بوضوح من إمامنا المنتظر المهدي (أرواحنا له الفداء)، فان التخطيط المتكامل الناجح يحتاج الى وقت طويل ، وسلسلة من الإمتحانات الخاصة والعامة .

واذا كان التخطيط الإلهي لليوم العالمي الموعود يتطلب كل هذه المدة الطويلة ، فاننا أكيداً نحتاج ايضا الى وقت مناسب لبناء مستقبلنا الحر الكريم ، وهو بالتأكيد ليس طويلاً جداً ، إلا انه يستغرق فترة معينة بطبيعة الحال .

وقد قيل ان الغرب يُخطط لسنوات وينفذ في يوم ، وهناك مقولة مشهورة للجنرال (هود) قائد سلاح الطيران الإسرائيلي آنذاك ، حينما تم تحطيم الطيران المصري في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ م ، حيث قال : (ان ستة عشر عاماً من أعمال التحضير قد نُفذت في ثمانين دقيقة) .

واذا كان من الخطأ الوقوف أو الجمود امام هذه الأحداث المتسارعة التي تمر بنا هذه الأيام ، فإن من الخطأ أيضاً أن نتسرع في ردود أفعالنا وتصرفاتنا ..

وإنما يتوجب علينا أن نفكر أولاً بهدوء ، وأن نضع إستراتيجيتنا المرحلية المناسبة ، ونهيأ التكتيكات اللازمة بحذر ودقة ، وندرس خطواتنا المستقبلية خطوة خطوة ، حتى لا يفاجئنا ما لا نتوقعه ، أو نصطدم بما لم نفكر فيه ، ولم نحسب حسابه .. ولنحرص على أن تكون خطواتنا إيجابية ، عملية

، مؤثرة ، واعية ، رسالية ، و نحو ذلك مما يفرضه علينا واقعنا وإمتدادنا الديني .

وفي نفس الوقت فإننا بحاجة إلى تنظيم الجماهير ، وتعويدها على الوضع الجديد ، و بناء قاعدة وسطى تكون بمثابة الجسر أو الواسطة بين القيادة والجماهير ..

هذه القاعدة الوسطى تمد كل طرف بما يحتاجه ، فهي ترفد الأمة بالعناصر النموذجية الموجهة ، كما أنها ترفد القيادة بإحتياجاتها الشعبية والميدانية .. وفي الحقيقة فإن هذه الثلة أو الصفوة أمر ضروري لحصول التكامل العام ، ووجودها في الخارج هو مسؤولية الجميع ، خصوصاً الطبقة الواعية ..

أسال الله تعالى أن يأخذ بأيدينا لما فيه الصلاح والرضا الإلهي ، وان يمن علينا بدولة كريمة ، يُعزّنا فيها بعز الإسلام ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله الطاهرين .

النجف الأشرف

الشيخ حيدر اليعقوبي

١ - محرم - ١٤٢٥ هـ

الكتاب السادس

الله أكبر من نفسك ومن الشيطان

بسم الله الرحمن الرحيم

الله اكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة واصيلاً ، وصلى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين.

قال تعالى في محكم كتابه :

(وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) الإسراء- ١١١

وقال تعالى أيضاً : (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ) البقرة-١٨٥.

وقال عز وجل : (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) المدثر - ٣ .

فالتكبير إذاً مطلوب ، وكل ما يطلبه الله تعالى منا فهو بالتأكيد له حكمة ومصلحة ، والمصلحة تعود إلينا بالدرجة الأساسية..

فينبغي ان ندرك ما هي الحكمة من هذه التكبيرة التي نؤديها في عدة أعمال عبادية ، لعل أهمها صلاتنا اليومية حيث تبتدأ الصلاة بقولنا : (الله اكبر) ، ونستمر في ترديد هذه التكبيرة المقدسة بين اغلب الأجزاء التي تتألف منها الصلاة.

فاذا إلتفتنا الى ان هذه الصلاة هي عماد الدين (إن قُبلت قُبل ماسواها ، وان رُدَّت رُدَّ ما سواها) ، وانها تبطل ولا تصح اذا خلت من تكبيرة الإحرام ، ندرك عندئذ اهمية هذه العبارة وعظمتها .

ومن جانب آخر ، كان المسلمون يفتتحون جهادهم بنداء (الله اكبر) ، ذلك النداء الذي يتقوى به المؤمنون ، ويرتجف منه الكافرون .

وفي الحقيقة فإن لهذا النداء معان عديدة ، اذا فهمها الفرد اكتشف مقدار القوة الإلهية التي تكمن في مضمونه.

ومن هنا جاءت فكرة كتابة سلسلة عن بعض ما ندركه من معاني (الله اكبر) ، وسيعرف القاريء في نهاية هذه السلسلة ، ان هذه العبارة هي دستور متكامل للحياة ، وهي طريق سريع يوصل الخلق الى الجنة وفردوس الرضا الإلهي .

كما ان هذه العبارة هي علاج نافع وشامل لعدة مشاكل نمر بها يومياً ، ونعاني منها ، ونتمنى الخلاص من آثارها .

فمثلاً حين يفكر الانسان في بعض المخاطر ، فليتذكر دائماً ان الله تعالى اكبر منها ، وفي الدعاء (اللهم انك أجلّ وأكبر ممن أخاف واحذر) .

وحين يريد الانسان ان ينظر الى امرأة اجنبية بشهوة او لذة والعياذ بالله ، فليتذكر ان ما عند الله اعظم وافضل .

وحين يظن الانسان ان الشيطان أقوى منه ، فليتذكر ان الله تعالى اكبر واقوى ، فليتوكل على الله تعالى لكي يتغلب على الشيطان .

وفي الحديث عن أبي ذر رضوان الله تعالى عليه : (لا تُرضوا الولاة بسخط الله ، إن أسخطوا الله فجانبوهم وازرؤوا عليهم ، فإن الله أكبر وأعلى) .

وفي الدعاء (اللهم إن عظمت ذنوبي فإنك أعظم ، وإن كبر تفريطي فإنك أكبر) .

وهكذا فإنه توجد عدة معان يمكن استفادتها من عبارة (الله اكبر) ..

وهذه السلسلة المفتوحة تتصفح الممكن من هذه المعاني ، وما خفي كان اعظم .

إن الله عزوجل هو رب العالمين ، وهو خالق الوجود ، ومالكهم، وبيده إمضاء كلّ إرادة وفعل ، وبيده إيقاف كل إرادة وفعل ، وهذا ما وضحناه في

كتابنا (معالم التكامل في العقيدة).

ومن هنا كان الله تعالى أكبر من كل شيء ، وأكبر من كل حالة ، من دون مقايسة أو تحديد ، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء..

وهو تعالى اكبر من ان يوصف .

كما ان ما عند الله تعالى أكبر من كل ما نتصوره من شهوات وملذات ، ونعيم وجنات ، مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

وفي الحديث عن النبي (ص):ان المؤمن حينما يقول (الله أكبر) ، يقول الله تعالى (صدق عبدي أنا أكبر من كل شيء).

وفي حديث آخر : (الله أكبر من كل شهيد).

وفي الدعاء (يا أكبر من كل كبير) ، وفي دعاء آخر عند الحجر الأسود (الله أكبر من خلقه ، الله أكبر مما أخاف وأحذر) .

فالعاقل اذاً من يتمسك بالله عز وجل دائماً ، وليصبر ويتحمل قليلاً ، فإن العاقبة للمتقين ..

وما قيمة مدة معينة من الصبر والتحمل في مقابل الخلود في النعيم الالهي ، وما قيمة لذة فانية في مقابل لذة باقية هي اجمل واعظم في الوقت نفسه.

(مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) النحل - ٩٦.

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) القصص - ٦٠.

وفي الحديث عن الامام الباقر (ع) :(الجنة محفوفة بالمكاره والصبر ، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة . وجهنم محفوفة باللذات والشهوات ، فمن اعطى نفسه لذته وشهوتها - يقصد بها طبعاً المحرمات - دخل النار) .

بقي امر يخصني ، أنا القاصر المقصر ، وهو ان هذه المعاني التي سوف اذكرها في هذه السلسلة هي عبارة عن خواطر سريعة جداً كتبتها على عجالة من امري ، عندما كانت تسنح الفرصة المناسبة ، وهذا يوجب علي التنويه أولاً ، والاعتذار ثانياً .

ومن الله نستمد الهداية والتوفيق
والحمد لله أولاً وآخراً

المعنى الأول

الله أكبر من نفسك

ما هي النفس ؟

وردت النفس بعدة استعمالات ، منها الحقيقية ، ومنها المجازية .. وعلى العموم نستطيع أن نذكر هنا أهم معانيها :

١- النفس بمعنى الروح ، كما في قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) الأنعام- ٩٨ .

٢- النفس بمعنى الإنسان بتركيبته العامة ، كما في قوله تعالى:

(لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا) البقرة - ٢٣٣ .

(جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً) الشورى - ١١

ومنه أيضا ما يسمى بالتعداد العام للنفوس أي السكان .

٣- النفس بمعنى الجزء الخاص الذي يقابل الروح والعقل والقلب ، وهي التي يسمونها بالنفس الأمارة ، كقوله تعالى : (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) النازعات - ٤٠ .

وهذه النفس هي محل الإحساس بالشهوات والملذات والرغبات ، سواء كانت صالحة أم غير صالحة ، وقد جاء في القرآن الكريم : (إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) يوسف - ٦٨.

وهذا المعنى هو من أوضح مصاديق بحثنا ، لأنها تقوم غالباً بدور الوسواس الذي يزين المساوئ ويدعو إليها :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) ق-١٦.

٤- النفس بمعنى الحصيلة العامة لتركيبة الإنسان اللامادية والعصبية ، وهو ما يتناوله العلماء في مدارس علم النفس الحديثة .

٥- النفس بمعنى الجوهر الانساني ، كما هو وارد في (عالم الذر) ، أو بمعنى الذات الإنسانية ، او الشخصية أو الماهية الإنسانية كما وضحناه في كتابنا (معالم التكامل في المعرفة العامة)..

ويدل عليه قوله تعالى :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس- ٧- ٨ .

وعلى أية حال توجد قصيدة رائعة في وصف النفس وهي منقولة عن الفيلسوف الكبير ابن سينا ، مطلعها:

هبطت اليك من المحل الأرفع — ورقاء ذات تعززٍ وتمنّع

محجوبة عن كل مقلة عارفٍ — وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلتْ على كُرهٍ اليك وربما — كرهت فراقك وهي ذات تفجّع

أنِفت وما أنست فلما واصلت — ألِفت مجاورة الخراب البلقع

وأظنها نسيت عهوداً بالحمى — ومنازلاً بفراقها لم تقنع

وآخر القصيدة :

فكأنها برق تألق بالحمى — ثم انطوى فكأنما لم يلمع

الفرق بين النفس والروح والقلب والعقل

أقول : ثم انه يحسن هنا أن نشير إجمالاً الى معنى كل من العقل والقلب والروح .

حيث قالوا : إن العوالم أربعة وهي مترتبة من حيث الشرف والتأثير والتجريد .

فأدنى هذه العوالم هو عالم الناسوت او الطبيعة وهو عالم الأبدان والأجسام ، ويتلوه عالم الملكوت وهو عالم النفوس ، ثم عالم الجبروت وهو عالم العقول والمشيئة ، وعالم اللاهوت وهو عالم الروح أو الأرواح .

ويذكر بعض العارفين انه يوجد عالم خاص بالحضرة الربانية ، ويسمونه بعالم (الهاهوت) ، ولعله مشتق من عالم (هوَ هوَ) .

فالنفس التي هي من عالم الملكوت تشير الى تلك الجوهرة التي تنطبع فيها إدراكات العقل وأحاسيس الكيان البشري من شهوة أو غضب أو محبة أو نحو ذلك ، وهي مزيج الاحاسيس أو المشاعر الخاصة التي تميز كل واحدٍ عن غيره .

وفي ميزان الحكمة عن أمير المؤمنين (ع) :(إن النفس لجوهرة ثمينة ، من صانها رفعها ، ومن إبتذلها وضعها) .

واما العقل : فهو القوة المدركة التي تميز الواعي المختار عن غيره ، وقد ورد في الروايات ان الله تعالى كرَّم العقل على جميع الخلق ، وانه أمره بالاقبال والادبار فأطاع فوراً ، فاعطاه الله تعالى مزايا كثيرة بمنزلة الجنود ، وقال له عزوجل : بك أثيب وبك أعاقب .. (راجع حول جنود العقل وميزاته كتاب (جنود العقل والجهل) ، وكذلك راجع كتابنا (معالم التكامل في المعرفة) ، حول بعض المؤثرات على العقل) .

وأما الروح فهي تلك القوة النابضة بالـحياة (سر الحياة) وقد عرفت انها من عالم اللاهوت ، فهي بمثابة الحبل الواصل بين عالم الأمر وعالم التكوين .

وقد تطلق الروح على ما هو أعم من ذلك ..

وفي الـحديث عـن اهـل البيـت (ع) ان الله اذا أراد بعبـد خـيراً ، طـيب روحه، فلا يسمع معروفاً إلا عرفه ، ولامنكراً إلا أنـكره ، ثـم يقـذف الله في قلبه كلمة يـجمع بها أمره .

أما القلب او الفؤاد فقد ذكرنا في كتاب (معالم التكامل في المعرفة) انه تلك العين القلبية التي يعرفها ويحسّ بها كل انسان نقي وطاهر ..

فالقلب يؤدي دوره وينبض بمقدار نقاء الفرد وطهارته المعنوية.

وقد ورد في الـحديث ان الله تعالى أوحى إلى نبيه داود (ع) : (لـي خزانة أعظـم مـن العـرش ، وأوسـع مـن الكرسـي ، وأطيـب مـن الجنـة ، وازيـن مـن الـملكوت ، أرضـها المعرفـة ، وسماؤهـا الإيمـان ، وشمسـها الشـوق ، وقمرهـا الـمحبة ، ونجومهـا الـخواطر ، وسـحابها العقـل ، ومطرهـا الرحمـة ، وشـجرها الطاعـة ، وثمرهـا الحكمـة .. ولـها أربعـة أركـان : التوكـل ، والتفكـــر ، والأنـس ، والذكر .. ولها أربعة أبواب : العلم ، والحكمة ، والصبر ، والرضـا .... ألا وهـي القلب) .

وفي رواية أخرى ان الله تعالى أوحى إلى موسى (ع) : (يـا موسـى جـرّد قلبك لحبي ، فاني جعلت قلبك ميدان حبـي) .

وورد في الحديث القدسي ما مضمونه : (ما وسعتني السماوات والأرض ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن) .

وقد سمعت من سيدنا الاستاذ (قدس) : ان الانسان يكون له في كل عالم من هذه العوالم الاربعة التي ذكرناها قلب خاص يناسبه وينسجم مع ذلك العالم الذي يلاحظ فيه .

بقي ان نشير هنا الى الفرق بين القلب والفؤاد ، فقد ورد في مجمع البحرين : ١١٨/٣ ان الفؤاد هو القلب ، وانه يقال ان الأفئدة توصف بالرقة ، والقلوب باللين ، لأن الفؤاد غشاء القلب ، فإذا رقّ نفذ القول او العلم فيه ، وخلص الى ما ورائه ، وإذا غلظ تعذر وصوله الى داخله.

واما القلب ، فإنه اذا صادف شيئاً علقتَ به إذا كان ليناً ، أي ليس قاسياً ولا جامداً ولا صلباً.

أقول: الظاهر انهما بحسب التعبير القرآني واللغوي واحد ، وانما قد يفرق بينهما بحسب الاصطلاح الفني ، فيقال كما ذُكرَ لكن بصياغة أخرى مفادها ان القلب هو مركز الإحساس والتعقل ، واما الفؤاد فهو الآلة الناقلة اليه ، كما ان السمع والبصر آلتان لنقل المعلومات وإيصالها الى العقل .

وقد يقال ان الفؤاد هو المرتبة الأرق ، واما القلب فهو المرتبة الأدق .

وفي الكافي عن الصادق (ع) : (انما شيعتنا أصحاب الأربعة الأعين ، عينان في الرأس ، وعينان في القلب .. ألا و الخلائق كلهم كذلك ، إلا أن الله عزوجل فتح أبصاركم ، وأعمى أبصارهم).

وفي الحديث عن الباقر (ع) ان القلوب ثلاثة ، وذكر منها : وقلب مفتوح فيه مصابيح تزهر ، ولا يُطفأ نوره إلى يوم القيامة ، وهو قلب المؤمن) .

أقول: هذا غيض من فيض من ينابيع الحكمة ، ونفحات عابرة من بحار المعرفة .

غوايــة النفس

من الملاحظ غالبا أن من ألد أعداء الإنسان هي نفسه التي بين جنبيه ، تلك الـنفس الأمـارة بالسـوء ، والـتي يصـفها الإمـام السـجاد (ع) بقولـه في مناجـاة الشاكين:

(إلهي أشكو إليك نفسا بالسوء أمارة ، وإلى الخطيئة مبادرة ، وبمعاصيك مولعة ، ولسخطك متعرضة ، تسلك بي مسالك المهالك ، وتجعلني عندك أهون هالك ، كثيرة العلل ، طويلة الأمل ، إن مسها الشر تـجزع ، وإن مسها الـخير تمنع ، ميالـة إلى اللعـب واللـهو ، مـملوءة بالغفلـة والسـهو ، تسـرع بـي إلى الـحوبة ، وتسوفني بالتوبة) .

وقـد ورد في الحـديث عـن الامـام علـي (ع): (الله الله في الجهـاد للأنـفس فهي أعدى العدو لكم) .

هذه هي النفس التي لـدينا ، وهـي بـلا شـك من أهـم الأسـباب الـتي تـدمر الإنسان إذا سيطرت عليه ، وسيّرته نـحو شهواتها وملذاتها .

والـنفس بـالمعنى الثالـث خصوصاً ، لهـا قابليـة الإغـواء والوسوسـة ، وهـذا ناتج من شهوانيتها واندفاعها نحو عدم الالتـزام ، شـأنها في ذلـك شـأن كـل من لا عقل له ولا تفكير .

ومــما يهــون الأمــر أن حديــث النــفس هــذا لامؤاخــذة عليـه ، لا مـن الناحية الشرعية ولا من الناحية العقلائية ..

نعم إذا استجاب الفرد لهذه الوساوس وعمـل بموجبهـا صحت المؤاخذة عليه واستحق العقاب ..

وقد ورد عن الإمام الباقر (ع) كما ينقل في جامع السعادات انه قال : (من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وعملها كتبت عليه عشرا ، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة) .

بل ورد عن النبي (ص) أكثر من ذلك ، فقد قال (ص) كما ينقل في جامع السعادات أيضاً :

(إن الملائكة قالت : ربّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو تعالى أبصر) ، فقال عز وجل: راقبوه ، فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها لأجلي) .

هل النفس سيئة ؟

قد يسأل سائل هنا : لماذا إذاً كانت لنا هذه النفس ؟

ولماذا كانت لها هذه التأثيرات السلبية ؟

والجواب عن هذا السؤال يكون على مستويين :

المستوى الأول : إن هذه النفس ضرورية لنا ، ولايمكن بقاؤنا بدونها ؛ لأنها تمتاز بقابلية الإحساس بحاجياتنا الأساسية من مأكل ومشرب ونحوهما ، فبالنفس نلتذ ونرتاح ونسعد ، وإذا حصل لنا ذلك ، دامت صحتنا وازداد نشاطنا.

وفي الحديث عن الإمام علي (ع) في كلام له عن النفس ، كما ينقل في مجمع البحرين : (يا كميل إنما هي أربع : النامية النباتية ، والحسية الحيوانية ، والناطقة القدسية ، والكلية الإلهية) .

نعم ينبغي علينا أن لا نستجيب للنفس إذا أرادت أكثر من احتياجنا ؛ فالشخص الجائع إذا أكل يرتاح وتشعر نفسه باللذة ، لكن إذا أكل أكثر من طاقته ، فإنه سيتعب وسيؤذي نفسه ، وفي الحديث عن الإمام علي (ع): (كم من أكلة منعت أكلات).. وهذه حقيقة طبية ، ومجربة على كل حال . ومثلها ما ورد عنه (ع): (كم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً) .. مع الالتفات الى ان المراد بالشهوة هنا ما يشمل سائر الشهوات والاهواء النفسانية .

كما إنه ينبغي علينا أيضا أن لا نستجيب للنفس إذا أرادت ما لايريده الله تعالى ؛ لأن ارتكاب المعاصي يؤدي إلى المهالك والعياذ بالله تعالى ، ونحن لا نريد الآن أن نتحدث عن هذه المهالك الدنيوية والأخروية ، والمادية والمعنوية ، لأن

الحديث فيها طويل ومتشعب .

إن الشخص الجائع إذا شاهد أكلة دسمة مثلاً فان نفسه تـحدثه بأن يتناولـها ، وسيسيل لعابه لها ، وهذه كلها تأثيرات نفسية . لكن إذا كان يعلم أن هذه الأكلة سوف تضره وتؤذيه ، فإنه لابد أن يتوقف ، رغم أن نفسه قد تغريه بالأكـــل ، وتزين له ذلك على احتمال عدم الأذى ، فهنا يجب أن لايستجيب الفرد لهوى نفسه ، ما دام يدرك أضرار الاستجابة لها .

ولعل أوضح مثال على ذلك ما يفعله المدخنون أو من يتناول الـمخدرات أو المسكرات ، فرغم أنهم يعلمون بأضرار هذه الأمور ، إلا انهم ينصاعون لرغبات أنفسهم وهذه هي الكارثة .

(وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) البقـرة – ١٩٥

بل إن مجرد احتمال الضرر يكفي للامتناع والتوقف في مثل هذه الموارد ..

ومن هنا نسمع إن (الوقوف عند الشبهات ، خير من اقتحام الهلكات) كما ورد عن المعصومين (ع) ، وكذلك ما ورد عنهم (ع) من أنه : (لا ورع كالوقوف عند الشبهة) ، علما أن الشبهة هنا ماكان فيها احتمال للضرر أو الخطأ.

المستوى الثاني : إن هذه التأثيرات السلبية ليست ملازمة للنفس في طبيعتها ، وإلا فكثيرا ما نشاهد أشخاصاً لهم نفوس كما لدينا نفوس ، ولكنهم مع ذلك يسيطرون عليها ولا يصدر منهم إلا كلّ خير .

فالذي نريـــد أن نقوله هنا إن النفس الإنسانية ليست شرا في طبيعتها وتكوينها ، بل هي مفيدة للإنسان ونافعة له كما عرفت في المستوى الأول ، وإنما يحصل الشر من الانصياع لها بدون تعقل ولاوعي .

فالـماء مثلا لا ريب في انه خير ، وانه ضروري للحياة ، ولكن يجب

السيطرة عليه ، وإلا فإنه قد يؤذينا ، فكم من الأنهار التي أغرقت ما حولها عندما تفيض ، ولم يكن هناك ما يوقف اندفاعها . وهذا مثال مناسب جدا لما نريد قوله عن النفس .

وقد تقدم قبل قليل القول المروي عن أمير المؤمنين (ع) : (إن النفس لجوهرة ثمينة ، من صانها رفعها ، ومن إبتذلها وضعها) .

وهنا قد يعترض البعض بأن الوارد في القرآن الكريم : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي) يوسف -٥٣ .

أي أن كل نفس هي أمارة بالسوء إلا ما رحم الله عزوجل ..

وهذا الاعتراض باطل وغير صحيح ، ويمكن الإجابة عنه بأكثر من وجه، ونحن هنا سنذكر ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : إن هذه الآية تتحدث عن مرتبة الاقتضاء ، بمعنى أن النفس فيها مقتضي الأمر بالسوء ، أي تستطيع أن تأمر بالسوء لولا المانع ، وهذا المانع موجود ومن جانبين ، أحدهما الجانب الإلهي ، فإن الله تعالى من جانبه ألهَمها الخير ايضا ، وجعل فيها القوة والقابلية على فعل الخير والأمر بالخير ، وثانيهما هو الجانب الإنساني ، فإن الإنسان قادر على ردع هذه الوساوس النفسية ، وعدم الإلتزام بها ومحاربتها كما سيأتي الحديث عنه.

الوجه الثاني : إن هذه الآية تتحدث عن الغالب ؛ فإن أكثر الناس غير مؤمنين كما ورد في القرآن : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) يوسف- ١٠٣. وهذا ما نلاحظه بأعيننا ..

وإذا كان الأمر كذلك فان النتيجة هي أن أغلب نفوس البشر أمارة بالسوء لعدم وجود الرادع الإيماني أو الأخلاقي لديهم ، فكانت الآية في صدد بيان

النفس الغالبية ، لا مطلق النفس .

وفي الحديث عن أمير المؤمنين (ع) :(إن النفس لأمارة بالسوء والفحشاء ، فمن إئتمنها خانته ، ومن إستنام اليها أهلكته ، ومن رضي عنها أوردته شر الموارد) .

الوجه الثالث : أنه كما ورد في القرآن ذكر النفس الأمارة بالسوء ، كذلك ورد فيه ذكر (النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) القيامة - ٢..

وهي تدل - فيما تدل عليه - على الضمير الذي يجده أكثر الناس في داخلهم ، يؤنبهم إذا ما صدرت منهم الأخطاء والمساوئ .

وفي الحديث عن النبي (ص) : (أكثِر من الصالحات والبر ، فإن المحسن والمسيء يندمان ، يقول المحسن ياليتني إزددت من الحسنات ، ويقول المسيء قصّرت ، وتصديق ذلك قوله تعالى (ولاأقسم بالنفس اللوامة)) .

وكذلك ورد في القرآن (النفس المطمئنة) : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) الفجر- ٢٧ - ٢٨ ..

وهذه هي النفس الصافية المحكومة بحكم الشريعة الإلهية وحكم العقلاء ..

وفي الحديث عن أمير المؤمنين (ع) : (ليس على وجه الأرض أكرم على الله تعالى من النفس المطيعة لأمره) .

فهذه التقسيمات المتعددة للنفس تكشف لنا أن هذه الصفات هي أحوال للنفس الإنسانية التي تكون في بداية خلقها خالية من أية صفة ، وإن كان الأظهر والأصح أن النفس في طبيعتها خيرة ؛ لأن كل ما كان من عند الله تعالى فهو خير وحسن .. وفي الحديث عن المعصومين (ع): (كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) .

وإن شئت فقل إن النفس في طبيعتها مجرد ملهَمة ، أي أنها تعرف الخير وتعرف الشر من غير أن تكون متصفة بأحدهما ؛ وإنما تتصف بالخير إذا أراد صاحبها ذلك ، وتتصف بالشر إذا أراد صاحبها ذلك ، وهذا المصطلح موجود في كلمات بعضهم ؛ وهو مأخوذ من قوله تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس(٧ - ٨).

وهكذا نتوصل من خلال الوجوه الثلاثة السابقة إلى أن النفس ليست سيئة في طبيعتها ، وإنما الإنسان هو الذي يسيء إلى نفسه ، إذا أعطاها كل ما تريد وكل ما تشتهيه ؛ لأنه عندئذ يسمح لها بأن تسيطر عليه وتتغلب عليه ؛ وكأنه بذلك سمح لحيوانه أن يسيطر عليه ؛ وهذا لا يعني أن العيب في الحيوان ، لأن الحيوان مفيد في أصله ؛ ولكن العيب في ذلك الشخص الذي لم يسيطر على الحيوان ، بل جعله هو الذي يسيطر عليه .

وفي الحديث عن المعصومين (ع) ما مضمونه : (إن الإنسان إذا غلب عقلُه شَهوتَه ، كان أفضل من الملائكة لأن الملائكة لا شهوة لهم ، وأما إذا غلبت شهوةُ الإنسان عقله فإنه يكون أدنى من البهائم لأن البهائم لا عقل لها) .

جهاد النفس والسيطرة عليها

عرفنا أن النفس قد تطغى ، بل هي تطغى غالبا ؛ فإذا طغت وحاولت أن تندفع بشهواتها ، فإن الواجب علينا أن نوقفها وأن نسيطر عليها ، وهذا هو ما يسمى بجهاد النفس ، وهو فعلا الجهاد الأكبر ؛ لأنه نزاع بين الفرد ونفسه ، ولأنه نزاع مع عدو لا تراه ، عدو داخلي متغلغل في جميع مناطقك .

وقد ورد عن النبي (ص) أنه بعث سرية فلما رجعوا قال (ص) : (مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر) .. فقيل : يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال (ص): (جهاد النفس) . وورد عنه (ص) ايضاً:(المجاهد من جاهد نفسه) . وكذلك ورد عنه (ص): (ان الشديد ليس من غلب الناس ، ولكن الشديد من غلب نفسه) .

و جهاد النفس هو أساس كل جهاد صالح ، وهو مفتاح التكامل والوصول إلى رب العالمين .

وقد ورد في الأحاديث عن المعصومين (ع) :

ان العارف من عرف نفسه ، فأعتقها ونزهها عن كل ما يبعدها .

وان جهاد النفس مهر الجنة .

وانه طوبى لمن جاهد في الله نفسه وهواه .

وفي الحديث أيضاً : (جاهد هواك كما تجاهد عدوك) ..

وكذلك ورد عن الإمام علي (ع) : (الله الله في الجهاد للأنفس ، فانها أعدى العدو لكم) .

وورد عنه (ع) أيضاً : (أيها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها ، واعدلوا

بـها عن ضراوة عاداتها) .

وورد أيضاً ان : (من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب ، وإذا اشتهى ، وإذا غضب وإذا رضى ، حرم الله جسده على النار) .

وفي الحديث عن الإمام الصادق (ع) : (اجعل قلبك قريباً براً ، أو ولداً واصلاً ، واجعل عملك والداً تتبعه ، واجعل نفسك عدواً تجاهدها ، واجعل مالك عارية تردها) .... (أنظر أبواب جهاد النفس في الوسائل آخر كتاب الجهاد) .

وقد ذكر العلماء ان الجهاد الأكبر يعني مجاهدة جنود الشيطان والنفس الأمارة بالسوء وكل ما يدعو إلى عالم الطبيعة والمادة ، فيحارب جنود الوهم والغضب والشهوة .

كذلك ذكروا المجاهدة العظمى (أو الجهاد الأعظم) وقد فسروه بالمجاهدة في إزالة بقايا النفس المختفية من جذورها ، لكي يكون له موضع قدم في عالم الخلوص ، حيث بساط التوحيد المطلق كما يعبرون ، وبذلك يتحقق عند الفرد معنى (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) .

وهنا يأتي السؤال عن كيفية المجاهدة لهذه النفس ، ونحن لن نجيب الآن بالأسلوب العرفاني والمصطلحات المتداولة في علم الأخلاق ، فإنها قد تكون صعبة على المستوى العام الذي ينبغي أن نخاطبه ونتحدث معه ، فقد ورد عن النبي (ص) أنه قال : (نحن معاشر الأنبياء أُمِرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم).

كما أننا لن نتحدث بالأسلوب الإنشائي أو الخطابي ؛ لأنه أسلوب طويل لا داعي له ، وإنما سنجيب عن السؤال السابق باختصار وبما يلائم المستوى العام ،

وباللغة المعاصرة كما يقولون .

فنقول بعون الله تعالى :

أن مجاهدة النفس تتضمن عدة خطوات مرتبة كالآتي ، وكلها مجاهدات نفسية :

الخطوة الأولى : التواضع الحقيقي داخل النفس ، وقد ورد عن المعصومين (ع) ما مضمونه (أن من تواضع لله رفعه الله).

وقد قال الشاعر :

ملأى السنابل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ

ويجب أن يكون هذا التواضع حقيقياً ؛ بمعنى أنه لا يكون متصنعا أمام الناس ؛ لأن فائدة التواضع هو القضاء على العجب والغرور اللذين يصيبان الإنسان ، فإذا لم يدخل التواضع إلى ذات الإنسان وحقيقته لم ينجُ من هذين الدائين .

وفي الحديث عن الصادق (ع) : (إن أقرب الناس من الله المتواضعون) .

الخطوة الثانية : البحث عن العيوب النفسية والأخلاقية ؛ بمعنى أن يطالع الفرد كتب الأخلاق وأحاديث المعصومين (ع)، لكي يعرف الصفات السيئة والأفعال المذمومة .

وهذا أمر طبيعي لأن الإنسان إذا لم يعرف عدوه فكيف يحاربه ويجاهده .

وقد ورد في الحديث عن الامام علي (ع) : (العارف من عرف نفسه فاعتقها ونزّهها عن كلّ ما يبعدها).

وينفع هنا مراجعة كتاب (جهاد النفس) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من موسوعة الوسائل والمستدرك ، وكذلك كتاب (القلب السليم) و (مرآة

الرشاد) وتهذيب النفس وآداب العشرة ، ونحوها من كتب الأخلاق والآداب العامة والخاصة.

الخطوة الثالثة : البحث عن العيوب الموجودة في النفس ..

فكل واحد منّا يبحث عن عيوبه ، وفي الحديث عن النبي (ص) : (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب المؤمنين) . وكذلك ورد عن الامام علي (ع) : (من عرف نفسه جاهدها) .

والمشكلة التي نعانيها نحن البشر ، أن كل واحد منا يتابع عيوب الآخرين وينسى عيوبه أو يتغافل عنها ، وفي الحديث عن الصادق (ع): (واذكر خطيئتك ، وإياك وخطايا الناس) ، وورد عنه (ع) أيضا : (إذا رأيتم العبد متفقداً لذنوب الناس ، ناسياً ذنوبه فاعلموا أنه قد مُكِر به) .

أقول : يعني أن نفسه والشيطان قد مكرا به وخدعاه فأشغلاه بعيوب الآخرين عن عيوب نفسه .

بقي أن نشير إلى أن الفرد قد يكتشف عيوب نفسه بنفسه ، وقد يكشفها له شخص آخر ، فقد ورد أن المؤمن مرآة المؤمن ..

ومن هنا ينبغي أن لا ننزعج عندما ينتقدنا البعض أو يشير إلى وجود عيب فينا ؛ فإن من ينزعج عندئذ فإنما تأخذه العزة بالإثم ، فيكون خاسراً بطبيعة الحال .

وفي الحديث عن الإمام الباقر (ع) : (اتبع من يبكيك وهو لك ناصح ، ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش) .

وعن الإمام الصادق (ع) : (أحب أخواني من أهداني عيوبي) .

وعنه (ع) أيضاً ما مضمونه ان المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال : توفيق من

الله عزوجل ، وواعظ من نفسه ، وقبول ممن ينصحه .

الخطوة الرابعة : الاعتراف بوجود العيوب الموجودة في نفسه ، وعدم الإصرار على عدم وجودها ..

فإن كثيرا من الناس من يعلم أن فيه صفة سيئة ، ولكنه يرفض الاعتراف بذلك حتى أمام نفسه ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على غروره وتكبره ، وهذا مما لا يرضاه الخالق عز وجل.

وفي الحديث عن الإمام الباقر (ع) : (والله ما ينجو من الذنب إلا من أقرّ به) .

والنجاة المقصودة هنا على مستويين أحدهما دنيوي ، وذلك لانه إذا اعترف بالذنب فإن سيحاول الابتعاد عنه وبذلك ينجو منه .

وثانيهما ، أخروي ، وذلك لأنه إذا اعترف بالذنب فإن الله تعالى قد يسامحه عليه ، أما إذا لم يعترف به فهذا يعني أنه متجرئ والعياذ بالله تعالى ، وبذلك يستحق العقاب مضاعفاً .

وقد قال الإمام الباقر (ع) : (والله ما أراد الله من الناس إلا خصلتين : أن يقروا له بالنعم فيزيدهم ، وبالذنوب فيغفرها لهم) .

الخطوة الخامسة : معالجة العيوب ، والتخلص منها بقدر الإمكان ، وهو ما يسمى بتصفية النفس ، وهذه الخطوة هي أظهر خطوات مجاهدة النفس وأوضحها ، ولكنها ليست الخطوة الوحيدة كما عرفت الآن .

ولعل كتاب (جامع السعادات) من أنفع الكتب العامة والمبسطة في هذا المجال ، فينبغي مراجعته قربة إلى الله تعالى .

الخطوة السادسة : الإصرار على عدم الرجوع إلى تلك العيوب ..

فإنه لا يكفي أن يتخلص الإنسان من صفة سيئة ؛ لأنها قد تعود إليه في وقت لاحق ، وإنما يجب عليه أن يبقى متيقظا ملتفتا حتى لا يصاب بذلك العيب مرة أخرى .

كما أن الوارد عن المعصومين (ع): إن الاستغفار الحقيقي لا يتحقق إلا مع العزم على عدم العودة إلى ذلك الذنب أو غيره ، وهذا هو ما نعنيه بالخطوة السادسة هنا .

وهنا يحسن الاشارة الى فكرة مهمة تتعلق بجهاد النفس ؛ فقد ورد في الحديث عنهم (ع) كما في البحار: (موتوا قبل أن تموتوا) ، أي أميتوا شهواتكم النفسية وشياطينكم الذاتية والخارجية قبل ان تنتهي فرصتكم في هذه الحياة ..

فإذا تأملنا جيداً في الحديث الوارد عن الامام علي (ع) : (جهاد النفس مهر الجنة) ..

وتأملنا في القول المنقول عنهم (ع) (أن لك مراتب لن تنالها الا بالشهادة)..

فعندئذ سيتحصل لنا أننا أمام حرب طويلة لا هوادة فيها ولا تراجع ..

وهي حرب مفروضة علينا ، ولا يمكن اعتزالها أو الابتعاد عنها ، وليس فيها حالة وسط بين الربح والخسارة ؛ أو بين النصر والهزيمة..

(قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) الشمس - ٩- ١٠ .

وإذا كان الشهيد في ساحات القتال والجهاد الأصغر ينال مراتب عالية لا يعلمها الا الله تعالى ، بمجرد ان يموت بدنه لتنطلق الروح الى بارئها عزوجل ..

فكذلك الشهيد في ساحات الجهاد الاكبر على اختلاف مراتبه ومستوياته ، فإنه سينال مراتب أعلى وأسمى ، بمجرد ان تموت نفسه لتنطلق الروح محلقة في سماوات القدس بملكوتها وجبروتها .

والمقصود بموت النفس هنا هو موت الظلمات والحجب والأمراض النفسانية التي يُفترض ان يقتلها الفرد العارف ؛ بقوة الله تعالى وبسيف المعرفة والعمل الخالص ، قربة الى الله تعالى ، حتى تعود النفس الى أصلها صافية نقية ، مباركة قدسية .. وحينئذٍ فقط تدب فيها الحياة وتتصف بالكشف والتجلي ، فيكون صاحبها واعيا ملتفتاً منتبهاً ينظر بنور الله عز وجل ..

حيث يقول الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ) الأنفال-٢٤

وكذلك يقول تعالى :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاه ُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) الأنعام-١٢٢.

وفي البحار ورد في الحديث عن الامام علي (ع) : (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) .

ثم إن هذه الشهادة الكبرى التي ذكرناها الآن يمكن ان نفهمها من قول الله عز وجل :

(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) آل عمران (١٦٩ – ١٧٠).

وكـذلك قولـه تعـالى :(وَالَّـذِينَ قُتِلُـوا فِـي سَبِيلِ اللَّـهِ فَلَـنْ يُضِـلَّ أَعْمَـالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) محمد(٤- ٥).

وأخيراً فلنتأمل جيداً في قوله عز من قائل :

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَـوْ أَنَّهُـمْ فَعَلُـوا مَـا يُوعَظُـونَ بِـهِ لَكَـانَ خَيْـراً لَهُـمْ وَأَشَـدَّ تَثْبِيتـاً ، وَإِذاً لَآتَيْنَـاهُمْ مِـنْ لَـدُنَّا أَجْـراً عَظِيمـاً ، وَلَهَـدَيْنَاهُمْ صِـرَاطاً مُسْتَقِيماً ، وَمَـنْ يُطِـعِ اللَّـهَ وَالرَّسُـولَ فَأُولَئِـكَ مَـعَ الَّـذِينَ أَنْعَـمَ اللَّـهُ عَلَـيْهِمْ مِـنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـدِّيقِينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) النساء(٦٦-٦٩).

فكأن مفاد الـخطاب هنا بـمعنى من الـمعاني :

اخرُجوا من متعلقاتكم الدنيـوية التي تـحرصون عليها ، واخرجـوا أنفسـكم من صناديق الحجب وموانـع الرحمـة ، وهـاجروا الى الله الـذي خلقكـم وهـداكم الى صلاحكم وسعادتكم .. (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَـاجِراً إِلَـى اللَّـهِ وَرَسُـولِهِ ثُـمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) النساء - ١٠٠.

فوائد مـجاهدة النفس

حيث سنشير هنا إلى بعض فوائد مـجاهدة النفس وكما يلي :

أ - إن مجاهدة النفس إذا كانت لأجل الله تعالى فهي عمل عبادي مأجور ، وثوابه أعظم من ثواب الجهاد ضد الكافرين ؛ وقد سمعتَ كيف أن النبي (ص) سماه بالجهاد الأكبر .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) النازعات- ٤٠ - ٤١ .

وقد ورد في الحديث عن الصادق(ع) : (طوبى لمن جاهد في الله نفسه وهواه) .

ب - إنه من المعروف أن النفس كالمرآة كلما نظفتها أكثر كلما كانت الرؤية من خلالها أوضح ؛ ومن هنا كان جهاد النفس سبباً للهداية الإلهية :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) العنكبوت- ٦٩ .

جـ - إن تصفية النفس من العيوب تؤدي إلى التكامل سواء من الناحية الدنيوية أو الأخروية ، ولا ريب إن هذا التكامل هو هدف أساسي لكل عاقل ، لأن نتيجته عظيمة إلى أبعد الحدود ، بل أبعد من كل الحدود ..

يكفيك أن المتكامل قريب من الله تعالى في دنياه وآخرته ، أما في الدنيا فلأنه يستأنس بخالقه عز وجل في أغلب لحظاته ، وأما في الآخرة فلأنه يكون في أقرب الدرجات والمراتب من الله رب العالمين ، حيث يكون هناك المتكاملون من الأنبياء والأئمة والمعصومين (ع) .

وفي ذلك يقول الامام علي (ع) : (العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزّهها عن كل ما يبعدها) .

د - إن مجاهدة النفس والسيطرة عليها ، عندما تكون من أجل الله تعالى كما هو المفروض ؛ فانها ناتجة من التقوى والورع أمام الخالق عز وجل ، وقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع): (من خاف الله ، أخافَ الله منه كل شيء) ..

ومن هنا ورد في الدعاء :

(اللهم اجعلني من جندك ، فإن جندك هم الغالبون ، واجعلني من حزبك فإن حزبك هم المفلحون ، واجعلني من اوليائك فإن أوليائك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

والكلام عن هذه الفائدة الرابعة لطيف ولكنه يحتاج إلى مستوى عالٍ من الوعي والالتفات ، وهو سر لايمسه إلا المطهرون ، جعلنا الله تعالى منهم .

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فصلت- ٣٠.

وفي الحديث عن النبي (ص) : (إن الله تعالى يقول: لا يؤثر عبد هواي على هواه الا استحفظتُه ملائكتي وكفّلت السماوات والارض رزقه ، وأتته الدنيا وهي راغمة) .

هـ - إن مجاهدة النفس طريق لمعرفة النفس ، وقد ورد في الحديث (من عرف نفسه فقد عرف ربه) .. وهذا الحديث الجليل له عدة معان ، ما يهمنا الآن منها : هو أن من عرف عيوب نفسه فأصلحها ، سوف تكون نفسه صافية وملتفتة ، وعندئذٍ سوف يكون مستعداً لقبول المعارف الربانية ..

حيث ورد عن الامام علي (ع) : (من عرف نفسه فقد انتهى الى غاية كل

معرفة وعلمٍ) .

وقد ورد في القرآن الكريم :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت-٥٣

إن من يجاهد نفسه ، سوف يكون على بينة من أمرها ، وسيدرك مواطن ضعفها فيركز عليها ، فيركز مثلاً على كثرة العبادات خصوصاً الصوم ، وقلة الطعام ، بإعتبار أن مثل هذه الأمور تُضعف النفس الأمارة بالسوء وتقلل من فاعليتها ..

ويدرك أيضاً مواطن قوتها فيحذر منها ؛ فيحذر مثلاً من محادثة النساء بكثرة ، ويحذر من الاستخفاف بالمستحبات ، ويحذر من كثرة الاهتمام الزائد بالملبس ونحو ذلك من الأمور أو المواطن التي تقوى فيها النفس الأمارة بالسوء وتشتد فاعليتها ..

وعندئذ سيكون بعيداً عن الهلكة ، قريباً من رب العالمين ، وقد جاء في الحكمة : (رحم الله من عرف قدر نفسه ، حتى لا يوردها موارد الهلكة) .

وهاهنا حديث جليل جامع ورد في مستدرك الوسائل نقلاً عن عوالي اللآلي : أنه دخل على النبي (ص) رجل فسأله :يا رسول الله ..

كيف الطريق الى معرفة الحق ؟ فقال (ص): (معرفة النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى موافقة الحق ، فقال (ص) : (مخالفة النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى رضاء الحق ؟ فقال (ص) : (سخط النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى وصل الحق ؟ فقال (ص) : (هجرة النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى طاعة الحق ؟ قال (ص) : (عصيان النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى ذكر الحق، فقال (ص) : (نسيان النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى قرب الحق، قال (ص) : (التباعد عن النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى أُنس الحق؟ قال (ص) : (الوحشة من النفس) ..

فقال : يا رسول الله ..

فكيف الطريق الى ذلك ، قال (ص) : (الاستعانة بالحق على النفس).

أقول : هذا حديث جامع وعميق فتدبر فيه .

وقبل أن نختم حديثنا عن مجاهدة النفس ، توجد هنا أبيات أحببت أن أكتبها ، وهي عتاب بين الإنسان ونفسه :

يا نفس بُعداً للهوى الفتاكِ ... فامضِ فلستُ متيّماً بهواك

وتساءلي هل هذه الدنيا لنا؟ ... ساعات لهوٍ تنقضي بهلاك

هل هذه الروح التي نحيا بها ... ملكت وصال الخلد من مولاك؟

أو هل يدوم على الحياة جناحها ... والدهر يمضي دونما إرباك؟

ولقد تريـنَ من البرايا كثرةً ... مالت، وما مال الورى لولاك

وتفاجأت بالموت لما ردّها ... واستسلمت هيهات دون عراك

هل عادها في قبرها أموالها؟ أو ردّها للعيش نوح الباكي؟

لاذا، ولاذا سرّها بعد الردى بل سرّها عمل جميل زاك

فتأملي يا نفس في حال الحياة ووجّهي لله كل خطاك

وتزيّني بالصبر حتى تعبري من هذه الدنيا إلى أُخراك

فهناك عيش راغد لا ينقضي تلقين فيه كل ما بُمناك

الله أكبر من نفسك

وهنا قد يقول البعض إنني لا أستطيع مجاهدة نفسي أو قهرها ، وإنها تغلبني إذا أرادت شيئاً ؛ فيقعد هذا البعض عن ردها ، وييأس من السيطرة عليها .

ولكن هذا البعض غافل للأسف عن حقيقة نافعة جدا له ، وهي مستفادة من عبارة (ألله أكبر) ، فإنه لو تأمل في معناها لعرف أنّ هناك من هو أقوى وأعظم من هذه النفس ، وأن هناك من هو أكبر وأجل من هذه النفس مهما كان اندفاعها ومهما كانت شدتها ، ذاك هو الله تعالى الذي خلقها وسوّاها ، وألهمها فجورها وتقواها كما ورد في القرآن الكريم .

وإذا كان الأمر هكذا ؛ فليس على الفرد إلا أن يشكو نفسه الأمّارة إلى خالقها ومولاها ؛ وعندئذ فإن الله تعالى سوف يتدخل لمساعدته ؛ فإنه لا يخيب مَنْ سأله ، ولا يرد من توجه إليه ، وهو عز وجل يقول :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَان) البقرة - ١٨٦.

وفي الدعاء عن الامام السجاد (ع) : (اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك ، راضية بقضائك[1] ، مولعة بذكرك ودعائك ، مُحبة لصفوة أوليائك ، محبوبة في

---

(١) قد يسأل سائل عن الفرق بين القدر والقضاء ، وجوابه: أنّ القدر - بحسب الظاهر - أعم من القضاء ؛ فإن القدر من التقدير والترتيب ، وهو يشمل النعم والمصاعب .
وأمّا القضاء فهو يشمل المصاعب الابتلاءات ، ومن هنا ورد (راضية بقضائك) أي اللهم اجعل نفسي راضية بالمصاعب والابتلاءات ، وأمّا النعم فإن الرضا حاصل بها بكلّ تأكيد ، وكذلك ما ورد من أنّ الدعاء أو الصدقة يردّان القضاء أي يدفعان الابتلاءات.. ومن جهة اخرى فقد ورد في بعض الروايات عن الرضا(ع) ما معناه ان القدر هو الترتيب والتخطيط ، واما القضاء فهو التنفيذ او الإمضاء . (أنظر الميزان للطباطبائي ٩٠/١٩ ، والكافي ١٥٨/١).

أرضك وسمائك ، صابرة على نزول بلائك ، شاكرة لفواضل نعمائك ، ذاكرة لسوابغ آلائك ، مشتاقة إلى فرحة لقائك ، متزودة التقوى ليوم جزائك ، مستنة بسنن أوليائك ، مفارقة لأخلاق أعدائك ، مشغولةً عن الدنيا بحمدك وثنائك) [١] .

وبهذا ندرك أنّ النفس ليس لها قيمة أمام عظمة الله تعالى ، وأنّ الفرد يستطيع أن يقهر نفسه إذا التفتَ إلى أنّ الله تعالى أكبر وأجل منها ، لا من باب المقارنة والمقايسة كما لا يخفى ، بل من باب ان الله تعالى أجل وأكبر من كل ما نخاف ونحذر كما هو مضمون الدعاء الوارد عن المعصومين (ع) .

نعم ، يحتاج الأمر إلى خطوات بسيطة من العبد :

أولها : الإيمان بالله تعالى والإخلاص له .

ثانيها : التوكل على الله تعالى ، وطلب المعونة منه .. (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الفاتحة- ٦

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّه) الأعراف-٤٣

ومما هو مجرب في المقام أن يتلو العبد بإخلاص قوله تعالى : (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) الشعراء - ٦٢

فانه نافع في الاعتصام بالله تعالى لأجل الوقاية من الذنوب .

---

(٢) أقول : هذا الدعاء دستور أخلاقي شامل يؤدي بالفرد العامل إلى التكامل ، وقد حدث أن أحد المقدسين استخار الله تعالى فخرج له قول الله تعالى : (فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً) الكهف/١٦، فلم يفهم معنى الكهف الذي يأوي اليه ، فلما قرأ في اليوم الآخر هذا الدعاء الموجود في (زيارة أمين الله) علم أن هذا هو الكهف المقصود بالآية الكريمة .

ثالثها : الإرادة والنية ، وقد ورد أن (نية المؤمن خير من عمله) ، فهنا يكفي العبد أن ينوي في نفسه أن لا يعمل محرما ، ولا يترك واجباً .

رابعها : عدم الاستجابة للرغبات التي تتصف بأحد أمور ثلاثة :

١- كونها محرمة .

٢- كونها غير محرمة في نفسها ، ولكنها تؤدي غالبا إلى الوقوع في الحرام ، كما في مجالسة أهل الباطل.

٣- كونها مباحة ، ولكنها مضرة ، أو أن الإكثار منها مضر من الناحية العقلائية ، كالأكل الكثير ، أو التدخين بكثرة أو نحو ذلك.

هذا هو دور الفرد ، والباقي على رب العالمين عزوجل ، وإن كان هذا الدور أيضا لا يتم إلا بعون الله تعالى وإرادته .

وأخيراً ، أقول لنفسي أولاً وللقارئ الكريم ثانياً :

إن الله تعالى أكبر من نفسك ، فإذا كانت تأمرك بالسوء فلا تخضع لها ، بل توكل على الله تعالى لكي يساعدك في قهرها والسيطرة عليها ..

وليتذكر كل واحد منا حينما يَعرض عليه ذنب أو معصية ، قول الله تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) النحل- ٩٦..

وكذلك (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) الشورى- ٣٦ وكذلك (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ) الرحمن-٢٦-٢٧ .

وليتمثل عندئذ موقف الحرّ الرياحي حينما خيّر نفسه في كربلاء بين الجنة والنار ، وأعلن في النهاية بقوة وشجاعة أنه لن يختار على الجنة شيئاً .

وليتذكر ايضا قول الإمام الحسين (ع) : (الموت اولى من ركوب العار) ..

فان قتل النفس بالتربية والمجاهدة ؛ أولى من مقابلة الله تعالى بعار الذنوب

وخزي المعاصي .

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ) الطلاق- ٣

والحمد لله رب العالمين ، ونسأله العافية والرضا وخير الدارين ، وحسن العاقبة ، إنه ولي كل نعمة ، وهو ربنا أرحم الراحمين .

النجف الأشرف

حيـــــدر اليعقــــوبي ١٤٢١ هـ

المعنى الثاني

الله أكبر من الشيطان

تمهيد

بسمه تعالى

﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ النساء (٩٨-٩٩)

لا يخفى ان الشيطان هو من ألد الاعداء الذين يواجههم الفرد في اغلب لحظات حياته ، كما ان اكثر المخاطر التي يصطدم بها الانسان على المستويين الفردي والنوعي انما ترجع من بعض جهاتها الى الشيطان ومكائده .

فهذا المخلوق الضال هو سبب اكثر المشاكل التي تمر بها البشرية ، بل اذا توسعنا في فهم معنى الشيطان فسنجد ان جميع المشاكل ناشئة عن تدخله سواء بصورة مباشرة أم بصورة غير مباشرة .

ومن هنا كانت له رهبة في قلوب اكثر الناس ، فمنهم من يستسلم له ، ومنهم من يواجهه ثم يخسر امامه ، ومنهم من يستسلم مرة ويواجه مرة ، وهكذا..

حيث نسمع في الدعاء :

(الهي اشكو اليك عدواً يضلني ، وشيطاناً يغويني ، قد ملأ بالوسواس صدري ، وأحاطت هواجسه بقلبي ، يعاضد لي الهوى ويزين لي حب الدنيا ، ويحول بيني وبين الطاعة والزلفى) .

ولكن مع كل هذا نجد البعض من الناس لا يخافون الشيطان ولا يتأثرون به ، مع انهم أُناس مثلنا لايفرقون عنا في شيء ..

ومن هنا تنطلق عدة أسئلة :

ما هي حقيقة الشيطان ؟ وما هي امكانياته ؟

ولماذا يغوينا ويضلنا ؟

وكيف يستسلم له البعض ؟ ولماذا ؟

وكيف يمكن التخلص منه ؟

وهناك أسئلة اخرى سوف نجيب عنها بإذنه تعالى في هذا الكتاب .

أما الآن وكمقدمة فيكفينا ان نقول ان التخلص من الشيطان ممكن ، بدليل ان عدة اشخاص مثلنا استطاعوا ان يتخلصوا منه ، بل يوجد اشخاص مثلنا ايضاً لم يكن للشيطان عليهم سبيل ولم يستطع ان يصل الى حدودهم ..

وهذا طبعاً لم يحصل معهم بلا سبب ، بل كانت له أسباب ، واذا عُرف السبب ، بطل العجب كما يقولون .

ما هو الشيطان ؟

الشيطان في اللغة ملازم لأوصاف الحيلة والخبث ، فالشطن هو الحبل الطويل ، والشاطن هو الخبيث ، والبئر الشطون هي البعيدة القعر الملتوية العوجاء ، وهناك نوع من الحيات قبيح المنظر تسميه العرب شيطاناً (انظر تاج العروس ٢٥٣/٩ مادة (شطن))..

واما في الاصطلاح فالشيطان معروف ، حيث يراد به ذلك المخلوق الذي يوسوس في صدور الخلق ليضلهم ويغويهم ، وهو إبليس الملعون.

ويطلق الشيطان ايضاً على كل ضال او مضل من الانس والجن ، حيث يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ الانعام-١١٢

﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ الناس- (٥-٦)

بل ستلاحظ ان الشيطان يطلق على كل مخلوق مضل ، وان كان جماداً .

ولنتحدث في البداية عن الشيطان المعروف وهو إبليس ، وينبغي ان يكون الكلام ضمن نقاط :

١- حقيقة ابليس .

٢- قصته مع آدم (ع) .

٣- قصة عداوته مع الإنسان .

٤- ما هي صلاحيات الشيطان وميزاته ؟

٥- لماذا خلقه الله تعالى ؟

النقطة الاولى - حقيقة ابليس :

ورد في القرآن ان ابليس إحتجَّ بأنه مخلوق من النار ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ الاعراف -١٢

وبما ان الله تعالى يقول :

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ الرحمن -١٥

فيكون ابليس من الجن ..

وهذا ما صرح به القرآن :

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ الكهف - ٥٠

وهنا قد يقول البعض بأن ابليس اذا كان من الجن ، فالمفروض ان الخطاب الإلهي بوجوب السجود لآدم (ع) لا يتناوله ، لأن الخطاب موجه للملائكة ..

وقد أُجيب عن هذا التساؤل بعدة اطروحات ، أهمها :

١- ان ابليس كان قبل هذه الحادثة من اشد العابدين ، كما يستفاد من بعض الروايات (انظر البحار ١٤٢/١١ رواية ٨) ..

فقد ورد عن المعصومين (ع) ما مضمونه : ان ابليس عبدٌ خلَقه الله تعالى ليعبده ويوحده ، ولكنه إمتحنه بسجود آدم فأمتنع عن ذلك..(أنظرالبحار ١٦٧/١٠) .

وفي رواية في النور المبين عن الامام علي (ع) ان ابليس عبدَ الله ستة آلاف سنة .

ثم ان هذه العبادة اوجبت له مزية التواجد مع الملائكة ، فلما خاطبهم الله تعالى بالسجود دخل ابليس في ضمنهم ..

ففي البحار عن جميل بن دراج عن الصادق (ع) في حديث مضمونه ان ابليس لم يكن من الملائكة ، وانما كان من الجن ، وكان يعيش معهم .

٢- ان عنوان الملائكة هو عنوان عام يشمل الجن ايضاً ، على اعتبار انهم مخلوقات لا مادية او غير مرئية ، كما يشمل المخلوقات المقدسة التي ورد في بعض الروايات انها مخلوقة من النور (أنظر البحار ١٠٢/١١) ، وهي ما ينصرف اليه لفظ الملائكة ، ولنقل انهم الملائكة بالمعنى الأخص ..

ويؤيده ما ورد في مجمع البحرين عن ابن عباس وقتادة وابن جرير والزجاج وابن الانباري :كان ابليس من الملائكة من طائفة يقال لهم الجن ، فلما عصى الله تعالى لعنه وجعله شيطاناً مريداً) .

وعلى هذا فالخطاب الالهي انما كان متوجهاً للملائكة بالمعنى الأعم الذي يشمل الجن ايضاً ..

ويؤيده قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ الكهف-٥٠

فظاهر الآية ان ابليس كان مخاطباً باعتباره أحد أفراد الجن .

٣- ان الخطاب إنما تَوجه للملائكة باعتبار أشرفيتهم وافضليتهم ..

وهذا يلزم منه - لا أَقل في تلك المناسبة - شمول الخطاب لمن هو دونهم ، مهما كان جنسه وحاله ، وهذه اولوية واضحة ..

وعلى هذا فان ابليس مخاطب بالسجود لآدم (ع) على كل التقادير والاطروحات السابقة ..

ويدل عليه ان الله تعالى عاتبه ووصفه بالعصيان والفسق ، وعاقبه على معصيته .

النقطة الثانية - قصة ابليس مع آدم (ع) :

والقصة معروفة ، وقد رواها القرآن الكريم في عدة موارد ..

وخلاصتها ان الله تعالى لما خلق آدم (ع) ، ونفخ فيه الروح ، امر الملائكة ان تسجد له ، فأبى ابليس ولم يمتثل لهذا الامر الالهي ، وقد عاتبه الله تعالى لذلك وتوعده بالعقوبة ..

ثم ان ابليس كان سبباً في خروج آدم وحواء (عليهما السلام) من الجنة ، حينما زين لهما ان يأكلا من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عنها ..

هذه هي القصة .. وما يهمنا الان ان نُجيب عن اسئلة قد تخطر في البال :

السؤال الأول : ما هو معنى السجود لآدم (ع) ؟

في الحقيقة لم يكن السجود لآدم (ع) سجوداً لشخصه ؛ حتى يكون من الشرك او السجود لغير الله تعالى ، وإن دافع بعضهم عن هذا المعنى ، بحجة ان السجود لما كان بأمر الله تعالى وارادته ، فهذا يكفي في مشروعيته بل وجوبه ..

وانما كان السجود لله تعالى ، لأجل عظمة هذا المخلوق الذي خلقه ، فالسجود لآدم (ع) لم يكن له حقيقة ، وانما كان لله تعالى الذي خلقه وصوره .

ثم انه يمكن القول هنا ان السجود لآدم (ع) لم يكن بمعنى السجود المتعارف المصطلح عليه ، بل هو بمعنى الانقياد والطاعة التامة ، على اعتبار ان الانسان هو خليفة الله تعالى في هذا الكون ، وليس فقط في هذه الارض ، وقد ورد في الروايات ان الانسان اذا غلب عقلُه شهوتَه صار اشرف من الملائكة ، كما ان الملائكة تخدم الانسان الصالح ، وقد حاربت مع المسلمين في معركة بدر ،

وكان جبرائيل(ع) وهو من اشرف الملائكة يتشرف بأنه هزَّ مهد الحسين(ع) كما ورد في الاخبار .

السؤال الثاني - لماذا لم يسجد ابليس لآدم (ع) ؟

وجوابه ينبغي ان يكون واضحاً ، فإن القرآن ذكر انه اعترض على السجود بحجة انه مخلوق من النار، والنار اشرف من الطين كما يدعيه ، وقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع) :

(كانت في ابليس خصلة ، فإفتخر بها ، ولو علم ابليس ما جُعل في آدم لم يفتخِر عليه) .

وقد ورد في بعض الروايات ان ابليس حسد آدم (ع) ، وهذا صحيح بعد الإلتفات الى ثلاثة أمور على الأقل :

أولها : ان الله تعالى عظّم آدم (ع) وكرّمه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، ولذلك يقول الشيطان مخاطباً الله تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الإسراء - ٦٢

ثانيها : ان الله تعالى يعتني بآدم (ع) وذريته ، باعتبار انه خليفته في ارضه ، وباعتبار انه صنعه لغايات عالية وجعل فيه مؤهلات خاصة لا توجد عند غيره ..

حيث يقول الله تعالى :(وإصطنعتك لنفسي)طه -٤١

ثالثها : ان المقامات التي يستطيع الانسان المتكامل ان يصلها لا يستطيع أي مخلوق غيره ان يصلها ، وقد ورد في الحديث ان جبرائيل(ع) لما وصل مع النبي (ص) الى مقام معين في رحلة المعراج ، قال له : لو دنوتُ أنملة لأحترقتُ .

السؤال الثالث - هل عصى آدم (ع) ؟

ينبغي الالتفات الى فكرة مهمة ، وهي ان الامر الالهي قد يكون بنحو التكليف ، بأن يكلف احداً بأمر معين ، فهنا لو لم يمتثل هذا الفرد كان عاصياً لأنه ارتكب محرماً ، وهذا العصيان يوجب عليه السخط والعقوبة على ذلك المحرم .

وقد يكون الأمر الالهي بنحو النصيحة والارشاد الى فائدة معينة أو كمال معين ، كما في المستحبات .. وهنا لو لم يمتثل الفرد فإنه لا يستحق ذلك العقاب اكيداً ولا يقابَل بالسخط ، لكنه ايضاً يقال عنه انه عصى الامر الالهي وان لم يكن قد ارتكب محرماً، وسوف تكون النتيجة انه سيتحمل التبعات التكوينية والمعنوية التي تترتب على عدم التزامه بذلك الامر الالهي ..

بل يمكن القول أن آدم (ع) لم يعصِ حتى الأمر الارشادي ، وانما حصل انه نسيَه او غفل عنه حيث يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ طه - ١١٥

ومحل الشاهد هنا ان الله تعالى لما كان يعلم ان هذه الشجرة تضر من يأكلها ، ولذلك فقد نصح آدم (ع) بعدم الاقتراب منها ، وعدم اكلها ..

ولكن ابليس راح يوسوس له بأنه لو أكل من هذه الشجرة لأصبح خالداً ، ثم راح ابليس يُقسِم له على ما يقول ، حتى صدّقه آدم (ع) لأنه لم يكن ليظن ان احداً يقسم كاذباً (كما ورد في رواية الكافي) ..

فلما اكل منها حصل له ما حصل ، وكانت النتيجة الطبيعية هي تضرره وانكشاف سوأته ، وبذلك لم يعد بإمكانه البقاء في تلك الجنة :

﴿ يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ ﴾ الاعراف -٢٧

النقطة الثالثة : عداوة ابليس للإنسان عموماً

عرفنا قبل قليل بعض الامور التي تسببت في عداء ابليس لآدم (ع) خصوصاً ، ولذريته عموماً ..

وهنا نضيف اسباباً اخرى ترتبت على الحادثة السابقة :

فآدم (ع) صار سبباً في إبعاد ابليس عن مكانه الذي كان فيه حيث الملائكة ، كما ان الله تعالى توعده بالنار ، في حين وعد آدم (ع) وذريته بالحماية والعناية (بشرطها وشروطها كما سيأتي) ..

كما انه تعالى جعل الجنة ثواب من يحارب الشيطان ، وجعل النار مثوى من يطيع الشيطان..

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ الاسراء-٦٣

ثم ان ابليس لما استُبعد من الرحمة[1]، وطُرد من ساحة العناية الالهية ، فمن الطبيعي انه يكون في حالة من الهياج والغضب ، فيحاول جاهداً ان يسحب معه كل من يراه امامه ..

وهذا حاصل في حياتنا حيث نلاحظ ان بعض الاشخاص اذا فسد لدرجة انه صار مستهجناً ومنبوذاً من قبل الآخرين ، فانه يحاول بكل جهده ان يجر معه غيره ، لكي لا يكون المستهجن الوحيد ..

فإبليس لا يريد ان يحترق بالنار لوحده ، ولكنه يطمع ان يحترق معه غيره..

---

(١)حيث ورد عن الرضا (ع) انه سمي ابليس لأنه أبلس من رحمة الله .

ولكن هيهات فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، والله اكبر من الشيطان ، كيف لا ؟ وهو خالقه ، والعارف بكل اسراره ، ونقاط ضعفه وقوته ..

﴿ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ❖ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ المؤمنون (٩٧-٩٨)

النقطة الرابعة : ما هي صلاحيات الشيطان وميزاته ؟

توجد لابليس كغيره من المخلوقات نقاط ضعف ونقاط قوة ، وفيما يلي بيان كل منها ..

نقاط القوة في الشيطان

ولكي نتعرف على عدونا جيداً ، لنحذر منه ، فلنعرض اولاً نقاط قوته :

١- ان طبيعة ابليس وخِلقَته تجعله مؤهلاً لاختراق النفس الانسانية ، وفي حديث عن النبي(ص) : (ان الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم)[1].

فهو كائن غير مادي ، وهكذا كائن تكون لديه خفة وسرعة وقابلية امتداد واسعة ، ولذلك يستطيع ان يوسوس لأكثر من واحد في وقت واحد .

٢ - بما ان ابليس طويل العمر نسبياً ، لذلك اكتسب خبرة كبيرة جداً ، واذا كان اكثرنا لا يعرف عنه شيئاً ، فإنه بالمقابل خبير بالنفس الانسانية ، وقد استقرأ التأريخ والمجتمعات على مختلف العصور ، وهذا يعطيه قابليات اكبر في عالم الإضلال والوسوسة ، خصوصاً اذا أخذنا بنظر الاعتبار شدة دهائه أصلاً .

٣ - في الوقت الذي يريد كل واحد منا ان يعيش حياته بهدوء وسعادة، تجد الشيطان لا همَّ له الا إضلالنا وإفسادنا ، فشُغلُه الشاغل هو اغواء البشر وتدميرهم ..

وقد ورد في الحديث عن المعصومين(ع) : (لما هبط ابليس ، قال وعزتك وجلالك لا افارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده ، فقال الله تعالى وعزتي

---

(١)جامع السعادات ١٤٦/١.

وجلالي وعظمتي لا احجب التوبة عن عبدي حتى يُغرغِر بها)[١].

وقد ورد في القرآن الكريم ان الشيطان يقول :

﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ الاعراف (١٦-١٧)

وقال الله تعالى في وصف الشيطان :

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فاطر-٦

٤ - ان الشيطان يرانا ، في حين اننا لا نراه عادة ..

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ الاعراف-٢٧

ومعلوم ان من اهم اسباب الانتصار ان ترى عدوك لتعرف كيف تحاربه ، وكيف يحاربك لتدافع عن نفسك .

ومن هنا فالشيطان وان كنا لا نراه بالحواس الظاهرية عادة ، الا انه يمكن ان نراه بالقلب والبصيرة اذا طهرناهما ، وأزلنا عنهما الحجب ، وهذا ما وضحناه في كتابنا معالم التكامل في المعرفة العامة[٢].

٥ - ان الشيطان له ذرية واتباع ، شأنه في ذلك شأن نوعه من الجن ..

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ الكهف-٥٠

وسيأتي ان الذرية كما يراد بها الابناء الحقيقيّون ، كذلك يراد بها الابناء المجازيّون وهم الاتباع وكل من تتلمذ على يديه وتعلَّم منه ..

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ الشعراء- ٩٥

---

(١)البحار ١٦/٦.

(٢)انظر مبحث (العين القلبية).

وسنذكر في المبحث الثاني أتباع ابليس وجنوده ، وباقي الشياطين من الجِنة والناس وغيرهم .

٦ - من اسباب قوة الشيطان هو وجود هذه النفس الإنسانية بشهواتها وملذاتها ، فإنها باب اذا لم نُحكِم إغلاقه جيداً فسرعان ما يدخل الشيطان من خلاله ، كما يدخل العدو على عدوه من وسط صفوفه .

وقد قال الله تعالى مخاطباً الشيطان :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴾ الحجر٤٢

هذه هي أهم نقاط القوة في الشيطان ، فينبغي الحذر منها ..

ولكن مع ذلك يجب ان لا نخاف منه ، لأن الله تعالى يقول لنا :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران-١٧٥

فالشيطان يبقى أضعف من الانسان الواعي الملتفت .

نقاط الضعف في الشيطان

وسنعرض الان اهم نقاط ضعفه لكي نستغلها ونستفيد منها في معركتنا معه:

١- ان ابليس بعيد كل البعد عن العناية الالهية ، في حين اننا قلنا ان الانسان داخل في هذه العناية ، فاذا حافظ الفرد على علاقته مع الخالق عز وجل ، فانه بالتأكيد سوف يبقى في هذه النعمة .

وأما اذا أسخط الله تعالى فقد يخرجه بذلك من تلك العناية ، فليحذر جيداً..

﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ النساء-٨٣

٢- ان الله تعالى وعد عباده المؤمنين بأنه لن يجعل للكافرين عليهم سلطنة معنوية ، حيث قال عز وجل :

﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ النساء-١٤١

وبما ان الشيطان في حكم الكافر ، بل هو كافر واقعياً ، فإنه وان كان يعرف الله تعالى ويؤمن به ، الا انه يخالفه بأفعاله عن عمد وقصدٍ ، ويحارب أولياءَه وينصب لهم العداء ، ولذلك فهو من اشد الكافرين ، وهذا يلزم منه انه لن يستطيع السيطرة على المؤمن الحقيقي ..

ثم إن الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ النحل-٩٩.

فهذا الوعد الالهي سوف يلغي النقطة الخامسة من نقاط القوة في الشيطان ، فان جميع اتباعه وذريته ليس لهم سبيل على المؤمن الحقيقي ..

فلنحرص دائماً ان نكون من هؤلاء المؤمنين الصادقين ، ولنتأمل ،

ولنسأل عن اسباب ومقدمات هذا الايمان ، فأن العلوم كنوز مفاتحها السؤال والتدبر .

٣- ان الله تعالى نبه عباده لمكائد إبليس ، وعرَّفهم بعداوته حيث قال تعالى:

﴿ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ البقرة-١٦٨.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾ المائدة-٩١.

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ يوسف-٥.

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ البقرة-٢٦٨.

وبهذا سوف تسقط نقطة القوة الرابعة للشيطان ، فإننا اذا انتبهنا الى عداوة الشيطان ، فكأنما رأيناه وشاهدْنا تحركاته .

ثم ان هذا التنبيه والارشاد الالهي حصل منذ بداية خلق البشرية ، حينما اوحى الله تعالى لآدم (ع) ان الشيطان عدو له ..

﴿ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ طه-١١٧

وهنا قد يقال : كيف استطاع الشيطان ان يخدع آدم (ع) مع هذا التحذير الالهي ؟ وجوابه بعدة اطروحات ..

منها : ان ابليس قد يكون متلبساً بشكل مخلوق آخر حينما جاء لآدم (ع) وكلّمه ، وهذا يستفاد من بعض الاخبار .

ومنها : ان طيبة آدم (ع) وحسن ظنه بالآخرين جعلاه يُصدِّق ابليس ، خصوصاً وانه أقسم له انه من الناصحين .

ومنها : ان يكون آدم (ع) قد نسي هذا التحذير ، أو غفل عن عداوة

ابليس .

٤- ان الله تعالى وصف كيد الشيطان بأنه ضعيف .. ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء-٧٦.

ومعلوم ان هذا الوصف حقيقي ..

نعم قد لا يشعر به الاّ المخلص الذي اعترف الشيطان بنفسه أنه لا يقوى عليه .. ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الحجر - ٤٠

وكذلك يشعر به المؤمن الحقيقي الذي يتوكل على رب العالمين .. ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ النحل-٩٩

وهنا قد يسأل سائل : اننا سمعنا قبل قليل عدداً من نقاط القوة التي في الشيطان خصوصاً النقطتين الاولى والثانية ، ومع ذلك يقول الله تعالى عنه ان كيده ضعيف ؟ .. وجوابه : ان هذا صحيح تماماً ، فالشيطان مهما كانت قوته ، يبقى اضعف من الانسان ، هذا المخلوق الذي أسجدَ اللهُ تعالى له ملائكةَ السماء ، وسخَّر له معظم مخلوقاته ، وخاطبه بقوله (عبدي اطعني تكن مثلي ، تقل للشيء كن فيكون).

ولعمري فان الناس لو علمت ما جعله الخالق تعالى بين يديها لما غفلت عنه لحظة ، ولكان همُّها الاول طاعة الله تعالى ورضاه وقربه.. [1].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ الاعراف-٩٦

---

(١) وينبغي ان يلتفت البعض من (الغافلين) الى ان هذا التوجه لا يتنافى مع واجبات الحياة الاجتماعية ، بدليل ان الانبياء والأئمة (ع) كانوا يَجمعون أكيداً بين كلا الاتجاهين .

وعلى أية حال فقد ورد عن المعصومين(ع) مامضمونه : فانه - أي ابليس - اضعف منك ركناً في قوته ، واقل منك ضرراً في كثرة شره .. اذا أنتَ اعتصمتَ بالله)[1].

٥ - ان الله تعالى أمرنا بأن نقاتل الشيطان ، وان نعاديه ، حيث يقول الامام(ع) في الرواية السابقة : (فلَه فلتشدّ عداوتك) ..

ويقول الله تعالى :

﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴾ النساء-٧٦.

وبهذا سوف تسقط نقطة القوة الثالثة للشيطان ، لأننا سنكون منتبهين له، بل ستعرف لاحقاً أننا نستطيع ان نهاجمه ونؤذيه ، فكل فعل حسن نفعله هو سهم في قلب ابليس ، وكل خطوة نتقرب بها الى الله تعالى هي سيف على رأس الشيطان الرجيم ..

وقد ورد في الحديث:(ما من عمل اشد على إبليس من ان يرى ابن آدم ساجداً).

٦- ان النفس المتكاملة هي من اصعب المتاريس والقلاع على ابليس ، وكلما تكاملت النفس اكثر كلما صعب عليه دخولها والتأثير فيها .. وهذه نعمة إلهية ..

وخلاصة فلسفتها بلحاظ عالم الاسباب ، ان تكامل النفس سبب في قدسيتها ، وكلما زادت القدسية كلما ابتعد الشيطان لأنه مطرود عن مثل هذه المقامات ، التي هي درجة من درجات الجنة ..

وهناك نقاط ضعف اخرى موجودة في الشيطان ، نذكرها عند حديثنا عن معركة الإنسان مع الشيطان .

---

(١)البحار١/١٥٧.

النقطة الخامسة : لـماذا خُلق الشيطان ؟

سؤال لعله تبادر الى ذهن الكثيرين منا ، خصوصاً عندما نشاهد تأثيراته علينا ، او عندما نحاول تطبيق الواجبات والكمالات فيتلقانا الشيطان بتسويفاته وتسويلاته..

وجواب هذا السؤال يتضح من خلال عرض الأمور التالية :

١- ذكرنا في مقام سابق ان الشيطان في اصله كان من العابدين ومن الموحدين ، وانما عرضت له المعاصي والرذائل بعد مدة طويلة من حياته .

فالله تعالى لم يخلق الشيطان ليجعله مضلاً ومضراً، وإنما خلقه الله ليعبده ويوحده كما سمعتَ في رواية البحار.

فاذا جنى ابليس بعد ذلك وظلم نفسه وظلم غيره ، فهذا بسببه ، وهو الوحيد الذي يقع عليه اللوم ، وليس لله تعالى أي علاقة بجرائم الشيطان هذه ..

تماماً كما لو كان هناك انسان يؤذي الاخرين ويضلهم ويفسدهم ، فمثل هذا الشخص لم يخلقه الله تعالى ككائن مضل او مؤذي ، وانما خلقه كانسان محترم مكلف بالفضائل ، فاذا شذَّ وانحرف فالذنب ذنبه. وكذلك الشيطان فان الله تعالى لم يخلق مخلوقاً (خاصاً) ضاراً ومضلاً بطبعه وأسماه ابليس او الشيطان ، كما يتوهمه الكثير بل الغالبية ، وانما الذي حصل ان الله تعالى خلق ابليس كواحد من افراد نوعه من الجن ، شأنه شأنهم ، وطبيعته طبيعتهم ، وكلَّفه مثلهم بالطاعة والعبادة ، ولكن ابليس شذَّ وانحرف ، فكان الذنب ذنبه ، والوزر وزره..

ولئن كانت له صفات وميزات قد تميزه عن افراد نوعه ، فهذه مما اكتسبه بطرق عديدة لا نريد الخوض في تفاصيلها الآن ، تماماً كما يكتسب بعض البشر

بطرق عديدة ميزات خاصة لا توجد عند غيرهم ، وقد تكون هذه الميزات سيئة او حسنة على حسب اختلاف النية والإتجاه .

٢- اننا عرفنا قبل قليل ان كيد الشيطان ضعيف في واقع الامر ، وان قوته التي يتوهمها البعض غير موجودة الا في النفوس الضعيفة من الناحية الايمانية او التكاملية ، فهؤلاء هم الذين يعطون القوة لإبليس حينما يمكِّنونه من انفسهم ويسلِّمونه زمام القيادة والتوجيه ، سواء بسبب الخوف منه ، او بسبب عدم تربية النفس وتصفيتها .

لذلك يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾آل عمران-١٧٥.

فاذا صرنا نعلم ان هذا الكائن ضعيف نسبياً ، فعندئذ سوف لن يكون وجوده مشكلة مادام التخلص منها ممكناً بفضل الله تعالى .

٣- مثلما يوجد الشيطان في هذا الوجود ، يوجد هناك ملائكة وانبياء (ع) وأئمة (ع) وصالحون ..

وتوجد هناك آيات ودلائل ..

وكل هذه الموجودات تُعين الانسان وترشده الى طريق هدايته ، وهي اكثر بكثير من جماعة الشيطان واتباعه .

ويكفيك ان الله تعالى بعث (١٢٤) الف نبي كما في بعض الروايات ، وكان لبعض الانبياء اوصياء ، وكان لهم اتباع وهداة يتحركون في كل زمان ، وفي كل مكان ، وفي كل جيل ، يُحذِّرون الناس من الشيطان واتباعه ، ويهدونهم الى الصلاح والالتزام بالدين الالهي ..

حيث يقول الله تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى

فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة-٣٨.

فاذا التفتنا الى ان الله تعالى مع الذين آمنوا ، وانه عزوجل يقف في صفِّهم ويعينهم ، أدركنا ضآلة الشيطان وحقارة جانبه..

﴿ قال اخرج منها مذموماً مدحوراً ﴾ الاعراف-١٨ .

٤- يستفاد من بعض احاديث المعصومين (ع) ان الله تعالى ينصر هذا الدين برجالٍ لا خلاقَ لهم في الآخرة..

ومحل الشاهد في هذا الكلام، اننا نستطيع ان نعرض هنا فكرة محترمة ، رغم انها قد تكون غريبة على البعض بل على الاكثر :

فالشيطان رغم انه ضال مضل ، الا انه صار رغماً على أنفهِ سبباً من اسباب تكامل الانسان عموماً ، ورغم انه لن يحصل على شيء من الثواب الا انه صار سبباً في حصول الناس على الثواب ، بل وعلى المقامات العالية ..

وهذا ما ينبغي توضيحه من جانبين :

أولهما : بما ان الانسان اصبح - بهداية الله تعالى - يعلم ان الشيطان عدوه ، وانه يريد إضلاله وابعاده عن الجنة ، وبما انه صار يعلم ان الشيطان انما يستزل ضعاف النفوس والايمان ، وانه لا يقوى على من آمن وتطهر .. لأجل ذلك كله راح الانسان الواعي يقوي إيمانه ويطهر نفسه وروحه ، ويخلص لرب العالمين لكي لا يجعل للشيطان عليه سبيلاً..

ولا يخفى ان كل تلك الخطوات التي فعلها ذلك الانسان الواعي مما يترتب عليه الثواب والجنة وعلو المراتب.

ثانيهما : ومن الجانب الآخر ، فان مجاهدة الشيطان وحربه وسد المنافذ امامه، كلها أمور يترتب عليها ايضاً الثواب ونحوه .

فيتحصل ان تحصين النفس حذراً من الشيطان ، يوجب الثواب والكرامة ، كما ان مجاهدة الشيطان وردّ وساوسه ، يوجب ايضاً الثواب والكرامة.. وهذه امور قد لا نحصل عليها لولا وجود هذا الشيطان.

بل يمكن القول كفكرة جديدة مترتبة على ما سبق ، ان وجود الشيطان (ورغماً على انفه ايضاً) سبب للحصول على مراتب قدسية عالية ، لا يمكن الوصول اليها الاّ بعد مجاهدته ودحرهِ..

فالمعدن الاصيل لا يُعرف الا بعد إختباره وامتحانه، كما ان مقتضى العدالة اعطاء الفرصة امام الخلائق لكي يصل كل واحد منهم الى ما يقدر عليه من المراتب ، فاذا تصورنا تكبيل الشيطان تماماً فستكون النتيجة ان جميع الخلق سيكونون في نفس المرتبة، وهذا فيه ظلم لمن يريد الوصول الى اعلى الدرجات واسمى المقامات .

وهذه هي نفس علة الامتحان الذي فرضه الله تعالى علينا في هذه الدنيا ..

ولعمري فاننا يجب ان نشكر خالقنا تعالى على هذا الامتحان الدنيوي ، خصوصاً إذا تذكرنا مقدار الأجر الذي نحصل عليه كلما فزنا بحسنة ، ومقدار السعادة العظيمة التي ينبغي ان نشعر بها كلما اكتسبنا رضا الخالق عز وجل ، واعظم من ذلك قُربَه وحبَّه ..

وقد ورد في الدعاء : (يا ذا الجلال والإكرام حبِّب إليَ لقاءك ، واحبب لقائي واجعل لي في لقائك الراحة والفرج والكرامة).

ولنتوقف الان عن هذا الحديث ، مكتفين بالإشارة الى حقيقة اساسية لابد ان نذكرها دائماً ، وهي ان كل ما يفعله الله تعالى لنا فهو في صالحنا ، ولأجل خيرنا ، بل هو افضل شيء بالنسبة لنا .. فالحمد لله رب العالمين.

شياطين آخرون

ابليس ليس هو الشيطان الوحيد ، فهناك أبالسة وشياطين آخرون يسيرون حذوه ، ويتشبهون به ، ولعل بعضهم من يفوقه شيطنة ، فإبليس على الاقل كان يؤمن بالله تعالى ويؤمن بالانبياء (ع) ويعتقد بالمعاد ويوم القيامة ، وهذا ما يلاحظه كل من يتأمل في خطاباته مع بعض الانبياء (ع) التي وردت في بعض الروايات .

في حين ان بعض البشر كافر تماماً بكل العقائد الإلهية ، وليس له أي حظ من الإيمان ، ومع ذلك تراه يسعى بكل قوته في سبيل إضلال الآخرين وإفسادهم، فهذا البعض كالشيطان بل هو أسوأ منه.

كما ان ابليس يخاف الله تعالى احياناً حيث ورد في القرآن :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ الحشر-١٦.

في حين نجد من الناس من لا يخاف الله تعالى ابداً .. ﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ المدثر-٥٣.

﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ الاسراء-٦٠.

وقد ذكر بعض العارفين المقدسين ما مؤداه ان ابليس لا يمكن ان يقتل الانبياء والأئمة (ع) ، في حين ان البشر فعلوا ذلك وتفاخروا به كما صنع قَتلة الامام الحسين(ع).

ومن الطبيعي ان هؤلاء شر مكاناً وأضل سبيلاً .

ثم ان الشيطان قد تكون له دوافع واسباب تجعله يكيد للبشر ويتمنى لهم الضلال ، وقد ذكرنا اهم تلك الاسباب ، في حين يوجد من البشر ، من يكيد لغيره بلا سبب ، وليس له دافع الا حب السوء والعياذ بالله تعالى ، وامثال هؤلاء قد تراهم او تسمع عنهم في كل زمان او مكان .

كذلك ينبغي الالتفات الى نقطة مهمة قد يغفل عنها الكثير ، وهي ان بعض الاشخاص يصلون الى درجة عالية من العلمية وسعة الاطلاع ، ولعلهم يكونون قدوة من الناحية الاجتماعية ، لأن الناس بطبعها تحترم المثقف والعالم ، فاذا كان لأمثال هؤلاء نفوس امارة بالسوء فعندئذ سيكون تأثيرهم اخطر وأسوء من تأثيرات ابليس نفسه ، ولذا فان المعصومين (ع) حذرونا من امثال هؤلاء..

فقد ورد عن الصادق(ع) : ﴿ اوحى الله تعالى الى داود(ع) : لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي ، فان اولئك قطاع طريق عبادي المريدين ﴾[١].

ولنرجع الان الى بداية كلامنا عن الشياطين الآخرين، وهم كثيرون من جهة العناوين ، ومن جهة مصاديقها طبعاً ، واهم هؤلاء ما يلي :

١- **النفس الامارة بالسوء** ، فانها شيطان آخر ، لأنها تسوِّل لصاحبها وتزين له فعل الشهوات المحرمات ، كما انها قد تصده عن الطاعات ، وتقلل همته نحو الكمالات ..

﴿ ولقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ﴾ ق-١٦.

---

(١)مرآة الرشاد / ص٢١٣ عن اصول الكافي.

ومن هنا قد يستعمل لفظ ابليس مجازاً في هذه النفس على إعتبار ان كلاهما يوسوس في صدور الناس، ويأمرهم بالسوء .

وعلى اية حال فنحن قد تحدثنا عن النفس ومتعلقاتها في الكتاب السابق من هذه السلسلة ، كما تحدثنا عن معاني النفس الامارة بالسوء واسبابها .. فراجع.

٢- الانسان المضل ، فانه شيطان ايضاً ، مادام يحاول اضلال الآخرين ، وهو كذلك (ابليس) مجازي لأنه يؤدي نفس وظيفته ودوره..

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ الانعام-١١٢..

وقد عرفنا قبل قليل ان بعض هؤلاء قد يكونون اخطر من الشيطان نفسه .

ثم إنه لا يوجد هنا عنوان معين ، فكل انسان اذا اضل غيره فهو شيطان ، سواء كان عنوانه مدرساً او عالماً او والداً او صديقاً او غير ذلك .. مادام يُعلِّم الآخرين على الضلال ، او يُعينهم على الحرام ، او يفتح امامهم ابواب الفساد والحرام ، او يتجاهر امامهم بذلك ليلفت إنتباههم اليه ، او يشجعهم عليه ، او يُرغبهم فيه ..

وقد ورد في الحديث : ﴿ كذلك من الناس شيطان يحمل الناس على المعاصي ﴾[1].

كما انه يجب الالتفات الى مسألة مهمة ، وهي ان الاضلال قد يكون متعمَّداً، وهذا بالطبع يكون عقابه اشد ، وقد يكون الاضلال غير متعمد ، كما لو كان هناك شخص منحرف او ضال ، فيتأثر به غيره ، فهنا اصبح مضلاً وان لم يكن يقصد ذلك ..

---

(١)البحار ٦٣/ص٢٤٥.

فلابد اذاً من ان نحاول جهد امكاننا ان نصلح انفسنا من العيوب والأخطاء، حتى لا نظهر بمظهر سلبي قد يتأثر به غيرنا ، فندخل عندئذ في باب المضلين ، والعياذ بالله تعالى..

وهذا معنى معمق من معاني قول النبي محمد (ص) : ﴿ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ﴾ ..

فلنتأمل ولنتوكل على رب العالمين ، ولنسأله الستر والعصمة..

(اللهم ارزقنا توفيق الطاعة وبُعد المعصية ، وصدق النية وعرفان الحرمة ، واكرمنا بالهدى والاستقامة ، وسدِّد ألسنتنا بالصواب والحكمة).

٣- الحجب المادية التي تقف عائقاً في الطريق الى الله تعالى ، او التي تكون شاغلة عن التقرب اليه عزوجل ، او التي تكون مانعاً عن عمل الخيرات او دافعاً لفعل السيئات ، فهذه الحجب هي نوع من انواع الشياطين التي ينبغي صدها ومجاهدتها ، وعدم الانقياد لها.

وهذا العنوان (أي الحجب المادية) له مصاديق عديدة قد لا يمكن حصرها نسبياً ، لأنها تختلف من جيل الى جيل ، ومن زمان الى زمان ، ومن مكان الى مكان ، وبعضها يزداد وبعضها يقل او ينعدم ، وبعضها يظهر بأشكال جديدة ..

ولنذكر الان اهم هذه الحجب ، وهي الحجب العامة التي تجدها في مختلف العصور والأمكنة ..

فمنها : الأموال فانها حاجب اكيد ، وهي شيطان جامد قد يدمر الانسان من الناحية الاخلاقية والدينية.

ومنها : اعيان الملذات والشهوات المحرمة ، كالخمر والبغايا ونحوها ، فإنها شياطين ايضاً لأنها تبعد الناس عن الطريق المستقيم ، كما انها تلهيهم عن

فعل الخيرات.

ومنها : بعض الآلات والأجهزة المحرمة التي توقع الفرد في الحرام ، وتزين الفساد في عينه او باقي جوارحه .

ومنها : المعاصي التي يتعود عليها البعض ، فانها تكون حاجزاً يمنعه عن التوبة ، ويدفعه لغيرها ، وهذا امر يدركه الكثير ممن يجد صعوبة في التخلص من المعصية التي تعوّد عليها ، فهذه المعاصي تكون شياطين ، لكنها سرعان ما تموت وتقتل اذا توكل الفرد على الله تعالى، وجاهدها وصمم على التخلص منها فعلاً ، واستغفر الله تعالى من كل قلبه..

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت-٦٩.

ومنها : الوله الشديد ببعض المباحات ، فان هذا الوله او الشغف قد يصل الى مرتبة تُصيَّره شيطاناً مريداً ، يدعو الى الشر وينهى عن الخير ..

فقد قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ آل عمران-١٤.

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ التغابن-١٥.

فرغم ان الاهتمام بمثل هذه الامور لا بأس به ، بل هو واجب في بعض الموارد كالاهتمام بالاولاد والاهتمام بالمعيشة ونفقاتها ، الا ان هذا الاهتمام قد يصل احياناً الى درجة بحيث يؤدي بالفرد الى ارتكاب المحارم والآثام من اجلهم ، فكم من الاشخاص راح يتاجر في المحرمات او يبيع بأسعار فاحشة من اجل ان زوجته تريد ان تلبس ملابس فاخرة او حلي غالية ، او ان أولاده يريدون ان

يركبوا سيارات فرهة ، او ينفقوا اموالاً طائلة رياء او سفهاً ، فأمثال هؤلاء كالشيطان لانهم يقودون بالفرد المسئول عنهم الى عالم الضلال والانحراف.. ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ التغابن-١٤.

نعم اذا كان الاهتمام بهم بالمقدار المناسب والاعتيادي والمتعارف فلا مانع من ذلك ، بل هو مستحب ، واحياناً يكون واجباً ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ ﴾ الاعراف-٣٢.

ومن الحجب المادية : تلك الملاهي التي قد لايكون بعضها محرماً ، لكنها اذا صارت سبباً في الانشغال عن الواجبات ، او تقليلها ، او ترك المسؤوليات الشرعية التي خلقنا الله تعالى لاجلها، وكلفنا بها ، فان هذه الملاهي ستكون عندئذ شياطين فعلية لانها تؤدي نفس أفعاله .

وهكذا فان الحجب كثيرة ، وبالامكان ان يستنبط القارىء الفطن على ضوء ما ذكرناه جملة اخرى من هذه الشياطين ليحذر منها ويتجنبها .

٤- ذرية الشيطان وجنوده وأولياؤه واتباعه ..

وهذه العناوين وردت في جملة من الآيات والأحاديث ، منها قوله تعالى :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ، وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ الكهف-٥٠.

ومنها قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورا ﴾ الاسراء-٦٣.

وقال عز وجل : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ الشعراء(٩٤-٩٥).

وقال عزوجل : ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيطَانِ﴾ النساء-٧٦.

كما ورد في بعض الروايات ان الشيطان له ذرية وأولاد يتعاقبون ، وهؤلاء ايضاً يتعلمون من ابيهم الاضلال والمكر ، فينبغي الحذر منهم ايضاً ..(أنظر البحار ٢٣٧/١١ رواية ١٩ وكذلك ٢٤٢/١٠ رواية ٢).

الا انه توجد هنا امور يجدر الاشارة اليها ولو باختصار :

اولها : ان (الذرية) قد تطلق على كل من تعلم من الشيطان او اقتدى به ، او عمل بأعماله ، فانه سيكون عندئذ بـمثابة الابن للشيطان ، وقد ورد ان الآباء ثلاثة احدهم من يربيك ويعلمك .. فإحذر وانتبه .

ثانيها : ان كل واحد من الشياطين الذين ذكرناهم يصلح ان يقال عنه انه ولي من اولياء الشيطان ، او جند من جنوده ، او تابع من اتباعه .

كما ان كل من يأتمر بأمر الشيطان وينصاع له ويتأثر بتسويلاته فهو في الواقع يتبعه ويسير خلفه ، فلنحذر جيداً..

ولنتذكر دائماً اننا في ولاية الله تعالى فلا نُخرجن انفسنا منها، ولنسارع دائماً الى التوبة فانها باب من الرحمة فتحه الله تعالى لعامة خلقه.

كما مر علينا في الحديث عن المعصومين (ع) : (قال الله تعالى وعزتي وجلالي وعظمتي لا احجب التوبة عن عبدي حتى يُغرغِر بها) ، أي حتى آخر انفاسه .

ثالثها : ان مصطلح (جنود ابليس) يراد منه كما عرفت جنوده من الجن والانس ، وقد ورد في القرآن الكريم : (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلاّنا من الجن والانس ، نجعلهما تحت اقدامنا ، وليكونا من الاسفلين) فصلت/٢٩.

كما يراد منه ما ذكرناه من انواع الشياطين الاخرى (النفس والمضِل

والحجب المادية) ..

وكذلك يراد منه معنى آخر : وهو كل ما يستعين به ابليس من آلات او صفات لأجل إضلال الفرد وغوايته وصده عن الحق .

فقد ورد عن الامام (ع) : (واحذر الغضب فانه جند عظيم من جنود ابليس)[١] .

وورد ايضاً عن المعصومين (ع) : (لا يزال ابليس فرحاً ما اهتجر المسلمان)[٢].

وورد في الدعاء عن النبي(ص) : (اللهم إني اعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وشر منيي)[٣].. وهذا يعني ان هذه الامور قد تؤدي بالانسان الى المهالك والمعاصي ، وهذه حقيقة يدركها كل واحد منا ، إما بالتجربة وإما بالسماع.

وورد عن النبي(ص) : (النساء حبائل الشيطان)[٤] أي ان بعض النساء قد تضل الرجال ، كما ان بعضهم قد يكون له شغف شديد بهن او بمحادثتهن حتى يدخل بسبب ذلك في الحرام .

وهناك صفات كثيرة يمكن ان يستعين بها الشيطان ، ليدخل من خلالها الى الانسان ، ومن هنا كانت جنوداً لابليس ..

---

(١)البحار ٣٣/ص٥٠٨ رواية ٧٠٧.

(٢)الكافي ٣٤٦/٢.

(٣)جامع السعادات ١٠/٢.

(٤)ن.م .

فلابد اذاً ان نستكشف الصفات والافعال ونعرضها على الشريعة الالهية ، فما اعتبرته حسناً وصالحاً ونافعاً حاولنا تطبيقه ، وما اعتبرته الشريعة سيئاً وفاسداً ومضراً حاولنا اجتنابه ، او على الاقل نحاول منع الشيطان من استغلال هذه الصفة او الحالة ، لكي لا يستعين بها علينا..

فقد ورد عن الباقر(ع) : (ان احدكم اذا غضب إحمرَّت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، ودخل الشيطان فيه ، فاذا خاف احدكم ذلك من نفسه فليلزم الارض، فان رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك)[1].

---

(١)ن.م ٢٨٨/١.

معركة الإنسان مع الشيطان

بدأت هذه المعركة بعد ان تسبب ابليس في خروج آدم وزوجته من الجنة ، وبعد ان قضى الله تعالى بطرد ابليس من رحمته جزاء على معصيته وإغوائه لآدم (ع).

وعندئذ قال الشيطان مخاطباً الله تعالى كما ورد في القرآن :

﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الحجر (٣٩-٤٠)

﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الاسراء -٦٢.

وهنا يجيء التحدي الالهي ، والضمان الرباني الذي إقتضى العناية بعباده المؤمنين الذين يتوكلون عليه..

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ، وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ الاسراء - (٦٣-٦٥).

وهنا يجدر التعرض لامور مهمة جداً على شكل اسئلة واجوبة :

هل يصدر إضلال من الله تعالى ؟!

الأمر الاول : ان ابليس يقول بان الله تعالى أغواه ، فما هو معنى هذا الإغواء الإلهي ؟

هناك عدة اطروحات للإجابة على هذا السؤال ، وقد عرض في الميزان[1] جملة منها ، لكنها لا تخلو من اشكالات ومناقشات ، بما فيها إطروحته نفسه (قدس) وهي الغواية بعد الغواية ، على اعتبار ان ابليس ضل فأستحق بذلك ان يُبعده الله تعالى عن طريق الجنة والهداية ، أي ان الاضلال هنا مجازي وليس حقيقي ..

اما نحن فنعرض هنا اطروحتين احداهما خاصة والاخرى عامة ..

فأما الاطروحة الاولى فهي خاصة بغواية ابليس ، فان الوارد في جميع الايات القرآنية المتعلقة بالحادثة ان ابليس هو الذي يدّعي ان الله تعالى اغواه ، وهذا إدِّعاء كاذب ، اذ لا دليل على ان الله تعالى اغواه فعلاً ، واما ادِّعاء ابليس فهو عذر اصطنعه لنفسه ، كما يصطنع المذنب منا اعذاراً يلقي بها اللوم على الآخرين .

واما الاطروحة الثانية فهي عامة ، لأنها تشمل كل الموارد التي قد توحي بان الله تعالى يصدر منه الاضلال ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فاطر-٨.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ الجاثية-٢٣.

فان الواقع ان الله تعالى لا يصدر منه أي إضلال او غواية ، وانما يصدر منه

(١)الميزان في تفسير القرآن ١٦١/١٢ وما بعدها.

خصوص الهدى والهداية : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه٥٠.

نعم معنى الإضلال ونحوه الوارد في القرآن هو ان الله تعالى يسحب هدايته عن هؤلاء ..

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الانعام -١٤٤.

فتكون النتيجة الحتمية هي الضلال والانحراف ..

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ الاعراف-٤٣.

فكل مورد يَرِد فيه ان الله تعالى يُضِل او يختم او يعمي أحداً ، فهو في الحقيقة انما يعني مجرد سحب الهداية والتسديد والتوفيق ، ومن الطبيعي انه تعالى لا يسحب هذه النعم إلا ممن ضلوا وانحرفوا رغم هداية الله تعالى لهم ..

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الصف٥.

(وقولِهم قلوبنا غلف ، بل طبعَ اللهُ عليها بكفرهِم) النساء -١٥٥

(في قلوبهم مرضٌ فزادهمُ الله مرضاً)البقرة - ١٠

(صرفَ اللهُ قلوبهم بأنّهم قومٌ لا يفقهونَ)التوبة-١٢٧

ولذلك نسمع في القرآن الكريم :

(فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهمُ الضلالةُ)الاعراف - ٣٠

والشيطان من هؤلاء الذين ضلوا رغم ان الله تعالى وفَّر لهم كل سبل الهداية ، فاذا لم يكونوا يُقدِّرون هذه النعمة ولا يحترمونها ، فمن الطبيعي ان الله تعالى سوف يسحب هدايته عنهم ، فيكونون عندئذ كالأعمى وسط الزحام يتخبط تبعاً لغرائزه واهوائه ..

(ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ،

نولّه ما تولى) النساء- ١١٥

(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ، الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)البقرة(٢٦-٢٧).

وهنا قد يقال ان هذه الاطروحة هي نفس اطروحة الطباطبائي (قدس سره) في الميزان ، الا ان المتأمل يجد اختلافاً جوهرياً بينهما ، فأطروحة الميزان تفترض ان الله تعالى يُضل الضالين ويبعدهم عن الجنة ، بمعنى ان دور الله تعالى هنا إيجادي ، أي انه قد يفعل لهم اشياء تجعلهم يضلون ويزدادون إثماً ، وهو ما يعبر عنه بالمكر الالهي ..

اما اطروحتنا فهي تفترض ان الله تعالى لا يصدر منه فعل أيجادي من هذه الناحية ، أي لا يفعل لهم اشياء تجعلهم يضلون ، وانما فقط يوقف الهداية ويجمدها عنهم ، فدور الله تعالى عندئذ يكون عدمياً او تركياً كما يُعبر عنه في الاصول ..

وهذا المعنى ممكن ان يشمل المكر الالهي ايضاً الوارد في قوله تعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ الانفال-٣٠.

وان كان الواقع ان المكر الالهي له صور اخرى ليس هذا محل بيانها .

تسليط إبليس على البشر

الأمر الثاني : هل ان الله تعالى سلَّط ابليس علينا نحن البشر ؟..

في الحقيقة ان الله تعالى لم يسلط احداً على احد ، فهو لا يصدر منه الا الخير ، وهو الرحمن الرحيم ، حيث ورد انه رحمان بالخلق كلهم ، ورحيم بالمؤمنين خاصة[1].

نعم ما حصل ان الله تعالى سمح للشيطان ان يمارس اعماله، ولم يمنعه عن ذلك ، ولم يكبل يديه ، وذلك لعدة أسباب أهمها :

أ- ان الله تعالى اراد ان يمتحن عباده ، ويختبر إلتزامهم ، خصوصاً وانه قد ساعدهم في هذا الامتحان ، فأرسل اليهم رسله (ع) وآياته ، ليحذِّرونهم من كيد الشياطين ، ويهدونهم الى الصراط المستقيم ..

﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ سبأ-٢١.

فرغم ان الله تعالى لم يجعل للشيطان سبيلاً على البشر ، كما يُستفاد من هذه الآية الكريمة ، الا انه لم يمنعه من التحرش بهم ، لأجل ان هذه الدنيا دار امتحان واختبار .

ب- ان الله تعالى وضع لهذا الوجود قوانين تكوينية كالقوانين التشريعية ، ومقتضى هذه القوانين ان لكل واحد من الخلق حريته في ان يتصرف بارادته ، فان كان تصرفه سيئاً عاقبه الله تعالى ، وان كان تصرفه حسناً أثابه الله عز وجل ، وقد ورد في الحديث عن الصادق (ع) : (أبى الله ان يجري الاشياء الا بأسباب ،

---

(١) وهذا المعنى من معاني قوله تعالى : (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) الحديد/٢٨ ، فالمؤمن يؤتيه الله تعالى الرحمة الخاصة ، بالاضافة الى الرحمة العامة.

فجعل لكل شيء سبباً)[1].

ولولا ذلك لم يكن هناك معنى لاستحقاق المثوبة او استحقاق العقوبة.

ج- ومع ذلك فقد وعد الله تعالى عباده المؤمنين بأن الشيطان ليس له سلطان عليهم..

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ،إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ ﴾ الحجر (٤١-٤٢).

وهذه إشارة ربانية لنا نحن البشر تقول لنا :

ان من يريد التخلص من حبائل الشيطان فليكن عبداً حقيقياً لرب العالمين[2]..

وهذه العبودية انما تتحقق بقوة الايمان ، وبتمام الإخلاص ، وبحسن التوكل ..

واما التفاصيل فهي تحصل تلقائياً بهداية الله تعالى ، فقد ورد في الدعاء (يا مدبري ولست ادري).

وهكذا فان الله تعالى لم يسلط الشيطان علينا ، بل الشيطان يتسلط على كل من يفتح الباب امامه .. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ النحل-١٠٠..

فالذنب إذاً ذنب هؤلاء أنفسهم ، قبل ان يكون ذنب الشيطان ، ولذلك نسمع في القرآن الكريم :

---

(١)الشافي في شرح اصول الكافي ٥٤/٢ باب ٧/ الحجة / حديث ٧.

(٢)وهذا معنى من معاني قول الامام علي(ع) : (الهي كفى بي عزاً ان اكون لك عبداً ، وكفى بي فخراً ان تكون لي رباً).

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ابراهيم-٢٢.

الشيطان لا يقدر على عباد الله المؤمنين

الأمر الثالث : ان الله تعالى تحدى الشيطان بأنه لن يقدر على عباده المؤمنين المخلصين ، حيث قال عزوجل :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ الاسراء-٦٥

فما هو معنى هذا التحدي ؟ وما هو دورنا فيه ؟ ..

في الحقيقة يمكن ان نطرح هنا ثلاثة أفكار مستفادة من هذا التحدي الإلهي ، وهي كالآتي :

١- ان المؤمن الحقيقي محصَّن ضد الشيطان ، وهذا له عدة اسباب نذكر منها سبباً ظاهرياً واحداً وآخر باطنياً، اما الاول فلأن هذا المؤمن يعيش في جنة القرب الإلهي ، ومعلوم ان الشيطان مطرود من الجنة فلا يدخلها ..

ثم ان الوارد في الروايات ان المؤمن الملتزم افضل من الملائكة ، وهذا يعني انه افضل وأقوى من ابليس ..

ولا يخفى ان الأفضلية هنا عامة ومطلقة ، ولذلك أمر الله تعالى جميع هؤلاء بالسجود لآدم (ع) الذي يمثل النوع الانساني .

٢- ان المؤمن الحقيقي محفوظ بالعناية الالهية ، فلا يستطيع الشيطان أن يدنسه او يدخل اليه ، حيث يقول الله تعالى :

﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ النساء -١٤١.

وهذا ما تحدثنا عنه في النقطة الثانية من نقاط الضعف في الشيطان.

٣- ان هذا التحدي كما قلنا قبل قليل إشارة إلهية لنا نحن البشر ، مضمونها: ان التخلص من الشيطان ممكن ، اذا أدخلنا انفسنا تحت عنوان العبودية الحقيقية لله تعالى ..

وهنا يأتي دورنا في هذا التحدي ، فالـمفروض أننا نبيض وجوهنا امام خالقنا ، مادام قد ارشدنا الى طريق الخلاص ، واعطانا العهد والضمان بالرعاية والعناية ..

فلا يبقى علينا الا تقوية الإيمان والإخلاص والتوكل حتى نصل الى حقيقة كل واحد منها بفضل الله رب العالمين ، واما التقوى فالـمفروض انها حاصلة مع حصول هذه القواعد العامة للعبودية.

وقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع) : (من خاف الله ، أخاف الله منه كل شيء)[١].

تبقى هناك تفاصيل وفروع ينبغي الالتزام بها في مواجهة الشيطان ودحره، سوف نذكرها في مقام لاحق.

---

(١)الوسائل ١١/١٧٢.

علة الخلق والإيجاد في هذه الحياة

الامر الرابع : رغم كل ما تحدثنا به سابقاً عن فلسفة جملة من الحقائق والامور ، قد يسأل البعض ممن لا يفهم حقيقة هذه الحياة : لماذا خلَقنا الله تعالى، ولماذا جعلنا أمام هذا الامتحان الكبير ؟

أقول : للإجابة عن هذه التساؤلات ، يحسن ان نتكلم ضمن نقاط كالاتي :

١- لو ان احداً سألنا الآن : هل تريدون ان تعيشوا مدة من الزمن ، قليلة نسبياً ، تلتزمون فيها بأوامر معينة ، فاذا أطعتم والتزمتم كان لكم من الجنان ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ، وكُشف لنا الغطاء فرأينا تلك الجنان ، ثم عُرضت النيران امامنا ، وقيل لنا هذا جزاء من لا يلتزم ولا يطيع ، ثم قيل لنا ان الله تعالى سوف يكون معنا بهدايته وملائكته ورسله وانبيائه (ع) وآياته وعلمائه ..

اننا بالتأكيد سوف نقبل بهذا الامتحان ، لأننا حينئذ سوف نراه شيئاً بسيطاً، في مقابل الثواب الذي سنحصل عليه ..

وهذا بالضبط ما يقوله العصاة والكافرون حينما يؤمر بهم الى النار في يوم القيامة ، حيث يقول واحدهم : ﴿ رب ارجعونِ لعلي اعمل صالحاً ﴾.

وهذا صحيح طبعاً ، لأنه سيرى الحقائق بعينٍ لا حجاب عليها ولا غطاء ، وهذا هو ما أسميناه بالتكامل العام الذي يحصل يوم القيامة لكل البشر حيث ورد عن المعصومين (ع): (الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا)[1] ، وقد تحدثنا عنه في كتابنا المخطوط (معالم التكامل في التربية الانسانية) .

وعلى أية حال ، فنحن قد اخترنا المجيء الى هذه الدنيا ، ونحن قد قبلنا الدخول في هذا الامتحان ، وهذا ما حصل في عالم الذر ..

---

(١)البحار ٤٣/٤ (طبع بيروت).

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الاعراف (١٧٢-١٧٣)

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ﴾ الاحزاب-٧٢.

واذا كنا لا نذكر هذا التخيير فهذا امر طبيعي ، تماماً كما لا نذكر كيف تعلمنا المشي والاكل وبدايات الكلام عندما كنا صغاراً ، وكذلك لا نتذكر عندما كنا في بطون امهاتنا ، بل لا نذكر اموراً كثيرة حصلت معنا ونحن ناضجون وراشدون .

٢- ان الله تعالى لم يتخلَّ عن البشر في اثناء هذا الامتحان فهو معهم بالتأييد واجابة الدعاء ، وهو معهم بالآيات والانبياء (ع) ، وهو معهم بالاوصياء والعلماء ..

فقد ورد عن الصادق (ع) : (ان الله اجل وأعظم من ان يترك الارض بغير امام عادل)[1]..

وورد عنه (ع) ايضاً : (ان آخر من يموت الامام ، لئلا يحتج احد على الله عز وجل انه تركه بغير حجة لله عليه)[2].

وهذا يعني ان الامتحان يُفترض ان يكون بسيطاً على الانسان الواعي الذي يعرف كيف يكسب النتيجة لصالحه .

---

(١)الشافي ٣٩/٢ باب ٦٤.

(٢)ن. م / ٢ / ٤٤ باب ٦٥.

٣- ان هذا الامتحان ليس هو الهدف الاساسي من وجودنا ، بل نحن مخلوقون للرحمة الإلهية ..

حيث يقول الله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هود-١١٩.

وكذلك : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ الاسراء-٨٧.

واذا كان الأمر كذلك ، فما علينا الا ان نحافظ على هذه الرحمة الربانية ، وان نحاول بكل جهدنا ان لا نتسبب في إبعادها عنا والعياذ بالله تعالى .

وهنا يقول البعض بأن الله تعالى قال ايضاً :

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ هود-١١٩.

وهذا وإن كان صحيحاً ، الا ان هذا مختص بالمشركين ونحوهم من اتباع الشيطان ، وذلك بقرينة قوله تعالى مخاطباً الشيطان :

﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الاعراف-١٨.

كما انه يوجد جواب آخر هنا ، وهو ان الآيات الأولى كانت بلحاظ الغاية ، أي بحسب ما يريده الله تعالى لنا نحن البشر ، اما الآية الاخيرة فهي بلحاظ الخارج ، أي بحسب ما حصل فعلاً ، فإن اكثر الناس نقضت عهدها ولم تلتزم بالدين الالهي ، فكان استحقاقها هو العقاب في جهنم.

وهناك اجوبة اخرى بعضها معمقة نوعاً ما ، فلايناسب الحديث عنها ، لكن نشير الى واحد منها ، وهو أن يكون المقصود هو نفس ما دل عليه قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ مريم-٧١.

حيث قالوا ان يوم القيامة هو يوم التغابن لأن كل واحد مهما كانت مرتبته، سوف يندم ويتحسر لأنه لم يتقدم أكثر ، او لأنه أضاع لحظة كانت لتنفعه يوم الحساب .

٤- هناك هدف آخر لوجودنا في هذه الحياة ، وان امكن القول انه ملازم للهدف السابق (أي الرحمة)..

حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات -٥٦.

وهذا يعني إننا مخلوقون لأجل عبادة الله تعالى، لكنه لا يعني اننا نترك كل شيء وننزوي لأجل الصوم والصلاة والدعاء فحسب ..

بل المقصود من العبادة معانٍ ارفع واعظم ، وهي التي كان يلتزم بها المعصومون (ع) ..

فمن هذه المعاني ما يلي :

أ- تطبيق الاحكام والتعاليم الالهية في كل متعلقات الحياة ، وهذا يشمل الواجبات والمستحبات والمحرمات والمكروهات ، وكذلك يشمل المعاملات الاجتماعية والانسانية ونحوها.

فان هذا التطبيق كاشف عن التقوى التي هي من اهم علامات العبد الحقيقي.

وقد ورد في القرآن الكريم : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى ﴾ الحج -٣٧.

ب- التكامل النفسي والروحي والعقلي ، فانه سبب اساسي لوصول الانسان الى مراتب عالية ، لا يصل اليها الا من عرف معنى العبودية لرب العالمين ، وقد ورد في الحديث : (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

ج- ان العبودية الخالصة هي من اشرف المراتب القدسية ، لأن الله تعالى يفتخر بالعبد الحقيقي كما ورد في الروايات ، واذا افتخر به فهذا يعني انه يحبه،

وقد ورد في الحديث عن النبي(ص) : (اذا رضي الله عن عبدٍ ، قال : يا ملك الموت اذهب إلى فلان ، فأتني بروحه ، حسبي من عمله ، قد بلوتُه فوجدته حيث أُحب ، فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم قضبان الرياحين وأصول الزعفران ، كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، ويقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، معهم الرياحين ، فاذا نظر اليهم ابليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، فيقول له جنوده : مالَكَ يا سيدنا ؟ ، فيقول : أما ترون ما أُعطي هذا العبد من الكرامة ، أين كنتم عن هذا ، قالوا : جَهِدنا به فلم يُطعنا)[1] .

د- اننا نلاحظ في المجتمع الانساني عموماً ان العبد او الخادم يتملق امام سيده ، ويحاول ان يتقرب اليه بأي وسيلة لكي ينال عنده مكانة جيدة ، أفلا نتقرب نحن الى ربنا وسيدنا وخالقنا ومالك أمرنا ، حتى ننال لديه مكانة جيدة ، علماً ان الفائدة ستكون كلها لنا ، لأن الله تعالى غني عن العالمين.

٥- ان الوارد في القرآن الكريم وفي احاديث المعصومين (ع) ان الله تعالى خلق الانسان في احسن تقويم ، وهذا يعني انه يريده لأمر عظيم كما ورد في بعض الروايات ، وبما ان الله تعالى غني عن العالمين، فالنتيجة إذاً ان الفائدة العظيمة هي للإنسان ..

وقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع) : (ليس لأبدانكم ثمن الا الجنة، فلا تبيعوها بغيرها)[2].

---

(١)البحار ١٦١/٦ باب ٦ رواية ٢٩.

(٢)الشافي ١١٩/١.

٦- انه قد يتصور الكثير منا ان الدنيا لما كانت دار امتحان وبلاء ، فالمفروض ان المؤمن يتعذب فيها ولا يرتاح ، لكن هذا توهم وغفلة عن الواقع ، فقد ذكرنا في كتابنا معالم التكامل في العقيدة ان المؤمن يستطيع ان يفعل كل ما يريده بشرط ان يطبق فيه الاحكام الشرعية ، فهو يتزوج ويتاجر ويسافر ويأكل ويمارس جميع ما يحتاجه ما دام داخلاً ضمن الحدود الشرعية الالهية ..

حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا ﴾ القصص-٧٧.

وقد روي ان جماعة من الصحابة حرَّموا على انفسهم النساء والافطار بالنهار والنوم بالليل ، فقال لهم النبي(ص) : (إني آتي النساء وآكل بالنهار وأنام بالليل) .

واما بالنسبة للإبتلاءات والمشاكل فهذه تعم المؤمن وغيره على حد سواء ، أي انها ليست واقعة على خصوص المؤمن ..

﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾ النساء-.١٠٤

٧- ان التحذير من الدنيا ، انما يعني التحذير من ارتكاب المحرمات فيها ، او تقليد الشياطين فيها او الإفتتان بهم ، وكذلك التحذير من الانشغال بها عن الواجبات ..

ولكن هذا التحذير لا يعني ان الدنيا في نفسها سيئة ، او خالية من الفوائد.. حيث يقول الامام علي(ع) : (ان الدنيا دار صدقٍ لمن صَدَقها ، ودار عافية لمن فَهِم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد احباء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحي الله ، ومتجر اولياء الله ، إكتسبوا

فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمّها وقد آذنت بِبَيْنِها ونادت بفراقها ، ونعت نفسها واهلها ، فمثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقتهم بسرورها الى السرور، راحت بعافية وابتكرت بفجيعة ، ترغيباً وترهيباً ، وتخويفاً وتحذيراً ، فذمَّها رجال غداة الندامة ، وحَمَدها آخرون يوم القيامة ، ذكَّرتهم الدنيا فتذكروا ، وحدّثتهم فصدَّقوا ، ووعظَتهم فأتعظوا)[1]..

فتأمل في هذا الحديث جيداً ، لتعرف ان العيب ليس في الدنيا بل بأهلها ، ولو صلحوا لصُلَحت ..

وقد ورد عن المعصومين (ع) : (اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)[2].

وهكذا ومن خلال النقاط السبعة السابقة ، تعرف ان وجودنا في هذه الحياة انما هو رحمة وفائدة لنا ، فلنحمد الله تعالى ولنحاول بأقصى جهدنا ان نستغل هذه الفرصة الالهية لتحصيل اكبر مقدار من المنفعة والفائدة.

وبما ان ابليس وباقي الشياطين يحاولون ان يحرمونا من هذه المنافع والفوائد، فلابد اذاً من الحذر والحيطة ..

وهذا يستدعي ويوجب علينا ان نتحدث في هذا المقام عن ثلاث محاور أساسية :

أولها : أسباب تأثير الشيطان على بعض الناس.

ثانيها : أساليب الشيطان وكيفية مواجهتها او التخلص منها.

ثالثها : طرق وقائية للتحصّن من الشيطان.

---

(١)نهج البلاغة ٣٢/٤.

(٢)الوسائل /باب ٢٨ / مقدمات التجارة / حديث ٢.

ولا يخفى على من تأمل في المباحث السابقة من هذا الكتاب ، اننا ذكرنا جملة من الملاحظات والاشارات التي تندرج تحت هذه المحاور.

أسباب تأثير الشيطان على بعض الناس

ونقصد هنا تلك العوامل والمقدمات التي تفتح الباب امام الشيطان ليدخل الى انسان معين فيؤثر عليه .. وقد قلنا سابقاً ان الشيطان وان كان مضلاً ، الا ان الفرد هو الذي يفتح له تلك الباب ، بل قد يدعوه للدخول ..

وسنذكر الان باختصار أهم هذه العوامل والمقدمات على حسب ما يخطر في بالي القاصر :

١- ضعف الايمان ، فان الفرد اذا لم يكن لديه الايمان الكافي فانه سيكون فريسة سهلة للشيطان ، لأنه لا يملك المبدأ الاساسي الذي يستند عليه في المواجهة..

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ الانعام -.١١٣

٢- ضعف التقوى ، فان التقوى حاجز مهم ضد الشيطان ، فإذا ضعف هذا الحاجز او تهدم ، كان الطريق سالكاً أمام إبليس وامثاله ..

وقد ورد في دعاء الثمالي (وورعاً يحجزني عن معاصيك).

٣- عدم تصفية النفس ، فان النفس الغافلة ذات الصدأ والأدران تكون أرضاً خصبة للشياطين .

٤- ضعف الهمة والعزيمة ، حيث ورد في الحديث عن الباقر (ع) : (اياك والكسل والضجر فانهما مفتاح كل شر) ، ونحن نلاحظ في حياتنا اليومية ان ضعيف الهمة غير قادر على مواجهة الكثير من المشاكل التي تواجهه ، بما فيها الشيطان.

ولذلك نسمع في دعاء ابي حمزة الثمالي : (اللهم إني اعوذ بك من

الكسل) ..

وفي دعاء كميل : (يارب قوِّ على خدمتك جوارحي ، واشدد على العزيمة جوانحي).

٥- ضعف النفس ، أي التردد وكثرة الشك في الافعال العبادية وغيرها ، فان هذه الحالة تقوي ابليس وتطمعه في الفرد..

حيث ورد عن عبد الله بن سنان قال : ذكرتُ لأبي عبد الله (ع) رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة ، وقلت : هو رجل عاقل ، فقال ابو عبد الله (ع) : وأي عقل له وهو يطيع الشيطان ؟. فقلت له : وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سَله، هذا الذي يأتيك من أي شيء هو، فانه يقول لك : من عمل الشيطان[1].

وقد ذكرنا في كتابنا (معالجات نفسية) ان هذه الحالة قد يصاب بها حتى غير المؤمن ، ولكنهم يترددون في موارد اخرى ضمن حياتهم.

٦- كثرة المعاصي ، فان الشيطان يطمع بالفرد العاصي ، ويجد فيه ضالته ، وكلما زادت معاصيه كلما تعلق به الشيطان اكثر ، فان الطيور على اشكالها تقع.

﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ آل عمران -١٥٥.

﴿ وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء -٣٨.

٧- الغفلة عن الله تعالى ، وعدم تذكره ، حيث يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ الزخرف -٣٦.

وهذا امر اعتيادي ، فان الفرد الذي ينسى الله تعالى ولا يتذكره ، فهو بالتأكيد لا يؤدي الواجبات ، ولا يجتنب المحرمات ، لأنه لو كان يفعل ذلك

---

(١)الوسائل / باب ١٠/ مقدمة العبادات / حديث ١.

لَذكر الله تعالى اذا كان يفعلها قربة له عزوجل.

كما ان الهداية والعصمة انما هي بيد الخالق عزوجل ، وهو انما يعطيها للإنسان بمقدار ما يتذكره ، فاذا نسيه العبد انقطعت الهداية والعصمة ، وعندئذ سوف يهجم الشيطان ..

وهذا هو معنى قول الله تعالى (نُقيِّض له شيطاناً) أي نتركه هو والشيطان ، من دون ان نساعده ، الا ان يتذكر ..

حيث يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ الاعراف -٢٠١.

٨- شرب الخمر ، فقد ورد في الحديث عن المعصومين (ع) : (من نام سكران بات عروساً للشيطان)[1].

ولذلك ورد ان الخمر هي ام الخبائث .

وهناك معنى آخر هاهنا ، وهو ان السُكر كما يصدق على شارب الخمر ، كذلك يصدق على كل تائه ، ممن ليس له مبدأ عقائدي صحيح ، ولا يعرف الطريق المستقيم الذي يتوجب عليه ان يسلكه .

٩- كثرة الفراغ ، وعدم الانشغال بالامور النافعة دنيوياً واخروياً ، حيث ورد في الحديث : (ان الله يبغض الشاب الفارغ) .

وفي حديث آخر أن الله يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ ..

وهذا امر مؤكد لأن الانسان له طاقات عالية ، وقد خلقه الله تعالى لغايات مقدسة وشريفة ، كما ان الجنة تنتظره ، والمقامات الرفيعة بين يديه ، فاذا ضيع

---

(١)الميزان في تفسير القرآن ٦٤/٨.

الفرد ذلك كله ، وقضى وقته بالكسل والجمود وعدم الحركة ، فانه بالتأكيد سوف يشجع الشيطان على مرافقته والتأثير عليه ..

ونحن نشاهد ان اكثر المشاكل الاجتماعية والنفسية انما هي بسبب الفراغ ، في حين ان ربنا وخالقنا عزوجل يقول لنا :

﴿ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾التوبة -١٠٥.

١٠- محبة عمل الفاسقين ، او الاعجاب بهم ، فقد ورد ان (من أحبَّ عمل قومٍ حُشِر معهم) ..

واذا كان الفاسق او عمله محبوباً لدى الفرد فهذا يعني انه يميل الى هذا الجانب ، ومن مال الى جهة وقع فيها ..

وقد ورد في دعاء الثمالي : (او لعلّك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني).

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾النحل -١٠٠.

١١- مجالسة اهل الباطل ، او التواجد في اماكن الضلال كالبلاد الامريكية او الاوربية ونحوهما مما ينتشر فيها الفساد والانحراف ، فان المحيط له تأثير مهم على تفكير الانسان ورغباته ، كما ان مقاومة تلك الحياة تكون اصعب وأشد ..

١٢- اللهو والانشغال بالدنيا ، فانه اذا كان على حساب الاخرة ، يكون مرجوحاً بكل تأكيد .. فالنظرية الإسلامية تقول :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا ﴾ القصص -٧٧.

وهناك من يقلب هذه النظرية فيهتم اولاً بالدنيا ، ولكنه يحاول ان لا ينسى نصيبه من الآخرة ، فهو على الأقل يتذكر الآخرة ..

في حين ان البعض يهتم بالدنيا أولاً وآخراً ، فصدق عليهم قول الله تعالى :

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴾ المجادلة -١٩.

١٣- الجهل وعدم سؤال العلماء والتعلم منهم ، فانه سبب اساسي لسيطرة الشيطان على الانسان ، وكيف لا يسيطر عليه عندئذ وهو يجهل اساليبه وطرق مواجهته وكيفية التحصن منه ، ولذلك نسمع في الدعاء : (او لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني).

فالعلم واجب على كل انسان لأنه كما ورد في الحديث عن النبي (ص) : (معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة ، ... والسلاح على الاعداء)[1].

---

(١) جامع السعادات ١٠٥/١.

أساليب الشيطان وكيفية مواجهتها او التخلص منها.

عرفنا في مقام سابق ان الشيطان له قابلية الوسوسة والايحاء في نفوس البشر، مستفيداً في ذلك من قابلياته الخاصة وخصائصه اللامادية ، كما انه يستطيع ان يتلبس بصورة معينة يتمثل بها للآخرين ، سواء كان هذا التمثل حسياً ام معنوياً ، فقد روي ان ابليس ظهر لعيسى (ع) فقال له : ألستَ تقول : لن يصيبك الا ما كتب الله عليك ؟ قال : بلى ، قال فإرمِ نفسك من ذروة هذا الجبل ، فاذا قدَّر الله لك السلامة تسلَم ، فقال له : يا ملعون ان الله تعالى يختبر عباده ، وليس لعبدٍ ان يختبر ربه .

وروي ايضاً ان ابليس تمثَّل ليحيى (ع) فقال له : انصحك ؟ قال : لا أريد ذلك ، ولكن اخبرني عن بني آدم ، قال : هم عندنا على ثلاثة اصناف : صنف منهم – وهم اشد الاصناف عندنا – نُقبل على احد منهم نفتنه عن دينه ، ونتمكن منه ثم يفزع الى الاستغفار والتوبة ، فلا نحن نيأس منه ، ولا نحن ندرك حاجتنا ، فنحن معه في عناء ، واما الصنف الآخر منهم فهم في ايدينا كالكرة في ايدي صبيانكم نتلقفهم كيف شئنا ، قد كفونا مؤونة انفسهم ، واما الصنف الثالث فهم معصومون لا نقدر منهم على شيء)[1].

ثم انه يمكن ان نضع الان قاعدة عامة تنفعنا في تمييز واكتشاف الاساليب والحيل الشيطانية ، حيث ان هذه الأساليب تمتاز بما يلي:

أ- انها لا تتناسب ولا تنسجم مع تفاصيل العقيدة الالهية .

ب- انها لا تتناسب مع التعاليم الاسلامية.

---

(١)مجمع البحرين ٤/٥٥.

ج- انها تؤدي الى نتائج لا تتناسب مع الصورة الايجابية للإنسان .

د- انها تميل بالفرد اما الى جانب الافراط او التفريط.

هـ- انها تقلل من معنويات الفرد وهمته تجاه فعل الخير والمصالح العامة والخاصة الحقيقية.

و- ان نتائجها تخلو من المنافع الحقيقية ، بل تسبب الضرر للفرد او لغيره.

ز- انها تسبب (الضيق) القلبي او الروحي للفرد المؤمن الملتزم.

ح- ان هذه الاساليب الشيطانية تؤدي الى نتائج موافقة لأخلاق اعداء الله تعالى ، ومخالفة لأخلاق اولياء الله تعالى ، ولذلك نسمع في الدعاء ما مضمونه : (اللهم اجعل نفسي مستنة بسنن اوليائك ، مفارقة لأخلاق اعدائك) .

بقي ان نتحدث عن اهم تفاصيل هذه الاساليب والطرق التي يتعامل بها الشيطان مع الانسان ، وهي كالآتي :

١- الوسوسة بالشر ومخالفة الحق ، حيث ورد عن النبي(ص) : (ان للشيطان لمة[1]بأبن آدم وللملك لمة ، فأما لُمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، واما لُمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان)[2].

٢- الوسوسة عن طريق العبادات ، حيث ان الشيطان قد يأتي للفرد عن طريق التشكيك في صحة وضوئه او صلاته او نحو ذلك ، مما يجعله غير مرتاح في عبادتهِ ولا يستأنس لها ، ولهذا يتوجب على مثل هذا الفرد ان يعاكس الشيطان

(١)في مجمع البحرين (١٦٥/٦) اللمة من الالمام وهي كالحضرة والزَورة ، ومعناه النزول به والقرب منه ، وقيل اللمة : الهمة تقع في القلب ، اقول : أي الخطرات.

(٢)الميزان ٤٠٤/٢.

ويواجهه بقوة وإصرار، حتى لا يقع فريسة لهذه الوساوس المزعجة ..

وقد ورد في الحديث عن الصادق (ع) : (لا تكرهوا الى انفسكم العبادة).

و عن الامام الباقر (ع) : (اذا كثر عليك السهو فأمضِ في صلاتك ، فانه يوشك ان يدعك ، انما هو من الشيطان)[١].

وفي رواية أخرى : (لا تعوِّدوا الخبيثَ من انفسكم نقضَ الصلاة فتطمعوه ، فان الشيطان خبيث معتاد لما عوِّد ، فليمضِ احدكم في الوهم[٢] ولا يكثرن نقض الصلاة ، فانه اذا فعل ذلك مرات لم يَعُد اليه الشك)[٣].

٣- الوسوسة في طريق التكامل ، فقد يُدخل في قلب العبد ان صلاته مثلاً انما يؤديها رياء ، فلا يترتب عليها الثواب ، وعندئذ يتركها ، ولكن هذا انما هو من مكائد الشيطان وحيله ..

اذ يكفي العبد في مثل هذه الحالات ان يبني في نفسه ان اعماله لوجه الله تعالى خالصة ، ويدعوه ان يغفر له ما قد يخالطها في ساعات الغفلة او عدم التعمد، وكذلك يدعوه بقبولها والإثابة عليها.

وهناك حالة اخرى قد تعرض لجملة من طلاب العرفان ، فتكون سبباً في ضياعهم وهلاكهم والعياذ بالله تعالى ..

فان الشيطان قد يصور لهم بعض الامور على انها كشف ، في حين انها ضلالات وبدع ..

وقد يوحي اليهم باساليب يوهمهم انها توصلهم الى الكمالات ، في حين

---

(١)الوسائل / باب ١٦ / الخلل في الصلاة / حديث ١.

(٢)أي اذا اتاه الوهم والشك فليمض في صلاته ولا يلتفت اليه.

(٣)ن . م / حديث ٢.

انها تعود بهم الى الوراء ..

فقد روي ان عالماً كان يلازم المسجد بالعبادة والتقرب الى الخالق عز وجل ، وكان ابليس قد عجز عن اغوائه واضعاف همته ، وفي احد الايام جاء ابليس في صورة رجل عابد فوقف بجانب العالم وراح يصلي ويدعو بصورة لم يعهدها العالم ولم يعرفها من قبل ، فتعجب وسأله كيف وصل الى هذه الدرجة العالية من العبادة ، فأجابه ابليس المتخفي بصورة العابد انه لم يصل الى هذه الحالة الا بعد ان زنى بأمرأة مشهورة عيَّنها له ، فلما زنى بها تاب وأحس بالألم الشديد ، فكان كلما يتذكره يزيد في عبادته.

وهنا تأثر العالم لهذه القصة ، واراد ان يفعل مثله ، فذهب الى تلك الزانية ، ولكنها لما رأته تعجبت لمجيئه لأنه معروف بورعه وتقواه ، فلما سألته عن ذلك ، اجابها بقصة العابد ، وعندئذ نبَّهته الى ان هذا الرجل هو إبليس وقد أراد ان يخدعه ، فإنتبه العالم واستغفر ربه عز وجل.

ثم انه ورد في دعاء القاموس (السيفي) :

(أيِّد ظاهري بتحصيل مراضيك ، ونوِّر قلبي وسرِّي بالاطلاع على مناهج مساعيك)..

حيث يجمع الامام (ع) هنا بين الظاهر والباطن ، وحيث ان افعالهم (ع) واجبة ، بمعنى انه يجب الاقتداء بهم والإستنان بسنتهم ، فهذا يعني اننا لابد من ان نجمع بين الظاهر والباطن ، لانهم (ع) جمعوا بينهما ، فلا يجوز مخالفتهم في ذلك .

٤- الوسوسة بحديث النفس ، حيث ان جملة من الناس تخطر في أذهانهم تساؤلات وعبارات تفرض نفسها عليهم ، رغم انهم لا يقبلون بها ، ولا يرضون عنها ..

وقد يتصور البعض ان أيمانه اصبح ضعيفاً عندئذ ، او أن الله تعالى سيغضب منه ، فينزعج وقد ينزوي عن الاخرين محاولاً إبعادها ، وقد يؤدي ذلك الى انقطاع همته عن المستحبات والاعمال النافعة ، في حين ان هذه الافكار كلها من الشيطان ، وليس للإنسان دخل فيها ..

ولذلك لا يعاقبنا الله تعالى عليها ..

حيث ورد عن النبي (ص) : (وضع عن امتي تسع خصال) وعَدَّ منها : الوسوسة في التفكر في الخلق[1]. وسُئل الصادق (ع) عن الوسوسة وان كثرت، فقال : (لا شيء فيها ، تقول لا اله الا الله)[2].

وشكى قوم الى النبي (ص) لَمَماً يعرض لهم لإن تهوي بهم الريح ، او يُقَطَّعوا أحَبُ اليهم من ان يتكلموا به ، فقال رسول الله(ص) : أتجدون ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال والذي نفسي بيده ان ذلك لصريح الايمان ، فاذا وجدتموه فقولوا آمنا بالله ورسوله ، ولا حول ولا قوة الا بالله)[3].

وفي خبر آخر عنه (ص) قال : (ان الشيطان أتاكم من قِبل الاعمال فلم يقوَ عليكم ، فأتاكم من هذا الوجه لكي يَستَزِلّكم ، فاذا كان كذلك فليذكر احدكم

---

(١)الكافي ٤٦٣/٢ رواية ٢.

(٢)ن . م / ٢ / ٤٢٤ رواية ١.

(٣)الكافي ٤٢٥/٢ رواية ٤.

الله وحده)[1].

٥- الوسوسة بالقلق والتشاؤم في بعض الامور كالصحة والسلامة ونحوها ، مما يؤثر سلبياً على الفرد الى درجة قد تصل الى الانشغال عن الطاعات والاعمال الصالحة ..

وقد ذكرنا بعض العلاجات النافعة في كتابنا المتواضع (معالجات نفسية للقلق والضجر) فراجع.

٦- التأثير على الناس بالملاهي المحرمة، فقد ورد ان الغناء نوح ابليس على الجنة[2]، وورد في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ المائدة-٩٠

ولعل ابسط مواجهة لهذا الاسلوب الشيطاني ، هو ان يدرك الانسان حقيقة وجوده ، وأهمية كل لحظة من لحظات حياته ، وقد ورد في الحكمة إغتنموا الفرص فانها تمر مر السحاب ، فلماذا يضيع عمره بالملاهي خصوصاً المحرمة منها؟!.

هذا علاوة على ان المحرمات موجبة للعقاب والسخط الالهي ، بينما يترتب على إجتنابها الثواب والرضا الالهي.

٧- التأثير على غرائز الانسان ، وانفعالاته التلقائية ، فالبعض لا يقبل النصيحة ، خصوصاً اذا كانت امام الاخرين ، لأنه يشعر ان كرامته وعزته تتأثر عندئذ. وهناك من يسيطر عليه الغضب حتى يخرجه عن اخلاقه والتزامه ..

وهكذا فان الشيطان يدخل من خلال هذه الغرائز ليوصل صاحبها الى

---

(١)الكافي ٤٢٥/٢ رواية ٥.

(٢)البحار ١٠ / ١٠٩ .

الخطأ والمعصية.

ولذلك ينبغي علينا ان نتحكم في غرائزنا وانفعالاتنا، وان نضبط أنفسنا ، وان نجعل ردود أفعالنا تحت سيطرة العقل والوعي ، وبهذا سوف لن يصدر عنا تصرف خاطىء نندم عليه حين نلتفت ..

كما ان ضبط النفس هو من مقدمات التكامل ، علاوة على انه سبب لتحصيل الثواب والقرب الرباني.

٨- إيهام الانسان بعدم اهمية المستحبات ونحوها، وكذلك تعويده على الكسل في الواجبات وعدم الاسراع اليها ، ولا يخفى ان هذا كله من تسويلات الشيطان وغوايته.

في حين ان الله تعالى مدح طائفة من الخلق بقوله :

﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ المؤمنون -٦١.

وورد في الحديث القدسي : (ما تحبب الي عبدي بشيء احب الي مما افترضتُ عليه ، وانه ليتَحبب اليّ بالنافلة حتى أُحبه ، فاذا أحببتهُ كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يبصر به ، ولسانَه الذي ينطق به ، ويَده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها، واذا دعاني أجبتُه ، واذا سألني أعطيتُه)[1].

اقول : معنى هذا الحديث ان الله تعالى سوف يدبر هذا العبد ، وسوف يكون معه في كل فعل يفعله، وسيؤيد جميع حركاته بالقوة والسداد..

٩- التأثير على العالِم بالغرور او العجب او التكبر، او عدم العمل بما يعلمه، او نحو ذلك من الآفات والعيوب التي قد يصاب بها العالِم (الجاهل) ..

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ

(١)البحار ٧٠ / ص٢٢ رواية ٢١ باب ٤٣.

الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ الاعراف (١٧٥-١٧٦).

في حين ان العالم مسئول ، حيث ورد عن الصادق (ع) : (يُغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالِم ذنب واحد)[١] ، كما انه ورد عن عيسى (ع) قوله : بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر[٢].

وروي ايضاً عن النبي (ص) : (ان اهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وان اشد اهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً الى الله فأستجاب له، وقبِل منه فأطاع الله فأدخله الله الجنة، وأُدخِل الداعي النار بتركهِ علمه واتّباعهِ الهوى وطول الأمل، اما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وطول الامل ينسي الآخرة)[٣].

١٠- التأثير على الناس لكي تحصل مشاكل اجتماعية فيما بينهم..

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾المائدة -٩١.

وهنا يتوجب على المؤمن ان يتجنب هذه المشاكل، وذلك بأن يتسامح قربة الى الله تعالى ، او يتذكر المواقف الحسنة للطرف الاخر ، او يقابل المشكلة ببرود ، على اعتبار ان صبره هذا لن يضيع عند رب العالمين ، وليستذكر مواقف المعصومين عليهم السلام عندما كانوا يمرون بمثل هذه المواقف ، وليحاول جاهداً ان يطبق الامر الالهي الذي يقول : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ

---

(١)مرآة الرشاد /ص٢١٤ عن الكافي / باب لزوم الحجة على العالم.

(٢)الوسائل / باب ٢٠ / جهاد النفس / حديث ٢.

(٣)الشافي ١/ ٦٨/ باب استعمال العلم / حديث١.

عَظِيمٍ﴾ فصلت (٣٤-٣٥).

١١- التأثير على المجتمع الانساني لأجل تبديل طبائعهم الفطرية بطبائع جديدة بعيدة كل البعد عن المفاهيم الالهية المقدسة.

حيث ورد في القرآن الكريم ان الشيطان اللعين يقول ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ النساء -١١٩.

وهذا ما حصل فعلاً مع الاسف ، بدليل ان كثيراً من المجتمعات تعتبر القيم والمباديء الاخلاقية نوعاً من التخلف ..

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سبأ - ٢٠.

وهكذا ، وبعد ان عرفنا عدداً من الاساليب الشيطانية ، يحسن ان نتذكر قول الله عزوجل :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الاعراف -٢٠٠.

مع الالتفات الى ان معنى الاستعاذة بالله تعالى ، هو التوكل عليه والاعتصام به ، والدخول في حمى قدسه وجبروته عزّ وجل ، وهذا يوجب علينا التطهر اولاً ، وكذلك يوجب علينا مراعاة حرمة الكنف[1] الإلهي ، حتى لا نخرج منه .

---

(١)الكنف هو الحرز ، وفي الدعاء (اللهم اجعلني في كنفك) أي في حرزك (مجمع البحرين ١١٦/٥).

طرق وقائية للتحصّن من الشيطان :

وقد مرت الاشارة اليها في المباحث السابقة ، حيث عرفنا ان تقوية الايمان بالله تعالى والتوكل عليه ، وزيادة التقرب اليه ، وكثرة التحبب اليه ، كلها امور مهمة للوقاية من الشيطان.

كما ان قراءة القرآن والأدعية ، وكذلك قراءة سير المعصومين (ع) واحوالهم تنفع جداً في الحذر والحيطة ..

وعرفنا ايضاً ان ضبط النفس ، وكثرة الانشغال بالامور النافعة لقتل الفراغ وتحصيل الثواب ، كلها لها دور في تحصين الانسان ودفع الشيطان عنه .. ولعل من اساسيات هذه الحصانة تصفية النفس ، وقد تكلمنا عنها كثيراً لأهميتها ودورها الفعال في تكامل الانسان .

حتى ان المعصومين (ع) ركزوا على هذه التصفية ، فقد ورد عنهم (ع) : (موتوا قبل ان تموتوا)[1] ، أي أميتوا واقتلوا شياطينكم وشهواتكم قبل ان تموتوا وتضيع فرصة التكامل من بين أيديكم .. وهذا ايضاً معنى من معاني قولهم (ع) : (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا)[2] أي ان الناس في غفلة فاذا ماتت شياطينهم وحجُبهم انتبهوا .

بقي أن نشير هنا الى الأمور التالية :

١- ان كل واجب او مستحب نفعله ، فانما نغيض به الشيطان ، وكذلك نؤذيه ونغيضه عند اجتناب أي محرم او مكروه .

---

(١)البحار ٥٩/٧٢.

(٢)ن.م ٤٣/٤.

وهـذا يعـني ان اداء الواجبـات والمسـتحبات ، واجتنـاب الـمحرمات والمكروهات ، هو أمر يُنفِّر الشيطان ويُبعده عنا .

٢- انه ورد عن النبي (ص) : (ان الشيطان يـجري من ابن آدم مـجرى الدم فضيِّقوا مجاريه بالجوع)[١].

وورد عنه (ص) أيضاً : (لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فان القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء)[٢].

وهذا صحيح حتى من الناحية العلمية ، بل كل واحد منا يحس بالتعب والاسترخاء اذا كثر طعامه ، وكذلك تؤدي كثرة الطعام الى هيجان الشهوة ، والى مضاعفات معنوية ليس هذا محل بيانها .

٣- انه ورد في الحديث : (ما من عمل أشد على ابليس من ان يرى ابن آدم ساجداً ، لأنه أُمر بالسجود فعصى ، وهذا أُمِر بالسجود فأطاع فنجا)[٣].

وورد عن الامام الصادق (ع) : (اقرب ما يكون العبد الى الله وهو ساجد)[٤] ، فالسجود هو من اوضح مظاهر العبودية لله تعالى ، كما ان الانسان في حالة السجود يضع جبهته على الارض ، وبذلك تـختفي عن عينيه الصور المادية التي كانت تشغله عندما يراها في وضعه الاعتيادي .

٤- ان دفع الصدقات ومساعدة الآخرين قدر الإمكان ينفع جداً في طرد الشيطان والتغلب عليه، حيث ورد في الحديث عن المعصومين (ع) : (داووا

(١)الميزان ٦٤/٨.
(٢)جامع السعادات ٤/٢.
(٣)الوسائل / باب ٢٣ / السجود / حديث ١١.
(٤)الوسائل / باب ٢٣ / السجود / حديث ٩.

مرضاكم بالصدقة ، وادفعوا البلاء بالدعاء ، واستنزلوا الرزق بالصدقة ، فانها تفك من بين لحيي سبعمائة شيطان[١]، وليس شيء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن ، وهي تقع في يد الرب تبارك وتعالى قبل ان تقع في يد العبد)[٢].

٥- ومن الأمور التي تحصن الفرد وتحفظه من كيد الشيطان : التفقه في الدين ، وكثرة الاتصال بالفقهاء ..

فقد ورد عن النبي (ص): ان الله عز وجل يقول تذاكر العلم بين عبادي مما تحيى عليه القلوب الميتة ، اذا انتهوا فيه الى امري)[٣] ..

وقال لقمان لإبنه : يا بُني جالِس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فان الله عز وجل يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض بوابل السماء)[٤].

وعن الصادق (ع) : (علماء شيعتنا مرابطون بالثغر الذي يلي ابليس وعفاريته يمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا ، وعن ان يتسلط عليهم ابليس وشيعته)[٥]..

ولذلك ورد في الحديث عن المعصومين (ع) : (فقيه واحد أشد على ابليس من ألف عابد)[٦].

لأن التفقه في الدين يعني تمييز الحق من الباطل، وكذلك يعني فتح الطريق امام التكامل والعمل الصالح ، وكذلك يعني معرفة الاشياء على حقيقتها ، حتى

---

(١)الوسائل / باب ٣ / الصدقة / حديث ١.

(٢)ن . م / باب ١٨ / الصدقة / حديث ١.

(٣)البحار ٢٠٢/١.

(٤)البحار ٢٠٤/١.

(٥)ن . م / ٢ / ٥.

(٦)ن . م / ١ / ١٧٧.

يُعلم ما ينبغي فعله ، وما ينبغي إجتنابه .

ولا يخفى ان للفقيه دور مهم في هداية الناس وارشادهم الى هذه الامور .

ولذلك يفرح الشيطان بموت العالم الفقيه ، حيث ورد عن المعصومين(ع) : (ما من احد يموت من المؤمنين احب الى ابليس من موت فقيه)[١].

٦- مر علينا ان التقوى ضرورية جداً للتغلب على الشيطان لأنه ورد في الحديث (من خاف الله أخاف الله منه كل شيء)[٢].

وكذلك ورد في القرآن الكريم قول الله تعالى :

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ الطلاق-٢.

وهذا علاج واضح لكل من يخاف الشيطان او يعاني من وساوسه ، فإنه اذا اراد المخرج والخلاص فليتقِ الله حق تقاته ، وعندئذ سوف يفي الله تعالى بعهده ويخلصه وينجيه ويجعل له مخرجاً.

وعن النبي(ص) : (لا يكمُل إيمان المؤمن حتى تكون فيه ثلاث خصال : حلم يردعه عن الجهل ، وورع يحجزه عن المعاصي ، وكرم يحسن به صحبته) .

٧- انه ورد في الحديث عن النبي (ص) : (من أكثر ذكر الله احبه الله ، ومن ذكر الله كثيراً كُتبت له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق)[٣].

وورد ايضاً ان الله تعالى ناجى النبي موسى (ع) : (ياموسى لا تنسني على كل حال ، فان نسياني يميت القلب)[٤].

---

(١)مرآة الرشاد / ص٢٠٦ نقلاً عن الكافي / باب فقد العلماء.

(٢)الوسائل / ج١١ / ص١٧٢.

(٣)الوسائل / باب ٥ / الذكر / حديث ١ و ٥.

(٤)الوسائل / باب ٥ / الذكر / حديث ١ و ٥.

ويقول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الكهف -٢٤.

ومحل الشاهد هنا انه يمكن التحصن من الشيطان ، وذلك بملازمة الذكر سواء كان لسانياً ام قلبياً.

كما ان الذكر قد يكون بنحو التدبر والتفكر في آيات الله تعالى الكونية ، وفي القرآن ، وكذلك في أدعية المعصومين (ع) وأحاديثهم.

كما انه قد يكون بنحو الإلتفات الدائم الى مراعاة القواعد والأحكام الإلهية ، بمعنى انه لا يتصرف الفرد الا بعد ان يتذكر الله تعالى ، ويلاحظ هل انه تعالى يرتضي ما سيفعله ام لا ..

وهذا هو معنى مراقبة الله تعالى في السر والخفاء ، وهي سبب اكيد للوقاية من الشيطان ، والتقرب من الخالق عزّوجل ..

ثم ان الذكر بصورة عامة له عدة فوائد ، فهو يوجب الثواب ، ويرفع الدرجات ، كما انه يطرد الشيطان، ويمحو السيئات ..

ومادام العبد ذاكراً لله تعالى فهو قريب منه ..

حيث ورد عن النبي (ص) : (خير ما طلعت عليه الشمس : ذكر الله سبحانه وتعالى ، فانه اخبر عن نفسه : أنا جليس من ذكرني)[1].

---

(١)ن . م / باب ١٠ / الذكر / حديث ٣.

وتحضرني في المقام هذه الأبيات في التحذير من الشيطان :

أيـــها الإنـسان مهلاً ما الذي قد جذبـك
إنما الدنيـــا سـراب وهــواء في شـــبــك
أبداً هيـــهات تقضي مِن لُماهـا مأربـك
حاكها الشيطان سِحراً ثـم أخفى ما حبـك
وأذاب النـفـس فيـها ويلــه ممـا سبـــك

وكذلك الأبيات التالية :

لماذا تُدنِّـــس قـلـبـاً وقــد بناه على الطهر خالقُــه
وألهــمـــه ان هـــذا حــلال وهـذا حــرام يُفــارقــُه
تذكَّر إذا صار يوم النشـــور ولله قامــت خـلائـقــُه
وجاء مع العبد نحو الحساب شهيـد حفيـظ وسائـقـُه
وفُـــض أمام الورى سِفـرُه وبانـت هناك حـقائـقـُه
يفـرّ ومهــما يفـرّ يـــرى خـطايـاه فهي تلاحـقـُه
ينادي وليس له من مجيب فقـد أبعدتـه بـوائقـــُه

خاتـمة

عتاب الإنسان مع الشيطان

وهنا نكتفي بإيراد الآيات القرآنية الواردة في المقام فان تأثيرها اوقع وأشد..

حيث نسمع أهل النار وهم يقولون يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنْ الأَسْفَلِينَ ﴾ فصلت -٢٩.

بينما يخاطبهم الشيطان قائلاً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ ﴾ ابراهيم -٢٢.

وفي الجهة المقابلة ، حيث النعيم والجنة ، يسأل احد المؤمنين عن قرين له كان يحاول ان يضله في الدنيا..

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنْ الْمُحْضَرِينَ ﴾ الصافات - (٥٥-٥٧)

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ الاعراف -٤٤.

وأخيراً، نسأل الله تعالى أن يعيذنا من الشياطين ، وان يجعلنا من أصحاب الجنة ، مع من يحب ويرضى ، وممن يحب ويرضى ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

من دعاء الإمام زين العابدين (ع)
في الإستعاذة من الشيطان

أَللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَكَيْدِهِ وَمَكَائِدِهِ ، وَمِنَ الثِّقَةِ بِأَمَانِيِّهِ وَمَوَاعِيدِهِ وَغُرُورِهِ وَمَصَائِدِهِ ، وَأَنْ يُطْمِعَ نَفْسَهُ فِي إِضْلاَلِنَا عَنْ طَاعَتِكَ وَامْتِهَانِنَا بِمَعْصِيَتِكَ ، أَوْ أَنْ يَحْسُنَ عِنْدَنَا مَا حَسَّنَ لَنَا ، أَوْ أَنْ يَثْقُلَ عَلَيْنَا مَا كَرَّهَ إِلَيْنَا ..

أَللَّهُمَّ اخْسَأْهُ عَنَّا بِعِبَادَتِكَ ، وَاكْبِتْهُ بِدُؤُوبِنَا فِي مَحَبَّتِكَ ، وَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِتْراً لاَ يَهْتِكُهُ ، وَرَدْماً مُصْمِتاً لا يَفْتُقُهُ .

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ، وَاشْغَلْهُ عَنَّا بِبَعْضِ أَعْدَائِكَ ، وَاعْصِمْنَا مِنْهُ بِحُسْنِ رِعَايَتِكَ ، وَاكْفِنَا خَتْرَهُ ، وَوَلِّنَا ظَهْرَهُ ، وَاقْطَعْ عَنَّا إِثْرَهُ ..

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَمْتِعْنَا مِنَ الْهُدَى بِمِثْلِ ضَلاَلَتِهِ ، وَزَوِّدْنَا مِنَ التَّقْوَى ضِدَّ غَوَايَتِهِ ، وَاسْلُكْ بِنَا مِنَ التُّقى خِلاَفَ سَبِيلِهِ مِنَ الرَّدى .. أَللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ لَهُ فِي قُلُوبِنَا مَدْخَلاً ، وَلاَ تُوطِنَنَّ لَهُ فِيمَا لَدَيْنَا مَنْزِلاً .

اللَّهُمَّ وَمَا سَوَّلَ لَنَا مِنْ بَاطِلٍ فَعَرِّفْنَاهُ ، وَإِذَا عَرَّفْتَنَاهُ فَقِنَاهُ ، وَبَصِّرْنَا مَا نُكَايِدُهُ بِهِ ، وَأَلْهِمْنَا مَا نُعِدُّهُ ، وَأَيْقِظْنَا عَنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ بِالرُّكُونِ إِلَيْهِ ، وَأَحْسِنْ بِتَوْفِيقِكَ عَوْنَنَا عَلَيْهِ .

اللَّهُمَّ وَأَشْرِبْ قُلُوبَنَا إِنْكَارَ عَمَلِهِ ، وَالْطُفْ لَنَا فِي نَقْضِ حِيَلِهِ .

أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَحَوِّلْ سُلْطَانَهُ عَنَّا ، وَاقْطَعْ رَجَاءَهُ مِنَّا ، وادْرَأْه عَنِ الْوُلُوعِ بِنَا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاجْعَلْ آباءَنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَوْلاَدَنَا وَأَهَالِينَا وَذَوِي

أَرْحَامِنَا وَقَرَابَاتِنَا وَجِيْرَانِنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْهُ فِي حِرْزٍ حَارِزٍ ، وَحِصْنٍ حَافِظٍ ، وَكَهْفٍ مَانِعٍ ، وَأَلْبِسْهُمْ مِنْهُ جُنَناً وَاقِيَةً ، وَأَعْطِهِمْ عَلَيْهِ أَسْلِحَةً مَاضِيَةً .

أَللَّهُمَّ وَاعْمُمْ بِذَلِكَ مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَأَخْلَصَ لَكَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَعَادَاهُ لَكَ بِحَقِيقَةِ الْعُبُودِيَّةِ ، وَاسْتَظْهَرَ بِكَ عَلَيْهِ فِي مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ الرَّبَّانِيَّةِ .

اللَّهُمَّ احْلُلْ مَا عَقَدَ ، وَافْتُقْ مَا رَتَقَ ، وَافسَخْ مَا دَبَّرَ ، وَثَبِّطْهُ إِذَا عَزَمَ ، وَانْقُضْ مَا أَبْرَمَ .

اللَّهُمَّ وَاهْزِمْ جُنْدَهُ وَأَبْطِلْ كَيْدَهُ وَاهْدِمْ كَهْفَهُ وَأَرْغِمْ أَنْفَهُ .

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا فِي نَظْمِ أَعْدَآئِهِ ، وَاعْزِلْنَا عَنْ عِدَادِ أَوْلِيَائِهِ ، لا نُطِيعُ لَهُ إِذَا اسْتَهْوَانَا ، وَلا نَسْتَجِيبُ لَهُ إِذَا دَعَانَا ، نَأْمُرُ بِمُنَاوَاتِهِ مَنْ أَطَاعَ أَمْرَنَا ، وَنَعِظُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ مَنِ اتَّبَعَ زَجْرَنَا .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَأَعِذْنَا وَأَهَالِينَا وَإِخْوَانَنَا وَجَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِمَّا اسْتَعَذْنَا مِنْهُ ، وَأَجِرْنَا مِمَّا اسْتَجَرْنَا بِكَ مِنْ خَوْفِهِ ، وَاسْمَعْ لَنَا مَا دَعَوْنَا بِهِ ، وَأَعْطِنَا مَا أَغْفَلْنَاهُ ، وَاحْفَظْ لَنَا مَا نَسِيْنَاهُ ، وَصَيِّرْنَا بِذَلِكَ فِي دَرَجَاتِ الصَّالِحِينَ وَمَرَاتِبِ الْمُؤْمِنِينَ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

الكتاب السابع

شرح زيارة أمين الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمدٍ وآله الطاهرين.

لا يخفى أن الزيارة المعروفة بزيارة (أمين الله) هي من أقوى الزيارات سنداً ، وقد رواها الإمام الباقر (ع) عن أبيه الإمام السجّاد (ع) كما هو ثابت في كتب الأدعية والزيارات[1].

ولهذه الزيارة عدة خصائص وميزات أهمها:

١- أنها غير خاصة بالإمام علي (ع) ، بمعنى أنه يجوز أن يزار بها كل واحد من الأئمة الإثني عشر (ع) ، مع وضع اسم الإمام المقصود بدل عبارة (يا أمير المؤمنين). وقد ورد في الحديث عن الباقر (ع) في مضمون هذه الزيارة أنه (ما قاله أحد من شيعتنا عند قبر أمير المؤمنين (ع) أو عند قبر أحد من الأئمة ، إلا وقع في دُرجٍ من نور وطبع عليه بطابع محمد (ص) حتى يسلّم الى القائم فيلقى صاحبه بالبشرى والتحية والكرامة ان شاء الله تعالى).

٢- يمكن أن تؤدى هذه الزيارة أيضاً بصيغة التثنية ، كما في زيارة الكاظمين (ع) ، وهذا مروي عن الإمام المهدي أرواحنا له الفداء في قصة الحاج البغدادي التي نقلها القمي في مفاتيح الجنان.

٣- ان هذه الزيارة تشتمل على مناجاة جليلة عالية المضامين ، ولا مانع من قراءة هذه المناجاة في كل وقت ومكان ، خصوصاً عند حضور القلب وتوجه الفؤاد.

وقد حاولت في هذه الأوراق المتواضعة ، أن أتحدث بشيء من التوضيح

---

(١) انظر فرحة الغري ص٧٠ و٧٣ والوسائل: ٣٠٥/١٠ من ابواب المزار.

والبيان ، وبمقدار ما يخطر في البال عن فقرات هذه الزيارة المباركة ، رغم أني دون المستوى المطلوب ، ورغم أني أحوج الناس الى التعلم والمعرفة ، والعمل والتطبيق ، ولكني أرجو بعملي القاصر هذا أن أنال عطف ربي ومولاي عز وجل ، وأن أحصل على شفاعة نبينا محمد (ص) ، ووصيه الكرار علي (ع)، وسائر أهل بيته الطاهرين (ع) ..

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

﴿زيارة أمين الله﴾

السلامُ عليكَ يا أَمينَ اللهِ في أَرْضِه، وحُجَّتِه عَلى عِبادِه، السَلامُ عَليكَ[١] يا أميرَ المؤمنينَ أشهدُ أنكَ جاهَدْتَ في اللهِ، حَقَّ جِهادِه، وعَمِلْتَ بكتابِه، واتَبَعْتَ سُنَنَ نَبِيِّه[٢] صلى اللهُ عليه وآله، حتى دَعاكَ اللهُ إلى جِوارِه، فَقَبَضَكَ إليه باخْتِيارِه[٣]، وأَلْزَمَ أَعْدَاءَكَ الحُجَّةَ[٤] مع ما لَكَ مِنَ الحُجَجِ البالِغَةِ على جميعِ خَلْقِه.

اللهُمَّ فَاجْعَلْ[٥] نفسي مُطمئنةً بقَدَرِكَ، راضيةً بقضائِك، مُولَعةً بِذكرِك ودُعائِكَ، مُحِبَّةً لِصَفْوَةِ أوليائِك، مَحبُوبةً في أرضِكَ وسمائِك، صابرةً على[٦] نزولِ بلائك ، شاكرةً لفواضلِ نعمائك، ذاكرةً لسوابغِ آلائك ، مُشتاقةً إلى فرحةِ لقائِك ، مُتَزَوِّدَةً التقوى ليومِ جَزائِك ، مُسْتَنَّةً بِسُنَنِ أوليائِك، مُفارِقةً لأخلاقِ أعدائك، مَشغولةً عن الدُنيا بِحَمْدِك وثَنائك[٧].

اللهمَّ إنَّ قلوبَ المُخْبِتينَ إليك والهةٌ، وسُبُلَ الراغبين إليك شارعةٌ، وأعلامَ القاصدين إليك واضحةٌ، وأفئدةَ العارفين منك فازعةٌ، وأصواتَ الداعين إليك صاعدةٌ، وأبوابَ الإجابةِ لهم مُفَتَّحةٌ، ودعوةَ مَنْ ناجاك مُستجابةٌ، وتوبةَ من أنابَ إليك مقبولةٌ، وعبرةَ من بَكى مِنْ خَوفِكَ مَرْحُومةٌ، والإغاثةَ لمن استغاثَ بك

---

(١) في بعض النسخ (يا مولاي).

(٢) (محمد).

(٣) (لك كريم ثوابه).

(٤) (في قتلهم إياك).

(٥) (اجعل)

(٦) (عند)

(٧) (يا كريم يا كريم يا كريم).

موجودةٌ [١]،والإعانةَ لِمَنْ استعانَ بك مبذولةٌ [٢]، وعِداتك لعبادكَ مُنْجَزَةٌ، وزَلَلَ مَنْ استقالك مُقالةٌ، وأعمالَ العاملين لديك محفوظةٌ، وأرزاقك إلى الخلائق[٣] من لَدُنْكَ نازلةٌ، وعوائدَ المزيدِ إليهم واصلةٌ، وَذُنُوبَ المُسْتَغفِرينَ مَغْفُورةٌ، وحوائج خَلْقِكَ عندك مَقْضِيَّةٌ، وجوائزَ السائلين عندك مُوَفَّرَةٌ ، وعوائدَ المزيدِ مُتواترةٌ ، وموائدَ المُستَطْعِمينَ مُعَدَّةٌ، ومَناهِلَ الظِمَاءِ[٤] مترعةٌ.اللهم فاستجبْ دُعائِي، وَاقْبَلْ ثَنائي[٥]،

واجمعْ بيني وبين أوليائي، بحقِّ مُحَمدٍ وعليٍّ وفاطمةَ والحسنِ والحُسينِ[٦]، إنكَ وَليُّ نَعْمَائي ومُنْتَهى مُنايَ، وغايةُ رَجائِي، في مُنْقَلَبي ومَثْوَايَ[٧].

أنتَ[٨] إلهي وَسيدي ومَولاي اغفرْ لأوليائِنا، وكُفَّ عَنا أعداءَنا، واشغَلْهم عن أذانا، وأظهِرْ كلمةَ الحقِّ واجعلْها العُليا، وادحضْ كلمةَ الباطلِ واجعلْها السفلى، إنك على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

---

(١) (مبذولة).

(٢) (موجودة).

(٣) (وارزاق الخلائق).

(٤) (لديك).

(٥) في نسخة ضياء الصالحين بعدها (واعطني جزائي).

(٦) في بعض النسخ (والتسعة المعصومين من ذرية الحسين (ع)).

(٧) في نسخة الضياء ايضاً تسلّم بعد هذه الفقرة على امير المؤمنين (ع) (والسلام عليك يا سيدي ومولاي ورحمة الله وبركاته).

(٨) هذه التكملة من الدعاء موجودة في بعض النسخ.

١- السلام عليك:

كلنا نحتاج ان نزور أئمتنا (ع)، ونسلم عليهم بين الحين والآخر، بل في كل حين، لعلهم يردون السلام ويتفضلوا علينا بالتحية والإكرام..

وقد ورد في زيارة الإمام علي (ع) (أشهد أنك تسمع كلامي وتشهد مقامي).

وورد ايضاً في الدعاء (وأعلم أن رسولك وخلفاءك أحياء عندك يرزقون ، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردون سلامي ، وأنك حجبت عن سمعي كلامهم ، و فتحت باب فهمي بلذيذ مناجاتهم).

و اذا كان رد السلام واجبا بحسب الأصل و العنوان الأولي ، فشتان بين ذلك الجواب الذي يرافقه رضا او قبول ، و اقبال و سرور ، و بين ذلك الجواب الذي يرافقه سخط أو إعراض او نفور.

فالزائر الذي يلتزم بشروط الايمان و آداب الزيارة هو زائر كريم ، لانه يحترم نفسه و يحترم الحضرة التي هو فيها، و بالتالي فهو يستحق (بحسب الاقتضاء) من الامام (ع) ان يرد عليه بأحلى سلام و اجمل تحية.

و اما الزائر الآخر الذي لا يلتزم بالشريعة ، و لا يحترم الزيارة ولا يوقّر المراقد المقدسة ، فسيجد نفسه أمام جحيمين معنويين :

فإما أن يرد عليه الامام (ع) بالسلام الواجب مع البرود او السخط او النفور، وإما ان لا يرد السلام عليه أصلاً إذا كان لا يستحق ذلك والعياذ بالله.

وقد ورد أن احد المعصومين (ع) كان يرتبك ويرتعد عندما يحل وقت التلبية في موسم الحج، وكان يقول بما مضمونه (إنني أخشى اذا قلت لبيك اللهم لبيك، أخشى ان يجيبني ربي لا لبيك ولا سعديك).

فإذا كنا نعلم يقيناً ان المعصوم (ع) أجلّ وأرفع من ان يقال له ذلك ، وإنما هو تواضع منهم (ع) ، ودرس وموعظة لسائر النفوس التي توسخت بالأدران، وتنجست بالموبقات المادية والمعنوية ..

فالمفروض بنا أن نلتفت لأمرنا ونكون على مستوى المسؤولية ، حينما نزور أئمتنا (ع) (الذين يرضون لرضا الله عزوجل ويسخطون لسخطه) ، خصوصاً واننا نطمع في قربهم وشفاعتهم قربة الى الله رب العالمين.

ولذلك ورد في الزيارة (وابلغهم عني افضل التحية والسلام ، واردد علي منهم التحية والسلام) ، في إشارة الى ما ذكرناه من ان جوابهم (ع) يحتاج الى علل ومقدمات ، وإذا كانت هذه العلل غير موجودة فينا لقصور او تقصير ، فالمفروض بنا أن نتمسك بالمعصومين أكثر وأكثر.

واما ترك الزيارة بحجة عدم الاستحقاق ، فهو من التسويلات الشيطانية التي لا تؤثر إلا على الجاهلين، الذين لا يستوعبون مقدار الرحمة الإلهية ، ولا يدركون حجم الإمدادات والفيوضات الربانية التي تمتلىء بها هذه الحضرات المقدسة وتفيض بها هذه المراقد الطاهرة.

فقد ورد في رواية الصادق (ع) عن النبي (ص) انه قال لأمير المؤمنين (ع) (يا أبا الحسن ان الله قد جعل قبرك وقبر (قبور) ولدك بقاعاً من بقاع الجنة ، وعرصة من عرصاتها، وان الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوة من عباده، تحن إليكم ،وتحتمل الأذى والمذلة فيكم ، فيعمرون قبوركم ويكثرون زيارتها تقرباً منهم الى الله ومودة منهم لرسوله .. أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي، والواردون حوضي، وهم زواري غداً في الجنة)[1].

---

(١) انظر كتاب المزار في نهاية كتاب الحج من الوسائل ٢٩٨/١٠.

٢ - يا أمين الله في أرضه :

الأمانة بحسب الوارد في جملة من الروايات هي الخلافة على هذه الأرض، حيث يقول الله عز وجلّ :

(إنا عرضنا الأمانــة على السماوات والأرض ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان) (الأحزاب- ٧٢).

وكما يوجد خلفاء صالحون ، يوجد بالمقابل (خلفاء) ضالون منحرفون .. ولما كان أغلب الناس يسارعون في الشهوات ، ولا يطيقون الصبر على الطاعات ، فقد عبّر الله تعالى بقوله بعد الآية السابقة : (إنه كان ظلوماً جهولاً) ..

مشيراً بذلك الى الاعم الأغلب من النوع الانساني، فإنهم يظلمون أنفسهم بعدم أداء الأمانة وعدم القيام بأعباء الخلافة ومسئولياتها، جهلاً منهم بواقع الحال ، مع ان هذ الجهل يمكن ان يرتفع عنهم بالوعي والتدبر والتمسك بمنهج الأنبياء والأئمة.

ولعل هذا هو المقصود بما ورد من ان الأمانة هي ولاية أمير المؤمنين (ع) ، باعتبار ان الالتزام بهذه الولاية هو التزام بمنهج الحق ، الذي يرفع الإنسان الى مقام الخلافة ومسؤولية الأمانة.

فهذه الأمانة والخلافة لها مقامات كثيرة ، وفيها ميزات عظيمة، فلا يصلح لها كل من هبّ ودبّ ، وان ادعاها وتنافس عليها بجهله وظلمه، وقد قال رب العالمين: (لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) .

وانما يصلح لهذا المنصب ، خصوص من اعتصم بالله فأخلصه واجتباه اليه ، وجعله متكاملاً نحوه ، من الناحيتين النظرية والعملية ، وعلى المستويين الظاهري

والباطني.

فأمين الله هو الخليفة الذي استودعه الله تعالى على أسراره وخليقته ، وجعله قيّماً على هذه الأرض وسائر المخلوقات، ليتصرف وفق الولايتين التشريعية والتكوينية ، (عبدي أطعني تكن مثلي)..

وبذلك تحفظ الأمانة وتصان الوديعة ، حينما تتحقق المبادئ الإلهية ، وتطبق التشريعات المولوية ، ويكون القائد أول القوم إسلاماً وأكثر الأمة التزاماً ..

فيكون النموذج الرمز والعنوان ، وبذلك تتحقق الأسوة الصالحة للأمة ، لتعرف خطها ومنهاج حياتها ، وتمضي برفقة قائدها ، في طريق التخلق بأخلاق الله رب العالمين ، امتثالاً للحكمة الشرعية التي تقول لنا جميعاً على حد سواء (تخلّقوا بأخلاق الله).

ومحل الشاهد هنا ان الامام علي (ع) ، وسائر الأئمة (ع) كما ورد في الأحاديث الشريفة ، هم خلفاء الله في أرضه وأبوابه التي منها يؤتى، وقد جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، والحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى[١].

ثم انه يوجد معنى آخر للأمانة، وهو المعنى المعروف متشرعيا، فالأمين هو الذي يحفظ الحقوق ولا يتعدى عليها، ومعلوم ان المؤمن المتكامل هو الذي يحفظ علاقته مع الله تعالى ، ويصون حقوق خالقه عليه، ويحفظ حقوق الآخرين عليه ، و يراعي حقوق نفسه وجوارحه[٢]، فلا يعرّضها للتهلكة ولا يسلمها الى الشياطين ، فإنما هي أمانة في يده ، فلا يفرّط بها ، ولا يخونن من استأمنه عليها ، فإن المالك

---

(١) انظر الروايات في الشافي في شرح اصول الكافي ٨٥/٢و٩٩.

(٢) راجع رسالة الحقوق للإمام السجاد (ع).

عظيم ، والحساب عسير ، كما ان الثواب وفير ..

وقد قال الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) (النساء:٥٨)

وقال ايضاً عز وجل :

(لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ) (الأنفال:٢٧) .

بقي أن نشير الى معنى (الأرض) الوارد في هذه الفقرة فإن ظاهرها هو هذه الأرض التي نعيش عليها ،ولعلها مركز الكون معنوياً ، باعتبار ما ورد من ان أئمتنا (ع) هم الحجة على جميع الخلائق ، مهما كان عالمهم وكوكبهم ، حيث يقول الصادق (ع) كما في رواية الخصال[١]: (كل عالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين) .

وقد ورد في بعض أدعية رمضان (ورب الأرضين السبع وما فوقهن) .

وفي رواية عن النبي (ص) (يغفر الله لك ذنوبك وإن كانت مثل الأرضين السبع)[٢].

وكذلك توجد رواية عن الرضا (ع) (انها سبع أرضين)[٣].

فالإمام (ع) هو أمين الله في أرضه ،سواء كان المقصود بالأرض معناها الخاص او الأعم..

---

(١) ص ٦٠٢.

(٢) منازل الآخرة، ص١١٠.

(٣) الميزان ٣٢٧/١٩.

بل يمكن – على مستوى أعمق – ان نفهم من الأرض جميع محال العبادة وبقاعها ، فالقلب أرض يُعبد فيها الله، وكذلك النفس الصافية، وهكذا سائر الجوانح والجوارح.

كما ان لكل أرض سماء تفيض عليها بما يناسبها من البركات والخيرات، وفي ذلك يقول الله عز وجل.

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) (النحل:٦٥)

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) (الذاريات:٢٢).

٣- وحجته على عباده:

حيث ورد في الحديث عن النبي (ص): (علي حجة الله وخليفته على عباده) .. والحجة تطلق على الدليل والبرهان الذي يُحتَج به على الآخرين تنجيزاً ، ويحتج به الآخرون تعذيراً ، فإن الله تعالى خلق الخلق لأجل ان يتكاملوا و ينالوا الجنة والنعيم على اختلاف معانيهما ومستوياتهما[1]، وهذا هو معنى العبادة في قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:٥٦).

وقد جعل الله تعالى لخلقه وعباده حجتين (كما في الحديث) إحداهما باطنة وهي العقول السليمة، والثانية ظاهرة وهي الرسل وأوصياؤهم (ع) ، ووظيفتهم هداية العباد وإرشادهم إلى خالقهم عبر الصراط المستقيم.

فهم - كما ورد في الروايات - [2] أنوار الله، وسبل السلام ، وسفن النجاة ، حتى ورد عن الإمام (ع) في تفسير قوله تعالى (ويجعل لكم نوراً تمشون به) يعني (إماماً تأتمون به).

وفي بعض زيارات الأئمة (ع) المروية عن المهدي (ع) (وحججك على خلقك، وخلفائك في أرضك، الذين اخترتهم لنفسك واصطفيتهم على عبادك، وارتضيتهم لدينك، وخصصتهم بمعرفتك، وجللتهم بكرامتك وغشيتهم برحمتك، وربيتهم بنعمتك، وغذيتهم بحكمتك...).

فالإمام (ع) هو حجة الله على العباد ، وقد ورد عنهم (ع) (فنحن حجج الله في

---

(١) انظر كتابنا (الله أكبر من الشيطان) ، في علة الخلق ووجود النوع الانساني.

(٢) انظر الشافي، ٨٧/٢.

عباده وخزّانه على علمه)[١]، وفي رواية أخرى (وبهم احتج الله تبارك وتعالى على خلقه)[٢]، وفي حديث آخر عنهم (ع) (ونحن الحجة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض)[٣]، أي انهم حجة على جميع المخلوقات المكلفة ، أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، او يقولوا انا محرومون ، أو لم يصل الينا نداء التكليف ، أو لم تصل الينا علامة او أمارة، او لم يطرق جوارحنا برهان أو دليل ، ولم يمر على جوانحنا تبيان من هذا القبيل ، فهذا الإمام هو الحجة والبرهان والعلامة والدليل.

أو لعلهم يقولون اننا عاجزون عن الامتثال ، قاصرون عن سبل الكمال ، او اننا لا نصبر على الطاعات ، ولا نقوى على اجتناب المحرمات، فهذا الامام هو النموذج والمثال ، فالحجة بالغة ، ولا منجى ولا ملجأ من الله إلا اليه.

---

(١)انظر الشافي ٨٤/٢.

(٢) انظر الشافي ٨٦/٢.

(٣) انظر الشافي ٨٢/٢.

٤- السلام عليك يا أمير المؤمنين[1]:

امير القوم هو سيدهم وقائدهم ، واما أتباعه فهم الذين يمشون خلفه بقدم الولاء والطاعة ، ويمسكون بيده بعنوان المتابعة والتعلق..

هذا بحسب الاصل والعنوان الأولي (كما يعبّرون)، ولعل بين الإمارة (بالكسر) والأمارة (بالفتح) وهي العلامة ، إرتباط وانسجام ، فالأمير له إمارة على اتباعه ، وهو أمارة لهم في الوقت نفسه.

ومن هنا كان شرف الأتباع مناسباً لشرف الأمير، فإذا كان سيدهم وأميرهم كريما عزيزاً شريفاً ، فإن ذلك سينسحب بحسب المفروض على اتباعه وأصحابه ..

وقد ورد عن الإمام علي (ع) (الناس بأمرائهم أشبه منهم بآبائهم)..

فكيف إذا كان الأمير او القائد يحظى بأعلى المراتب عند رب العالمين وخالق الخلق أجمعين ، وكيف إذا كان القائد أو الأمير ممن يحبه الله ورسوله ، ولا يعرفه حق معرفته إلا الله ورسوله، كما شهد النبي (ص) للإمام علي (ع) في عدة مواطن.

وقد نُقل أن جماعة قالوا اننا عرفنا فضل علي (ع) بصحبة عمار وسلمان ونحوهما له ، فقيل لهم بما مضمونه : ويحكم انما عرفنا فضل هؤلاء ، بصحبتهم للإمام علي ، واتّباعهم لخطه المحمدي (ص).

ومن هنا نفهم السر في الروايات الواردة عن المعصومين (ع) في فضل الشيعة ومنزلتهم عند الله عز وجل، فهم أصحاب المعصومين (ع) بقلوبهم وضمائرهم ،

---

١) في نسخة ضياء الصالحين (يا مولاي يا أمير المؤمنين).

وان لم ينالوا شرف صحبتهم بأجسامهم وأبدانهم..

حتى ورد ان ثواب شيعتهم في عصر الغيبة افضل من ثواب شيعتهم في عصرهم (ع)، لأن هؤلاء صبروا وهم يرون أئمتهم ، ونحن نصبر بإذن الله تعالى ونسير على خطاهم ونهجهم ، من دون ان تراهم عيوننا ، وان كانت قلوبنا مطلعة عليهم ، مشتاقة اليهم، والهة بذكرهم ، نسأل الله عز وجل ان يمن علينا بفرحة لقائهم ، وكرامة شفاعتهم (ع).

وفي الحقيقة فإن لكل إنسان توفيقه الذي يستحقه برحمة الله عز وجل ، ولئن كانت الخطوة الاولى من العبد كما هو وارد ، فإنه مأمور إذاً بالإيمان والالتزام والصدق والاخلاص مع نفسه وخالقه عز وجل ، ليكون مستحقاً للدخول تحت راية القائد الشرعي والأمير الحقيقي ، الذي يقود الناس الى ساحة القدس والهداية. وقد ورد في الحديث عن الباقر (ع) : (أيكتفي من انتحل التشيع ان يقول بحبنا أهل البيت ، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه).

وفي الحديث عنه (ع) ايضاً (فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا ، ومن كان عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا).

ولا يخفى ان الأئمة (ع) هم اولياء أمورنا ، باعتبار ان الله تعالى أوجب علينا طاعتهم ومودتهم ، بل هم آباؤنا الحقيقيون ، باعتبار انهم ضحوا بأنفسهم من أجل تربيتنا وهدايتنا وإحياء قلوبنا، ومن أجل اعلاء كلمة خالقنا عز وجل.

وقد ورد في الحديث عن النبي (ص): (يا علي انا وانت أبوا هذه الامة) .. ولا يخفى ان إسخاط الوالدين حرام ، والبر بالآباء واجب على اية حال.

فلنعلم جيداً انهم يحبون منا الطاعة والحسنى ، وتؤذيهم منا المعصية والسيئة ، ولنتذكر انهم يتعاملون معنا بما ورد عنهم عليهم السلام (من أوثق عرى

الإيمان ان تحب في الله وتبغض في الله وتعطي في الله وتمنع في الله).

وقد ورد عن الصادق (ع) انه قال لبعضهم (مالكم تسوؤون رسول الله (ص)؟ فقال رجل كيف نسوؤه؟ فقال: أما تعلمون ان اعمالكم تعرض عليه فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك).

ثم انه تجدر الاشارة هنا الى ان السلام على الإمام علي (ع) بإمرة المؤمنين انما هو مبايعة ضمنية وعهد على الولاء ، ولذلك امر النبي (ص) أصحابه يوم غدير خم ان يسلموا عليه بهذا العنوان ، بعد ان أعلن نداءه العظيم (من كنت مولاه فهذا علي مولاه)[1].

فهذه المبايعة والمعاهدة مع الامام (ع) ينبغي ان تذكرنا بأننا مطالبون بالتحلي فعلاً بعلامات المؤمن وشروط الإيمان، اذا كنا نطمح بجدية بأن ندخل في صف (المؤمنين) ، الذين يعيشون معنى الولاية ويتذوقون حلاوة آثارها ، مع ذلك الإمام الولي والقائد الزكي، الذي وصل الى أعلى مراتب العبودية المقدسة بقوله مناجياً الله عز وجلّ (إلهي كفى بي عزا ان اكون لك عبداً ، وكفى بي فخراً ان تكون لي رباً) ، وقوله (ع) أيضاً (إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك).

---

(١) انظر موسوعة الغدير، والمراجعات، وتاريخ الاسلام الثقافي والسياسي.

٥- اشهد أنك جاهدت في الله حق جهاده:

الشهادة بالحق واجبة، ولا سيما اذا كان في اعلانها تعظيم للشعائر ، و اظهار للحقيقة ، و تأييد لأهل الهدى ، و تقوية للشجرة الطيبة ، التي اصلها ثابت ، و فرعها في السماء ، وهي شهادة مأجورة و مؤثرة على قدر نية صاحبها. يقول الله عز و جل(وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) (البقرة:٢٨٣).

و في الحقيقة فان لكل شئ حق ، و هو جوهره وأصله ، و اعمق مراتبه ، و غاية امره ..

فهناك حق اليقين ، وحق الايمان ، وحق التقوى ، و حق الجهاد ايضا ، سواء كان الجهاد ظاهرياً ، ام باطنياً وهو المعبّر عنه بالجهاد الأكبر ، أو جهاد النفس عن ارتكاب المرجوحات فضلاً عن المكروهات والمحرمات.

ولئن كان أهل المعرفة قد ساروا في درب الجهاد في الله أو في سبيل الله[1]، فإن القليل منهم من نال مرتبة حق الجهاد ، لأن حق الجهاد معناه ببساطة ان فهم الفرد وكذلك عمله يكون تاماً ومتكاملاً من جميع الجهات، وعلى جميع المستويات ، بحيث انه وصل الى الغاية القصوى ، وهذا مما يصعب تحصيله إلا لذوي المقامات العالية من المخلِصين المخلَصين الذين لو كُشِفَ لهم الحجاب لما ازدادوا يقيناً، لأنهم اخترقوا جميع الحجب، وحصلت لهم الحياة الحضورية التامة، وتحققت عندهم التجليات التي اندكت لها الجبال.

---

(١) قالوا ان الجهاد في الله أعلى درجة من الجهاد في سبيل الله ، ولعل الاول كناية عن الجهاد الخالص الحقيقي الذي لا يقوى عليه إلا من أخلص نيته وغايته لله فلم يبصر سواه؛ ولم يتعلق إلا به، وهو جهاد العارفين سواء كان جهاداً أكبر أم أصغر.

ولا يخفى على أحد أن الامام علي (ع) هو سيد العارفين ، وإمام أهل الحق والصفاء ، فهو القائد السبّاق في ميادين الجهاد الأكبر ، وهو اللواء الأظهر الذي تلوذ به القلوب والأفئدة إذا حمي عليها وطيس الشيطان والنفس الامارة، وهو الجبل الأشمّ الذي يلجأ اليه الزاهدون في الدنيا الراغبون في الآخرة، ومن خلاله يُرتقى نحو السماء.

ولعل من المناسب هنا أن نستذكر بتأمل وتدبر ما ورد في زيارته (ع) ليلة المبعث: (كنتَ أول القوم إسلاماً، وأخلصهم أيماناً، وأشدهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم عناءاً، وأحوطهم على رسول الله (ص) وافضلهم مناقب وأكثرهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه ، قويت حين وهنوا، ولزمت منهاج رسول الله (ص) وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقتَ حين تتعتعوا، ومضيتَ بنور الله إذ وقفوا، فمن اتبعك فقد اهتدى. كنت أولهم كلاماً وأشدهم خصاماً وأصوبهم منطقاً ، وأسَدّهم رأياً ، وأشجعهم قلباً، وأكثرهم يقيناً، وأحسنهم عملاً ، وأعرفهم بالأمور ، كنتَ للمؤمنين أباً رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً ، فحملت أثقال ما عنه ضعفوا ، وحفظتَ ما أضاعوا، ورعيتَ ما أهملوا ، وشمّرتَ إذ جبنوا ، وعلوتَ إذ هلعوا ، وصبرتَ إذ جزعوا ، كنتَ على الكافرين عذاباً صبّاً ، وغلظةً وغيظاً ، وللمؤمنين غيثاً وخصباً ، وعلماً لم تُفلل حجتك ، ولم يزغ قلبك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كنت كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله (ص) :(قوياً في بدنك متواضعاً في نفسك عظيماً عند الله كبيراً في الأرض، جليلاً في السماء) الى آخر الزيارة الشريفة .

هذا هو الجهاد الحقيقي ، جهاد العلم والأخلاق والمثل العليا والتربية العامة

والخاصة ، علاوة على الجهاد في سوح القتال ضد أعداء الله عز وجلّ.

وفي الحقيقة فإن ساحات الجهاد كثيرة ومتنوعة ، ولكل مؤمن جهاده الخاص ومعركته الخاصة على حسب وضعه وقابلياته ومسئولياته ، ودوره الفعلي في الحياة ، فجهاد المرأة في بيتها مع زوجها وأطفالها ، وجهاد العالم في ميادين الفكر والبراهين، وجهاد السياسي في كيفية حماية أرضه وأمته، وهكذا فإن لكل منهم ثوابه وأجره ومنزلته على قدر مجاهدته، وبمقدار جهده ومشقته، ما دام عمله وجهاده هذا مشروعاً، وفي ذلك يقول الله تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلا مَا آتَاهَا) (الطلاق:٧).

ويبقى النصر او الشهادة إحدى الحسنيين في جميع هذه الموارد.

٦- وعملت بكتابه:

العمل هو التطبيق الفعلي بالشكل المناسب ، وهو مرتبة فوق العلم..
فللقلب عمل ، وللسان عمل ، ولسائر الجوارح عمل. والعامل المتكامل هو الذي يطبق كل ما هو مطلوب منه على جميع المستويات ، وبمقدار العمل وحجم الإخلاص يحصل التفاوت في مراتب العباد ومنازلهم عند الله عز وجلّ.

والامام (ع) قد عمل بكل ما ورد في القرآن الكريم الذي هو كتاب الله رب العالمين ، فإذا عرفنا أن للقرآن عدة بطون ، وعدة مستويات ، فهذا يعني بالتأكيد ان الامام (ع) قد استوعب جميع تلك البطون والمستويات فهماً وتطبيقاً ، وهذه مقدرة عظيمة لايتحملها إلا الخاصة من المخلَصين (بالفتح).

وينبغي الالتفات هنا الى ان العمل يفتح أبواباً أخرى للعلم ، وبذلك تزداد المسئولية وتعظم التكاليف وتكثر الآثار ، وكما يقول الشاعر (على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ).

وفي الحقيقة فإن أسرار القرآن (وهو كتاب الله) واسعة وغير متناهية ، حيث ورد فيه أنه تبيان لكل شيء، ويقول الله تعالى فيه (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ، إلا أن كل طبقة تفهم منه ما يلائم مداركها ومقدار توفيقها، وبما يناسب اجتهادها النظري والعملي في طاعة الخالق عز وجل.

ومحل الشاهد هنا ان الامام علي (ع) عمل بكتاب الله كله ، حتى انه الوحيد الذي عمل بآية المناجاة ، فقدّم بين يدي نجواه صدقة ثم نُسِخت الآية ، فلم يعمل بها سواه.

بل انه (ع) عمل أيضاً بالتكاليف الإلهية الأخرى الموجودة في عالم اللوح

، وكتاب الإرادة الإلهية والمعرفة الربانية ، ذلك الكتاب الذي وصفه الخالق عز وجل بقوله (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (الرعد:٣٩) ، وقوله تعالى (عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لايَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) (طه:٥٢) .
وقد اقترن عمله (ع) في جميع المستويات بالإخلاص التام واليقين الراسخ ، فاستحقّ بذلك أعلى المراتب القدسية جنباً الى جنب مع نبينا الأكرم محمد (ص).

وهكذا فإن كل واحد من الأئمة (ع) يعمل بتكليفه الخاص ، ويؤدي دوره المفروض ، وقد ورد في بعض الروايات ما مضمونه أن الأئمة (ع) يحتفظون بكتاب خاص أو شيء من هذا القبيل غير كتاب الله (القرآن) ، يرون فيه تكاليفهم ومسئولياتهم واحداً واحداً ، ولئن تعددت ادوارهم واختلفت تكاليفهم ، فالهدف واحد بكل تأكيد والغاية واحدة تماماً ، وإنما تتنوع الأساليب على حسب الظروف والمناسبات.

بقي أمر ينبغي ان نلتفت اليه نحن العوام القاصرون المقصرون ، فإننا أحوج ما نكون الى العمل في سبيل الله عز وجل، حيث ورد في القرآن الكريم (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون) (التوبة:١٠٥).
فإن المقصود ان الله تعالى يرى أعمالكم الصالحة بعين الرضا والقبول وحسن الثواب ، كما أن الرسول (ص) وسائر الأئمة (ع) يرون أعمال الخلائق أيضاً في جملة من الروايات[1]، وهذا طبعاً بالتسديد الإلهي والكشف الرباني[2]، بل ورد في بعض الروايات ما مضمونه ان المؤمن الحقيقي عموماً ينظر بنور الله ، وهو غير

---

(١)انظر الشافي: ١٥٦/٢. والميزان: ٣٨٥/٩.

٢) وقد يكون المعنى ان النبي (ص) سوف يرى اعمالنا الصالحة في صحيفته المقدسة ايضاً؛ باعتبار انه سبب هدايتنا ، وقد ورد ان من سنّ سنةً حسنة فله اجرها واجر من عمل بها.

بعيد على اهل المعرفة والإخلاص.

ثم ان المؤمنين يرون اعمالنا ، بمعنى انهم يرون آثارها ونتائجها ، فيفرحون بما هو صالح ويدعون لنا اذا استفادوا منها ، ويحاولون اكمال الطريق من جهتهم، وهكذا تتواصل الجهود الخيرة والأعمال الصالحة من أجل إحياء هذا الدين الإلهي ، والمحافظة على هذه الأمانة المقدسة .

ولا بد من أن نتذكر دائماً ان العلم مقرون بالعمل كما ورد في الحديث ، وإنه يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل عنه ، وإن أشد الناس حسرة يوم القيامة من لم يعمل بما علم ، وان العلماء يهلكون إلا العاملين ، وان العاملين يهلكون إلا المخلصين الذين لا يخالط عملهم الرياء او العجب او الشرك الخفي..

فلنحاول نحن المساكين ان لا نغتر بمعلوماتنا النظرية التي نتفاخر بها امام الآخرين أو امام انفسنا ، فإن العبرة انما هي بالعمل والإخلاص ورحمة الله رب العالمين.

٧- واتبعت سنن نبيه[١] صلى الله عليه وآله:

سنن النبي (ص) هي أقواله وأفعاله وتقريراته (إمضاءاته) سواء كانت تكليفية او ارشادية ، وسواء كانت مُبيّنة لأحكام القرآن ، او مؤكدة لها ، أو مؤسسة لأحكام أخرى غير ظاهرة في القرآن ، والنبي (ص) في جميع ذلك لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يوحى.

وإتّباع السنة يعني تطبيقها والعمل بها ، والالتزام بما ورد فيها ، وعدم الخروج عن خطها العام ، وعدم مخالفة معالمها الأساسية والثانوية من جميع الجهات الخاصة والعامة .

وقد ورد في زيارة الإمام علي (ع) يوم الغدير (وأشهد أنك ما أقدمت ولا أحجمت ولا نطقت ولاأمسكت إلا بأمرٍ من الله ورسوله) ، سواء كان هذا الأمر مباشراً أو غير مباشر ، وسواء كان الإمام (ع) قد سمعه من النبي مشافهة ، أو تعلمه منه بكتاب أو فهم، حيث ورد عنه (ع) : (علمني رسول الله (ص) ألف باب من العلم ، يُفتح لي من كل باب ألف باب).

وفي زيارة أخرى له (ع) ورد: (واتبعت منهاج رسول الله ، وحلّلتَ حلال الله وحرمت حرام الله وشرّعتَ أحكامه).

وفي زيارة الإمام علي (ع) يوم المبعث النبوي (ص) : (ولم يزل على منهاج رسول صلى الله عليه وآله ووتيرته ولطف شاكلته وجمال سيرته ، مقتدياً بسنته ، متعلقاً بهمته مباشراً لطريقته ، وأمثلته نصب عينيه ، يحمل عبادك عليها ويدعوهم إليها إلى أن خُضِّبت شيبته من دم رأسه).

---

(١) في نسخة أخرى (نبيه محمد)

وفي الحقيقة فإن تكامل الفرد انما يكون بحسب التزامه وتطبيقه للأحكام الإلهية التي يشتمل عليها الكتاب والسنة ، فإذا عرفنا ان الامام علي (ع) قد علم بكل تفاصيل تلك الأحكام وأسرارها ، باعتبار ملاصقته التامة للنبي (ص) ، حتى ورد عنه (ع) انه (ص) كان يناجيه ويختصه بالحديث ، ويبتدره إذا لم يسأله.

وإذا عرفنا ايضاً انه كان (ع) يعمل بكل ما علمه بجد وإخلاص ، فإننا سنفهم بالنتيجة كيف انه (ع) نال أعلى مراتب الكمال والعصمة ، فاستحق بذلك منصب الخلافة والإمامة بعد النبي (ص).

ثم ان هذه الفقرة الشريفة تؤكد لنا حقيقة ان الامام علي (ع) هو نفس رسول الله (ص) كما ورد في آية المباهلة، وإنهما وجهان لحقيقة مشتركة ، ظاهرها النبوة وباطنها الإمامة ، وإنهما أبوا هذه الأمة ، كما ورد في بعض الأحاديث.

وتؤكد أيضاً أهمية الإيمان بالإمامة ، وولاية الإمام علي (ع) والأئمة من ولده (ع) ، بمعنى ان الإسلام الحقيقي لا يتحقق إلا بالالتزام بهذا الخط المقدس ، الذي نصّ عليه النبي الأكرم في عدة مقامات.

ومحل الشاهد هنا ان الامام علي (ع) حينما اتّبع سنن نبيه محمد (ص) كلها ، سواء كانت أفعالاً او أقوالاً ، ظاهرية او باطنية ، فإنه بهذا الاتّباع صار نموذجاً حياً ، ومثالاً تاماً قد إشتق من النبوة ، فاستحق بذلك ان تؤول الولاية اليه بعنوان الامامة والوصاية والخلافة الشرعية .

فهو الامتداد الواقعي للدور المحمدي (ص) ، باعتبار انه استوعب تفاصيل الحقيقة المحمدية (ص) فهماً وتطبيقاً ، كما هو مقتضى الاتّباع المطلق والمتابعة الكلية.

٨ - حتى دعاك الله الى جواره:

الدعوة الى جوار الخالق عز وجل ، و القرب منه قد تكون بمعنى القبض أو الوفاة او مقدماتهما ، باعتبار أن الحياة الدنيا مهما كانت فهي حاجب عن الآخرة ، والآخرة هي مقام الحقيقة و الخلود ، وهي الحياة الواقعية..

(وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت:٦٤)

فهناك لقاء الله التام الكامل ، وهناك يحصل الرجوع السرمدي الى الخالق الرحيم ، وكلما كان الرجوع بوجه أبيض وصحيفةٍ أنقى ، كلما كانت الحفاوة الربانية أعظم..

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف:١١٠).

وقد ورد في الرواية ان الإمام علي (ع) كان يقول في ليلة شهادته (اللهم بارك لنا في لقائك).

وفي الحقيقة فإن هذه هي الجنة الحقيقية ، وهذا هو الفردوس الأعلى ، وأي لذة ونعيم ليس بشيء مقابل جوار الله وقربه ورضاه ..

وقد ورد في الدعاء (فكيف أصبر على فراقك) ، وفي دعاء آخر (ماذا وجد من فقدك ، وما الذي فقد من وجدك)..

وقد خطر في بالي الآن ذلك البيت المشهور:

جاورت أعدائي وجاور ربَّه   شتّان بين جواره وجواري

فشتان بين جوار الله الذي يحظى به أهل الآخرة ، وبين جوار الشياطين والنفس الأمارة في هذه الحياة الدنيا، الأمر الذي يوجب علينا مجاهدتها وقتالها.

ثم ان الدعوة الى جوار الخالق تعالى قد تكون بمعنى الهداية والإرشاد الى مقدمات المجاورة المعنوية لله تعالى في نفس هذه الدنيا ، باعتبار ان الله قريب من المحسنين ، وان المؤمن الخالص تحوطه يد العناية الإلهية وتغذيه أنامل الرحمة الربانية ، فهو على موعد دائم مع ربِّه ، ولقاء خاص مع سيده ومولاه وقرة عينه ، وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ :

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (يونس:٢٥)

(يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) (ابراهيم:١٠)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) (الحديد:٤).

بل ان سبب الخلق والإيجاد انما هو لأجل دعوة الخلائق الى جوار رب العالمين ، حيث النعيم والفردوس بجميع مراتبه ، وحيث السعادة الحقيقية بجميع صورها، سواء في الدنيا او الآخرة او ما بينهما ..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة:١٨٦).

وفي الحديث الوارد في قصة المعراج ان الله تعالى خاطب نبيه محمداً (ص) بما مضمونه ان المؤمن العامل المخلص النقي يفتح الله تعالى عين قلبه وسمعه ، حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه الى جلال الله وعظمته ، وينقله من دار الفناء الى دار البقاء ، ومن دار الشيطان الى دار الرحمن ، وانه تعالى يناجيه في ظلم الليل ونور النهار، ولا يُخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار ، الى غير ذلك من النعم والبركات[1].

ورغم كل هذه الدعوات ، وكل هذه الإرشادات ، وكل هذه التسهيلات ، نرى مع شديد الأسف والحزن ان اكثر الناس يرفضون هذه الدعوات ولا يستجيبون

(١) انظر الميزان: ٣٠٧/١ نقلاً عن البحار.

لهذه الارشادات ، ويأبون هذه التسهيلات ، بدون خجل أو حياء..

حتى ورد في الدعاء (فلمْ أرَ مولىً كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيمٍ منكَ عليَّ يا ربّ ، إنك تدعوني فأوليّ عنك ، وتتحبب إليّ فأتبَغّضُ اليك ، وتتودد الي فلا أقبلُ منك ، كأن لي التطوّلَ عليك ، فلم يمنعك ذلك من الرحمة بي ، والإحسان إليّ ، والتفضل علي بجودك وكرمك ، فارحم عُبدك الجاهل وجُدْ عليه بفضل إحسانك إنك جوادٌ كريم).

٩- فقبضك إليه باختياره[١]:

لا يخفى ان القبض انما يكون بأمر الله وإرادته ، وإن حصل بواسطة ملائكة الموت ، حيث يقول الله عز وجل (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ).

إلا أن المقصود في هذه الفقرة ان الله تعالى اختار عبده الصالح امير المؤمنين (ع) ليكون في جواره وقربه، فالاختيار هنا بداعي الشوق والمحبة ، والقبض هنا بمعنى الاستخلاص والرفع الى اعلى عليين ، وقد ورد في عدة روايات ما مضمونه ان الله تعالى يحب لقاء عبده الخالص ، حتى ان ابراهيم (ع) قال لملك الموت حينما اراد قبضه (هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأجابه ملك الموت بما أوحى اليه الخالق عز وجلّ: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه).

هذه هي العلاقة بين الخالق وعباده الأخيار، فهي علاقة حب ووفاء واشتياق واجتباء ، ولقاء بعد لقاء ، ولا ينال ذلك الا من اتى الله بقلب سليم ، ينبض بالصدق والأخلاق ، ويفيض بالطاعة والولاء ، ويرتعش بالخشوع والورع ، ويحيا بالوعي والمراقبة.

ثم انه توجد في بعض النسخ زيادة (فقبضك إليه باختياره لكَ كريم ثوابه) ، فيكون المعنى ان الله تعالى قبض اليه الامام علي (ع) ، لأنه اختار له كريم الثواب وعظيم الدرجات ، حيث اللقاء والقرب مع رب العالمين ، وهو يصب في نفس المعنى الذي ذكرناه آنفاً.

---

(١) في نسخة ضياء الصالحين (باختياره لك كريم ثوابه).

١٠- وألزم أعداءك الحجة[1] مع ما لك من الحجج البالغة على جميع خلقه:

عرفنا فيما سبق ان الامام (ع) هو حجة الله على عباده ، بمعنى ان الله تعالى يحتج به علينا ، كما انهم يحتجون ويعتذرون باتباع هؤلاء الأئمة (ع) فيما لو سألهم الخالق يوم القيامة عن أعمالهم.

واما هذه الفقرة فتعني ان للامام علي (ع) براهين وآيات ودلائل تثبت انه الخليفة الهادي بعد رسول الله (ص) ، من قبيل حادثة الدار[2] وحادثة خيبر وحادثة الغدير وحوادث اخرى كثيرة نصّ فيها النبي (ص) بصريح القول على خلافة الامام علي (ع) من بعده وولايته على سائر المؤمنين ، وان الحق معه ويدور معه حيثما دار.

فهذه حجج بالغة على جميع الخلائق بما فيهم الأعداء..

أضف الى ذلك سيرة هذا الإمام (ع) ، فإنها بنفسها حجة بالغة تؤكد أحقيته وفضله ومنزلته عند رب العالمين.

وهناك حجج خاصة ألزم الله بها أعداء امامنا علي (ع) ، على اعتبار انهم يحتاجون الى حجج أكثر وأوضح ، حتى تغلق الطريق امام مطامعهم وتسد عليهم منافذ الحسد والحقد ، ومن هذه الحجج ان خيار الصحابة هم الذين اتبعوه ، وان عماراً كان معه حينما قتلته (الفئة الباغية) بنص الرسول (ص) ، وان صبره

---

(١) في نسخة أخرى (في قتلهم إياك).

(٢) حيث اجتمع بنو عبد المطلب ، وسألهم النبي (ص) أيهم يعاضده على نشر هذا الدين فيكون خليفته من بعده.

وحلمه (ع) كان واضحاً ومحسوساً في مواجهة غصب حقه وخلافته بعد النبي (ص) ، وقد شهد الجميع بأنه ذلك المخلص المضحي الذي يؤثر مصلحة الدين والمسلمين على كل شيء ، وهو القائل (لأُسَلِّمنَّ ما سلمتْ أمور المسلمين ولم يكن جورٌ إلا عليَّ خاصةً).

فهذه الحجج جعلت الاحتجاج على أعداء الإمام (ع) تاماً وبالغاً ، فليس لهم ان يعتذروا بأي عذر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ..

(هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ، وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) (المرسلات:٣٥-٣٦)

(فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) (الروم:٥٧)

وأيُّ عذرٍ لهم وقد غيّروا إرادة الله ، وحرّفوا خط الرسالة عن مساره الحقيقي ، وفتحوا الطريق معبدة امام مذاهب ضالة وطوائف منحرفة دخلت بواسطتهم الى قاعات القيادة والقرار فغيّرت وتلاعبت ، وساقت أمة الإسلام المسكينة الى متاهات وأهواء ، لا ينجو منها إلا من اعتصم بأهل بيت الرسالة ، وتمسك بوصية النبي (ص) في علي (ع) وأولاده (ع) من بعده..

(وأهل البيت أدرى بالذي فيهِ) ، وكما يقول الشاعر:

أمامكَ فانهجْ أيَّ نهجيكَ تنهجُ ... طريقـــان اما مستقيمٌ وأعوجُ

ولعمري فإن الحق واضح ، وان السبيل سالكة ، وكما يقول الامام (ع) بما مضمونه : (والله لأمرنا أَبْيَنُ من نور الشمس)..

وانما يحتاج الأمر الى صفاء ووعي ومطالعة وتدبّر ، والهداية بيد الله عز وجلّ.

بقي ان نشير الى ان بعض النسخ توجد فيها عبارة (وألزمَ أعداءك الحجة في قتلهم إياكَ) ، وهي تشابه ما ورد في زيارة الغدير (وألزمَ أعداءك الحجة بقتلهم إياكَ لتكون الحجة لك عليهم مع ما لك من الحجج البالغة على جميع خلقه)، فيكون المعنى ان الله تعالى سوف يحتج على هؤلاء الأعداء ، بأنهم قتلوا الإمام علي (ع) رغم ما يعرفونه عنه من الآيات والبراهين البالغة على جميع الخلق ، ولا يخفى ان هذا إحتجاج لازم وتام ، ولا يمكن الخلاص منه.

١١- اللهم فاجعل[١] نفسي مطمئنة بقدرك:

في البداية تجدر الإشارة الى انهم يروون ان الإمام السجاد (ع) كان يقف عند القبر زائراً ، فصادف ان أقبل عليه بعض من يُتَّقى ويُخافُ منه ، فعدل الإمام (ع) حينها من الزيارة الى الدعاء ، على اعتبار انهم كانوا يُخفون قبر الإمام علي (ع) عن أعدائهم.

وفي الحقيقة فإنه لا مانع من القول بأن الزيارة كزيارة انتهت واقعاً الى هذا المقدار ، خصوصاً وان العبارات السابقة كانت بليغة ومؤثرة ومعبِّرة جداً ، وخير الكلام ما قلَّ ودلّ ، كما يقولون في الحكمة ..

ولم أجد حسب مراجعتي القاصرة في روايات هذه الزيارة ما يشير الى تلك الحادثة السابقة التي أدت الى تغيير الخطاب من الزيارة الى الدعاء.

بل ان ورود الدعاء بعد هذا المقطع من الزيارة هو في محلّه تماماً ، لأن المقام مقام استذكار للمصيبة بفقد الإمام (ع) ، ولا ريب ان ذكر الله ودعاءه هو البلسم والدواء الذي تطيب به النفوس والأفئدة ، في مثل هذه المقامات . ومن يتأمل في المقاطع التالية يجد انها مناسبة تماماً لحال الزائر المنكوب الذي يشعر بالظلم ومرارة الاضطهاد، فهو يتعزّى بعزاء الله ، ويطلب منه ان يمنّ عليه بنعمة الاطمئنان والرضا والتوجه لله بالذكر والدعاء والشكر على كل حال.

ثم ان اشتمال الزيارة على الدعاء فيما بعد ، هو أمر طبيعي ومفيد ، باعتبار ان الاعمال كلها مرتبطة بالله تعالى أولاً وآخراً ..

فمن الضروري ان يتحول الإمام (ع) بعد زيارة جده (ع) الى الدعاء وذكر الله

---

(١) في نسخة اخرى (اجعل).

عز وجلّ ومناجاته ، فإنه هو الأصل ، وإليه ترجع الامور بعد ان ابتدأت منه ..

وهذه حقيقة مهمة ينبغي الالتفات اليها بوعي وفهم ، فإننا نحب المعصومين (ع) ونزورهم قربة الى الله تعالى، ونحن نعلم انهم عباد الله المخلّصين ، وقد جاهدوا في الله حق جهاده ، فاستحقوا منا التكريم والولاء ، وقد ورد في الحديث (من أوثق عُرى الإيمان ان تحبَّ في الله).. وورد في بعض أدعية الزيارات (اللهم لك تعرّضتُ ، ولزيارة أوليائك قصدتُ ، رغبةً في ثوابك ، ورجاءً لمغفرتك ، وجزيل إحسانك).

وإذا كنا نذكر المعصومين (ع) ، ونتحدث عنهم ، ونطالع سيرتهم ، ونقتدي بأفعالهم وأقوالهم ، ونتذكر تضحياتهم وجهادهم، ونزور مراقدهم المقدسة ، فبإعتبار انهم حجج الله وانوار الهداية منه واليه ، كما ورد في الروايات عن النبي (ص) ، وقد أمرنا الله تعالى باتباع الهدى بقوله عز وجل:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة:٣٨).

فهم (ع) يذكّروننا بالله عز وجل ، وهم يمهدون الطريق أمامنا من أجل معرفة الله ، والتقرب اليه ، وتحصيل رضاه ، من خلال السعي الحقيقي لتطبيق وإعلاء كلمة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله).

(أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (يونس: ٣٥)

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) (الانبياء:٧٣).

ولنرجع الآن الى شرح زيارة أمين الله، والدعاء الذي اشتملت عليه، وأوّله: (اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك).

فالاطمئنان هو مرتبة عالية من الإيمان والاعتقاد ، يمتاز صاحبها بالسكينة والثبات ، وهذا الاطمئنان قد يحصل في القلب او النفس او العقل ، فيقال له اطمئنان قلبي او نفسي او عقلي، ولكل واحد أسبابه وآثاره وفوائده.

ومحل الشاهد هنا هو الاطمئنان النفسي بقدر الله وإرادته عز وجل ، بمعنى التسليم والرضا وتفويض الأمور كلها الى الخالق عز وجل ، وعدم اعتراض النفس أو شكايتها أو انزعاجها من حصول الاقدار والكائنات.

فالنفس المطمئنة من هذه الناحية ، هي تلك النفس القانعة الراضية ، التي لا تهزها المصائب ، و لا تزلزلها العواصف ، و لا تعبث بها السرّاء فضلا عن الضرّاء.

فالقدر وهو من التقدير والترتيب يشمل النعم و الابتلاءات على حد سواء ، و قد ورد في الدعاء (الحمد لله على ما أبلانا و ابتلانا) ..
حيث فسّروا الاول بالنعم ، و الثاني بالابتلاءات والمصاعب..
ولعل تحصيل الاطمئنان والسكينة في الاول اصعب منه في الثاني ، فان النفس قد تزلّ وتنحرف عند الرخاء ، رغم انها قد تثبت وتصبر عند البلاء ، فالحذر مطلوب على كل حال ، والثبات و الاطمئنان مطلوبان على كل تقدير ، ومن هنا فإننا ندعوا الله عز وجل أن يجعل أنفسنا مطمئنة بحوله و قوته ، فإنه لا حول ولا قوة الا بالله ، وانما علينا تحصيل المقدمات بمقدار ما نقوى عليه..
(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا) (الطلاق:٧).

و في الحقيقة فإن من أعظم النعم الالهية على الانسان هي نعمة القناعة و السكينة و التسليم والطمأنينة ، بحيث يكون الفرد مصداقاً لقوله عزّ وجل (لِكَيْ لا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا أَتَاكُمْ) .

كذلك ينبغي الالتفات هنا الى ان الحمد و الثناء واجبان في جميع الظروف ، فقد ورد في الخبر أن النبي (ص) كان يقول اذا نزلت عليه نعمة (الحمد لله على هذه النعمة) ، و اما اذا نزلت به مصيبة فيقول (ص) (الحمد لله على كل حال).

واما الحديث عن النفس فبالامكان مراجعته في كتابنا المتواضع (الله اكبر من نفسك).

١٢ـ راضية بقضائك

اللهم و اجعل نفسي راضية بقضائك ، مسلّمة لحكمك وإرادتك ، فأنت مولانا ومالك أمرنا.

أقول : ورد في بعض الروايات[1] عن الرضا (ع) ان القدر هو الترتيب و التخطيط ، واما القضاء فهو التنفيذ أو الإمضاء ، و في دعاء السجاد(ع): (و جرى بقدرتك القضاء) ، بناء على ان المراد بالقدرة هو التقدير ، وليس القدرة التي هي القوة.

و يمكن ان نفهم من جهة أخرى ان القدر أعمّ من القضاء ، فإن القدر كما قلنا من التقدير والترتيب ، و هو يشمل النعم و المصاعب..

و أما مفهوم القضاء بمعناه التكويني ، فيشمل المصاعب و الابتلاءات بالخصوص ، ومن هنا ورد في هذا الدعاء (راضية بقضائك) أي راضية بالمصاعب و الابتلاءات، واما النعم فان الرضا حاصل بها بكل تأكيد ..

وكذلك ما ورد من أن الدعاء أو الصدقة يردان القضاء ويدفعان البلاء .

ولا مانع من ان يكون لفظ (القضاء) مشتركاً بين هذه المعاني ، لا سيما وانه يرد أيضاً بمعنى التشريع والأمر.

والمهم هنا أن نعرف أهمية الرضا بالقضاء[2]، فانه مرتبة عالية لا ينالها الا المخلصون الملتفتون ، الذين يعرفون و يفهمون و يعملون..

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:٦٥).

---

(١) انظر الميزان : ٩٠/١٩ والكافي: ١٥٨/١.

(٢) راجع مبحث الرضا بالقضاء في كتابنا (طريقك نحو الجنة) فإنه مهم ونافع بإذنه تعالى.

و في الحديث عن الصادق (ع) (إنه سُئل بأي شيء يُعلم المؤمن بأنه مؤمن؟ فأجاب (ع) بالتسليم لله والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط).

وفي رواية أخرى عنه (ع) ايضاً ان الله تعالى يقول: (عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له ، فليرضَ بقضائي ، وليصبر على بلائي وليشكر نعمائي).

وفي حديث آخر عن الباقر (ع): (من رضي بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم عند الله أجره ، ومن سخط بالقضاء أتى عليه القضاء وأحبط الله عمله)..

فلنتدبر جيداً في هذه الأحاديث المباركة ، فإنها كنوز ثمينة ، وفيها أسرار دفينة ، ولنتذكر قول الله تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) (الطور-٤٨).

١٣- مولعةً بذكرك ودعائك:

إلهي واجعل نفسي المسكينة الضعيفة مولعة بذكرك ومناجاتك ، متعلقةً بدعائك ومسألتك يا خير المذكورين وأحسن المسؤولين .

والولع هو الهيام والتعلق الشديد بالشيء ، بحيث تكون هناك ملازمة خارجية بين المولَع (بالفتح) والمولع به.

ولا يخفى أن الولع قد يكون عن عاطفة فارغة ، وقد يكون عن تعقل وفهم ، والأول لا قيمة له ، بل لعله يقود أصحابه الى متاهات الضلال ، حيث الزبد والسراب.

واما الولع الناتج عن تعقل وفهم ، فهو أيضاً على مراتب ، بعضها نافع وبعضها غير نافع ، بعضها عالي وبعضها داني ، وانما يُعرف ذلك بمعرفة (المولع به) .

فشتان بين من يهيم ويتعلق بأشراف أهل الدنيا ، وبين من يهيم بأشراف أهل الآخرة ..

وشتان بين من يتعلق بذكر بعض المخلوقين ، وبين من يتعلق بذكر الخالق عز وجل.

ومن هنا فنحن نسأل الله عز وجلّ ان يعيننا ويفتح ابصارنا ، ويبعد عنا الموانع والحجب ، لننال مرتبة الولع والتعلق بذكره ودعائه[1] ، فإنهما غايتنا اليه تعالى، ووسيلتنا في لقائه عز وجلّ..

ولنتذكر دائماً ان الله تعالى يقول في الحديث القدسي (أنا جليس من ذكرني) ..

وفي أحاديث أخرى ان الله تعالى يحب الداعي ، ويقبل اليه ، ولعله يقول لبعض

---

(١) راجع كتابنا (خواطر حول الذنوب والأدعية).

العباد لبيك يا عبدي .

هذه هي الرحمة الإلهية ، بل هي أجلّ وأعظم .

وعلى أية حال فإن الولع الحقيقي له عدة أسباب يمكن للفرد ان يناله من خلالها، وأهم هذه الأسباب هو: الإخلاص في العمل ، فإن خلوص العمل يقتضي قبوله ، وقبوله يقتضي ترتب الآثار عليه ، ومن تلك الآثار الشعور باللذة والسعادة الحقيقية بنعمة الإيمان والقرب من الخالق جل شأنه.

ومنها: الوعي والالتفات الى المدعو والمذكور، فإن الفرد إذا عرف من يخاطب ، وأدرك من يدعو ، وفطن الى من يذكر ، فإنه بالتأكيد سيشعر بالراحة ، حتى تصير عنده نعمة الولع والتعلق..

فهو متوجه الى سيد الوجود ، ورب العالمين وخالق الخلق ، الذي هو أقرب اليه من حبل الوريد ، ويغذيه بالنعم صباحاً ومساء ، رغم أننا لاندرك هذه النعم أحياناً لعقولنا القاصرة ، وجهلنا بحقائق الأشياء، ولشدة جزعنا وقلة صبرنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها: الالتفات الى عظيم الأجر والثواب الذي يحصل عليه الفرد عندما يكون من الذاكرين والسائلين ، فإن هذا الأجر دافع أكيد نحو الشوق ، والتعلق بهذه الاعمال الصالحة .

ومنها: الدعاء، حيث ورد ان الإمام السجاد (ع) كان يدعو الله تعالى قبل صلاته بقوله : (يا من حاز كل شيء ملكوتاً ، وقهر كلَّ شيء جبروتاً ، أولجْ قلبي فرح الإقبال عليك).

ومنها: قراءة مناجاة المحبين والراغبين والمريدين للسجاد (ع) ، فإنها مهمة جداً ونافعة من هذه الناحية.

١٤- مُحبّةً لصفوة أوليائك :

اللهم واجعل نفسي محبة لصفوة أوليائك ، وخاصة عبادك المنتجبين ، واحفظها برحمتك وعنايتك من الوقوع في محبة أهل الدنيا من الفاسقين والمنحرفين. فقد ورد في دعاء اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان (اللهم اجعلني فيه محباً لأوليائك ، ومعادياً لأعدائك ، مستناً بسنة خاتم أنبيائك) ..وفي الدعاء ايضاً (اللهم اني أسألك حبك، وحب من يحبك).

ولا يخفى ان المحبة العاطفية تجاه المعصومين (ع) مطلوبة على أية حال ، وهي سبب أكبر لتحصيل الأجر والثواب ، حيث ورد في القرآن الكريم :(قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عليه أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (الشورى:٢٣)[1] .

إلا أن المهم هو ان تكون هذه المحبة عن وعي والتفات وبصيرة لمكانة هؤلاء المحبوبين عند الله ، بمعنى ان يعلم الفرد في نفسه انه يحب هؤلاء المعصومين (ع) ، ويحب أولياء الله وصفوته وخاصته ، لأجل أنهم يجاهدون في سبيل الله ويعملون لله ويطبقون تعاليمه ، ويلتزمون بمنهاجه ، فهم السبيل العملي والنموذج الحي للرسالة الإلهية ، فالفرد بالتالي يحب فيهم شريعة الله ودينه وصراطه المستقيم.

وقد ورد في دعاء الصادق (ع) في ليلة النصف من شعبان (واجعلني فيها من أوليائك الذين اجتبيتهم لطاعتك ، واخترتهم لعبادتك ، وجعلتهم خالصتك وصفوتك).

فهذه هي صفات أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ..

---

(١)يمكن ان نفهم من القربى معنى اعم واعمق بحيث يشمل المتقربين الى النبي (ص) بالأعمال الصالحة والمراتب الرفيعة ، فإن هذه هي القربى الحقيقية ، وهذا هو النسب الفعال .

وفي الحقيقة فإن معنى أولياء الله مشتق بحسب ظاهر القرآن من التولي والموالاة لله عز وجل ، بمعنى محبته وطاعته ونصرته والتمسك به وبشريعته ، فإذا تحقق هذا المعنى من العبد ، فإنه سيحظى بمرتبة الولاية ، بمعنى الشرف وعلو المقام عند الخالق تعالى ، وسيكون من أولياء الله الذين تجب محبتهم والتمسك بهم ، كمقدمة لتحصيل رضا الله وقربه عزّ وجلّ.

وإذا كان رب العالمين قد صرّح في كتابه العزيز بأنه يحب المحسنين والمتقين والمطّهرين ونحوهم ، فالمفروض ان نجهر نحن ايضاً بحبهم ومودتهم ، فإن في ذلك نصرة للدين وتعظيماً للشعائر المقدسة ، وتوطيداً لأركان هذه الأمة الإسلامية.

أضف الى ذلك ان لهذه المحبة آثاراً عظيمة ، وفضلاً جليلاً ، حيث ورد ان من أحب عمل قوم حُشِرَ معهم ، وان المرء مع من أحب..

فهذا يعني ان من يحب هؤلاء الأولياء والصديقين ، ويحب أعمالهم ، فإنه سيحشَر معهم حيث الجنات والفردوس ، وفي الحديث عن الباقر (ع): (إذا أردت ان تعلم ان فيك خيراً فانظر قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ، ففيك خير ، والله يحبك ، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خيراً ، والله يبغضك ، والمرء مع من أحب) .

لكن هذا مشروط طبعاً بالإيمان والعمل والالتزام بأخلاق الإسلام ، وإلا فإن المحبة وحدها لا تكفي ، فالجنة لمن أطاع ، والنار لمن عصى ، كما ورد في الحديث.

وعن الامام الباقر (ع) (أيكتفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت ، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه).

وقد ورد في دعاء كميل (فلئن صيّرتني للعقوبات مع أعدائك وفرّقتَ بيني وبين أحبائك وأوليائك ، فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرتُ على

عذابك ، فكيف أصبر على فراقك).

ومحل الشاهد ان مفارقة الأولياء مصيبة وداهية ، ولكنها تهون بإزاء فراق الخالق والابتعاد عنه والعياذ بالله.

فلنحذر جميعاً ، ولنكن صادقين بالنية مع خالقنا ومع أنفسنا ، لكي لا نكون ممن عاتبهم الله تعالى بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) ..

فالحساب دقيق في ذلك اليوم الذي يُقال فيه للعبد:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) .

١٥- محبوبة في أرضك وسمائك:

اللهم واجعل هذه النفس القاصرة المقصّرة مرحومة وموفقة ، حتى تنال محبة الصالحين من سُكّان أرضك وأهل سماواتك ، فإن محبتهم كاشفة عن رضاك يا أرحم الراحمين .

بل ورد في عدة أحاديث ما مضمونه ان الإنسان يكون محبوباً عند الله عز وجل ، إذا أطاعه وإلتزم بالواجبات ، وامتنع عن المحرمات ، وتحققت فيه مبادىء الأخلاق وعلامات الصلاح ، حيث يقول الله:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِ ، يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (آل عمران-٣١) .

ثم انه يمكننا تصفح القرآن الكريم لنعرف مواصفات الفرد الّذي يحبه الله تعالى ، فهو يحب التوابين والمحسنين والمتقين والصابرين والمتوكلين والمتطهرين ونحوهم.

وإذا أحب الله عبداً فإنه كما في بعض الاخبار يجري مدحه على ألسنة العباد ، ويمنّ عليه بمحبة جميع الخلائق ، سواء كانوا من أهل السماء أو من أهل الارض.

وقد ورد في حديث آخر ما مضمونه ان خيار خلق الله هم المتواضعون الذين يألفون ويؤلفون ، وان الجنة والحور العين لتشتاق الى المؤمن..

وكلما عظمت مرتبة المؤمن الإيمانية ، كلما ازداد حبه وعظمت مكانته في عالم الثبوت والإثبات.

وتجدر الإشارة هنا الى ان تحصيل محبة الله ورضاه هو الطريق الأمثل لتحصيل

احترام ومحبة الخلائق في السماوات والأرض ، وان كل من يحبه الله عز وجلّ ، فإنه بالتأكيد سيكون محبوباً في أرض الله وسمائه ..

وهذا هو الحب الحقيقي الذي يريده الله تعالى ، ويجعله مقياساً لقيمة الفرد ومستواه في عالم اللوح والتكوين.

مع الالتفات الى ان المهم هو تحصيل محبة الصالحين ، وكلما كانت مرتبة المحِب أعلى عند الله عز وجل كلما كانت مرتبة المحبوب أعلى عند الله ..

فأحباب رسول الله والمعصومين (ع) أعظم من أحباب سائر المؤمنين ، وهكذا.

واما تحصيل محبة الناس وحدها ، فهي لا تكفي أبداً ، لأن الناس قد تحب الكثير من الأفراد ممن ليس لهم أدنى مراتب الصلاح والإيمان ، بل قد يعشقون اناساً بعيدين كل البعد عن ابسط مقومات الاخلاق العامة ، وهنا تكمن الكارثة حينما يصبح الباطل محبوباً ، ويصير الحق مبغوضاً ، وهذا بالتأكيد ميزان مقلوب لايمكن التعويل عليه.

١٦- صابرةً على[1] نزول بلائك:

إلهي واجعل نفسي المهزوزة الراجفة ، ثابتة وصابرة عند نزول بلائك وامتحانك فإن أمرها بيدك ، وانت القائل : (لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) .

صحيح ان الابتلاء سنة حيث يقول الله عز وجل (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت:٢-٣).

ولكنه في الوقت نفسه رحمة وزكاة ومرقاة ، وانما سلاح المبتلى صبرٌ وحلمٌ ، وقناعة وتسليم ، وانما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (فصلت:٣٥).

وقد قيل على لسان بعض الشعراء (وإن كان فيه مبالغة):

بنى الله للأبرار بيتاً سماؤه همومٌ وأحزانٌ وحيطانه الضرُّ

وأدخلهم فيه وأقفل بابه وقال لهم مفتاح بابكمُ الصبرُ

وإذا كانت المصائب والابتلاءات حاصلة ، ولا رادّ لأمر الله ، فإن الصبر يهوّن المصائب ..

بل قد يستأنس العارف بالمصيبة ، باعتبار انها من الخالق على أية حال ، وهي ترفعه درجات عنده عز وجلّ وتخفف من ذنوبه، وتملأ صحيفته بأجر الصابرين والمسلمين .. (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) .

ثم ان الصبر ثلاثة كما ورد في الحديث عن النبي (ص) : (صبرٌ عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية)، وكله مطلوب ، وجميعه

---

(١) في نسخة اخرى (عند).

يدخل في مفهوم الصبر على البلاء ، فإن البلاء يشمل الامتحانات التكوينية والتشريعية.

ثم انهم ذكروا عدة معانٍ للصبر ، لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً ..

فمنها : الصبر في الله ، وهو الثبات في المجاهدة والعمل الصالح ، او التحمل من اجل الله عز وجل.

ومنها: الصبر مع الله ، وهو الثبات وعدم الابتعاد عن الله عز وجل سواء في السرّاء أو الضراء.

ومنها: الصبر بالله ، وهو الثبات والتحمل بقوة الله وحوله وحسن رعايته.

ومنها: الصبر عن الله ، وهو تحمل الاشتغال والانشغال بخدمة المؤمنين ورعاية مصالحهم وحل مشاكلهم الخاصة والعامة ، رغم ان ذلك قد يشغلهم عن لذة المناجاة وسعادة الخلوة مع الخالق عز وجلّ..

إلا أن كلا الأمرين مطلوب ، وخير الأمور أحمَزها واشدها.

ولنضرب مثالاً على ذلك : فلو أن ملكاً أمر أحد مقربيه المحبين أن يذهب لأداء خدمة معينة في بلدٍ بعيد ، فإن المفروض بهذا الشخص ان يستجيب لمولاه ، ويذهب الى ذلك المكان ليخدم مولاه من هناك ، رغم انه قد ابتعد - بمعنىً من المعاني - عن سيده ومولاه ..

صحيح ان القلوب متواصلة ، والمجاورة المعنوية متحققة على اية حال ، ولكن للحضور التام طعمه الخاص ، وللخلوة والانفراد بالمناجاة شعور مميز ، لا يمسّه إلا المطهرون.

١٧- شاكرةً لفواضلِ نعمائك:

اللهم وهذه النفس المتمردة الجاحدة ، اجعلها بهدايتك وأياديك الكريمة ، شاكرة لفواضل[١] نعمائك وآلائك ، فإنه بالشكر تدوم النعم ، وقد قلتَ لنا بوعدك الصادق : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم).

رغم ان شكرنا لا يستحق النظر ، فهو على قلته يرجع اليك ، ويعود لفضلك ورحمتك ، وكما ورد في دعاء السجّاد (ع) في مناجاة الشاكرين : (فكيف لي بتحصيل الشكر ، وشكري إياك يفتقر الى شكر).

وفي بعض الأخبار ما مضمونه ان الله تعالى اوحى الى بعض انبيائه انك لن تؤدي حق نعمتي عليك حتى تؤدي حق شكري ، فقال له النبي (ع): ان أداء حق الشكر غير ممكن تجاه الله عز وجلّ ، فأوحى له الله تعالى : الآن قد أديت حق شكري ، حينما اعترفت بذلك.

وهكذا فإن الاعتراف بالتقصير امام الله تعالى هو مقدمة مهمة لتحصيل حق الشكر ، وبالمقدار الممكن بطبيعة الحال.

ثم ان للشكر عدة مراتب ودرجات[٢]، فالشكر قد يكون بالكلمات الظاهرية أوالباطنية ، وقد يكون بالأفعال كالسجود او الصلاة شكراً لله ، وقد يكون الشكر بالآثار حيث ورد عن الصادق (ع) (شكرُ النعم اجتناب المحارم).

وقد يكون الشكر بعرفان النعمة حيث ورد عنه (ع) ايضاً (من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه ، فقد أدّى شكرها).

---

(١) الفواضل من الفضل ، بمعنى ان نعم الله تعالى كلها صادرة من فضل الله وتفضلّه علينا ، وكلها نعم فاضلة وجليلة.

(٢) انظر مبحث الشكر في كتابنا (طريقك نحو الجنة).

وفي الحديث عن الباقر (ع) (والله ما اراد الله من الناس إلا خصلتين: أن يقرّوا له بالنعم فيزيدهم ، وبالذنوب فيغفرها لهم).

وفي الحقيقة فإن للشكر سر خاص ، فهو على سهولته وبساطته نسبياً ورد في أول آيات سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب ، كما ورد في آيات كثيرة جداً وبشكل ملفت للنظر ، وهذا فيه حكمة عجيبة ، حتى ان الله عز وجل يقول: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) (لقمان:١٢)

ولعلّ وجه الحكمة هنا ، ان الشكر علامة الإيمان والتذكر ، وهو مفتاح النعم وباب الرضا ..

(وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) .

١٨- ذاكرة لسوابغ آلائك:

اللهم واجعل نفسي الغافلة الناسية ، ذاكرة ملتفتة لسوابغ نعمك وآلائك ، فإنها كثيرة ، ضعف لساني عن إحصائها ، فكم يا إلهي من كربة قد فرّجتها ، وهموم قد كشفتها ، وعثرةٍ قد أقلتها ، ورحمةٍ قد نشرتها، وحلقة بلاء قد فككتها..

هذا علاوة على نعمة الهداية وكرامة السلامة.

أقول: معنى سبغ وأسبغَ أي أفاض ووسّع وأتمَّ ، وفي الدعاء (وأسبغْ علينا نعمك)..

فسوابغ الآلاء هي النعم التي تفضل وأفاض بها الله تعالى علينا ، وذكرُ هذه النعم واجب عقلاً وشرعاً، وتترتب عليه جملة من الآثار والنتائج ، حيث يقول الله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ) .

فالفرد إذا تذكر نعم الله عليه فإنه سيرتاح ويحس بمقدار الفضل العظيم الذي أعطاه الله عز وجلّ..

وهذا يعتبر دافعاً قوياً للتقدم والتكامل ، وزيادة الطاعات والعبادات.

وكذلك فإن تذكر النعم ينفع في زيادة الأجر والثواب ، وينفع ايضاً في الابتعاد عن النار والعذاب ، حيث يقول الله عز وجل (فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وفي الحديث عن النبي (ص) (من أُعطي لساناً ذاكراً ، فقد أعطي خير الدنيا والآخرة).

وفي الحقيقة فإن ذكر النعم الإلهية مطلوب بنحو الطريقية أيضاً ، علاوة على مطلوبيته في نفسه بنحو الموضوعية ، فإن ذكر النعم طريق الى الشكر والمحبة ،

والمفروض بمن يتذكر نعم الله عليه أن يقابلها بالإحسان (هَلْ جَزَاءُ الْأَحْسَانِ إِلَّا الْأَحْسَانُ) .

فإذا كان الله تعالى غني عن العالمين ، فنفهم عندئذٍ ان المطلوب هو الإحسان الى النفس ، والى العباد.. والله يحب المحسنين ، (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (العنكبوت-٦).

ثم ان ذكر النعم الخاصة ، يؤدي الى القناعة والرضا والتسليم ..

فكل واحد منا اذا إلتفت الى النعم التي حباه الله بها عزوجل ، في وقت يرى فيه من هو محروم من هذه النعم ، فإن هذا بالتأكيد سيعرِّفه بأنه أحسن من غيره من هذه الناحية ، وانه في نعمة من هذه الجهة ، فالمفروض به أن يقنع ويرضى ويسلّم أمره لله تعالى من سائر الجهات ، ويحمد الله على كل حال.

١٩- مشتاقة الى فرحة لقائك:

إلهي وسيدي ومولاي أسألك أن تجعل هذه النفس المتعلقة بالدنيا وبأهل الدنيا زاهدة عن ذلك، مشتاقة الى فرحة لقائك ، فإنها الفرحة الحقيقية والسعادة الواقعية التي لا يلقاها إلا الصابرون على بلائك، السائرون على صراطك ، الراغبون في جوارك.

فيا ربي وإلهي ما ألذَّ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير إليك في مسالك الغيوب ، وما أطيب طعم حبك ، وما أعذب شربَ قربك ، فأعذنا من طردك وإبعادك ، فإن نفساً أعززتها بتوحيدك ، كيف تذلها بمهانة هجرانك ، إلهي واجعلنا من أخص عارفيك ، وأصلح عبادك وأصدق طائعيك ، وأخلص عبّادك ، يا عظيم يا جليل برحمتك وجذبك واياديك ، يا ارحم الراحمين.

أقول: ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن فقرة (ودعاك الى جواره)ان لقاء الله عز وجل له عدة معانٍ:

أحدها: بمعنى الجوار والقرب المعنوي من الحضرة القدسية و وهو يكون بالأعمال الحسنة ومجاهدة النفس والشيطان ، فإذا تحلّى الفرد بمحاسن الأفعال ، وتخلى عن رذائل الخصال ، فإنه بالتأكيد سيصل الى رب العالمين ، وسيكون معه وسيدخل في حزبه وأهل ولايته ، وهذا هو المعنى الأول للقاء به عز وجلّ..

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً).

وهناك معنىً آخر للقاء الله تعالى وذلك في جنان الآخرة وفردوس الخلود ، وهذا هو الذي نطقت به الآيات القرآنية الكثيرة ، فهو اللقاء الذي يحصل بين

العبد وخالقه في يوم الدين ، وكلما كانت الحسنات أكثر ، كلما كان اللقاء بالله أحلى وأجمل..

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ) (العنكبوت:٥)

فمعنى اللقاء هنا هو تحصيل رضوان الله وقربه وجناته ونعيمه ، حيث يجتمع هناك مع الاولياء والصالحين ، فهو لقاء تتحقق فيه أسعد اللحظات وأشدها فرحاً ولذة ، يكفي أن تسمع الرواية التالية عن اللقاء بالحسين (ع)، حيث ورد أن من شيعته من يجلسون عنده في يوم القيامة ، فيستأنسون بحديثه وبنور وجهه ، حتى ان الحور تناديهم ، فلا يلتفتون اليهن ، ولا يريدون أن يتركوا مكانهم قرب الحسين (ع).

هذا والحسين (ع) عبد من عباد الله المكرمين ، فما بالك بمن ينشغل هناك بمناجاة الخالق ، ويعيش في كنفِ كراماته وفيوضاته القدسية ..(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) .

وقد ورد في دعاء الكاظم (ع) (ولا تحرمني لقاءك).

وعلى أية حال فالمفروض ان تكون انفسنا مشتاقة الى هذه اللحظات المباركة ، فإن في هذا الشوق والرغبة دافع اكيد للثبات والتقدم بصبر وإصرار وقوة ، وهذا الشوق يهوّن علينا البلايا ، ويجعلها تمرّ علينا سهلة يسيرة ، بل لعل بعضنا لا يشعر بها أصلاً ، لأن الشوق قد أخذ منه كل مأخذ.

ثم انه يوجد معنى آخر للقاء الله عز وجلّ وهو يشمل جميع الخلق ، بما فيهم الكفار وأهل الشرك والظلم والفساد[1]، ونعني به لقاء الله يوم القيامة والحساب والمجازاة في ساحة الميعاد:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُلاقُوهُ وبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:٢٢٣)

(يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً، وَيَصْلَى سَعِيراً) (الانشقاق:٦-١٢).

(١) حيث يقول الله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

٢٠- متزودةً التقوى ليوم جزائك:

اللهم واجعل نفسي تحمل زاد التقوى والورع باستمرار ، حتى تصير هذه الحالة ملكة راسخة فيها ، فإن الزاد قليل ، والسفر الى الآخرة طويل ، ولَئِن كان قلَّ زادي في المسيرِ اليك ، فلقد حسُنَ ظني بالتوكلِ عليك.

يقول رب العالمين (تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)

ويقول أيضاً (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) .

والأمر- كما لا يخفى- ظاهر في الوجوب والتكليف الإلزامي ، فالتقوى واجبة شرعاً وعقلاً ، وهي اهم المبادئ الأولية لتحصيل الجنة والفوز والنجاة في يوم الحساب والجزاء ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لأنها (أي التقوى) تعني الخوف من الخالق بإلتزام أوامره ونواهيه ، والعمل بطاعته واجتناب معاصيه ، والورع عن محارمه ، بل وشبهاته قدر الإمكان ..

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[١] .

والتقوى هي مقياس التفاضل الحقيقي بين العباد (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .

وهي مقياس التكامل الواقعي والقرب الفعلي من الله عزوجل (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)[٢]

و (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

وهي مفتاح الخير والرحمة والبركات العامة والخاصة (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا

---

(١) راجع آثار التقوى ومصادقها في كتابنا (طريقك نحو الجنة).

(٢) وفي الحديث (لا يقل مع التقوى عمل ، وكيف يقل مايُتقبل).

وَاتَّقَواْ ، لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

وهي مهر الجنة ومفتاحها حيث ورد في الحديث (ان القيامة عرس المتقين)..

وعن النبي (ص): (اكثر ما يلج به امتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق).

ولأجل ذلك كله وجب علينا نحن العبيد المقصرين ان نتحلى ونتزود بتقوى الله ، ومراقبته في السراء والضراء..

وهذا يحتاج الى عدة مقدمات ضرورية أهمها ما يلي:

١- تعلم الأحكام الشرعية ، وفهم الواجبات والمحرمات.

٢- ضبط النفس والسيطرة على شهواتها وانفعالاتها.

٣- الالتفات الى مسؤولية العبودية ، وحق الطاعة تجاه الله تعالى.

٤- مراجعة ما دل على الوعيد والعقاب ، والحرمان للمذنبين ، لأجل التذكير والموعظة.

٥- المراقبة المستمرة والحذر الدائم وعدم التهاون ، فإن الله تعالى أخفى سخطه في معاصيه ، فلا تحقرن شيئاً من المعاصي.

وأخيراً فلنتأمل جيداً في الدعاء الذي يقول (وقد علمتُ ان افضل زاد الراحل إليك عزمُ إرادةٍ يختارك بها) ، وهذا هو معنى قولهم ان الخطوة الاولى من العبد ، والباقي على الله عز وجل ، وان كانت هذه الخطوة ايضاً مسبوقة بهداية الله وتسديده.

٢١- مستنّةً بسنن أوليائك ، مفارقةً لأخلاق أعدائك:

في الحقيقة يوجد لدينا مقياس مهم وأساسي ، نستطيع من خلاله ان نتعرف على حسن الأفعال أو قبحها عند الله عز وجل.

وهذا المقياس سهل نسبياً ، ويمكن لأي أحد أن يستند اليه بمقدار ما يستطيع ، بعد التوكل على الله تعالى وطلب هدايته وتوفيقه.

فهناك طائفة من الخلق يجمعها عداء الله ورسالاته وتشريعاته ، بمعنى انهم يشتركون بمحاربة الافكار والمفاهيم السماوية ، سواء بالقول او بالفعل، وسواء كانوا يشعرون بذلك أو لا يشعرون..

وهؤلاء يستحقون من الخالق عز وجل ان يطردهم ويبعدهم عنه ، علاوة على انهم استحقوا السخط الرباني والغضب الإلهي.

(حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) (الشورى: ١٦).

والمتأمل في أحوال هذه الطائفة على مر العصور والأجيال ، يلاحظ انها تشترك عموماً في منظومة من الطبائع والتصرفات ، تميل الى الحيوانية والشهوانية ، بمقدار ما تبتعد عن المثالية والانسانية الحقيقية ..

ولهذا فهي أخلاق سلبية ، وانما سميت أخلاق ، باعتبار انها يُتخلَّق أو يُتّصف بها ، من باب الخلق السيء الذي يقابل الخلق الحسن.

ولا ريب ان الاتصاف بمثل هذه الاخلاق السيئة ، والتشبه بأصحابها ، بقصد او بغير قصد ، سيوقع الفرد في مشكلة مع خالقه عز وجل ، لأنه سيماثل أعداء الله من هذه الناحية ، وهذا سيسبب له عدة مخاطر ومحاذير والعياذ بالله تعالى ..

ولذلك فنحن نسأل الله عز وجل ان يجعل هذه النفس القاصرة ، التي تحيى

بين اضلعنا ، مفارقة لأخلاق أعدائه عز وجل ، وهذا هو معنى (التخلية) التي يُصطلح عليها في علم الأخلاق ، أي تخلية النفس من الموانع والحجب التي تقف حائلاً امام الكمال والقرب الإلهي ..

فهذه الموانع والحجب هي الأخلاق والأوصاف السلبية او الذميمة التي يتّصف بها غالباً اعداء الله عز وجلّ ، ويجمعها عنوان بسيط ، هو مخالفة (الشريعة الإلهية وقواعد السير الى الخالق تعالى).

وفي المقابل توجد طائفة اخرى آمنت بخالقها واختارته ، وسلكت طريقها اليه بورع واجتهاد ، ووعي واخلاص ، فهم اولياء الله الذين تولوه وتمسكوا به ، والتزموا بشريعته ، وطبقوا قواعد السير اليه عزوجل، فاشتركوا بصفات عالية وأخلاق سامية لا يختلف في حسنها اثنان من العقلاء ، ولا ينكر رجحانها أي انسان حقيقي يميز بين الخير والشر ، بل لا ينكر ذلك حتى هؤلاء الطغاة الذين تمادوا في ظلم انفسهم بالفساد والانحراف.

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً) (النمل:١٤).

نسأل الله عز وجل ان يرزقنا تلك الأخلاق الصالحة ، وان يمن علينا بـ(التحلية) ، وهي الإستنان والاتصاف بسنن واخلاق اوليائه ، الذين ارتضاهم وقبلهم بقبوله الخالص ، انه ولي التوفيق والهداية.

وهكذا فإن الفرد يمكنه ان يعرف نفسه ، بهذا المقياس البسيط والعملي في نفس الوقت ، فإذا أراد أن يحاسب نفسه من جهة أعماله ، فليلاحظ هل انه يعمل أو يتّصف بأوصاف اهل الفساد والانحراف ، من اعداء الله عز وجل الذين خالفوا شريعته ، ام أنه يعمل أو يتصف بأوصاف وأخلاق اهل الهداية والإيمان ، من أولياء الله عز وجل الذين التزموا بشريعته..

وبهذا المقياس سيميز الفرد مستواه عند خالقه عز وجل بمقدار ما يؤديه من الناحيتين ، فإن كان من أهل الخير فلا يُعجَب بنفسه ، وإنما يشكر الخالق على هدايته ويستزيد ويحافظ ، وإن كان من أهل الشر ، فلا ييأس من رحمة الله عز وجل ، وانما يستغفر الله ويتوب اليه ويحاول إصلاح نفسه ، ما دامت الفرصة موجودة ، قبل ان يأتيه الموت من حيث لا يشعر.

وقد ورد في الحديث عن الامام الباقر (ع) : (اذا اردت ان تعلم ان فيك خيراً ، فانظر قلبك ، فإن كان يحب اهل طاعة الله ، ويبغض أهل معصيته ، ففيك خير والله يحبك . وإن كان يبغض أهل طاعة الله ، ويحب أهل معصيته ، فليس فيك خير ، والله يبغضك .. والمرء مع من أحب).

فمثلاً اذا كان الفرد يحب مشاهدة الأغاني او الافلام المنحرفة ، فإنه يتصف من هذه الناحية بأخلاق الأعداء ، ويحب أعمالهم ، وبهذا فهو غير قريب من الله تعالى ، وهذا يعني انه خسر الفيوضات الإلهية ، وحُرِمَ من النفحات القدسية ، وأبعده الله عن بركاته ، ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأخزى .

نعم يستطيع الفرد أن يعود ويرجع بالتوبة والاستغفار ، ومفارقة أخلاق الأعداء ، قربة الى الله عز وجل.

٢٢- مشغولة عن الدنيا بحمدك وثنائك:

اللهم واجعل نفسي الهالكة لولا رحمتك ، الضائعة لولا هدايتك ، اجعلها يا رب مشغولة عن الدنيا بحمدك وشكرك ، متوجهة في كل حين الى الثناء عليك بما انت اهله.

فهذه الدنيا بمعانيها الدنيوية ، ومضامينها الدنية ، قد تشغلنا عن مصالحنا الحقيقية ، وتحجبنا عن منافعنا الواقعية التي ارادها الله لنا ، وأرادنا لها رحمة منه وتفضلاً ومنّةً ..

فالدنيا والآخرة ضرّتان لا تجتمعان ، كما ورد في الحديث ، بمعنى ان الانشغال باحداهما يُنسي عن الأخرى..

ولا يخفى ان الدنيا هي الطرف الداني ، فلا ينبغي الانشغال بها عن الطرف العالي المتمثل بالآخرة..

(تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) (الأنفال:٦٧).

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت:٦٤).

نعم المفروض بنا ان نكون واعين وملتفتين ، وان نعرف تكاليفنا الدنيوية الشرعية ، كحفظ النفس والاسرة والسعي في طلب الرزق الواجب ، ونحو ذلك مما أوجبه الله تعالى علينا أو ندبنا اليه ..

فهذه امور ضرورية ، ولا تؤثر على علاقتنا بالخالق ، ولا تحجبنا عن فردوس الآخرة ، بل هي من مقدمات نيله ، وسلالم الوصول اليه.

أو لنقل بصياغة أخرى ان الانشغال بالآخرة وإن كان واجباً ومفروضاً ، إلا انه لا

يعيق عن ضروريات الحياة الدنيا ، لأن الانشغال بهذه الضروريات انما هو جزء من متطلبات الانشغال بالآخرة ، على اعتبار انه ايضاً مأجور ومأمور به عند الله تعالى الذي يقول :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) .

وكذلك مدح الله تعالى قوماً يقولون :

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

بل المؤمن الحقيقي الملتفت سيشعر بالسعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة معاً ، إذا كان يعي علاقته بالله ، ويستشعر فيوضاته عليه ..

(فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ) (آل عمران:١٤٨).

وعلى أية حال فإن الانشغال عن الدنيا انما يكون بطلب الآخرة كما قلنا ، بمعنى انه ينشغل عملياً بما ينفعه فعلاً في آخرته ، حيث دار المقام والخلود ، فيحرص على أداء الطاعات ، والامتناع عن المعاصي والسيئات ، ويجعل همته وغايته وكل شغله في رضا الله وقربه عزوجل ، وقد ورد في الدعاء (ولا تشغلني بالاهتمام عن تعاهد فروضك واستعمال سنتك) ..وفي دعاء آخر (واجعل همّتي في طاعتك).

ثم ان الإمام (ع) عبّر هنا بالانشغال بالحمد والثناء ، والظاهر انه يريد بهما معناهما الأعم الشامل لكل صور العبادة ، وقد قلنا في مقام سابق ان الشكر الحقيقي يكاد يكون محور العبادة وأساسها ، ولذلك تبدأ الأدعية عادة بالحمد والثناء لله رب العالمين.

والظاهر ان الفرق بين الحمد والثناء ، هو أن الحمد بمعنى الشكر ، واما الثناء فهو بمعنى الإطراء ، وقد جاء في المفردات ان الثناء هو ما يُذكر في محامد الناس ، وفي مجمع البحرين ان الثناء هو الذكر الحسن والكلام الجميل .

٢٣- اللهم ان قلوب المخبتين اليك والهة:

اللهم انك تعلم ان قلوب وأفئدة عبادك المخبتين الخاشعين والهة اليك ، متعلقة بك ، ونحن يا رب نعلم ذلك ايضاً ، ونسألك ان ترزقنا هذه النعمة ، وهذه الكرامة ، ليكون قدسك وقربك غاية أملنا ، ومنتهى همنا يا رب العالمين.

وقد ورد في اللغة ان الإخبات هو الخشوع والخضوع والتواضع ، ومنه قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) .

وقد يفسر الإخبات بالاطمئنان والثبات ، فيقال خبتت الأرض أي استقرت واتسعت.

وعلى اية حال فإن جميع هذه المعاني مطلوبة في عنوان المخبتين ، بل ورد في القرآن الكريم تفاصيل أكثر لصفات المخبتين ،وذلك في قوله تعالى:

(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (الحج:٣٤-٣٥).

ومن الطبيعي ان تكون قلوب هؤلاء المخبتين والهةً ومتعلقة بالله عز وجل ، فالوله هنا بمعنى الاشتياق والتعلق والحب الذي يملأ قلب المؤمن المخبت تجاه خالقه وربه ، المتفضل عليه في جميع الأحوال.

ومما يناسب ذكره في المقام قول الشاعر:

لم أكن للوصال أهلاً ولكن　　　أنت صيّرتني لذلك أهـــلا

أنت أحييتني وقد كنت ميتاً　　　ثم بدلتني بجهلي عقــــلا

٢٤- وسبل الراغبين إليك شارعة:

إلهي وهذه سبل الراغبين إليك ، المتوجهين نحوك ، بنواياهم وأفعالهم ، بعقولهم وأرواحهم وقلوبهم وأنفسهم وأجسادهم ، بغاياتهم وجميع أحوالهم ، كلها شارعة ومتأهبة وقائمة تحت سماء رأفتك وسحاب رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين.

وفي مناجاة الراغبين نسمع قول الإمام السجاد (ع): (وها أنا متعرّضٌ لنفحات روحك وعطفك ، ومنتجعٌ غيث جودك ولطفك).

وقد ورد في الحديث ان الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق ، وهذا له عدة معانٍ من جملتها ما ورد في هذه الفقرة ، حيث يشير الإمام (ع) الى ان الراغبين الى الله تعالى ، يسيرون نحوه ، بطرق شارعة أي واضحة وظاهرة وبارزة مع الله تعالى ..

أو لنقل بمعنى أوضح أن طرق الراغبين متجهة نحوه جل شأنه ، لأنه محبوبهم وملاذهم الذي يرغبون برحمته وقربه ورضاه..

وقد ورد في الدعاء (حتى أسرحَ إليك في ميادين السابقين ، وأسرع اليك في البارزين).

ثم انه ينبغي الالتفات الى إمكان ان نتصور معنى آخر لكلمة (شارعة) ، بناءً على انها مأخوذة من الشرعة والشريعة ، فيكون المقصود ان سبل الراغبين الى الله تعالى معبّدة بالشريعة التي رتبت لهم الأمور، ووضحت لهم التكاليف الظاهرية والباطنية ، التي تكون مناسبة لهم نوعاً وشخصاً ، وبهذا تكون الحجة أكثر تنجيزاً وأقوى دلالة.

وقد ورد في مناجاة المريدين للإمام زين العابدين (ع): (سبحانك ما أضيق الطـرق على من لم تكن دليلـه ، وما أوضح الحق عند من هديته سبيله ، إلهي فاسلك بنا سبل الوصـول اليـك ، وسيّرنا في أقـرب الطـرق للوفـود عليـك).. الى آخـر هـذه المناجـاة الشـريفة الـتي يحسـن قراءتهـا بتأمـل ، لتحصـيل حقيقـة الرغبـة الى الله عـز وجلّ وآثارها المعنوية الخاصة والعامة.

٢٥- وأعلام القاصدين إليك واضحة:

اللهم وهذه أعلام القاصدين الى ساحة قدسك ، الوافدين على بحر ملكوتك ، واضحة ساطعة لا تخفى عليك ، وقد رفعوها عالية للدلالة عليك دون سواك ، فأنت الأول والآخر ، وإليك ترجع الأمور ، وقد ورد في الدعاء : (وأنت الرؤوف الرحيم البر الكريم ، الذي لا يُخيِّب قاصديه ، ولا يطرد عن فِنائه آمليه) ..

وقد ورد في دعاء آخر (يا من سعد برحمته القاصدون).

وفي الحقيقة فإن هذه العبارة الشريفة تؤدي نفس المعنى السابق للفقرة التي قبلها ، نعم هي تتضمن مرحلة لاحقة ، ومرتبة أعلى.

فالراغب أصبح في هذه الفقرة قاصداً ، لأن الرغبة وحدها لا تكفي ، وان كان لها ثوابها وأجرها، وإنما تتأكد الرغبة وتتحقق بالفعل وهو القصد والسلوك العملي من خلال الصالحات والخيرات.

كما أن سبل الراغبين أصبحت الآن ذات أعلام ورايات ، وهي كناية عن الحركة الفعلية ، والسير العملي في طريق الجهاد الأكبر.

وقد ورد في الدعاء (أتيتك قاصداً جنابك ، وارداً شريعة رفدك).

ثم ان القصد قد يأتي بمعنى السلوك والسير كما ذكرنا ، وقد يأتي بمعنى النية والإرادة القلبية ، وقد يأتي بمعنى الدعاء والطلب والمسألة ، ومنه ما ورد في الدعاء (فصرتُ أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً ، لا خائفاً ولا وجلاً ، مُدِلاً عليك فيما قصدت فيه إليك).

ويجمع هذه المعاني جامع التوجه نحو الخالق عزوجلّ ، فإن التوجه اليه قد

يكون بالنية أو بالسير أو بالدعاء ، ولكل واحد كيفيته وآثاره.

ثم انه يمكن ان نفهم من (أعلام القاصدين) ، انها صفاتهم وميزاتهم وعلاماتهم ، التي يمتازون بها عن غيرهم ، ولا شك انها واضحة عند الله عز وجل الذي يعلم السر وما يخفى..

وكذلك هي واضحة عند الخلائق ، لأن الله تعالى بيّنها لهم ، وعرّفها لهم عن طريق رسالاته وأنبيائه وأوليائه ، لينقطع بذلك كل عُذر وحجة ، حينما يحاول البعض أن يعتذر أو يحتج لنفسه يوم الحساب.

ويحتمل أيضاً ان يراد بالأعلام هنا ما يشمل الحجج والبراهين الساطعة الدالة على الصراط المستقيم.

فالمتأمل المنصف يدرك ان وضوح أعلام القاصدين الى الله تعالى ، ووجود عدة سبل وطرق مفتوحة ومعبّدة للراغبين اليه عز وجل ، انما هو حجة منجّزة على كل واحد منا ، لأنها موجودة وواضحة أمامنا ونصب أعيننا ، فالمفروض بنا أن ننطلق باسم الله وعلى بركته في رحاب هذه السبل التي يجمعها عنوان الصراط المستقيم ، ولنتقدم معاً تحت هذه الأعلام النورانية ، لننجو بأنفسنا ، لعلنا نصل الى مرتبة القبول والرضا ، لنطأ بجوانحنا المسكينة أرض الفردوس ودار السلام وجنة النعيم.

٢٦- وأفئدة العارفين منك فازعة:

اللهم إن أفئدة العارفين بك ، الواعين لحقيقة علاقتهم بك ، فازعة يا إلهي منك وإليك ، فلا مهرب منك إلا إليك ، ولا منجى منك سواك يا رب العالمين.

والعارف مشتق من المعرفة والدراية والعلم ، فمن يعرف حرارة النار وأذاها يفزع منها ، ومن يعرف قوة الجبار يحذر منه..

ولا يكون الفرد عارفاً بالله ، حتى يلتزم بالأوامر الشرعية على المستويين الظاهري والباطني.

ومحل الشاهد هنا أن العارف بقدرة الله وجبروته ، يفزع منه بكل تأكيد ، حيث ورد في الدعاء (وأخافك مخافة الموقنين)، بمعنى انه يخافه خوف طاعة وعبودية ، ويحذر من سخطه حذر ورع واجتهاد في سبيله عز وجل، ويتعامل معه في كل صغيرة وكبيرة ، بكل خشوع وسكينة ، مع انحفاظ جانب الرجاء والمحبة ، فإنه ضروري ، ولا يتعارض أبداً مع جانب الخوف والخشية من الله تعالى.

كما ان فزع العارف وخوفه ، قد يكون ناتجاً من حرصه على مقامه ومرتبته عند الخالق جل جلاله ، بمعنى انه يخاف ويحذر من أن يتراجع عما وصل اليه ، أو مِن أن يفقد ما جاهد للوصول اليه والحصول عليه.

وهنا معنى آخر قد يخطر في البال ، وخلاصته ان أفئدة العارفين فازعة الى الله تعالى من(أي بسبب) الفيض الإلهي والتوفيق الرباني.

وهنا نقطة ينبغي الالتفات اليها وهي ان العرفان ليس غاية كما يتوهمه البعض ، وانما هو مجرد وسيلة يُفتَرض أن تؤدي الى التكامل وجوار الله تعالى ،

وأما الغاية الحقيقية والهدف الصحيح فهو رضا الله وقربه ، وهذا هو المهم ، ولا يجوز أن يغيب (في أي لحظة) عن قلب الفرد المؤمن ، اذا كان مطبقاً لمبدأ المراقبة على اختلاف مستوياتها و معانيها.

و لعل قراءة سريعة في مناجاة العارفين ، تؤكد ما قلناه الآن ، فراجعها و تأمل فيها قربة إلى الله عزّ وجل.

الفرق بين القلب والفؤاد

بقي ان نشير هنا الى الفرق بين القلب والفؤاد ، فقد ورد في مجمع البحرين: ١١٨/٣ ان الفؤاد هو القلب ، وانه يقال ان الأفئدة توصف بالرقة ، والقلوب باللين ، لأن الفؤاد غشاء القلب ، فإذا رقّ نفذ القول او العلم فيه ، وخلص الى ما ورائه ، وإذا غلظ تعذر وصوله الى داخله.

واما القلب ، فإنه اذا صادف شيئاً علقَ به إذا كان ليناً ، أي ليس قاسياً ولا جامداً ولا صلباً.

أقول: الظاهر انهما بحسب التعبير القرآني واللغوي واحد ، وانما قد يفرق بينهما بحسب الاصطلاح الفني ، فيقال كما ذُكرَ لكن بصياغة أخرى مفادها ان القلب هو مركز الإحساس والتعقل ، واما الفؤاد فهو الآلة الناقلة اليه ، كما ان السمع والبصر آلتان لنقل المعلومات وإيصالها الى العقل .

وقد يقال ان الفؤاد هو المرتبة الأرق ، واما القلب فهو المرتبة الأدق .

٢٧- واصوات الداعين اليك صاعدة:

إلهي وهذه حناجر الداعين اليك تصدح بألوان الدعاء والرجاء و المناجاة ، وهذه اصواتهم اليك صاعدة تملأ الآفاق الى عنان السماوات صراخاً و نداء ، كلها تنشد بالرجاء ، و تنادي بالدعاء ، و تهلل لك بالتسبيح و الثناء ، فتقبلها يا رب من عبادك ، برحمتك و جودك و حنانك.

وقد ورد في الدعاء (الحمد لله الذي ادعوه كلما شئت لحاجتي ، وأخلو به حيث شئتُ لسرّي ، بغير شفيعٍ فيقضي لي حاجتي ، الحمد لله الذي أدعوه ولا أدعو غيره ، ولو دعوتُ غيره لم يستجب لي دعائي ، والحمد لله الذي أرجوه ولا أرجو غيره ، ولو رجوت غيره لأخلف رجائي ، والحمد لله الذي وكلني اليه فأكرمني ، ولم يكلني الى الناس فيهينوني).

وهكذا فإن أصوات الداعين ، كلها مسموعة عند الله تعالى ، إلا ان الاستجابة الربانية منوطة بجملة من الأسباب ذكرناها في كتابنا (خواطر حول الذنوب والأدعية) ، ولعل البعض لا تناسبه الاستجابة ، أو أنه لا يستحقها ، وقد ورد في الدعاء (ولعلّ الذي أبطأ عني هو خيرٌ لي لعلمك بعاقبة الأمور).

كذلك ورد في الحديث عن الصادق (ع) حينما سُئل: لماذا ندعو الله فلا يستجيب لنا؟ فقال (ع): لأنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، قرأتم القرآن فلم تعملوا به ، ادعيتم حب رسول الله فلم تعملوا بسنته ، قلتم انكم مشتاقون للجنة فلم تعملوا لها ، قلتم ان الموت حق فلم تستعدوا له ، أكلتم نعمة الله فلم تشكروه ، شغلتم أنفسكم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم ، فكيف يستجاب الدعاء).

فإذا كان معنى (صاعدة) أي مسموعة ، فقد عرفت ان أصوات الداعين

كلها مسموعة ومعلومة عند الله عز وجل الذي لقب نفسه بسميع الدعاء ..

وإما اذا كان معنى (صاعدة) أي مستجابة ، فقد عرفت ايضاً ان الاستجابة الإلهية لها شروطها وكيفياتها ، وقد تتحقق الاستجابة من حيث لا يشعر الفرد : (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاتُحْصُوهَا) (ابراهيم:٣٤) .

فالدعاء الصادر من المؤمن المستحق ، مستجاب بإذن الله إن آجلاً او عاجلاً ، بطريقة أو بأخرى ، إلا إذا كانت مصلحة الفرد تقتضي خلاف ذلك ..

مع الالتفات الى ان المهم عند الخالق عز وجل هو مراعاة المصالح الواقعية ، ومن هنا قد لا يفهم البعض او لا يصبر ، مع ان مقتضى التسليم تفويض الامور كلها الى من بيده الأمر، وكما يقول الشاعر:

فَسُسْنا كيف شئتَ ولا تكِلْنا   الى تدبيرنا يا ذا المعـــالي

اللهم انا نسألك وندعوك ان تدبر امورنا في خير وعافية ، وان تجعلنا في كنَف رحمتك وحمايتك يا إله العالمين.

٢٨- وأبواب الإجابة لهم مفتّحة:

الحمد لله الذي لم يوصد أمامنا أبواب إجابته ، رغم تقصيرنا الواضح ، ولم يزل ولا يزال شرّنا اليه صاعد ، وخيره الينا نازل ، ندعوه بلسان كليل ، وقلب سقيم ، وهو يفتح في وجوهنا ابواب الاجابة.

(فلمْ أرَ مولىً كريماً أَصبَرَ على عبدٍ لئيمٍ ، منك عليّ يا رب ، إن طردتني من بابك فبمن ألوذ ، وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ ، فوا أسفاه من خجلتي وافتضاحي ، و والهفاه من سوء عملي واجتراحي).

وورد في دعاء آخر (إلهي كيف أصدرُ عن بابك بخيبة منك ، وقد وردته على ثقةٍ بك ، وكيف تؤيسني من عطائك ، وقد أمرتني بدعائك).

أقول: لا يخفى ان صعود اصوات الداعين ، انما يكون من خلال الأبواب التي فتحها الله تعالى لهم ، وهو القائل عز وجل : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ)

فأبواب الاجابة مفتوحة بكل تأكيد ، ولولا ذلك لما أمرنا خالقنا عز وجل ان ندعوه ونتوسل اليه ، والتجربة شاهدة بأن الأدعية مستجابة بإذنه عز وجلّ ، وقد تحدّثنا عن شروط الإجابة في (خواطر حول الذنوب والأدعية).

إلا انه يفترض بالداعي كخطوة اولى ان يُخلص في دعائه وتوجهه نحو الله عز وجل ، وان يستغفر الله ويتوب اليه توبة صادقة قبل الدعاء ، فإن مثل هذه الامور تساعد كثيراً في فتح باب الإجابة أمامه.

كذلك ورد عن الإمام (ع): (ان الله لا يستجيب دعاء بظهر قلبٍ ساهٍ ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ، واستيقن الاجابة).

فإن الإقبال بالقلب وإن كان المقصود به التوجه بالقلب لله عز وجل اثناء الدعاء ، بمعنى انه يستحضر حالة المناجاة والمسألة ، ويعيش اجواءها الفعلية ، إلا انه قد يكون المقصود بالإقبال هو التوجه لله بالطاعات ، والسلوك نحوه بالإلتزام بالواجبات الشرعية ، والاجتناب عن السيئات والمحرمات ، فإن هذا هو الإقبال العملي الذي يفترض تواجده - ولو من باب الأدب والإحترام - قبل الشروع بالدعاء ..

ولعل جملة من الأشخاص يستحيون من الدعاء ، إذا لم يحرزوا في انفسهم التوبة والإقبال لله عز وجل ، ولئن اضطروا للدعاء قبل احراز ذلك ، رغم حيائهم وشدة وجلهم ، فمن باب ان الضرورات تبيح المحضورات ، أو من باب ان رحمة الله وسعت كل شيء ، أو من باب أن الله عز وجل عند حسن ظن عبده به ، وانه لا يرد ولا يخيّب من أحسن ظنه به ، او من أي باب آخر ، وقد ورد في الدعاء (إلهي كيف أدعوك وأنا أنا ، وكيف أقطع رجائي منك وأنت أنت) ، (إلهي من لي غيرك أسأله كشف ضري والنظر في أمري).

نسأل الله ربنا أن لا يحرمنا بركاته ، وأن لا يصرف عنا وجهه الكريم.

٢٩- ودعوةَ من ناجاكَ مستجابة:

هذه الفقرة يُفهم معناها مما تقدم في شرح الفقرتين السابقتين ، في قوله (ع) : (وأصوات الداعين إليك صاعدة ، وأبواب الإجابة لهم مفتحة).

الفرق بين الدعاء والمناجاة

نعم تجدر الإشارة الى ان كل مناجاة هي دعاء ، بينما ليس كل دعاء هو مناجاة ، فالمناجاة أخص من الدعاء..

ويمكن ان يُفرّق بينهما بأن الدعاء هو مخاطبة الله تعالى لأجل السؤال والطلب أو لأجل الحصول على عطاء ، وأما المناجاة فهي أولاً وبالذات مخاطبة مع الله عز وجل لأجل المخاطبة فقط ، وان كان فيها سؤال عرضي او أدت الى عطاء ، فالاختلاف بينهما في الغاية الأولية والقصد الأساسي.

ولتصوير الفرق عملياً ، نقول ان الفرد قد يدعو الله بلسان غافل فهذا مجرد دعاء ، وقد يسأله بلسانٍ ملتفت وقلب حاضر فهذا أيضاً دعاء ، إذا كان يتضمن طلباً أو مسألة معينة سواء كانت دنيوية او أخروية ..

في حين ان المناجاة الحقيقية تلازمها حالة من الوعي والسكينة والخشوع ، وغالباً ما تكون المناجاة أصلاً بداعي المخاطبة -كما قلنا- مع الله عز وجل ، اما شوقاً أو رجاءً أو نحو ذلك من الدواعي ، وان تخللها الدعاء والمسألة.

وعلى أية حال فإن الدعاء بمعناه الأعم هو العنوان الكلي الذي يشمل المناجاة والمسألة (او الدعاء بالمعنى الأخص).

وقد يقال ان بين المناجاة والدعاء علاقة عموم وخصوص من وجه ، بمعنى ان بعض الأدعية يصدق عليها انها مناجاة ودعاء في نفس الوقت ، وكذلك بعض المناجيات ، في حين توجد أدعية لا يصدق عليها انها مناجاة ، كما توجد مناجيات لا يصدق عليها أنها أدعية.

٣٠- وتوبةَ من أنابَ إليكَ مقبولةٌ:

إلهي يا من تسمع عويل التائبين ، وآهات المستغفرين ، يا قابل التوبة ويا عظيم المغفرة ، أسألك ان تقبل مني عودتي وإنابتي ورجوعي إليك ، وأن تقبل اعتذاري واستغفاري ، (فما أنا وما خطري ، هبْني بفضلك وتصدق علي بعفوك).

و التوبة هي الاستغفار والندم ، مع العزم على عدم الرجوع الى الذنب ، وهذا هو الحد الأدنى للتوبة ، وقد تحدثنا عن بعض ما يتعلق بها من الشروط والآثار في كتابنا المتواضع (خواطر حول الذنوب والأدعية) ، وكذلك (طريقك نحو الجنة).

والتوبة واجبة حيث يقول الله تعالى:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

كما ان التوبة قد تكون عن الذنب ، وقد تكون عن التقصير ، وقد تكون التوبة عن الغفلة ، وكلها مطلوبة.

واما الإنابة فهي الرجوع والعودة لله عز وجل بعد ارتكاب الذنب والمعصية ، باعتبار ان الذنوب تبعد عن الله عز وجل وقد ورد في الحديث (كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة).

وكذلك يقول الله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) .

مع الالتفات الى ان التوبة يجب ان تكون حقيقية وصادقة وتامة ، لكي تكون مؤثرة ومقبولة.

وظاهر القرآن ان الإنابة الى الله عز وجل يراد منها التوجه والمسير نحو الله عزوجل ، وهذا هو المعنى الاصلي لها ، وإنما أطلقت الإنابة في موارد الاستغفار

والتوبة ، فباعتبار انه يرجع العبد بعدها الى توجهه وسلوكه الصحيح والسليم نحو خالقه عز وجل .

وهذه بعض الآيات التي تتحدث عن الإنابة:

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)

(وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ)

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِليَّ).

ثم انه تجدر الإشارة هنا الى مسألة تكفير الذنوب السابقة بعد صدور التوبة ، فهذا ممكن بلحاظ الرحمة الإلهية الواسعة ، وقد ورد في الدعاء إلهي إن كنتُ بئس العبد ، فأنت نعمَ الرب ، عَظُمَ الذنبُ من عبدك ، فليحسن العفو من عندك).

ولكنه يعتمد أساساً على صدق التوبة ، وفعليّة الإنابة الى الله عز وجل ، وحسن الظن به تعالى ، هذا من جانب العبد ..

وأما من جهة الله عز وجل فهو أرحم الراحمين وخير الغافرين ، بيده الأمر واليه المصير.

وقد ورد في الحديث عن الصادق (ع) (إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة) ، ثم يقول (ع) بعد ذلك (فيلقى الله حين يلقاه ، وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب).

ولا يخفى ان بعض الذنوب تكون توبتها (علاوة على الاستغفار) بإرضاء الخلق أو إرجاع حقوقهم إليهم ، وهي الذنوب التي تحصل مع العباد ، كالغيبة او الإفتراء او السرقة او نحوها والعياذ بالله ، فيجب أخذ ذلك بنظر الاعتبار ، وسيأتي بعض ما يتعلق بالتوبة ايضاً في قوله (ع) (وزلل من استقالك مقالة).

٣١- وعبرةَ من بكى من خوفكَ مرحومةٌ:

اللهم و هذه عبرات الباكين من خشيتك ، قد استقبلتها بمنك في ديوان الرحمة و الحنان ، و حفظتها عندك في لوح القبول و الرضوان.

أقول : لا يخفى ان خشية الله هي مبدأ اساسي في حياة الانسان ، وهي انما تدل على مقدار التعلّق بالله ، سواء كان هذا التعلّق لأجل الرغبة في الجنة ، او الرهبة من النار ، او الرغبة في رضا الله و قربه ، أو الرهبة من سخط الله و بعده ، او لأجل الله تعالى ، حباً محضاً وشوقاً صافياً وعبودية خالصة ، ومن غير ملاحظة أي شيء آخر.

وقد ورد في عدة روايات الحثُّ على البكاء خوفاً من الله أو شوقاً اليه ، وهو يؤدي بالتأكيد الى تحصيل الحسنات والثواب ومحو السيئات بإذنه تعالى..

ومن الطبيعي ان تكون هذه الدموع وتلك العبرات ، سبباً لتحصيل الرحمة الإلهية ، التي وسعت حتى من لا يستحق ..

وفي الحديث ما مضمونه ان العين التي تبكي من خشية الله عز وجل لا تسهر يوم القيامة.

ومن هنا نسمع في دعاء الصباح (واغرس اللهم بعظمتك في شِربِ جناني ينابيع الخشوع ، وأجرِ اللهم لهيبتكَ من آماقي زفرات الدموع).

وفي دعاء الثمالي نسمع قوله (ع) (فما لي لا أبكي ، أبكي لخروج نفسي ، أبكي لظلمة قبري ، أبكي لضيقِ لحدي ، أبكي لسؤالِ منكرٍ ونكيرٍ أياي).

وفيه ايضاً (وما لي لا أبكي ، ولا ادري الى ما يكون مصيري ، وأرى نفسي تخادعني ، وأيامي تخاتلني ، وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت).

إلا أنه ينبغي الالتفات مع ذلك الى ان البكاء المحمود هو الذي يكون مؤثراً إيجابياً ، ودافعاً نحو الصلاح والكمال، ويرافقه الرجاء وحسن الظن بالله عزوجل.

ففي الدعاء (الهي لو قرنتني بالإصفاد ، ومنعتني سَيْبَكَ من دون الأشهاد ، ودللت على فضائحي عيون العباد ، وأمرتَ بي الى النار ، وحُلْتَ بيني وبين الأبرار ، ما قطعتُ رجائي منك)..

فالله ولي العفو والرحمة ، وهو حسن التجاوز عن المسيئين ، وهو ولي النعمة والفضل مع المريدين والراغبين ، وقد ورد في الحديث انه أشد حناناً على عباده من الأم على رضيعها.

٣٢- والإغاثةَ لمن استغاث بك موجودةٌ ، والإعانةَ لمن استعان بك مبذولةٌ :

فكم يا إلهي من كربة قد فرّجتها ، وهمومٍ قد كشفتها ، وعثرةٍ قد أقلتها ، ورحمةٍ قد نشرتها ، وحَلْقَةِ بلاءٍ قد فككتها .. أعلمُ يا إلهي أنك للراجين بموضع إجابة ، وللملهوفين بمرصد إغاثة ، يا مَفزعي عند كربتي، ويا غَوثِي في شدتي ، إليك فَزِعتُ ، وبك استغثتُ ، وبك لُذتُ لا ألوذُ بسواك ، ولا أطلب الفرجَ إلا منك ، فأغثني وفرّج عني.

يقول الله عز وجل (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُه) .

فالإغاثة الربانية والنصرة الإلهية ، موجودة ومبذولة لكل من يستغيث بالله ويستنصره ، ويطلب العون منه عزوجل ..

ولئن تأخرت عن البعض في أوقات معينة ، فهذا لأجلهم ولمصلحتهم ، وأجر الصبر محفوظ ، وكذلك ثواب التسليم والرضا ، وقد جاء في الدعاء : (فإن أبطأ عني عتبتُ بجهلي عليك ، ولعلّ الذي أبطأ عني هو خيرٌ لي لعلمك بعاقبة الأمور)..

ولعل هنا تفيد التحقيق والتأكيد ، من قبيل قوله تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ، (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

ثم ان الاستغاثة قد تكون في الدنيا ، وقد تكون في الآخرة ، حيث ورد ان الله تعالى يغيث بعض العباد فيسهّل عليهم الحساب والموقف ، وقد يعفو عنهم فيخرجهم من النار.

اما في الدنيا فالإغاثة الإلهية تحيطنا من كل جهة ، والإعانة الربانية تشملنا

في كل حين ، وإن لم يدركها البعض لغفلتهم وجهلهم وسوء تقديرهم.

ولعل كل واحد منا ، يستطيع لفترة بسيطة ان يتأمل ويتذكر نعم الله عليه بالمقارنة مع من هو أدون حالاً ، ليشكر الله على ما هو فيه ، وليعرف ان خالقه عز وجل لم ولن يتخلى عنه في يوم من الإيام ..

والمسألة تحتاج الى اقتران هذا الإيمان بالتسليم والرضا ، والالتفات الى اننا في دار امتحان ورحمة في ذات الوقت.

وتجدر الإشارة الى ان للاستغاثة والاستعانة مراتب ودرجات ، كما ان للإغاثة والاعانة شروط وكيفيات ، فكلما كانت الاستغاثة واعية ، ومستجمعة للشروط ، كلما كانت الإغاثة أسرع وأوضح ، وكذلك الحال في الاستعانة.

وفي الحقيقة فإن الاستغاثة والاستعانة ، بمعنى واحد بحسب الظاهر ، وإن أمكن التفريق بينهما دقّياً ، كأن يقال ان الاستغاثة تكون في المراحل الاشد خطورة ، او يقال ان الاستعانة تكون اما بالتوكل أو بالدعاء وطلب المعونة ، واما الاستغاثة فتكون بالدعاء وطلب الغوث ، فالاستعانة والإعانة أعم من هذه الناحية.

٣٣- وعِداتكَ لعبادكَ منجزة:

العدات جمع عِدَة وهي بمعنى الهدية الموعودة أو النعمة الموعودة ، وقد ورد ان الله لا يُخلف وعده مع احد ، ولكنه تعالى قد يتسامح و يتنازل في وعيده ، اذا أراد أن يرحم و يغفر.

ولا يخفى ان الله تعالى وعد عباده بجملة من الامور ، منها ما هو عام ، و منها ما هو خاص.

فقد وعد عموم خلقه بالهداية والرعاية ، وانهم سيرجعون اليه ليُجازيهم بما عملوا.

ووعد المتقين بانهم سيدخلون الجنة ، وان لهم مقعد صدق عند مليك مُقتدر ، وانهم سيخلدون في النعيم.

كما وعدَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم سيرثون الأرض ، وانهم سينالون المغفرة و الاجر العظيم ، علاوة على المغانم الدنيوية الكثيرة.

و هكذا فإن الوعود الالهية كثيرة ، و كلّها حاصل متحقق فعلاً ، أو سيحصل و يتحقق بمشيئة الله في وقته الذي هو أعلم به.

نعم توجد هناك شروط متعلقة بالعبد ، من قبيل الاخلاص وعدم الرياء وعدم الإفساد ، والحذر من إحباط العمل ، وكذلك القيام بالتكاليف الفردية والنوعية ، والعمل بموجب الولاية الثابتة للمعصومين (ع) ، باعتبار انهم القادة والموجِّهون الصادقون للكمال وطاعة الخالق عز وجل ، فإن كل ذلك يعتبر مقدمات مهمة لتحصيل مؤدّى الوعد الإلهي.

ثـم ان الالتفـات الى هـذه الحقيقـة ، وهـي ان الله تعـالى ينجـز وعـده ويحقـق مواعيده ، سوف يعطي للفـرد دافعـاً أكثر للعمـل والطاعـة ، كمـا يعطيـه ثقـة عاليـة وقوة إضافية ، أثناء مجاهدته للهوى والشيطان.

يقول الله عزوجل:

(قل بفضل الله ورحمته،فبذلك فليفرحوا هـو خير ممـا يجمعون)، (ورحمـة ربك خير مما يجمعون).

٣٤- وزللَ من استقالكَ مُقالةٌ:

اللهم وهذه ذنوبي وزلاتي وخطيئاتي ، كلها بين يديك ، وأنت تعلم مني ما لا أعلم من نفسي ، وتحفظ مني ما غفلتُ عنه أو نسيته ، وتحصي عليّ من الزلل ، ما أحسبه بجهلي وغفلتي من المباحات ، وأنت القائل (أحصاه الله ونسوه).

يا رب أسألك أن تقيلني مما اكتسبت ، وتغفر لي ماقدّمت وأخرت ، فأنت خير الغافرين ، تجد من تعذّبُ غيري ، ولا أجد من يرحمني سواك.

وعلى أية حال فإن الزلل هو الخطأ ، والمراد به الذنوب على جميع المستويات العامة والخاصة..

واما الإقالة فهي بمعنى المغفرة والصفح والتجاوز ، وهذا ايضاً له عدة مستويات ، وضحناها في (خواطر حول الذنوب والأدعية) ، وأهمها محو الذنب من صحيفة الفرد المستغفر ، وسكون الغضب الإلهي ، ورجوع الرحمة الإلهية اليه ، ومحو آثار الذنب ، وستر الذنوب عنه فوق ذلك..

وقد تحدثنا فيما مضى عن رحمة الله وقبوله للتوبة والاستغفار ، حتى وإن صدرت التوبة من العبد في آخر لحظات حياته ، ما دامت صادقة وفعلية ، وهذا هو معنى الاستقالة في هذه الفقرة الشريفة.

فالاستقالة تعني طلب المغفرة والصفح والتجاوز من الله رب العالمين ، وقد ورد في الدعاء (يا مُقيل عثرات المذنبين).

شروط المغفرة

أما شروط هذه المغفرة والإقالة فهي كثيرة ، وأهمها مايلي:

١- التوبة الحقيقية والفعلية ، وهي تتضمن الندم الفعلي على ما مضى ، والعزم الجدي على عدم العودة للذنب أبداً.

٢- الإخلاص بالتوبة لله تعالى وحده.

٣- تطبيق آثار التوبة وعلاماتها ، وهو يحصل بأداء حقوق العباد والاستبراء منهم ، وأداء حقوق الله عز وجل أو قضائها إذا فاتت ، واستبراء الجسد والنفس من آثار الحرام والمعاصي.

٤- إظهار الطاعة والمجاهدة أمام الله سبحانه ، لكي يُمحى السخط الإلهي ، ويحل محله الرضا والقبول.

أقول: ولعل المتأمل في هذه الشروط يجدها على حد الشروط التي ذكرها أمامنا علي بن ابي طالب (ع) للاستغفار كما في الرواية المعروفة.

وقد يتعجب بعضنا ، أو تأخذه الرجفة أو الخشية وهو يرى هذه الشروط او غيرها ، ولكننا نخاطبه بكل ثقة ، ونقول له ما قاله النبي محمد (ص): (إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم).

فّإذا حاول الفرد ولم يقدر على جميع هذه الشروط ، فليستغفر الله من كل قلبه ، وليطلب منه الرحمة ، فإنه سيجد ان الله خير الغافرين وأرحم الراحمين..

خصوصاً وان الاعتماد الحقيقي ، انما هو على الله عزوجل ، ولا ينبغي الإتكال والاعتماد على الأعمال مهما كانت.

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس:٥٨)

وقد ورد في مناجاة شعبان للإمام علي (ع) (إلهي كأني بنفسي واقفة بين يديك ، وقد أظلّها حُسنُ توكلي عليك ، فقلت ما أنت أهله وتغمدتني بعفوك).

٣٥- وأعمال العاملين لديك محفوظة:

اللهم وهذه أعمالنا بين يديك وكلها أمامك ، نسألك وندعو أن تتقبل صالحها فإنه منك وإليك ، ونسألك ان تتجاوز عن أخطائنا وهفواتنا وزلاتنا ، وان تمحوها بعفوك ومغفرتك ، وان تسترها بحجاب رأفتك ورحمتك.

لا ريب ان الاعمال ثابتة ومحفوظة عند رب العالمين ، الذي لا تخفى عليه خافية ، وهو السميع العليم، وهذه نعمة إلهية عظيمة لو تأملناها جيداً ، وهي أن أعمالنا محفوظة مباشرة عند الله عز وجل ، الذي هو خير الحافظين ، وهو تواضع منه عز وجل ، لأنه يهتم بنا ويحفظ أعمالنا رغم انه غني عنا، ورغم اننا لا نستحق منه ذلك ، حيث نسمع في الدعاء (خيرُك إلينا نازل وشرّنا إليك صاعد ، ولم يزل ولا يزال ملكٌ كريمٌ ، يأتيك عنا بعملٍ قبيح ، فلا يمنعك ذلك من أن تحوطنا بنعمك وتتفضل علينا بآلائك ، فسبحانك ما أحلمك وأعظمك وأكرمك).

وفي الحقيقة فإن المراد بالعاملين هنا ما يعم الصالحين والمفسدين ، فإن أعمال الصالحين محفوظة ، واعمال المفسدين والفاسقين أيضاً محفوظة ..

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) (الزلزلة:٧-٨).

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) (النجم:٣٩-٤١)

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) (العلق:١٤)

نعم من الناحية العملية فإن العمل الصالح يود صاحبه ان يحفظه الله عز وجل وان يؤجره عليه خيراً ، وقد ورد عن الإمام الحسين (ع) انه كان يتحمل آلامه وجراحه وهو يقول : (هوّنَ عليّ ما نزل بي أنه بعين الله)..

في حين ان العمل السيء ، يود صاحبه التائب النادم ان يستره الله عز وجل ، أو يمحوه من صحيفة أعماله ، وما ذلك على الله ببعيد.

ثم انه ينبغي الالتفات الى ان الحسنات يُذهِبنَ السيئات كما ورد في القرآن الكريم ، كما ان بعض السيئات تحبط الأعمال الحسنة وتحرقها ، فينبغي للمؤمن ان يحذر من هذه الناحية ، حفاظاً على أعماله الصالحة، وصيانة لسلامة موقفه امام رب العالمين.

بقي ان نشير الى نقطة مهمة وهي قوله عز وجل: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون) (التوبة:١٠٥)

حيث ورد في عدة روايات ان الاعمال تعرض على النبي (ص) في كل اثنين وخميس فيعلمها ، وكذلك تعرض على الائمة (ع) فيعرفونها ، وهم المعنيون بقوله تعالى (والمؤمنون)..

وكذلك ورد عن ابي سعيد الخدري عن النبي (ص) (أما بعد وفاتي فاتقوا الله ، وأحسنوا الصلاة علي وعلى اهل بيتي ، فإنكم تعرضون علي بأسمائكم وأسماء آبائكم وقبائلكم ، وان يكن خيراً حمدت الله ، وان يكن سوءاً استغفر الله لذنوبكم).

وفي الكافي عن الصادق (ع) عدة روايات أن الأعمال تعرض على النبي(ص) في كل صباح ..

وفيه أيضاً أن الصادق(ع)قال : (مالكم تسوءون رسول الله (ص)؟ فقال رجل: كيف نسوؤه؟ فقال: اما تعلمون ان اعمالكم تُعرض عليه ، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك ، فلا تسوؤا رسول الله، وسرّوه).

وقد مر بعض مايتعلق بالمقام في شرح فقرة (وعملت بكتابه)فراجع.

٣٦- وأرزاقك الى الخلائق[1] من لدنك نازلة:

الهي انت عون الضعفاء وكنز الفقراء ، وعدت عبادك بالرزق ، وتكفّلت لهم به من غير ان يسألوك ، نسألك اللهم ان ترزقنا من كل خير ، رزقاً واسعاً ليس له نفاد ، يا خير الرازقين.

يقول الله تعالى :(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) ، وهذا يعني ان الرزق انما هو بيد الله عز وجل ، الذي بيده ملكوت كل شيء وهو القادر على كل شيء.

والمهم هنا ان نعرف ان الرزق المقصود ليس مخصوصاً بالرزق المادي او الدنيوي ، وانما هو أعم وأوسع ، فلاتكن أفهامنا ضيقة ، حتى لا نعدم الفرصة ، ولنكن ملتفتين واعين ، حينما ندعوا بدعاء (اللهم ارزقنا).

فالرزق المادي ليس هو الرزق الوحيد ، بل هو بمعنى من المعاني أدنى الأرزاق..

فهناك رزق العافية ، ورزق الذرية ، ورزق الأمان ، ورزق الفهم والحكمة ، ورزق السعادة ، ورزق التوبة ، ورزق العمل الصالح ، ورزق التسديد والتوفيق ، ورزق الجذب والقرب الإلهيين ، وهناك أرزاق أخرى ليس لها حصر ولا نهاية..

وكلها بيد الله، وكلها معدّة لخلقه ، نازلة إليهم باستمرار ، وإن لم يشعر البعض بذلك ، اما قصوراً أو تقصيراً ، حتى ورد في الدعاء : (ونعماؤك كثيرة ، قصر فهمي عن ادراكها ، فضلاً عن استقصائها)..

---

(١) وفي بعض المصادر (وأرزاق الخلائق من لدنك نازلة).

وكذلك ورد :(إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك ، وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك ، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك ، وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك ، وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء وقابلها بالتقصير).

٣٧- وعوائد المزيد اليهم واصلة:

يا رب انت العوّاد بالنعماء ، وانا العواد بالخطاء ، تصلنا بالمزيد من النعم ، وتحلم عن المزيد من ذنوبنا ، ثم تعود علينا من جديد بالرحمة والنعمة ابتداءاً وجواباً ، ونعود نحن بالهفوات والتقصير ، فسبحان من لا يؤاخذ أهل الأرض بألوان العذاب ، سبحان الحنّان المنّان ، سبحان الرؤوف الرحيم.

اقول : العوائد بحسب الظاهر ، هي تكرار الفضل والنعمة ، فيكون المعنى ان عوائد الله تعالى على عباده واصلة اليهم بالمزيد من النعم والعطايا ، وهذا هو مقتضى الرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين ، وكذلك هو مقتضى الرحمانية الإلهية العامة لجميع العباد..

وقد ورد في الدعاء (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الذي أجرانا على عوائده الجميلة في الامم السابقة)..

وورد : (فكن علينا بالفضل جواداً ، وبالخير عوّاداً).

وفي مجمع البحرين ذكر أن العوائد هي جمع عائدة وهي التعطف والإحسان ، ومنه الدعاء (إلهي عوائدك تؤنسني)..

وقد تفسر العوائد بمعنى الإقبالات الإحسانية ، ومنها عيادة المريض أي الذهاب عنده ، ومواساته وتخفيف آلامه.

ولا يخفى ان هذه العوائد بجميع معانيها تصل الى الخلق على نحو مستمر ، وبتعاقب متواتر ، ولذلك سنسمع بعد قليل عبارة (وعوائد المزيد متواترة) ، أي متكررة ومتجددة ومتعاقبة.

وفي الدعاء (وشغلني عن ذكر محامدك ، ترادفُ عوائدك ، وأعياني عن نشر

عوارفك ، توالي أياديك).

ومع كل هذه الآلاء وهذه العوائد الربانية ، التي لا حصر لها ولا نفاد ، نلاحظ مع الاسف ان بعض الجاهلين والغافلين ان لم يكونوا جاحدين ، يعترضون دائماً ويقولون ان الله تعالى لم يتفضل عليهم ، او لم ينعم عليهم ، وهذه جريمة عظيمة ، ونكران سافر للنعم الإلهية ، التي تحيط كل واحد منا ، مهما كان وضعه المادي أو الصحي أو الاجتماعي أو غير ذلك..

اذ يكفي ان ينظر كل واحد منا الى من هو أدنى منه حالاً ، لكي يلاحظ النعمة التي هو فيها ويسلم امره لله. ويكفي أيضاً ان يتصور كل واحد منا أن عضواً من اعضائه العاملة او السليمة ، قد توقف فجأة عن العمل ، لكي يدرك النعمة العظيمة التي هو فيها ، ويرضى بقضاء الله وقدره ، حتى وان كان يشعر بعيوب او نواقص من جهات اخرى ، فإن الكمال لله وحده وهو الذي انزل كل شيء بقدر ، وخلقه بقدر ، له الأمر وإليه المصير ، وعليه الجزاء والثواب.

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة:١١٢)

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)(الأعراف:١٢٦).

٣٨- وذنوب المستغفرين مغفورة:

إلهي ذنوبي بذّت الطود واعتلتْ وصفحك عن ذنبي أجلُّ وأرفعُ

إلهي لئن جلّت وجمّت خطيئتي فعفوك عن ذنبي أجل وأوسـعُ

إلهي أقلني عثرتي وامح حوبتي فإني مقرٌّ خائفٌ متضرعُ

إلهي فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ ، وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ ، فواأسفاه من خجلتي وافتضاحي ، ووالهفاه من سوء عملي واجتراحي .. إلهي ما انا بأول من عصاك فتبت عليه ، وتعرّض لمعروفك فجدتَ عليه.

في الحقيقة هذه الفقرة (ذنوب المستغفرين مغفورة) تؤدي نفس المعنى الذي وضحناه في شرح (وزلل من استقالك مقالة) ، وقد تحدثنا عن الاستغفار هناك، وكذلك تحدثنا عن التوبة ، وقبولها ، وكيفية المغفرة اجمالاً ، في شرح (وتوبة من اناب اليك مقبولة).

إلا أننا سنذكر هنا معنى آخر للمغفرة ، فإن الغفران لغةً هو الستر ، وهذا الستر كما ينطبق على محو الذنوب السابقة او تغطيتها بعد الاستغفار والتوبة، فكذلك ينطبق على تغطية وحجب الذنوب في المستقبل.. بمعنى ان الله تعالى يوفق عبده ، بأن يبعده عن الذنوب ، أو يبعد الذنوب عنه ، فلا يدنو منها ولا يقترفها ، وتكون مستورة ومحجوبة عنه ، بفضل الله وحسن رعايته وتسديده ، حيث يقول تعالى: (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (غافر:٩)

وقد ورد في الدعاء (وتب علي حتى لا أعصيك) ، وكذلك ورد (وكرّه إليّ فيه الفسوق والعصيان).

٣٩- وحوائج خلقك عنك مقضية:

اللهم يا قاضي الحاجات ، ويا مجيب الدعوات ، يا من يكفي من كل شيء ، يا من تُحلُّ به عُقَدُ المكاره ، ويا من يفثأ به حدُّ الشدائد ، ويا من يُلتَمس منه المخرج الى روح الفرج ، انت المدعو للمهمات ، وأنت المفزع في الملمات.

أقول: مرّ بيان معنى هذه الفقرة الشريفة ، عندما تحدثنا عن قوله (ع) (وأصوات الداعين اليك صاعدة ، وأبواب الإجابة لهم مفتحة ، ودعوة من ناجاك مستجابة).

فإن الحاجات لا تُقضى واقعاً إلا بإرادة الله ومشيئته ، لأنه خالق كل شيء ، وبيده ملكوت كل شيء ، فإذا أراد شيئاً أمضاه ويسّره ، وإذا لم يرد شيئاً فلا يحصل ذلك الشيء مطلقاً.

(لا فاتح لما أغلقت ، ولا مغلق لما فتحت ، ولا ميسر لما عسرت ، ولا ناصر لمن خذلت).

ولذلك فالمفروض بالمؤمن الواعي ان يطلب حاجاته من الله عز وجل دون غيره :

(اللهم ومن طلب حاجةً من الناس ، فإني لا أطلبها إلا منك).

وفي الدعاء (فمن حاول سدّ خِلَّتهِ ، ورام صرف الفقر عن نفسه بك ، فقد طلب حاجته من مظانّها ، وأتى طلبته من وجهها).

٤٠- وجوائز السائلين عندك موفّرة:

جوائز السائلين أي عطاياهم وجزاء ادعيتهم ومسائلهم ، فهي النعم التي يطلبها العباد من خالقهم عزوجل ، وهي متوفرة وموفورة عنده تعالى بكل تأكيد.

وقد يكون المقصود بجوائز السائلين ، هو ثوابهم على المسألة والتوجه الى الله عز وجل ، وهي نعمة إضافية علاوة على نعمة استجابة الدعاء.

فإن كل من يتوجه الى الله تعالى ، بالدعاء والسؤال ، فهو يحصل على ثواب وأجر وجائزة الحسنى، لأنه آمن بالله ، وآمن بقدرته عز وجل ، واستجاب لأمره القائل (ادعوني).

كما أنه قهر وأرغم أنف ابليس ، الذي يحاول ان يصرفه عن خالقه ويوجهه الى غيره.

فليتأمل الانسان في هذه التفاصيل الدقيقة ، وليحرص على ان يكون واعياً ، ليحصل بذلك على اكبر قدر ممكن من الجوائز الإلهية والعطايا الربانية.

٤١- وعوائد المزيد متواترة:

مر بيان هذه الفقرة عند الحديث عن معنى (وعوائد المزيد اليهم واصلة).

ولعل الموجود في الدعاء او الزيارة اصلاً هو احدى الفقرتين ، حيث توجد رواية ليس فيها إلا عبارة (وعوائد المزيد متواترة)[1] ..

ولكن المشهور والمروي في الوسائل كلتا العبارتين ، وقد عرفت معناهما.

(١) انظر فرحة الغري، ص ٧٣.

٤٢- وموائدَ المستطعمين مُعَدَّةٌ:

موائد المستطعِمين (بالكسر) معدَّة وجاهزة عند الله تعالى لكل سائل وطامع ، فمن يشتهي من مائدة النعم المادية ، فإنه سيجد عند الله كل ما يطمع فيه من الحلال ، ومن يشتهي من مائدة النعم المعنوية ، فسيجد عند الله تعالى كل ما يطمع فيه ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن اراد ان يستطعم من موائد الدنيا والآخرة فلن يبخل الله تعالى عنه ، وسيجد الموائد معدة ومرتبة على احسن وجه :

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) (البقرة:٢٠١)

(فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ) (آل عمران:١٤٨).

وجميع هذه الموائد والاطعمة الإلهية ، سواء كانت خاصة او عامة ، مادية او معنوية ، دنيوية او أخروية ، جميعها مبذول وموفّر ومعد للعباد ، وليس عليهم إلا ان يبدأوا بالخطوة الأولى ، والباقي على الله عز وجل.

ومن الطبيعي ان الله تعالى يعطي على قدر الاستحقاق والتحمل والاخلاص والشكر ونحو ذلك من الأمور.

٤٣- ومناهل الظماء مترعة:

الظمأ هو العطش ، وهو كناية هنا عن الحاجة القصوى مهما كان مضمونها ومؤدّاها.

فهناك من هو في ظمأ للستر والعافية ، وهناك من هو في ظمأ للرزق والكفاية ، وهناك من هو في ظمأ للعلم والحكمة ، وهناك من هو في ظمأ للقرب ولقاء الله ، وهناك من هو في ظمأ لجميع ذلك في نفس الوقت.

وكل هؤلاء يجدون شربهم وسقايتهم ، عند الله عزوجل ، فإن مناهل الظماء مترعه لديه ، وموارد المياه والسقاية التي يرتوي منها العطاشى موجوده عنده تعالى .

ومترعة هنا بمعنى مسرعة او دفاقة او مملوءة ، فهي كناية عن السعة والكفاية من جميع الجهات.

ومناهل الظماء هنا كناية عن موارد النعم الإلهية التي يطلبها العباد على اختلاف مشاربهم وأذواقهم ، وكلها بيد الله ، وقد أعدها وهيأها لهم ، بل وقرّبها منهم رحمة منه ورأفة .

وقد ورد في الدعاء (إلهي وغُلَّتي لا يبرّدها إلا وصلك ، ولوعتي لا يطفيها إلا لقاؤك ، وشوقي إليك لايبلّه إلا النظر الى وجهك ، وقراري لا يقرّ دون دُنويّ منك ، ولهفتي لا يردّها إلا رَوحك ، وسقمي لا يشفيه إلا طِبُّك ، وغمي لا يزيله إلا قربك ، يا غاية سؤل السائلين).

٤٤- اللهم فاستجب دعائي ، واقبل ثنائي:

مرّ الحديث عن الدعاء والاستجابة في فقرات سابقة فراجع..

واما مسألة قبول الثناء فهي مسألة مهمة وضرورية ، لأن الإنسان قد يشكر شخصاً على عمل معين ، فلا يُقبل منه ذلك ، أما لأن شكره غير متناسب مع حجم نعمته عليه ، واما لأن أفعال الشاكر لا ترضي المنعم ، أو لأي سبب آخر من هذا القبيل ، بحيث يؤدي الى عدم قبول الثناء ، سواء قلنا ان الثناء هنا بمعنى الشكر ، او بمعنى المدح وإحصاء الفضائل أو الإطراء كما يعبرون عنه ، فكلاهما يحتاج الى قبول ورضا.

فكيف اذا كنا في مقام الحمد والثناء لله عز وجلّ ، فإن أي مقدار من الشكر ، أو أي عبارة ثناء ، لا يوفّيان ولا يقابلان حق نعمة واحدة من نعم الله تعالى ، وكلها عظيمة وجليلة.

وإذا التفتنا الى قلة حيائنا من الله عز وجل ، وأدركنا ان طاعاتنا قليلة مهما كانت ، وان معاصينا كثيرة مهما تجاهلناها او غفلنا عنها ، خصوصاً واننا مشغولون بالدنيا على اختلاف ابوابها المادية والمعنوية ..

فعندئذٍ نعرف بالتأكيد ان شكرنا يحتاج الى قبول ، وان ثناءنا يحتاج الى رضا من الله جل ثناؤه.

ولهذا ورد في هذا الدعاء (واقبل ثنائي) ، وفي مناجاة الشاكرين : (إلهي تصاغر عند تعاظم آلائك شكري ، وتضاءل في جنب إكرامك إياي ثنائي ونشري ، وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء ، وقابلها بالتقصير).

فإذا كنا لا نحرز رضا الله وقبوله ، فالواجب علينا ان نعترف امامه

بالقصور والتقصير ، وان نستمر في شكره وحمده والثناء عليه ، حتى يفتح أمامنا ابواب القبول.

وهكذا فنحن مطالبون بالشكر على قدر جهدنا وامكاننا ، ومطالبون ايضاً بالإعتراف بالنعم الإلهية، ومطالبون كذلك بالامتناع عن المحرمات ، وأداء الواجبات ، فإن هذا يعتبر نوعاً من انواع الشكر ، نسأله تعالى ان يتقبل عملنا فإنه مجيب الدعاء.

ثم انه تجدر الإشارة هنا الى انه توجد عبارة في بعض المصادر بعد هاتين الفقرتين ، وهي عبارة (واعطني جزائي) ، وهي غير موجودة في أمهات المصادر التي ذكرت هذه الزيارة.

وعلى العموم فإني أشعر بالخوف والخشية والرعب من قراءة هذه الفقرة ، لأنني أخاف ان يحاسبني ربي بعدله ، وأخشى ان يجازيني بأعمالي ، فما أنا وما خطري وما قيمة اعمالي حتى اطلب الجزاء عليها ، وإنما أسأل الله عز وجل ان يمن علي بالرحمة والرأفة وأن يحاسبني برحمته ورأفته ، وأن ينظر الي بعين الحنان والمغفرة.

نعم يمكن ان يكون معنى (واعطني جزائي) أي اعطني يا رب ثوابي على هذه الزيارة وهذا الدعاء ..

أو لنقل بمعنى أصحّ : اعطني يا رب القبول والرضا منك ، جزاء زيارتي ودعائي ، ولا تجازِني بالرفض والهجران ، فلا طاقة لي بذلك ، ولا حول ولا قوة لي إلا بك يا أرحم الراحمين.

٤٥- واجمع بيني وبين أوليائي:

هذا دعاء عظيم ، وهو غاية كل مؤمن ملتفت ، فإن هذا الاجتماع لو تحقق ، فسيعني عدة امور ، نذكر منها:

أولها- ان الفرد عندئذٍ هو ممن استن بسنن أولياء الله، وفارق أخلاق أعدائهم ، وإلا لما اجتمع مع الاولياء.

ثانيها- ان الفرد عندئذٍ هو ممن أحبهم وأحبوه ، وتولاهم ورضوه وقبلوه ، وإلا لما اجتمع معهم.

ثالثها- ان الفرد عندئذٍ هو ممن قبله الله وسدده وطهّره ، وإلا لما جمعه الله تعالى بهؤلاء الأطهار.

رابعها- ان الفرد عندئذٍ هو من المؤهلين لدخول الجنة والفوز برضوان الله ، وإلا لما اجتمع مع هؤلاء الأولياء.

خامسها- ان الفرد عندئذٍ سيضمن الشفاعة والكرامة ، لأن أولياء الله لا ينسون أرحامهم واصحابهم الذين كانوا يجتمعون معهم تحت كساء الطاعة والعمل الصالح.

وهكذا فإن الاجتماع مع الأولياء والمعصومين (ع) انما هو طريق ووسيلة للقرب من الله تعالى ، والدخول في جناته ونعيمه ، مع انخفاظ المراتب بطبيعة الحال..

فإن اجتماع جماعة في مكان واحد أو زمان واحد أو تحت عنوان عام ، لا يعني انهم في مرتبة واحدة ، أو حال واحدة.. وهذا ينبغي ان يكون من الواضحات والمسلّمات.

فالعالم والمتعلم قد يجتمعان في مكان واحد ، وكلاهما ينطبق عليه عنوان (صاحب العلم) ، ولكن تبقى للعالم خصوصياته وميزاته.

وكلنا يعرف بنص القرآن ان الانبياء (ع) متفاوتون من حيث المنزلة والفضل ، رغم انهم يجتمعون تحت عنوان النبوة في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر.

ثم ان الاجتماع مع الولي قد يكون في الدنيا ، علاوة على الآخرة ، وهو يتصور على عدة أنحاء ..

منها مثلاً ان يجتمعا معاً في طريق السير الى الله تعالى ، أو يجتمعا معنوياً وقلبياً ، بأن يشتركا في علاقة المحبة والمودّة لله تعالى..

وقد يجتمعان فعلاً في عالم الدنيا بلقاء خاص ، إذا كان المكلف يستحق أو يناسبه أن يلتقي بوليه.

وفي الحقيقة فإن مفهوم الأولياء هنا ، وان كان المقصود به هو المعصومون (ع) ، إلا أنه يمكن التوسع فيه ليشمل سائر الأولياء والصالحين ، ممن لهم حق الطاعة والولاية على سائر العباد.

٤٦- بحق محمدٍ وعليٍّ وفاطمةَ والحسنِ والحسينِ:

لا يخفى ان لهذه الأسماء الشريفة منزلتها وتأثيرها ، وهناك روايات كثيرة اهمها حديث الكساء ، تصرّح بأهميتهم التكوينية ..

ولهم أسرار قد لا يفهمها البعض أو لا يتحملها ، رغم انها مذكورة في نصوص معتبرة ، مع انهم عبيد الله وعباده ، وهم خير من عَبَدَه ، وأشدّ خلقه طاعة له عزوجل.

وقد ورد في الحديث (عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون).

وكذلك ورد في عدة روايات ان جملة من الانبياء (ع) كآدم ونوح وابراهيم (عليهم السلام) ، توسلوا الى الله تعالى بحق هؤلاء الخمسة ، الذين هم أصحاب الكساء واهل البيت ، الذين اذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

ولا يخفى ان سائر الأئمة التسعة (ع) من ذرية الحسين (ع) لهم نفس المنزلة والمقام ، ولذلك ورد في بعض المصادر بعد هذه الفقرة عبارة (والتسعة المعصومين من ذرية الحسين (ع))..

نعم لهؤلاء الخمسة خصوصياتهم بالتأكيد ، فالحسن والحسين (ع) سيدا شباب أهل الجنة ..

وأبوهما خير منهما كما في الحديث ..

وفاطمة الزهراء (ع) ليس لها كفؤ إلا الامام علي (ع) كما ورد في الحديث ايضاً.

بل توجد رواية عن العسكري(ع)يقول فيها : (نحن حجة الله على الخلق ، وفاطمة حجة علينا)..

واما النبي محمد (ص) فهو سيد البشرية واعظم خلق الله عز وجل.

٤٧- انك ولي نعمائي ، ومنتهى مناي ، وغاية رجائي في منقلبي ومثواي:

اللهم انك ولي نعمتي ، وصاحب الفضل الاول والاخير في جميع ما أنا فيه من النعم والخيرات.

وانت يا رب غاية سؤلي ، ومنتهى منااي وأملي ، لا مأمول سواك ، ولا مرجوّ غيرك ، بيدك الأمر ، وانت على كل شيء قدير..

اليك تنتهي آمال العباد ، وبك تتحقق الأمنيات، فحقق رجائي وبلغني مناي ، يا عدتي في كربتي ، ويا وليي في نعمتي ، وغايتي في رغبتي ، يا خير من دعاه داعٍ ، وأفضل من رجاه راجٍ..

(يا غاية رجائي في منقلبي ومثواي).

المنقلَب (بالفتح) هو الرجوع والعودة من المحل الذي هو فيه ، وقد ورد في دعاء السفر (وأعوذ بك من كآبة المنقلب).

وربما يراد بالمنقلب هو التقلب من حال الى حال ، فيكون معنى الفقرة (وانت غاية رجائي في جميع أحوالي وتحركاتي).

واما المثوى فيراد منه في الغالب ، قرار العبد في يوم القيامة ، حيث يقول الله تعالى:

(فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ).

بل ورد ان المنقلب ايضاً بهذا المعنى ، حيث ورد في الدعاء (وأعوذ بك من خيبة المنقلب) أي من الخسران يوم القيامة.

وقد ورد في القرآن الكريم:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

وكذلك ورد : (لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ).

ولا ريب انه في ذلك الموقف ، لا يوجد رجاء ولا أمل ، الا بالله تعالى لأنه مالك يوم الدين والحساب.

وقيل ان المنقلب والمثوى هنا - أي في هذه الفقرة من الدعاء - بمعنى الحركة والسكون ، ومنه قوله تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) .

فيكون المعنى ان العبد في جميع تحركاته وسكناته ، لا أمل له ولا رجاء الا بالله تعالى ، او أن الله تعالى هو منتهى امله ، وغاية رجائه ، في جميع هذه الأحوال.

خاتـمة

في آداب الزيارة وشروطها

توجد شروط كثيرة لقبول الزيارة واهمها ما يلي:

١- ان يكـون الفـرد متوجهـا الى الزيـارة بـداعي الاخـلاص لله عـز وجـل ، والتقرب اليه ، لا أن يكون هدفه الرياء او التفاخر او نحو ذلك.

٢- ان يكون الفرد ملتفتاً أثناء الزيارة الى مضامين هذه العبارات التي يقرأها ، وأن يتدبر في معاني الكلمات التي يخاطب بها المعصوم (ع) او يتلوها في حضرته.

٣- ان لا يخالط عمله هذا بما يفسده ويحرقه ، فإن الحسنات تحرقها السيئات المقارِنة للعمل..

وقد ورد في الحديث عن الصادق (ع) في آداب الزيارة (يلزمك حسن الصحبة لمن صحبك ، ويلزمك قلة الكلام إلا بخير ، ويلزمك كثرة ذكر الله ، ويلزمك نظافة الثياب ، ويلزمك الغُسُل قبل ان تأتي الحائر ، ويلزمك الخشوع وكثرة الصلاة ، والصلاة على محمد وآل محمد ، ويلزمك ان تغضَّ بصرك ، ويلزمك ان تعود على اهل الحاجة من اخوانك إذا رأيت منقطعاً ، ويلزمك المساواة ، ويلزمك التقية التي هي قوام دينك بها ، والورع عما نُهيت عنه).

ثم انه يحسن مراجعة كتاب مفاتيح الجنان للشيخ الجليل عباس القمي (قدس) للاطلاع على آداب الزيارة التي ذكرها في الفصل الاول من ابواب الزيارات ، وكذلك يحسن مراجعة آخر الجزء العاشر من كتاب الوسائل للحر العاملي ، وهو يتعلق بآداب المزار عموماً ، مع ذكر بعض ما يتعلق بالزيارات والمشاهد المقدسة.

والحمد لله أولاً وآخراً..........

النجف الأشرف- حيدر اليعقوبي

٢٧ – محرم - ١٤٢٨ هـ

المحتويات